مناهج وطرق البحث الاجتماعي

الأستاذ الدكتور
عبد الله محمد عبد الرحمن
أستاذ ورئيس قسم الإجتماع
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دكتور
محمد على البدوى
مدرس علم الإجتماع
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



مناهج وطرق البحث الاجتماعى

الأستاذ الدكتور

عبد الله محمد عبد الرحمن

أستاذ ورئيس قسم الاجتماع

كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

دكتور

محمد على البدوى

مدرس علم الاجتماع

كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

٢٠٠٧



٠٤٥/٢٣٥١٨٦٥

مقدمة الطبعة الثانية

شهدت العقود الأخيرة من القرن الماضى وبدايات الألفية الثالثة اهتمامات ملحوظة بعمليات البحث الاجتماعى وقضاياه النظرية والمنهجية، وذلك من جانب المتخصصين فى العلوم الطبيعية والاجتماعية عامة وعلم الاجتماعية على وجه الخصوص، وهذا ما يفسر عموماً التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السريعة التى تلقى بظلالها على مجتمعات وشعوب العالم الحديث. وبما يبدى هذه التطورات وأثارها المتعددة سواء على الفرد أو الأسرة أو المجتمع المحلى أو العالمى. كما أصبح الاهتمام بالبحث الاجتماعى ومشكلاته النظرية والمنهجية يوضح اهتمام مشترك من جانب المتخصصين فى العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية على حد سواء، ولاسيما بعد ظهور العديد من المشكلات والظواهر المجتمعية التى لا يمكن تفسيرها إلا من خلال دراسة الواقع الاجتماعى المتغير بصورة سريعة ومضطردة. وهذا ما يؤكد عليه علماء المناهج والبحث الاجتماعى الذين يصرون على ضرورة الاهتمام بالدراسات الواقعية الميدانية التى تفسر مدى تعقد الظواهر الاجتماعية والعوامل التى تتداخل مع تشكيلها أو تكوينها أو ما يعرف عموماً بدراسة العوامل السببية المتداخلة فى ظهور المشاكل والظواهر الاجتماعية.

ومن هذا المنطلق، أصبح الاهتمام ملحوظاً بعلم الاجتماع وفروعه المتخصصة ولاسيما تلك الفروع التى تعالج القضايا البحثية والمنهجية بصورة واقعية وموضوعية وعلمية. وبالطبع أن هذا الاهتمام يعزز الدراسات الميدانية التى تفسر الواقع المجتمعى الذى يزداد تعقيداً بمرور الوقت، كما يطرح ذلك الاهتمام طبيعة معالجة النتائج التى تتوصل إليها هذه الدراسات والبحوث الميدانية وذلك فى إطار من الأطر النظرية والعلمية التى توجه هذه الدراسات. وهذا ما يجعل المتخصصون فى علم الاجتماع ولاسيما فى المناهج وطرق البحث الاجتماعى يعتمدون على مبدأ المرونة المنهجية واستخدام العديد من الطرق والأدوات البحثية التى تعالج

بصورة علمية محددة، كما يـؤدى ذلـك بـالطبع للاهتمـام بالدراسـات الاستطلاعية و التى تتعرف على هذا الواقع من ناحية، والاهتمام أيضاً بدا يعرف بالدراسات المستقبلية التنبؤية التى تعـزز مـن أهميـة البحـوث الاجتماعية والمشتغلين فى مجالاته المختلفة من ناحية أخرى.

المؤلفان

الإسكندرية ٢٠٠٧

مقدمة الطبعة الأولى

مع بداية الألفية الثالثة تزداد أهمية البحوث الاجتماعية وخاصة بعد أن تنوعت المشكلات والقضايا والظواهر المعقدة، التى توجد فى مجتمعنا المعاصر. ولقد تركت أعوام القرن الماضى الكثير من هذه المشكلات بدون تقديم إجابات واضحة حول النتائج والآثار الناجمة عن تفاقم الظواهر الاجتماعية السلبية، على كل من الفرد والأسرة والمجتمع المحلى والقومى والعالمى فى نفس الوقت. فلم تصبح مشكلات المجتمع الحديث قاصرة على مجتمعات محلية معينة، بقدر ما تفشت نتائج هذه المشكلات وهددت الكثير من الروابط والعلاقات الاجتماعية والثقافية، التى كانت تنظم طبيعة الحياة اليومية داخل الأسرة أو بين أعضاء أفراد وجماعات المجتمع الواحد. وهذا ما جعل الكثير من العلماء والباحثين ورجال السياسة وصناع القرار وأيضاً الإنسان العادى ينادى بضرورة تطوير مؤسسات البحث العلمى الاجتماعى، سواء من الجامعات أو المعاهد العليا أو مراكز البحوث الاجتماعية المتخصصة، وذلك من اجل دراسة النتائج والاثار السلبية للمشكلة الاجتماعية التى تفاقمت بصورة مضطردة كما ظهر ذلك واضحاً خلال السنوات الأخيرة.

وهذا بالفعل، ما أهتم به علماء الاجتماع كغيرهم من علماء العلوم الاجتماعية، الذين بدؤا فى توجية نظرياتهم ومناهج وطرق بحوثهم، نحو دراسة أسباب تفاقم المشكلات والظواهر الاجتماعية، وتعدد خطورتها على مستقبل الحياة الاجتماعية اليومية، وأيضاً على طبيعة البناءات الاجتماعية ونظمها الأخلاقية الثقافية والدينية. فلقد ركز علماء الاجتماع بصورة خاصة على تطوير أساليب البحث العلمى وتحديثها لدراسة وتحليل الظواهر الاجتماعية التى تمتاز بخصائص التعقيد والتداخل فيما بينها، وتنوع أسباب حدوثها وتكرارها، وأيضا نتائجها وآثارها بصورة عامة. وجاءت محاولات التطوير لمناهج البحث العلمى الاجتماعى وطرقه وأدواته المختلفة، فى اطار عمليات التحديث المنهجى والنظرى فى نفس الوقت، والتوجه بصورة أكبر نحو دراسة المشكلات الواقعية واستخدام العديد من المناهج وطرق الدراسة والتحليل الكمى والكيفى، وذلك من اجل التعرف على أسباب تفاقم المشكلات

الاجتماعية، ومحاولة تقديم تفسيرات علمية وواقعية لحدوثها وكيفيه التصدى لها، وتقديم الحلول المناسبة والموضوعية.

وحقيقة، لقد جاء اهتمامنا الحالى بتأليف هذا الكتاب الذى يدور حول مناهج وأساليب البحث الاجتماعي، كمحاولة علمية لتعزيز الدور العلمى والبحثى والتنظيرى فى نفس الوقت، للعديد من المتخصصين فى مجال علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية بصورة عامة، والى طلاب قسم الاجتماع وغيرهم من طلاب البحث العلمى في العديد من التخصصات المختلفة لفروع العلوم الاجتماعية بصورة خاصة. ولاسيما، أن مشكلات البحث العلمى الاجتماعى في عالمنا العربى، لا تزال تحاط بنوع من الغموض، ولاسيما للطلاب والباحثين المبتدئين فى مجال البحث الاجتماعى. نظراً لما تشتمل عليه من تحليلات منهجية ونظرية، نقلت بصورة غير فاحصة أو متعمقة، لإمكانات هؤلاء الباحثين والدارسين، أو ما يتلاءم عموماً مع نوعية المشكلات الاجتماعية التى تعيشها خصوصيات المجتمع العربى خاصة، ونوعية البناءات والنظم الاجتماعية التى توجد فى الدول النامية بصورة عامة. وهذا ما يتبلور بالفعل فى أذهان الكثير من علماء الاجتماع أو الباحثين الذين يتطلعون إلى ظهور فئة من الباحثين المتخصصين والمدربين والمؤهلين أيضا على أسس علمية متعمقة، لتقوم بمهامها الوظيفية والمهنية، ومعرفة متطلبات وقواعد ومبادئ البحث العلمي الاجتماعى، وما ينبغى أن يكون عليه هذا البحث وأهدافه تجاه مجتمعنا الذى نعيش فيه حالياً.

على أية حال، لقد حرصنا خلال هذا الكتاب أن نطرح نتائج خبراتنا فى مجال البحث الاجتماعى الذى يمتد إلى أكثر من ربع قرن من الزمان وأن نقدم للقارئ والطالب والباحث العربى، ثمرة هذه الخبرة الواقعية، فى اطار طرح عدد من القضايا والموضوعات المنهجية والبحثية المتخصصة، وتقديمها بصورة مبسطة بعيدا عن التعقيد أو التجريد النظرى الخالص، الذى يعطى انطباعاً عكسياً لطلاب البحث الاجتماعى، ويزيد من هالة غموض البحث العلمى وهموم دراسة الواقع المتغير. وهذا بالفعل ما تبلور فى معالجة القضايا المنهجية التى يقوم عليها أدبيات وأسس البحث العلمى الاجتماعى، ومحاولة الكشف بين عناصر هذا البحث وغيره من البحوث العلمية الأخرى التى تطبق فى مجال العلوم الطبيعية. وأيضا، معرفة كيفية الاستفادة من تحديث أساليب

وطرق البحث الاجتماعى، فى ضوء المتغيرات التكنولوجية والفنية والاجرائية الحديثة، التى تم تطبيقها فى مجالات البحث الاجتماعى، وتعزز عموماً من عمليات دراسة قضايا ومشكلات مجتمعاتنا النامية والعربية على وجه الخصوص.

وفى النهاية نتمنى أن نكون قد حققنا هدفنا الأساسى من هذا العمل، والذى يتبلور فى تبسيط أهم أسس وقواعد البحث الاجتماعى، والتى يجب أن يهتم بها طلابنا وأبناؤنا الذين نتطلع فيهم مستقبلاً بأن يقوموا بدورهم المهنى والوظيفى والاجتماعى بصورة تحقق تطلعاتهم وأمانيهم أيضاً، نحو مستقبل مجتمعاتهم وخدمة الانسانية عامة. وهذا ما يعكس عموماً أهم أهداف علم الاجتماع ورسالة العمل والخدمة والرعاية الاجتماعية، وتحقيق الرفاهية وتقديم المشورة والعون والمساعدة إلى كل من يحتاجها بصورة علمية ومشرفة. كما نرجو أن تكون مساهمتنا العلمية المتواضعة نواة لتطوير وتحديث مناهج وطرق وأساليب البحث العلمى الاجتماعى، وخاصة فى المرحلة المستقبلية. ولقد قام الأستاذ الدكتور/عبدالله محمد عبدالرحمن بتأليف الفصول من الأول حتى الخامس، والدكتور/ محمد على البدوى بتأليف الفصول من السادس حتى الثانى عشر، آملين من الله سبحانه وتعالى بأن نكون قد حققنا هدفنا المنشود، والتطلع دائماً للمزيد من تطوير البحث العلمى الاجتماعى، والله الموفق دائماً لعبادة المصلحين.

المؤلفان

د/ محمد على البدوى

د/ عبد الله محمد عبد الرحمن

الفصل الأول

البحث الاجتماعى : المفاهيم التصورية والقضايا النظرية

تمهيد:

١- المعــــرفة العــــــــلمية.

٢- مفهـــــوم العلــم ووظائفه.

٣- قضــــــايا البحــث العلمى.

٤- القوانين والنظريات العلمية.

٥- البحوث والنظريات العلمية.

٦- أخلاقيات البحث الاجتماعى.

تمهيد:

ما من شك أن لغة العلم فى العصر الحديث أصبحت السمة المسيطرة على نوعية الحياة التى نعيشها بالفعل فى مجتمعاتنا المعاصرة، وسعى علماء العلوم الطبيعية مثل الفلك والطب والكيمياء والأحياء والهندسة وغيرها لتطور علومهم لكى تحدث المزيد من التغيرات فى نواح الحياة العصرية الحديثة. وهذا بالفعل ما جعل أيضاً علماء العلوم الاجتماعية يركزون بدورهم على ضرورة تطوير علومهم من حيث المنهج والنظرية، لكى تتواكب مع التغيرات الناجمة عن تغير المجتمع الحديث بصورة عامة.

ومن ثم يمكن القول، بأن هدف العلوم الطبيعية والاجتماعية تتبلور جميعها حول كيفية تطور ذاتها بصورة تجعلها تتلائم مع الحياة العصرية الحديثة والمتغيرة، وتسعى أيضاً من أجل تطور هذه الحياة بصورة مستمرة، وتحقيق الرفاهية البشرية وسيطرة الإنسان على بيئته الطبيعية الاجتماعية التى يعيش فيها بالفعل.

ولكن عمليات تحديث العلوم سواء أكانت طبيعة أم اجتماعية، لايمكن ان تحدث بصورة تلقائية أو عفوية أنما تركز على كل من النظريات والمناهج وأساليب الدراسة والتحليل وجمع البيانات، وما إلى ذلك من تقنيات العلم الحديث. وما يتطلب مثل ذلك من بلورة عدد من المفاهيم والقضايا التصورية والنظرية، التى تنعكس عموما ما يمكن تسميتة بلغة ومفاهيم العلم أو البحث العلمى الحديث سواء أكان ذلك فى العلوم الطبيعية والاجتماعية. وهكذا يمكن أن نقول، بأن توضيح المفاهيم والتصورات والقضايا، لأى علم من العلوم الحديثة من شأنه أن يعزز طبيعة هذه العلوم، ويهدف لتوضيح معانيها ومفهوماتها بشكل عام، حتى يتمكن الباحثين أو المتخصصين، وأيضا الانسان البسيط ان يتعرف على لغة العلم وكيفية تداولها وتطورها ككل.

وإنطلاقا من أهدافنا فى هذا الكتاب، الذى يتركز حول دراسة طرق البحث العلمة الاجتماعى ومناهجه وأدوات جمع بياناته وتحليلها، ونعطى فكرة مبسطة للباحث أو المتخصص فى علم الاجتماع خاصة والعلوم الانسانية والطبيعية عامة، طبيعة أهم المفاهيم والقضايا النظرية والتصورية، التى يهتم

بها علم الاجتماع وعلمائه، والتى اصبحت قضية علميه مشترك في مجال البحث العلمى الاجتماعى ككل. وهذا ما ظهر خلال العقود الأخيرة من القرون الماضى (العشرين) والبدايات الأولى للقرن الحالى، والتى تعكس عموما أهمية الدور الإيجابى الذى يقوم به علم الاجتماع فى دراسة مشكلات المجتمع الحديث والتى تزداد بصورة تراكمية ملحوظة. ومن هذا المنطلق، سنركز خلال هذا الفصل لشرح عدد من المفاهيم والقضايا النظرية مثل، المعرفة العلمية وطبيعتها ونوعيتها المختلفة وطرح بعض التساؤلات للإجابة عليها مثل: ما هو المقصود بمفهوم العلم ووظائفه وخصائصه والسمات العامة التى يصطبغ بها، وماهى قضايا البحث العلمى عامة والاجتماعى خاصة ؟، ثم تحليل ماهية وطبيعة القوانين والنظريات العلمية، وما المقصود بها عند التوصل إليها من خلال الدراسات النظرية والامبريقية (الميدانية) ؟ هذا بالإضافة إلى تناول عدد من القضايا والمفاهيم التى ترتبط بالبحوث الاجتماعية خاصة، وكيفية أدائها سواء على المستوى النظرى أو الواقعى ككل، وما هى أخلاقيات البحث الاجتماعى والشروط التى ينبغى أن تقوم عليها والأهداف التى توجه هذه البحوث فى المجتمعات الحديثة ؟.

١- المعرفة العلمية.

يزداد الغموض والخلط لدى طلاب البحث الاجتماعى والمتخصصين فى مجال البحث عامة، حول تحديد المفاهيم المختلفة التى تتداخل مع بعضها، ولاسيما فى مجال الدراسات الاجتماعية. وهذا ما ينطبق على سبيل المثال، عندما نلاحظ التداخل الشديد فى المفاهيم لدى طلاب وباحثى العلوم الاجتماعية مثل، تخيليهم للمعرفة العلمية من ناحية والعلم من ناحية أخرى. ولهذا نسعى حاليا لتوضيح ذلك بصورة موجزة، ثم الإشارة إلى أهم تصنيفات أو تقسيمات المعرفة العلمية، حتى يستطيع القارئ أو الدارس المبتدئ للبحوث الاجتماعية، أن يتعرف بوضوح على طبيعة التمايز والاختلاف وأيضا التشابه بين هذه المفاهيم وبقية الفصل فيما بينها و تحديدها وتميزها بصورة علمية.

تتحدد المعرفة على أنها " مجموعة من المعانى والمفاهيم والمعتقدات والأحكام والتصورات الفكرية التى تتكون لدى الإنسان نتيجة لمحاولاته المتكررة، لفهم الظواهر والأشياء المحيطة به " (١). ويتضح من هذا المعنى، أن المعرفة لا تقتصر على شكل معين من أشكال المعرفة المختلفة، التى تحيط بالإنسان ولكنها تشمل جميع جوانب الحقائق التى تحيط به فى بيئته الخارجية سواء أكانت إجتماعية أوفكرية أو طبيعية. فعندما ندرس طبيعة المعرفة العلمية التى كان يركزعليها المصريون القدماء وأفكارهم والتى أسست أفضل الحضارات البشرية، نجد أن معظم تفكيرهم كان موجهاً بفضل المعتقدات الدينية. وهذا ما جعل نظمهم الدينية والسياسية والاقتصادية، كلها مرتبطة بمجموعة المعارف والمعتقدات الاهوتيه(الدينية) التى كانت تقوم على حياة البعث أو الخلود بعد الممات.

أما حياة الشعوب القديمة الأخرى مثل اليونانيين على سبيل المثال، أو بالأحرى حضارة الإغريق، فكانت تقوم على نسق المعرفة العلمية، التى تعتمد على العقل أكثر من الدين. وهذا ماجعل من نظمهم السياسية الاقتصادية والثقافية والعسكرية عامة، تعتمد على أساليب التفكير العقلى أو البشرى، وبعيدا بصورة نسبية عن المعتقدات الدينية التى كانت موجودة لدى المصريين فى العصور القديمة. وهذا ما ينطبق أيضاً، عندما نحلل أنساق المعرفة العلمية سواء فى الحضارات الشرقية القديمة أو خلال العصور الوسطى الاسلامية والمسيحية؛ فسوف نجد الكثير من المفارقات والاختلافات والتمايز والتشابه بين أنساق المعرفة العلمية وموجهاتها بصورة عامة. وهذا ما يجعلنا نبحث بصورة مستفيضة بين جوانب المعرفة العلمية من حيث مصدرها وأصولها وتطورها عبر العصور التاريخية، وخلال مراحل تطور المجتمعات والعقل البشرى عامة.

---

(١) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٧١، صـ١٨.

ومن هذا المنطلق، نستطيع القول بأن مفهوم المعرفة العلمية، لايمكن أن يكون مرادفا لمفهوم العلم ذاته، خاصة وأن المعرفة، كمصطلح أو لفظ ذو معنى، يعتبر أوسع وأشمل بكثير من مفهوم العلم.. خاصة، وأن المعرفة العلمية، تتضمن مجموعة من المعارف العلمية وغير العلمية. وهذا ما ظهر خلال طرحنا للمثال السابق عن نسق المعرفة لدى قدماء المصريين أو الإغريق، حيث شملت المعرفة مجموعة المعارف الروحية والوثنية العقائدية والاقتصادية والسياسية والثقافية والعلمية فى نفس الوقت. ولهذا السبب يسعى الباحث أو المفكر الاجتماعى، لأن يتحرى الوقت فى التمييز بين مفردات ومفاهيم البحث الاجتماعى العلمى التى يستخدمها. وبالطبع، يكون استخدام المنهج أو قواعد المنهج العلمى والتفكير السليم، هو الأساس الذى يعتمد عليه فى تتبع أصول وتطور المعرفة العلمية وغير العلمية.

وتعكس تحليلات علماء المناهج والبحث الاجتماعى الكلاسيكية من أمثال " جود وهات " Goode & Hatt و " أوجست كونت " A .Comte وغيرهم آخرين، الذين يحددون الفرق الواضح بين المعرفة والعلم، وذلك عندما يشيرون إلى أن العلم ما هو إلا " المعرفة المنسقة " . أو كما يطرح مفهوم العلم، عملية منهجية لربط المعارف وتحديد مدى نطاقها.

كما يركز العلم على دراسة الموضوع أو القضية المشتركة بين أفراد المجتمع. كما أن العلم يبحث عن الحقيقة، ويستخدم المنهج العلمى للتوصل إليها بصورة عامة. ومن هذا المنطلق، يمكن أن نقول بأن المعرفة العلمية ما هى إلا حصيلة الحقائق والأفكار والمعتقدات والمعانى والرموز التى تتكون لدى الفرد وتزحم واقع البيئة الطبيعية والثقافية التى تحيط به ككل. أما العلم، ماهو إلا منهج للتفكير والتحليل والدراسة، بالإضافة إلى محتوى ومادة البحث، التى تقدم إلى الإنسان فى صورة منسقة تعتمد على قواعد معينة تعرف بقواعد المنهج العلمى.

من ناحية أخرى، نجد أن بعض التحليلات المميزة لعلماء المناهج والبحث العلمى الاجتماعى، تتطرق بصورة أكثر لتميز العلم عن المعرفة بمفهومها العام. حيث يعكس مفهوم العلم، بأنها ذلك النوع من المعرفة، التى يمكن تحقيقها بصورة فعلية. وبالطبع، أن وسيلة التحقيق لا يمكن أن تتم إلا

- عن طريق استخدام المنهج العلمي. وبهذا التحديد، يمكن أن نلاحظ أن العلـم، ما هو إلا نوع من المعرفة العلمية، التى يطلق عليها صيغة العلمية أو التـى اصطبغت بلغة العلم ومناهجه وأساليب تحليله والتأكد من واقعيته وشـروطه وإمكاناته. أما المعرفة بمفهومها العام، فتشمل كل من جوانب المعرفة العلمية، والتى ترادف مفهوم العلم، وأيضاً غير العلمية، والتى لايمكن أن تكـون قـد تحققت بعد بواسطة الإنسان، ومن الصعوبة أن نطلق عليها بالمعرفة العلميـة، لأنهاغير حقيقية، أو لا تعبر عن الحقيقة الواقعة، ولم تسـتخدم الأسـلوب أو المنهج العلمي فى تحديدها.ولكن بالطبع، تعتبر المعرفة العلمية، مثل الخيـال الإنساني، والأساطير، والنسق الفكرى والمعتقدات البشرية بصورة عامة، جزء من مكون المعرفة الانسانية، وهي حصيلة الانتاج الثقافى، حسب تحديد مفهوم الثقافة ومفهومها العام.

وبعد الإشارة إلى هذه التفرقة بين العلم، والمعرفـة العلميـة وغـير العلمية، يجب أن نوضح حالياً طبيعة المعرفة العلمية أو العلم ما يتصف به من خصائص وهي:

أولاً: تقوم المعرفة العلمية بتصوير الواقع بصورة موضوعية.

ثانياً: تهدف المعرفة العلمية إلى التحكم والسيطرة فى هذا الواقع بقدر الإمكان.

ثالثاً: يستخدم العلم المنهج أو الطريقة أو الأسلوب العلمي فى دراسة الواقـع وكيفية السيطرة عليه.

على أية حال، سنشير فيما يلى لأهم أنواع المعرفة العلمية التى أتفـق حولها علماء العلوم الإنسانية، إلا أننا لابد وأن نوضح حقيقة هامة مؤداها : أن هذا التصنيف أو التقسيم لأنماط المعرفة لا يعتبر تقسيماً قاطعـاً بيـن أنـواع المعرفة، بقدر ما يساعد هذا التقسيم للتعرف بصورة كبـيرة علـى التبـاين والإختلاف وأيضاً التداخل بين أنواع المعرفة، ولا سيما أنها تعتبر من حصيلة العقل البشرى بصورة عامة.

- النوع الأول : **المعرفة العلمية Scientific Knowledge**

ويشير هذا النوع من المعرفة إلى الخبرة العلمية التـى اسـتفاد بـها الإنسان من خلال محاولته الدائمة للسيطرة على البيئة الطبيعية الخارجية التـى تحيط به. وتشمل جوانب هذا النـوع مـن المعرفـة، الجوانـب الفيزيقيـة،

والبيولوجية والاجتماعية، والتى يسعى الإنسان دائماً لإخضاعها قيد البحث والتجربة أو التعرف عليها بوسائل أكثر دقة. وبالطبع، تتميز هذه المعرفة بسهولة التعرف عليها من خلال الأساليب والمقاييس الدقيقة، كما يمكن التنبؤ بالكثير من جوانبها ومظاهرها. ويندرج تحت هذا النوع من المعرفة محاولة الإنسان الحديث فى السيطرة على البيئة الخارجية وعالم الفضاء والكون الخارجى، مثل سعى الإنسان إلى اكتشاف كوكب الأرض والكواكب والأجرام السماوية الأخرى.

وكما يرى عدد من علماء الاجتماع ومناهج البحث العلمى، أن للمعرفة العلمية خصائص ومميزات تميزها عن غيرها من أنماط المعرفة الأخرى. وتتبلور أهم هذه المميزات والأساليب العلمية، التى تعتمد على الملاحظة المنظمة للظواهر، ونوعية الفروض التى يتم إقتراحها بواسطة العلماء وقبل دراسة هذه الظواهر، وأيضاً أجراء التجارب المختلفة، والتركيز على جمع البيانات والمعلومات المرتبطة بالظواهر البيئية والطبيعية والاجتماعية الخارجية، ومحاولة التحقق من الفروض وصحتها سواء بالإيجاب أو السلب. فى نفس الوقت، يتميز هذا النوع من المعرفة (العلمية)، بأنها تسعى للتوصل إلى عدد من القوانين العلمية التى يمكن أن تتبلور بعد ذلك، فى مجموعة من النظريات العامة، كما يمكن التحقق من هذه الظواهر عن طريق التنبؤ بها مستقبلاً، أو إخضاع عدد منها وجعلها قيد البحث والتجريب العملى (المعملى).

وبالإضافة على مجموعة المميزات والخصائص السابقة للمعرفة العلمية، ألا إننا نلاحظ أيضاً وجود مجموعة من المميزات التى تنفرد بها عن الأنماط الأخرى من المعرفة وهى:

١- تتميز المعرفة العلمية بأنها تعتمد على الأساليب والاجراءات الموضوعية المنظمة، والتى لايمكن قبولها إلا بعد الاختبار الدقيق والتحقق منها.

٢- تساعد الحقائق العلمية التى تندرج تحت المعرفة على الإندماج فى مجموعة الحقائق الأخرى، فيساعد ذلك على تفسير جميع مكونات المعرفة العلمية والتحقق منها، وهذا بخلاف أنماط المعارف الأخرى.

٣- تعتمد المعرفة العلمية على التجربة، كأساس موضوعى لحسم الخلافات والتشكيك فى الظواهر والقضايا المختلفة.

٤- بالإضافة إلى المميزات السابقة، تتميز المعرفة العلمية بصعوبة التداخل أو الإندماج فيها أو التأثير عليها بواسطة الباحث أو توجيهها حسب معتقداته وآرائه الخاصة والعامة، وهذا ما يجعل القوانين والنظريات التى تتوصل إليها المعرفة العلمية مختلفة عن غيرها من أشكال أو أنواع المعرف الأخرى.

٥- تستخدم المعرفة العلمية، منهج مميز أو ما يسمى بمنهج الإستقراء العلمى، الذى يهدف إلى التوصل للقوانين والنظريات التى تسهم فى تفسير الظواهر الكونية والطبيعية سواء أكانت ظواهر متفوته فردية وجمعية ، ويهدف عموماً هذا النوع من المنهج الأستقرائى العلمى، إلى إصدار التعميمات والكشف عن الحقائق والتنبؤ بحدوث الظواهر وتفسيرها.

- النوع الثانى : المعرفة الميتافيزيقة (الفلسفية) Metaphesics Knowledge.

ويشير هذا النوع من المعرفة إلى المعرفة التى تعكس مرحلة من مراحل التفكير البشرى أو تطور المجتمعات الإنسانية، كما حدد ذلك عالم الاجتماع الفرنسى " أوجست كونت A. Conte "، عندما حاول أن يفسر لنا قانونه المعروف قانون المراحل الثلاث، والذى ركز فيه على أن العقل البشرى يتطور بصورة تدريجية، وذلك عن طريق ما يحصل عليه من المعارف الخارجية أو الداخلية. وهذا ما يعكس عموماً تطور المجتمعات من المراحل القديمة، حيث كانت توجد أنماط المعرفة الدينية أواللاهوتية، ثم تطور العقل البشرى عن طريق تطور المعرفة الميتافيزيقية التى تعد أنعكاساً حقيقياً لنمو هذا العقل وحصيلة المعارف التى يتوصل إليها، وتمثل ذلك فى بحثه وإستخدامه العقل لدراسة الأشياء والحقائق التى توجد فيما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا). ثم بالطبع جاءت المرحلة الأخيرة، من تطور العقل والمجتمع الأنسانى، وتمثل ذلك فى مرحلة المعرفة العلمية أو المرحلة الواقعية.

ومن ثم، نجد أن المعرفة العلمية الميتافيزيقية تستند إلى الفلسفة ومناهجها المختلفة حيث لايقتصر التفكير الفلسفى فيماهو موجود بالفعل، بقدر ما تسعى أيضاً لمعرفة الحقائق أو المعارف التى توجد خارج حدود العالم الطبيعى الذى نعيش فيه، أو ما يسمى بالعالم الميتافيزيقى والذى يشمل على سبيل المثال قضايا ميتافيزيقية مثل الوجود، وصفات الوجود، ومعرفة الخالق (الله) وإثبات وجوده وغير ذلك من قضايا أخرى كونية وطبيعية متعددة. ومن ثم، نجد أن المعرفة الفلسفية يتعذر فيها الرجوع دائماً إلى الحقائق الواقعية الملموسة، بقدر ما تذهب للبحث فى القضايا المجردة. كما تميل معظم تحليلات الفلاسفة، أو من يهتمون بدراسات قضايا المعرفة الفلسفية الميتافيزيقية للتقيد بأرائهم أو آراء من يقتنعون بهم دون إستخدام التجربة، أو الملاحظة فى إثبات ذلك، لأن القضايا التى يبحثون فيها يتعذر دراستها عن طريق التجربة والبحث الواقعى.

فى نفس الوقت، تتميز المعرفة الفلسفية الميتافيزيقية، بإنها لاتعتمد على دراسة الجزئيات أو الحقائق البسيطة، وإنما تركز على دراسة الكليات وتفسير الأشياء عن طريق معرفة العقل والأساليب والمبادئ الأولى التى تقوم عليها بصورة شاملة. كما يتميز هذا النوع من المعرفة الإنسانية، بأنها تستخدم منهج فلسفى، يختلف بالطبع حسب نوعية الفلسفة. وطبيعة المرحلة التاريخية التى نشئوا فيها. فلقد أستخدم الفلاسفة الإغريق المنهج الفلسفى التأملى، الذى إصطبغ بالطابع العقلى، وهذا ما جاء فى إستخدام منهج القياس المنطقى عند أرسطو، والذى ظل المنهج الفلسفى أو فهم التفكير الفلسفى لأكثر من عشرين قرناً من الزمان دون تقيد أو تبديل ويطلق عليه بالقياس الصورى.

وبالطبع، يقوم هذا المنهج الفلسفى على إستخلاص النتائج من المعلومات، دون التركيز فى أسباب حدوثها أو تصورها. فالقياس الصورى (كمنهج فلسفى) لايؤهل العقل البشرى إلى معرفة جديدة، بقدر ما يعتبر تحصيل حاصل، ويعتمد على الشكل أو الصورة التى يتوصل إليها الفليسوف من خلال عرض مقدماته، دون معرفة الجوهر أو مكونات المادة العلمية أو الحقيقية التى يقوم بدراستها وتحليلها. وإن كان ذلك لا ينفى أيضاً إن الإعتمادعلى القياس الصورى كمنهج للمعرفة الفلسفية والميتافيزيقية، يساعد

على تنمية القدرة العقلية في الجدل أو النقاش، وربط الأفكار بصورة منطقية وشكلية صورية كبيرة، ولكن لايمكن أن يتوصل الى الأسباب والعلل والنتائج الواقعية، ولايقدر على إثبات المبادئ والاسس العلمية التى تقوم عليها الظواهر والحقائق، بقدر ما يهتم فقط بدراسة المقدمات والنتائج التى يتوصل إليها من خلال دراستها بصورة صورية. وهذا ما جعل فلاسفة الغرب المحدثين من أمثال " ديكارت " ، أن ينتقد هذه المنهج، ووصفه بأنه منهج عقيم، لا يهدف إلى تقديم معرفة علمية جديدة، ولا يستطيع أن يتعرف على الحقائق المجهولة فى العالم الواقعي.

- النوع الثالث : المعرفة الحسية (التجريبية) Eperimental Knowledge.

يقصد بهذا النوع من المعرفة التي يتم التوصل إليها الإنسان عن طريق مدركاته الحسية، ويتعرف عليها عن طريق الملاحظة البسيطة التي يمكن معرفتها عن طريق الحواس، دون بذل أى مجهود يذكر لمعرفة كيفية وأساليب حدوثها والعلاقات القائمة بينها.ولهذا سميت المعرفة الحسية، والتى لم تصل إلى مرحلة المعرفة العلمية الحقيقية التي بنيت على أسس وقواعد معرفية ومنهجية محددة. وبالطبع، أن حياة الأفراد والمجتمعات البشرية لجأت إلى هذا النوع من المعرفة عن طريق إكتساب الخبرات وتحديد المواقف ومعرفة المعاني المختلفة للأشياء والظواهر الخارجية.

ويمكن طرح عدد من الأمثلة التي توضح هذا النوع من المعرفة، عندما يتصور الإنسان العادى البسيط طبيعة ما يلاحظه في العالم أو الكون الخارجي مثل تعاقب كل من الليل والنهار وإختلاف كل منهما من حيث الطول أو القصر، ودرجة الحرارة والبرودة، وطبيعة التعاقب المستمر بينهما، وما إلى ذلك من ملاحظات بسيطة يمكن إدراكها بصورة تلقائية وعفوية. ولكن في نفس الوقت، لايسعى الإنسان العادى البسيط بأن يتعرف على طبيعة اختلاف الليل والنهار وعلاقتها بعملية دوران كل من الأرض والشمس أو ما يعرف بتجربة الكون الخرجى، أو معرفة طبيعة الإختلاف من الليل والنهار، وتعاقب فصول السنة الأربعة، وما إلى ذلك من حقائق علمية متعددة يتعذر على الإنسان العادى البسيط تفسيرها بسهولة.

ولكن بالطبع، قد تتحول المعرفة الحسية (التجريبية) إلى أنواع أكثر واعمق من المعرفة مثل المعرفة العلمية، هذا إذا سعى الإنسان البسيط، لأن يطور من قدراته العقلية وأساليب تفكيره وتبنيه أنواع معينة من المناهج وطرق البحث والدراسة والتحليل، التى عن طريقها يمكن أن يميز طبيعة أكتشافه للحقائق عن طريق الخبرة، والادراك والملاحظة البسيطة إلى معرفة العلل والأسباب والعلاقات، والنتائج المترتبة على دراسة الحقائق الخارجية. ومن ناحية أخرى، محاولة الإنسان إلى استخدام التجربة والعملية لتفسير الظواهر أو إخضاع عدد منها وإعتبارها قيد البحث العلمى الدقيق .

وإن كانت المعرفة الحسية التى تعرف عليها الإنسان البسيط، هى حصيلة ما توصل إليها العقل البشرى فى مرحلة تاريخية سابقة بالفعل على مرحلة العصر الحديث التى نعيش فيها. فالإنسان البدائى منذ فجر التاريخ كان يفسر ظواهر معينة على أنها أشياء خارقة ولقد كان يفسرها بصورة غيبية. وهذا ما تمثل فى تفسير الأنسان البدائى للصواعق وكسوف الشمس وخسوف القمر، وأنتشار الأوبئة والمجاعات والأمراض والكوارث الطبيعية الأخرى، ويرجع معظم هذه الظواهر إلى علل غيبية وأسطورية لايمكن أن تصل للإنسان فى العصر الحديث الذى أهتدى إلى العلم والمنهج العلمى فى تتبع مثل هذه الظواهر ودراستها بصورة علمية ودقيقة.

ويرى علماء البحث العلمى، أن عملية تطور المعرفة الحسية، التى يحصل عليها الإنسان عن طريق الإدراك والملاحظة البسيطة والخبرة العادية المجردة، جاءت بعد مرور فترات تاريخية طويلة حرص فيها الإنسان على معرفة الحقيقة وتطور نسق المعرفة الحسية، حتى تصبح معرفة علمية متطورة، ولتساعده عموماً فى فهم العالم الخارجى الذى يعيش فيه، وزيادة مقدرته وسيطرته والتحكم فيه. كما يرى علماء البحث العلمى السيكولوجى أن مرحلة الحياة العمرية للإنسان بصورة عامة، تعكس لنا نوع من تطور المعرفة الحسية، وهذا ما يتمثل فى مرحلة الطفولة المتأخرة عندما يسعى الأطفال إلى تفسير بعض الظواهر والحقائق الخارجية التى تحيط بهم والخوف والهلع منها، ثم يكبرون بعد ذلك ويدركون الطبيعة الحقيقية لهذه الظواهر، ويستخدمون عقولهم لتأويل هذه الظاهرة بصورة فلسفية ميتافيزيقية، ثم بعد

حصولهم على نوع من المعرفة والتعليم الرسمى والخبرة-التى يكتسبونها من المؤسسات التعليمية المختلفة، يستطيعون دراسة الأشياء والحقائق عن طريق تبنى الأساليب والمناهج الدقيقة التى تعزز عموماً وصولهم إلى مرحلة المعرفة العلمية.

٢- مفهوم العلم ووظائفه.

أولاً : مفهوم العلم.

بعد الإشارة إلى طبيعة المعرفة ودراسة أنماطها المختلفة، وجدنا الكثير من التمايز والإختلاف بين هذه الأنواع، وإن كانت تمثل كل واحدة من المعارف الإنسانية، سواء أكانت معرفة حسية أم فلسفية (ميتافيزيقية)، أم معرفة علمية دقيقة، مرحلة تاريخية معينة مرت بها كل من المجتمعات والعقول البشرية، إلى أن وصلت إليه حتى الوقت الذى يسمى بعصر العلم الحديث. ومن ثم، السؤال الذى يطرح ذاته حالياً، ماهى طبيعة مفهوم العلم، وخصائصه ووظائفه الأساسية ؟ وللإجابة على هذا السؤال يتحتم علينا الإشارة بوضوح إلى، ماذا نقصد بالفعل من مفهوم العلم، ولاسيما بعد ان أوضحنا مفهوم وحقيقة المعرفة العلمية بصورة عامة. وهل توصلت العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى مرحلة العلم الحديث مثل العلوم الطبيعية الأخرى. أو بمعنى أخر هل حققت العلوم الاجتماعية متطلبات العلم الحديث ؟.وهل لديها الأدوات والمناهج وأساليب الدراسة والتحليل التى تمكنها من دراسة الظواهر والمشكلات التى تهتم بتحليلها ؟

حقيقة، أن مثل هذه التساؤلات السابقة، تدور بالفعل فى أذهان الباحث والمبتدئ أو الدارس فى تخصصات علم الاجتماع أو غيره من العلوم الاجتماعية، أو أيضاً من الباحثين والمتخصصين فى العلوم الطبيعية الأخرى، الذين يسعون للإستفادة من الخبرات الواقعية المنهجية لكل من علماء العلوم الاجتماعية وتخصصاتهم المختلفة. ومن هذا المنطلق، نسعى حالياً لتحديد مفهوم العلم، ثم للإجابة على مجمل التساؤلات السابقة. فيقصد بمفهوم العلم، كما حدده الفليسوف الفرنسى "هنرى بونكارى H. Poincare" أن (العلم) هو " المعرفة التى لا تتعلق بالأشياء والظواهر ذاتها، وأنما (العلم) هو أن تدرك به ما يربط بين هذه الأشياء والظواهر من علاقات مختلفة ". ومن ثم، فيمكن أن نتعرف بوضوح من خلال هذا التعريف البسيط لمفهوم العلم، على أنه

معرفة القوانين ومجموعة المبادئ التى تحكم الظواهر بعضها ببعض أو الشئ الذى يبحث عن العلاقات السببية (العلية)، خاصة وأم هذا المطلب يعتبر جوهر المعرفة العلمية وغايتها الأساسية.

كما أننا نلاحظ أن استخدام مفهوم العلم يختلف بالنسبة للإنسان العادى أو الرجل المتخصص، فلسفة أو مفهوم العلم لدى الإنسان العادى، أنما تشـــير إلى مجموعة النتائج التطبيقية للمعرفةالعلمية، وما ينتج عن ذلك من أفكـــار أو أنتاج سلع أو وسائل مادية تساعد على الراحة والرفاهية فى المجتمع الحديـث. هذا بالرغم من أن كثر من وسائل الانتاج والابتكار، تعتبر نوع من الإبداع أو الفن وليس علم، كما يفهم ذلك الفرد أو الباحث المتخصص. ومن ثم، يمكن أن نقول، أن مفهوم العلم قد يتضمن الكثير من الغموض والخلط والتشوش لـــدى الإنسان العادى، بالرغم من فهمه وتفسيره بصورة قريبة إلى الواقع و لذا نجـد أن كثير من علماء البحث والمناهج، يركزون على وصف مفهوم العلم بصورة أكثر واقعية، وهذا ما سعى إليه "جورج سيمبون" G. Simposn، عندما حاول تحديد مفهوم العلم على أنه " المعرفة التى يتم التحقق منـــها ويمكــن إثبــات صحتها ونقلها إلى الأخرين ". والمقصود بكلمة التحقيق هى الوسيلة التى عــن طريقها يمكن إثبات صحة التفسير، الذى يقوم بتحليله الباحث أو العالم للمـــادة العلمية الواقعية.

وربما تترادف تعريفات مفهوم العلم لدى الكثير من علماء المنـــاهج والبحث الاجتماعى بصورة خاصة، وهذا ما أشار إليه كل من "جود و هـــات" Goode & Hate، حيث سعيا إلى تحديد هذا المفهوم بأنه "تراكـــم للمعرفـــة المنظمة" [١]، وذلك فى إطار ما قام بتحليلهِ عموما لاســتخدام هــذا المفـــهوم وشيوعه لدى العلماء والمتخصصين إلا أن استخدام مفهوم العلم بهذا الشـــكل، قد لا يفيد كثيرا عند تحليلنا له بصورة أكثر واقعية وليس مجرد فقــط تراكـــم لأنماط المعرفة العلمية. ولاسيما، إننا نفهم مصطلح أو مفهوم العلم على أنـــه المدخل أو الطريقة التى يستخدمها فى التعامل مع العالم الواقعي، والذى يعتمـد بصورة كبيرة على الخبرة الإنسانية، ويتضح من هذا المفهوم للعلم، بأنه مدخل

---

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر :

Goode, w.f P.Hatt. Methods in Social Research. N.Y, 1952

لإكتساب الحقيقة المطلقة، وأسلوب التحليل وينتج عنه استخلاص مجموعة من القضايا التى تفسر الواقع الذى نعيش فيه. وبالطبع، أن تحليلات "جود و هات" السابقة، إكتسبت شهرة كبيرة لدى العلماء والباحثين المتخصصين فى مجـــال البحث والمنهج العلمى، بالرغم من اعتبارنا لأفكاره بأنها ذات طابع كلاسيكى، كما أن هذه التحليلات تؤيد فكرة أو وجهة النظر القائلة، بـــأن مفـــهوم العلـــم تتنازعه فكرتان أساسيتان لوصف هذا المفهوم ذاته: الأولى، تؤكـــد أن العلـــم تراكم للحقائق والوقائع التى يسعى العلم للتوصل إليها. وهذه الفكرة إستاتيكية، أما الفكرة الثانية، فهى واقعية، حيث لاتنظر إلى العلم فقط بل تركـــز علـــى النتائج الواقعية التى تحصل عليها بصورة عامة.

ما من شك، أننا نؤيد وجهتى النظـــر الســـابقتين، لمفـــهوم العلـــم أو بصورتيه الإستاتيكية والواقعية فى نفس الوقت، وصعوبة فصل كل منهما عن الأخر عند تحليل مفهوم العلم. ولاسيما أن التقدم العلمى ماهو نتـــاج لـــتراكم المعرفة وتطور كل من أساليب وأدوات البحث العلمى. وهذا ما يجعل التـــأكيد على ضرورة تحديد مفهوم العلم، بأنه بناء منظم للمعرفة، حيث يســـعى فـــى خطواته الأولى بدراسة المشكلات الواقعية ثم ينتهى فى الخطوات النهائية لـــه، فى التوصل إلى نتائج مرتبطة بهذا الواقع ومشكلاته أو سعى عموماً للكشـــف عن الحقيقة التى يسعى الإنسان للتوصل إليها بصورة عامة.

ومن هذا المنطلق، نجد أن مفهوم العلم يستلزم كثـــير مـــن الجـــهود لتوضيحه وتفسيره بصورة كبيرة، حتى لايحدث حوله الكثـــير مـــن الخلـــط والغموض فى إستخداماته سواء من الأفراد العاديين أو المتخصصين فى نفس الوقت. ولاسيما، أن عملية دراسة المعرفة العلمية، تعتبر عملية مزدوجة فـــهى تسعى أولاً، لوضع مفاهيم نظرية مناسبة لشرح وتفسير المعانى الأساسية التى تقوم عليها، والتى يهتم بها أى علم من العلوم المتخصصة. من ناحية أخـــرى، يمكن استخدام التجارب والملاحظات الدقيقة، لتوضيح كيفية حدوث الظواهـــر وتكرارها فى الواقع، وكيفية استخدام المفاهيم المجردة، التى تعتبر هى فى حد ذاتها لغة العلم وتصوراته. ومن ثم يمكن القول، بأن أى تعريف مناسب للعلـــم، لابد وأن يشمل مجموعة الصفات المشتركة بين العلوم، ولكن بالرغم من ذلـــك ظهرت تعريفات متعددة لنفس هذه العلوم، وهذا ما يجعل كثير مـــن العلمـــاء والمتخصصين فى مناهج البحث العلمى، يتفقون بأنه لايوجد إتفاق عام حـــول مفهوم العلم.

هذا بالرغم من وجود عدد من المفاهيم الحديثة[1] التى تشير إلى العلم ذاته، ومن أهمها تعريف "جميس كونانت" J. Conante. بأن العلم هو نتيجة عملية تكوين شبكة متداخله من المفاهيم ومشروعات المفاهيم الناتجة عن التجارب والملاحظات ولتحقيق المزيد منها، كما سعى "باستير" Pastaire، إلى تحديد العلم على أنه المعرفة المكتسبة من المشاهدات والتجارب والاستدلالات المنظمة، كما حاول "توماس هكسلى" T. Huxsley، بتحديد مفهوم العلم بأنه ذلك الإدارك السليم المنظم، أما تعريف "تشارلز سبنجر" C. Spenger، يرى أن العلم، ما هو إلا العملية التى تنتج عنها المعرفة، وعموماً أن هذه التعريفات تسعى لتحديد مفهوم العلم من وجهة نظر علمائها كما أنها ليست متناقضة، فالبعض فيها يركز على طرق وأساليب التوصل إلى المعرفة، والبعض الآخر يركز على المعرفة ذاتها، وجزء منها سعى للتأكيد على الجوانب الاجتماعية والواقعية التى تكتسب فيها المعرفة. وهذا ما يجعلنا نتفق مع العلماء الذين يؤكدون على أن العلم ما هو إلا المعرفة المحققه، أى ذلك النوع من المعرفة التى ثبت التحقق منها، وجدت حولها إتفاق عام. وهذا ما يجعلنا أيضاً نتفق على أن العلم له ثلاث مميزات أو خصائص عامة وهى :

١- أن العلم كطريقة يسعى للوصول إلى المعرفة.

٢- أن العلم ما هو إلا تنظيم للمعرفة المكتسبة.

٣- أن العلم ما هو إلا وسيلة لتنظيم جهود العلماء الذين يسعون إلى معرفة الحقيقة، والتوصل إلى جوهر واصول الأشياء الواقعية.

ثانياً : وظائف العلم.

عكست التحليلات السابقة عن طبيعة المعرفة العلمية، وماهية العلم ومفهوماته المختلفة، عن طبيعة التنوع فى هذه المعرفة والمفاهيم والتصورات المرتبطة بها، وهذا ما يوضح لنا طبيعة الجهود التى تبذل من أجل تحديد المفاهيم، التى تعتبر بمثابة لغة العلم المتخصص، وتعكس لنا نوعية سعى

١-للمزيد من التفاصيل إلى تعريفات العلم الحديثة أنظر المرجع التالى:

Copal, H, An Introduction to Rrseurch Procedure in Social Sciencies, Bombai, Asia Publish comp. 1963, p.1.

العلماء المستمر لتطويرها من أجل التوصل إلى لغة علمية متعارف عليها بواسطة المتخصصين فى مجال البحث العلمى، وأيضاً يستطيع فهمها بواسطة الأفراد العاديين. ومن هذا المنطلق نستطيع القول، بأن عملية استخلاص تعريف إجرائى للعلم، يوضح على أنه بناء منظم للمعرفة العلمية، الذى يعتمد على استخدام المنهج العلمى السليم، والذى يستند أيضاً إلى مجموعة من القواعد والعمليات، التى تهدف في النهاية إلى استخلاص عدد من النتائج المحددة. على أية حال، نسعى حالياً بعد تحليلنا لمفهوم العلم، أن نشير إلى عدد من الوظائف العامة للعلم، ونوعية المميزات والخصائص التى يتضمنها بالفعل

يركز بعض العلماء على أن وظيفة العلم الرئيسية تتبلور فى فهم الواقع الفعلى الذى نعيش فيه، وهذا ما يجعل العلم وهدفه عموماً، تتركز فى البحث عن الحقيقة الواقعية. حيث يستطيع العالم، أن يدرك المعانى ويحللها بصورة واضحة، ويتعرف على نوعية العلاقات المتداخلة بين الظواهر المختلفة وجزئيتها، كما يسعى إلى التنسيق بين هذه العلاقات، من أجل التوصل لعدد من النتائج والقوانين المجردة، والتى يمكن تعميمها بصورة تسمح لبلورة نظرية علمية محددة. كما يرى عدد من العلماء المتخصصين فى مجالات البحث العلمى الحديث، أن وظيفة العلم الأساسية تهدف إلى إقامة القوانين العامة، التى من شأنها. أن تعزز عملية إكتشاف الأحداث الواقعية والقضايا المرتبطة بها، كما تساعدنا فى تفسير هذه الأحداث والمعارف السابقة، التى توجد فى الخبرة الإنسانية، حتى يمكن أن نتعرف على مثيلتها بوضوح فى المستقبل أو التنبؤ بها بصورة كبيرة. وهذا بالفعل ما سعت إليه العلوم الطبيعية فى العقود الأخيرة من القرن الماضى(العشرين)، وتسعى إليه أيضاً العلوم الإنسانية بالرغم من مجموعة الصعوبات التى لاتزال تواجهها فى الواقع عند دراسة المشكلات الاجتماعية المتعددة.

ومن هذا المنطلق، إن سعى علماء الإجتماع وخاصة المتخصصين فى مجال البحث الاجتماعى العلمى، يركزون على بلورة مفاهيم هذا العلم (علم الاجتماع) كأحد العلوم الاجتماعية التى تبلورت وظائفها الأساسية فى الحياة الاجتماعية اليومية وأصبحت من أهم العلوم المتخصصة، لما لديها من أهداف متعددة، ألا وهى التوصل إلى دراسة الحقيقة الواقعية، ونوعية

المشكلات الاجتماعية التى تزداد بصورة مضطردة وكبيرة. فالعلم الاجتماعى سواء أكان علم الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة أوعلم النفس أو غيره، يسعى للتوصل إلى الحقيقة مثلهم مثل العلوم الطبيعية الأخرى، التى أستطاعت أن تقطع شوطاً كبيراً فى مجال البحث عن الحقيقة الخارجية أو الطبيعية. فالعلم، أى كان نوعه علم طبيعي أم إجتماعي، يهدف بالدرجة الأولى، لإكتشاف الحقيقة وتقديم الدلائل والبراهين عليها والتحقق منها بصورة مستمرة. كما يهدف إلى التوصل لعدد من القوانين العلمية المرتبطة بالظواهر والمشكلات والقضايا التى تم معالجتها بالفعل وهذا ما يعكس عموماً مجموعة الوظائف التى يقوم بها العلم الحديث فى مجتمعاتنا المعاصرة.

عموماً، إن بلورة مجموعة وظائف العلم لايمكن فهمها إلا من خلال تحديد أيضاً مجموعة من السمات العامة التى تميز العلم أو المعرفة العلمية ككل، وهى بإختصار كما حددها " مارشال والكر "M. Walker فى كتابه طبيعة التفكير العلمى[1] كما يلى:

١- العلم واقعي: فالعلم يقوم على دراسة الأشياء الواقعية، ولايسعى لدراسة الظواهر والحقائق بصورة تأملية فلسفية مجردة، بقدر ما يحاول فهم طبيعة الأشياء والعلاقات والظواهر المتداخلة التى توجد بالفعل فى الواقع، هذا ما يجعل خاصيه الواقعية من أهم خصائص العلم الحديثة.

٢- العلم يسعى للتوصيل للقضايا: تقوم أى معرف علمية على أساس دراسة الحقائق أو التحقق من صدق أو كذب العلاقات الموجودة بينها. وبالطبع، أستفادة جميع العلوم بما فيها علم الاجتماع من علم النطق، عند صياغة القضايا بصورة واقعية والبعد النسبى من التجريد المنطقى أو التنسيقى، وذلك يهدف معرفة الإتساق الفعلى بين القضايا ومستويات تدرجها وعموميتها وطبيعة احتمالها ومراجعتها فى الواقع الفعلى.

٣- العلم يسعى إلى التحقق المنطقى، كشف الخاصية السابقة عن مدى استفادة العلم بقواعد المنطق، ولكن يسعى العلم الحديث بنوع من الأستقلالية عن المنطق، بالرغم من أن الأخير أداة معرفية لكل العلوم. حيث يساعد الباحث العلمى لاستخدام القواعد وعملية صياغة الفروض، والمفاهيم،

---

(1) Walker, M, The Naturer of Scentific Thought, N.Y: prentic Hill, 1951.

وبناء النظريات وتشكيلها بصورة تتسم بالقواعد المنطقية.

٤- العلم يتسم بالعمومية، توضح هذه الخاصية، أن المعرفة العلمية تتميز عن غيرها من المعارف الأخرى، بأنها تسعى للتوصل إلى وجود أتفاق عام حولها بواسطة العلماء، وذلك عن طريق النتائج العامة والقوانين والدراسات التي تقوم بإجرائها أو تحقيقها والتأكد منها. كما تعكس عملية خاصية العمومية، بنوعية الطرق والأساليب المنهجية التي يستخدمها العلماء عند البحث عن الحقيقة أو المعرفة العلمية، حتى تصل إلى درجة العمومية، ويتوصل إلى القوانين والنظريات العامة حولل الظواهر التي يتم دراستها بالفعل.

٥- العلم يتصف بالطابع الإجرائي، ترتبط هذه الخاصية بحقيقة مجموعة الإجراءات التي يستخدمها العلم والعلماء عند التعرف على الظواهر وإصدار تعريفات حولها بصوره واقعية، دون إصدار تعريفات مسبقة وغير دقيقة.

٦- العلم يتسم بالتجريد، يهدف العلم إلى التوصل لعدد من القضايا كالتي يتم صياغتها بصورة مجردة ومنطقية(عقلانية)، ولاسيما أن هذه القضايا تم التوصل إيها عن طريق الملاحظات المشتركة، التي تهدف جميعاً إلى إصدار مجموعة من القوانين والنظريات العامة (المجردة)(١).

٧- العلم يهدف للتوصل لحل المشكلات، أن العلم سواء أكان طبيعيا أم اجتماعياً، يركز على المشكلات الفعلية والواقعية، تلك المشكلات التي تصاغ في عدد من التساؤلات أو الفروض، ويهدف العلم إلى تقديم إجابات مقنعة حولها، وذلك عن طريق إتباع أساليب وطرق البحث التي تساعده في تحقيق ذلك.

٨- العلم عملية مستمرة، يتسم العلم والمعرفة العلمية بأنها عملية تراكمية ومستمرة بصورة دائمة، وترتبط بالتراث التاريخي للمعرفة البشرية والدراسات والتجارب والابحاث السابقة، التي تعزز من خصائص العلم التراكمي، والسعي عموما للبحث عن الحقائق التي تشغل الإنسان والعقل البشري.

١- محمد على محمد، علم الإجتماع والمنهج العلمي، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٦.

٣- قضايا البحث العلمي.

لا تزال مشكلة البحث العلمي من المشكلات التي يثار حولها الجدل المستمر، ولاسيما أن الإنسان يسعى دائماً لاستخدام العلم أو المنهج العلمي في دراسته الواقع الطبيعي والإجتماعي، الذي يعيش فيه أو يتعامل معه. وسوف يستمر ذلك الجدل، طالما أن الفرد في المجتمع الحديث يحرص كل الحرص على ضرورة تطوير إمكاناته وقدراته في السيطرة على البيئة الخارجية بصورة عامة. كما أن جزء كبيراً من مضمون هذا الجدل المثار حول البحث العلمي، يتمحور حول مشكلات هذا البحث، عندما يوجه لدراسة المشكلات أو القضايا والظواهر الإنسانية، أو بمعنى أخر، بالمشكلات المرتبطة بدراسة العلوم الانسانية والاجتماعية والظواهر التي تعالجها بالفعل. علاوة على ذلك، أن هذه العلوم لاتزال تواجهها الكثير من الصعوبات والمشاكل المتعددة، عند تحديدها بطرق التفكير والبحث والدراسة والتحليل ما يعرف عموماً بقضايا البحث العلمي للعلوم الاجتماعية والانسانية.

وفي الواقع، أن كل هذه الأنواع من المشكلات أو القضايا المرتبطة بالبحث العلمي، لم تظهر خلال السنوات أوالعقود الأخيرة التي تعايشنا معها خلال القرن الماضي (العشرين)، بقدر ما نجد أن هناك الكثير من تراث البحث العلمي الذي يكشف النقاب عن مدى حرص كثير من العلماء والمفكرين والفلاسفة، عندما توصلوا بالفعل لمشكلات البحث العلمي، وخاصة الذين ركزوا على دراسة القضايا والمشكلات الاجتماعية والانسانية. وبالطبع، نجد أن المفكر العربي أبن خلدون، كان أول من حرص على إبتكار أو عرض هذا النوع من المشكلات، عندما يسعى لتجديد منهج علمي متميز، يعتمد على الكثير من القواعد والأدوات والسمات العامة التي تميزه، أو تجعل من دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية ممكناً وهذا ما طرحه على سبيل المثال، عندما حدد كيفية معالجته الأحداث التاريخية وبصورة واقعية وموضوعية. وهذا ما جعل (أبن خلدون)، ينتقد بشده تساؤلات المؤرخين، عندما سردوا سير الأحداث التاريخية، بعيدة عن الواقع الاجتماعي الذي حدثت فيه وهذا ما سنعالجه لاحقاً.

وفى إطار عرضنا لأهم قضايا البحث العلمى الاجتماعى نتناول عدد منها التى تتسم بالطابع الجدلى بين علماء العلوم الاجتماعية منذ بداية القرن التاسع عشر فى الوقت الحالى بداية القرن الحادى و العشرين:

أولاً: الوضعية Positvism

تعتبر هذه القضية من القضايا العامة التى تواجه البحث العلمى الاجتماعى منذ أنفصلت العلوم الاجتماعية عامة عن العلم الأم(الفلسفة)، وإن كانت جذور هذه القضية ترجع أصولها الأولى إلى تحليلات المفكر العربى "أبن خلدون"، عندما حرص كل الحرص على إبراز أهمية استخدام العلماء والمفكرين والمؤرخين المنهج العلمى فى بحوثهم الاجتماعية، وخاصة عند جمعهم للحقائق والوقائع التاريخية والاجتماعية. وهذا بالفعل ما أكد عليه فى مقدمته الشهيرة، وإشترط على ضرورة أن يقوم الباحث بتناول هذه الوقائع وعرضها كما وقعت بالفعل، ومعرفة كيفية حدوثها، وتقصى أصولها الأولى. كما ركز على ضرورة أن يستخدم الباحث أو المفكر أو المؤرخ حواسه وخبرته الذاتيه فى تمحيص الحقائق وتشخيصها، ونقد الأفكار السابقة عليها وعدم التقيد بها. ولهذا أطلق أبن خلدون، مصطلح التشخيص المادى، أو التشخيص بمواد الوقائع والأحداث التاريخية، عندما حدد أسس وقواعد دراسة العمران البشرى والاجتماع الانسانى.وهذا ما جاء فى تحليلات العمران البشرى، وما يلحق هذا البحث من العوارض والأحوال (الاحداث) واحدة تلو الأخرى.

وعلى أية حال، لقد جاء حرص أبن خلدون، فى تأكيده على ضرورة أن يقوم الباحثين بتقصى الحقائق والوقائع التى حدثت بالفعل، خاصة وأنه جعل مادة البحث الاجتماعى الدائم، ألا وهى الكائنات الاجتماعية(البشر) ومجموعة الأنشطة والأحداث التى ترتبط بهم فى مجتمعاتهم وبيئتهم التى يعيشون فيها، ومحاولة دراسة الأسباب التى تؤدى إلى حدوث وتكرار هذه الأنشطة والأحداث بصورة مستمرة. ويستطيع الباحث المتخصص فى تاريخ البحث العلمى الاجتماعى، أن يتعرف بوضوح على مدى أنتقاء أفكار أبن خلدون، حول قضايا هذا البحث وغيره من علماء الغرب الذين ظهروا وبعد أكثر من خمسة قرون من الزمان على الأقل، من أمثال " أوجست كونت" A. Conte عالم الاجتماع الفرنسى، الذى أول من استخدم مصطلح الوضعية، أو ما يقابل مصطلح التشخيص، عند أبن خلدون. هذا

بالرغم من وضوح هذا المصطلح عند المفكر العربى، ولم يتبلور بصورة تامة فى تحليلات كونت إلا عن طريق غير مباشر، عندما يهتم الباحث أو المتخصص، فى مناهج البحث الاجتماعى ويتعرف على حقيقة ما كان يقصده "كونت" حول مصطلح الوضعية، والذى أضفى على علم الاجتماع خاصية أساسية وجعلته من أهم العلوم الاجتماعية فى الوقت الراهن.

وتجدر الإشرة بنا حالياً، إلى تحليل قضية الوضعية وإرتباطها بقضايا البحث العلمى الاجتماعى، كما جاءت فى تحليلات "كونت" السوسيولوجية، ولاسيما أن أفكار كونت الأولى كانت مرتبطة بالفلسفة الوضعية، أو كان يطلق على كتاباته عموماً بهذا المسمى الأخير. ونستطيع أن نستنتج تصورات "كونت" الوضعية، والتحقق منها عندما نهتم بتحليل أفكاره، حول العلاقة المتبادلة بين الأنسان والمجتمع، ودراسة الوقائع والأحداث التى تحدث بالفعل، وطبيعة تكوين الخبرات الذاتيه والشخصية لدى الأفراد. وما حددها "كونت" بالتجارب الحسية، التى يمر بها فى مجتمعاتهم، وأعتبارها مصدر من مصادر المعرفة العلمية. وهذا ما تبلور على سبيل المثال، فى إصدار "كونت" قانونه المعروف عن المراحل الثلاث، حيث تحدث عملية التطور التاريخى لأنماط التفكير البشرى والمجتمعى خلال هذه المراحل الثلاث، المرحلة الاولى(اللاهوتية)، وكان التفكير فيها دينياً أسطورياً، ثم المرحلة الثانية (الميتافيزيقية) أى البحث فيما وراء الطبيعة، ثم المرحلة الثالثة(الوضعية). ومن خلال هذه المرحلة الأخيرة، استطاع العقل البشرى أن يستخدم العلم والعقل معاً فى دراسة الأحداث والوقائع الإجتماعية الخارجية، وتفسيرها على أساس من الوضعية وبعيداً عن التفسير الأسطورى أو الغيبى أو الميتافيزيقى، يحرص الانسان على أن يستخلص حولها مجموعة من القوانين والنظريات العلمية التى تفسر عملية العلاقة الميتافيزيقا بين الانسان والمجتمع والبيئة الطبيعية التى يعيش فيها.

ثانياً: التجريب Experimentation

تعد هذه القضية من القضايا التى تواجه البحث العلمى الاجتماعى ولاسيما بعد أن قطعت العلوم الطبيعية مرحلة كبيرة فى مجال التجريب أو إستخدام التجربة والملاحظة المباشرة فى دراسة الظواهر والأحداث التى

تحدث في البيئة الطبيعية الخارجية. أما العلوم الاجتماعية التي تسعى منذ بدايات القرن الماضي، فلقد حققت مكانة هامة في مجال استخدام التجربة والملاحظة، ولاسيما بعد تطور عدد من هذه العوم وخاصة علم الاجتماع والنفس، وتأكيدهما علي ضرورة استخدام خطوات المنهج العلمي الحديث، بعد أن تأثروا بأفكار عدد من المفكرين الفلاسفة، الذين ظهروا بعد مرحلة عصر التنوير، أو مرحلة العصر الحديث مثل آراء "فرانسيس بيكون"، وخطوات المنهج العلمي. كما جاءت آراء هؤلاء العلماء كغيرهم علي كيفية إعتماد الباحث على الخبرة التجريبية، وما يطلق عليها غالباً بمفهوم الاختبارية أو الحسية التي تعتمد على مداخل معايشة الباحث للواقع ومشاهدتها، أو ملاحظتها بصورة حسية وواقعية[1].

وبالطبع، تعد هذه القضية (التجريب) من القضايا التي شغلت إهتمام الكثير من المتخصصين في فروع علم الاجتماع والنفس مثل علم الاجتماع الصناعي، وعلم النفس الصناعي، وغيرهما وإستخدامها للمصانع والشركات والسجون وغيرها وربط تجاربهم على طبيعة الإنسان الاجتماعية والنفسية والعقلية و ما يطلق عليها عموماً بالبيئة الاجتماعية للإنسان. فلقد جاءت تجارب علماء الاجتماع الصناعي من أمثال "تايلور" Tylor، و" فايول" Fayol، والتي أجريت في الولايات المتحدة وخصائصها الكبرى مثل ويسترن اليكتريك وما يعرف عموماً تجارب "هاورثون"، وغيرها من إستخدام التجربة و الملاحظة، التي أعتمد عليها العلماء في دراسة مشكلات الحياة الصناعية الحيوية وبلورت حولها نظريات وقوانين معروفة لاتزال لها أهميتها العلمية حتي الوقت الحاضر مثل نظريات الإدارة العلمية، ونظريات العلاقات الإنسانية. في نفس الوقت، اعتمد الباحثين وعلماء النفس علي التجربة والملاحظة ودراسة سلوك الإنسان والحيوان وكيفية تطوير مستويات الذكاء والنضج العقلي والتقليد والمحاكاه وغيرها[2].وبالرغم من تطور العلوم

---

(١) توجد تحليلات كثير حول مفهوم التجريب والتجربة والفصل بينهما، أنظر ما كتب في الفصل الخامس حول المنهج التجريبي.

(٢) نظراً لأهمية هذه التجارب سنشير إليها بصورة أكثر تحليلاً في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

الاجتماعية وإستخدامها للتجريب والملاحظة المباشرة، إلا أن ذلك لايزال يعتبر قضية اساسية من قضايا البحث العلمي الاجتماعي، ولاسيما أن هناك الكثير من القيود والحدود، التي لاتزال تواجه عمليات هذا البحث، وتعوق كثير من عمليات التوصل إلى نتائج إيجابية أو إصدار تعميمات وقوانين ونظريات شاملة، عند دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية. وتكمن هذه الصعوبة أو القضية في مجال البحث العلمي، نظراً لطبيعة دراسة هذه الظواهر والسلوك الاجتماعي، ومشكلات الإنسان التي تزداد تعقيداً بمرور الوقت. فالظواهر الاجتماعية ظواهر معقدة مركبة ومتداخلة العوامل والأسباب في نفس الوقت، وهذا ما جعلها صعبة الدراسة والتحليل مقارنة بالظواهر الطبيعية الأخرى، التي من السهل أيضاً إخضاعها إلى التجريب والملاحظة المعملية ويربط بين المشاهدات وتكرار حدوثها بصورة منتظمة مثل مظاهر سقوط الأمطار، وتمدد الحرارة وكسوف وخسوف الشمس والقمر، وغيرها من الظواهر الطبيعية الأخرى. أما المشكلات الاجتماعية مثل الجريمة والانحراف، والفقر، وغيرها يصعب إخضاعها للبحث العلمي التجريبي.

ثالثاً :الموضوعية Objectivism.

ترتبط قضية الموضوعية بالعديد من القضايا الأخرى التي تواجه الباحثين في مجال العلوم الاجتماعية، كما تعد هذه القضية من القضايا التي أعاقت كثير من تقدم هذه العلوم وتطورها والتي تهدف للتطوير أسوة بالعلوم الطبيعية. ولقد كانت ولا تزال هذه القضية موضع إهتمام المتخصصين في هذه العلوم ومنها بالطبع علماء علم الاجتماع. فلقد أشار "دور كايم" منذ منتصف القرن التاسع عشر، إلى أن مهمة علم الاجتماع ومعالجته لدراسة الظواهر الاجتماعية، يجب أن يلتزم بالموضوعية، والحياد العلمي، وينظر إلى الظواهر بإعتبارها حقائق As Facts. وهذا أيضاً ما أشار إليه "ماكس فيبر"، في معالجته لقواعد المنهج العلمي، ومقولة الفهم الإنساني، وكيفية التزام الباحث من الناحية العلمية والأخلاقية بقواعد هذا المنهج بصورة عامة.

وبالطبع، أرتبطت قضية الموضوعية، بقضايا التجريب، والوضعية، التي أشار إليها "أوجست كونت" في إطار تصوراته عن الفلسفة الوضعية، التي بنى عليها افكاره الأولى في نشأة علم الاجتماع وضرورة إستخدام العقل الإنساني وخطوات التحليل العلمي، الذي يفسر به كل من المعطيات والظواهر

والشواهد العقلية من ناحية، والحسيه او المعرفية والواقعيه من ناحية أخرى. وهذا ما أراد به كونت عندما ميز بين التفكير البدائى او الغيبى أو الميتافيزيقى (الانتقالى)، ثم التفكير العلمى الذى يجب أن يلتزم بالموضوعية التامة.فدراسة الظواهر الطبيعية مثل الزلازل، والبراكين، والثورات السياسية وغيرها من الأحداث الطبيعية والبشرية يجب فهمها وتفسيرها بصورة موضوعية وعقلانية.

كما يقصد بالموضوعية[1]، هى النظرة العلمية التى تستند على الشواهد، والتجربة، والمبادئ العلمية، التى تستبعد الأهواء الذاتية Subjective، والتى تقوم على الفروض العلمية، وتستند إلى التحقيق Verification، وتخضع إلى استخدام التجارب العلمية عند الحكم على الظواهر والشواهد والأحداث الخارجية. ومن ثم، إن مرحلة العلم الوضعى، تعكس إعلى مراحل الالتزام بالموضوعية، لما يشمل هذا العلم من قضايا وقوانين تم التحقق منها، وإستناده إلى الملاحظات والشواهد الامبريقية Empirical Observation، كما يسعى للتوصل إلى قوانين عامة إلى درجة التعميم Generalization.

رابعاً : التعميم Generalization.

من أهداف البحث العلمى أن يصل إلى تعميمات عامة، يمكن أن تطور بعد ذلك لتصبح نظريات علمية محددة بعد أن يتفق حولها العلماء والباحثين المهتمين بطبيعة ظاهرة أو مجال علمى معين. ولكن لايمكن أن تأتى هذه التعميمات ألا بعد محاولة الباحثين دراسة الظواهر أو الأشياء التى يسعون إلى تفسيرها بصورة علمية محددة. وأن يتوصلوا إلى قوانين محددة حسب هذه الظواهر، ولذا يطلق على جملة القوانين التى يتفق حولها العلماء والباحثين، وإستنباطها بصورة محددة، بعد ذلك بالقوانين العامة أو التعميمات.

ومن ثم، فمن أهم أهداف البحث العلمى استنباط القوانين العامة، التى يمكن الحكم بها على الاشياء أو الظواهر قيد البحث أو الدراسة. فالباحث أو

---

(١) إرجع إلى: حسن السعاتى، تصميم البحوث الاجتماعية، بيروت، دار النهضة، ١٩٨٢.

العالم المتخصص فى مجال معين لايسعى فقط إلى وصف هذا المجال أو الظاهرة قيد البحث والدراسة، بل يسعى فى النهاية إلى التوصل لإكتشاف القانون العام الذى يحكم هذه الظاهرة أو الظواهر وتحليلها بصورة علمية. فإجراء تجارب عن الحرارة أو التمدد للمعادن، أو إنكماشها نتيجة للبرودة أو التجمد ينتج عنها قوانين معينة، نطلق عليها بقوانين الحرارة أو البرودة.وهذا ما ينطبق أيضاً على قوانين عامة تم وصولها إلى درجة التعميم مثل قوانين الجاذبية، والطفو وغيرها من القوانين الأخرى التى تحدد وتفسر ما وراء العالم الطبيعى الخارجى.

إلا أن مرحلة التعميم التى وصلت إليها العلوم الطبيعية لم تحققها بعد العلوم الاجتماعية، التي تدرس ظواهر اجتماعية وسلوكية وإنسانية بالغة التعقيد والصعوبة. فعلماء الفلك والفيزياء توصلوا إلى قوانين وتعميمات عامة ومحددة، نظراً لطبيعة الظاهرة التى يخضعونها قيد البحث والملاحظة، والتجريب والقياس الدقيق. أما علماء العلوم الاجتماعية، من الصعب توصلهم لتعميمات أو قوانين عامة حول الجريمة أو الفقر وتطبيقها على كافة المجتمعات وعلى مختلف العصور والأزمنة. فلا يوجد شيئ حتمى ومحدد حول طبيعة المشكلات والظواهر الاجتماعية، لايمكن فهمها إلا فى سياقات ثقافية وتاريخية وإجتماعية معينة، حيث تختلف من مجتمع لآخر، أو داخل المجتمع ذاته فى نفس الوقت. وهذا ما يجعل عموماً صعوبات متعددة حول التعميم عند دراسة الظواهر الاجتماعية، وهذا ما يعتبر فى حد ذاته أحد أحد مشكلات وقضايا البحث العلمى.

٤- القوانين والنظريات العلمية.

تهدف العلوم الطبيعية والاجتماعية على حد سواء إلى ضرورة الوصول إلى قوانين عامة، يمكن الاعتماد عليها فى وضع نظريات علمية يتفق عليها جميع أو معظم المشتغلين والمتخصصين بهذه العلوم. ولكن هذا الهدف لا يمكن أن تحرزه إلا بعد إتباع الكثير من خطوات المنهج العلمى، الذى يسهم فى تحليل الظواهر والمشكلات الجزئية والكلية، والتى يهتم بها العلماء والمتخصصون فى مجالات دراساتهم وأبحاثهم. وهذا ما سنشير إليه بصورة أكثر تفصيلاً فى عرضنا لطبيعة مناهج البحث العلمى، وعلاقة هذه

المناهج بدراسة كل من الظواهر الطبيعية والاجتماعية فى نفس الوقت. على أية حال، نركز حالياً على تحليل أهم خصائص وأنواع وتعريفات القوانين وطبيعة النظريات العلمية، وما المقصود بها وشروطها وخصائصها وفائدتها عموماً فى مجال العلم أو تطور الحياة العلمية والعملية بصورة عامة.

(١) القوانين.

أولاً : تعريف القوانين وأنواعها.

اهتم علماء الاجتماع والمتخصصون فى مجال البحث الاجتماعي عموماً بمحاولتهم لوضع تعريف محدد للقوانين، إلا أن تلك الاهتمامات قد تباينت فيما بينها حول تحديد ماهية القوانين؟. ولكن هذا التباين لا يختلف من حيث الجوهر ولكن فقط من حيث الشكل العام، الذى يمكن أن تصاغ منه القوانين.ويتفق الكثير من العلماء علي وجود تعريف موجز للقانون وهو: " علاقة ضرورية تقوم بين ظاهرتين أو أكثر "، ويعكس هذا التعريف الموجز أو المختصر جداً، طبيعة القوانين ووظائفها، حيث يتضح لنا من هذا التعريف، أن القوانين العلمية نوعان هماالقوانين السببية والقوانين الوظيفية. ويمكن أن نوضح بصورة مختصرة التمييز بين هذين النوعين من القوانين كما يلي:

(أ) القوانين السببية: وهو ذلك النوع من القوانين الذى يعبر عن كل علاقة ثابته بين ظاهرتين، يؤدى التغير الذى يطرأ علي خواص إحداهما إلى تغير خواص الظاهرة الأخرى.

وبالطبع، لايمكن الإعتراف بهذه القوانين أو التحقق منها، إلا بعد أن يقوم الباحث بالكشف والدراسة والتدقيق اللازم حول وجود العلاقة السببية، التى تفسر العلاقة بين الظاهرتين أو مجموعة الظواهر، التى تدخل كل منهما فى علاقة مع الأخرى. وربما تجئ تحليلات "جون ستيورت ميل" J. S. Mill.[١]، وتعريفه المختصر عن السبب، بأنه " ظاهرة أو مجموعة من الظواهر التى تلزم عنها ضرورة ظواهر أخرى، تكون بمثابة نتيجة لها" ومن ثم، يكشف لنا هذا التعريف السابق عن (السبب)، وأن الظاهرة الأولى

---

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر:

Mill, j.s, Asystem of Logic, London: Longman group. 1970.

تكون الظاهرة القوية أو الموجبة التى تحدث تأثيراً فى الظاهرة الأخرى، كما تكون(الظاهرة الأخرى) تابعة أو نتيجة لحدوث الظاهرة الأولى، التى تعتبر بمثابة السبب الأول أو المحرك لها. وهذا ما يظهر فى الأمثلة التالية، فالحرارة تعتبر السبب الأول، الذى يؤدى إلى تمدد الأجسام الصلبة مثل (المعادن)، أو أن البردوه، هى التى تؤدى إلى إنكماش أو تقلص حجم وأبعاد هذه الأجسام فى نفس الوقت، وهذا ما ينطبق أيضاً على الكثير من القوانين السببية الأخرى مثل قوانين الجاذبية وغيرها.

(ب) **القوانين الوظيفية**: يقصد بهذا النوع من القوانين التى تفسر العلاقة بين الظواهر، دون أن تكون هناك علاقات سببية لحدوث الظاهرة الثانية. ولكن علاقة وظيفية بينهما، حيث تتواجد وتترابط عملية حدوث الظاهرتين فى وقت واحد. كما أن عملية التغيير النسبى الذى يحدث بين كل منهما يعد شرطاً ضرورياً ووظيفياً فى حدوث أو وجود الأخرى. ولكن من الصعب أيضاً، أن نحدد بأن أحد الظاهرتين، يكون سبباً أو مقدمة للحدوث، والثانية تابعاً أونتيجة لوجود الظاهرة الأولى.

وهذا ما يمكن تفسيره بعرض أحد القوانين الوظيفية مثل دراسة قانون الضغط الجوى، فإذا حاولة قياس الضغط الجوى، فلابد وأن نشاهد العلاقة الوظيفية بين الضغط وبين إرتفاع الزئبق فى مقياس الضغط (البارومتر) أو إنخفاضه فى نفس الوقت. أو بكلمات أخرى، أن كل أرتفاع أو إنخفاض فى الضغط يصحبه، حتماً إرتفاع أو إنخفاض فى مقياس الضغط ذاته، الذى يعتبر مؤشر لإنخفاض أو إرتفاع الضغط الجوى.

وبالرغم من عملية التصنيف بين أنواع القوانين، وتصنيفها إلى قوانين سببيه وأخرى وظيفية، لم تلق إهتماماً كبيراً لدى الكثير من علماء المناهج والمفسرين للعلوم الاجتماعية. خاصة، وأن طبيعة الظاهرة الاجتماعية أو الإنسانية معقدة للغاية، ولايمكن أن يفسر حدوثها إلى عامل سببى واحد، مثل الحرارة والبرودة أو قوانين النمو والإنكماش، كما يحدث عند دراستنا فى العلوم الطبيعية. ولاسيما أن الظواهر الاجتماعية معقدة الأسباب وينتج عن تفسيرها الكثير من العلاقات المتداخلة. فلا يمكن على سبيل المثال، أن تفسر ظاهرة الإنحراف والجريمة، أو الطلاق مثلاً إلى سبب واحد فقط، ولكن هنالك

العديد من الأسباب البيئية الأسرية، والشخصية (التنشئة الاجتماعية)، والتشريعية القانونية، والأخلاقية، والدينية، التي تلعب دوراً أساسياً في تفسير هذه المشكلات. هذا بالإضافة إلى إختلاف الظواهر ومعدلاتها بالنسبة للمجتمع الواحد، وايضاً بالنسبة لحدوثها فى فترات تاريخية وساسية معينة.

ثانياً: خصائص القوانين وأهميتها:

(أ) خصائص القوانين:

أوضحت التحليلات السابقة عن تعريف القوانين وأنوعها وتميزها بصورة عامة مدى أقتناع العلماء و الباحثين وخاصة في العلوم الأنسانية، بأن القوانين الوظيفية، تعد أفضل بكثير من القوانين السببية، نظراً لأن القوانين الأخرى تؤكد على وجود السبب بين الظواهر وحدوثها وتكرارها. أما القوانين الوظيفية، التى تؤكد على أهمية وجود علاقة وظيفية بين حدوث ظاهرة أخرى، كانت محل تأثير من جانب العلوم الطبيعية والاجتماعية فى نفس الوقت. فالقوانين العلمية (الطبيعية) لم تعد تبحث عن علل الظواهر (أسبابها)، بقدر ما تهتم بدراسة نظم العلاقات أوتتلازم عند حدوثها أو تكرارها عامة.

وبعد هذه الإشارة السوجزة لأنواع القوانين، هناك أيضاً عدد من الخصائص العامة التى تعكس طبيعة أنواع القوانين العلمية وإستخدامها بواسطة الباحثين، وهى كما يلى[1]:

١- القوانين العلمية غير مطلقة(محددة)، فالقوانين العلمية لايمكن أن تحددها عناصر الزمان والمكان، لأن هذه القوانين وخاصة قوانين العلوم الإجتماعية نسبية، وترتبط غالباً بطبيعة المجتمعات وزمانها وحدودها الجغرافية. فقوانين الجريمة، التى تطبق فى مجتمع معين، قد لا تطبق ذاتها فى مجتمع آخر، أو نفس المجتمع فى فترة زمنية أخرى.

٢- القوانين العلمية تقريبية، تتركز مهمة البحث العلمى والمتخصصين فى مجالاته عامة حول إكتشاف قوانين ترتبط بنوعية الظواهر أو المشكلات التى يدرسونها فقط. كما يمكن أن تتسع نطاق مجالات البحث العلمى والباحثين إهتماماتهم. ومن ثم، فقد يتوصلون إلى قوانين مغايرة، أو معدلة

١- أنظر المرجع التالى:عبد الباسط محمد حسن، مرجع سابق.

للقوانين التى تم إصدارها من قبل حتى تصبح أكثر دقة وتحديداً. وهذا ما ظهر بوضوح فى قوانين الطيران والنسبية، والضوء، والطفو وغيرها من القوانين العلمية المختلفة. هذا بالإضافة، إلى أن عدم دقة القوانين العلمية، تعكس بصورة عامة، نوعية التجارب، والملاحظات والمشاهدات، التى يقوم بها الباحثين عند إجراء دراساتهم على فترات تاريخية قد تستمر سنوات أو عقود من الزمان. كما أن مقاييس إجراء هذه التجارب والدراسات تتغير بصورة سريعة ومضطردة. وهذا ما يجعل الكثير من العلماء يؤكدون على مقولة (برتراند راسيل) بأنه لايوجد علم دقيق تماماً، مثلما لا توجد الحقيقة أو الدقة الكاملة أو التامة.

٣- القوانين العلمية متغيرة، يقصد بتلك الخاصية، أن القوانين تتغير بمرور الوقت ويتم تعديلها بإستمرار. ولكن ذلك لاينفى على الإطلاق، أن العلم والعلماء يستخدمون قوانينهم العلمية التى مر عليها الزمن بصورة مطلقة. نظراً لأن العلم وقوانين الحصول على المعرفة العلمية والإحتفاظ بها يعكس طبيعة أن العلم والقوانين العلمية تراكمية. ومن ثم، فليس من السهل، أن تستبعد كل جوانب المعرفة أو القوانين العلمية، لأن جزء كبير منها يستمر بصورة كبيرة.

(ب) أهمية القوانين:

ما من شك، أن للقوانين العلمية أهمية لأنها تساعد الباحثين للكشف عن الحقيقة ودراسة ومعرفة الظواهر الخارجية التى تحدث فى البيئة الاجتماعية والطبيعية في نفس الوقت. ويمكن أن نوجز أهمية القوانين كما يلى:

١- تيسر لنا القوانين ضم عدد كبير من الحقائق فى صيغة واحدة، وتحقق نوع من الإستثمار الفكرى والمعرفى.

٢- تساعد القوانين الإنسان فى فهم وتفسير الحقائق، التى لا يستطيع العقل البشرى تفسيرها فى وقت محدد من الزمان، كما تساعد فى الكشف عن العلاقات المتداخلة بين حدوث الظواهر أو تكرارها.

٣- تساعد القوانين على التنبؤ بحدوث الظواهر فى أوقات محددة مثل العلوم الطبيعية، وأيضاً بصورة تقريبية فى العلوم الاجتماعية.

٤- ساعدت القوانين الإنسان كثيراً على السيطرة على البيئة الطبيعية، وايضاً الاجتماعية المعقدة.

٥- تساعد القوانين الإنسان فى التخطيط المستقبلى ومواجهة المشكلات الطبيعية والاجتماعية، التى قد تكلف الكثير فى حالة وقوعها بصورة فجائية.

(٢) النظريات العلمية.

أولاً : تعريف النظرية وخصائصها:

١- تعريف النظرية:

تعددت تعريفات النظرية العلمية، ولاسيما بعد أن تنوعت إهتمامات العلماء والباحثين وطبيعة مجالات دراساتهم وتخصصاتهم التى تتنوع بدورها بصورة مستمرة. إلا أن هذا التنوع لم ينفى أهمية وجود نظرية علمية، يتفق حولها العلماء كل فى مجال تخصصه. كما أن هذا الإتفاق قد شمل أيضاً علماء العلوم الإجتماعية والطبيعية الذين أكدوا جميعهم على أهمية وجود نظرية علمية، وإعتبارها أهم أركان العلم أو البحث العلمى، وهذا ما ظهر على سبيل المثال، فى التمييز بين العلم والفن. فالعلم تحدده موجهات نظرية وعلمية محددة، أما الفن، فلايقوم إطلاقاً على أساس محور نظرى يتفق حوله العلماء، بقدر ما يكون مصدره الإلهام والإبداع والرؤى الشخصية وغير ذلك من أشياء أخرى تحكم الفن عامة.

وتجئ إهتمامات بعض علماء الإجتماع المعاصرين من أمثال "نيقولا تيماشيف" N.Timashef الذى يعرف لنا النظرية فى كتابه المميز عن النظرية السوسيولوجية Sociologic Theory " بأنها مجموعة من القضايا تتوافر فيها شروط متعددة من أهمها: أن تكون القضايا مستندة إلى أفكار محددة تماماً، وأن تكون القضايا متسقة الواحدة مع الأخرى وأن تكون على صورة يمكن أن تستمد منها تعميمات، بإتباع الإسلوب الإستقرائى، وأن تكون القضايا المكونة للنظرية ذات فائدة، بحيث يمكن أن تقود الباحثين إلى مزيد من الملاحظات والتعميمات لتوسيع نطاق المعرفة[1] ويتضح لنا من هذا التعريف السابق، أن تيماشيف حاول أن يعرف النظرية (العلمية) السوسيولوجية، من خلال تأكيده أيضاً على مجموعة معينة من الشروط التى يجب توافرها فى

(1) N.Timasheff, Sociological Theory, N.Y: 1955, P.9.

هذه النظرية، ولاسيما أن النظرية بإعتبارها تركيب عقلى Mental Construction، يقوم بها الباحث أو العالم المتخصص، ويكون لديه نظرة شمولية لجمع المعارف والحقائق الجزئية، والتنسيق بين أنماط المعرفة المختلفة، ومن أجل ذلك تعتبر النظرية أعلى مستويات المعرفة العلمية.

وحسب وجهة نظرنا، أن تيماشيف بإعتباره من أحد المنظرين السوسيولوجين لا تختلف آرائه عن آراء العديد من علماء الإجتماع الكلاسيكين أو المعاصرين، من أمثال "جود وهات" Goode & Hatt، حيث سعيا فى كتابهما عن مناهج البحث الإجتماعى Methods in Social Research [1]، أن يعرفا النظرية بأنها " عبارة عن إطار فكرى (تصورى) يفسر مجموعة من الحقائق العلمية، ووضعها فى نسق علمى مترابط " يؤكد على ذلك التعريف أيضاً " أرنولد روس" A. Ross، حيث يوضح فى كتابه المميز عن النظرية والمنهج فى العلوم الإجتماعية، تعريف النظرية " أنها بناء متكامل، يضم مجموعة من التعريفات، والإفتراضات والقضايا العامة التى تتعلق بظاهرة معينة، بحيث يمكن أن يستنبط منها منطقياً مجموعة من الفروض القابلة للإختبار[2]. كما حاول " كابلان " Kaplan، أن يوضح العلاقة بين القوانين والنظرية، مشيراً إلى تعريف محدد للنظرية بأنه " بناء فرضى رمزى، يتضمن مجموعة من القوانين المتسقة منطقياً، فكل قانون يستنتج مباشرة من القانون السابق عليه، والقانون يفسر الواقعة عن طريق ربطها بالواقع[3].

وهكذا يشير التعريف الأخير، إلى أن العلاقة بين القائد والنظرية علاقة متداخلة، فالقانون أو مجموعة القوانين المتسقة منطقياً هى التى تكون النظرية، كما أن النظرية ما هى إلا مجموعة من القوانين التى تم إستنتاجها عند دراسة الواقع أوالظواهر المدروسة التى وضعت قيد الدراسة والتحليل

(1) Goode W. & P.Hatt, Methods in Social Research , 1952, p.56.
(2) Ross, A. Theory and Method in Social Sciences: Minnesota, The Univ. Press, 1954, p.3.
(3) Kaplan. A, The Conduct of Inquiry. California: Chadiapub. Comp., 1954, p.292.

والإختبار. وهذا ما يعكس لنا عموماً، طبيعة العلاقة بين النظرية والواقع الذى يهتم بدراسته وتحليله، وخاصة أن النظرية، ماهى إلا أداة يتم تحقيق العلم بواسطها، وهي بمثابة الغاية التى يسعى كل باحث علمى إلى تحقيقه.

(ب) خصائص النظرية:

كشفت التعريفات السابقة للنظرية، مدى تعدد هذه التعريفات كما أشرنا إلى ذلك سلفاً، كما أن للنظريات عدد من الخصائص الهامة التى نسعى لتحديدها بصورة موجزة كما يلي:

(١) النظرية والقوانين العلمية نسبية وتقريبية. حاولنا فى التعريفات السابقة أن نشير إلى أن القوانين العلمية تكون محددة ودقيقة، إلا أنها جاءت بصورة تراكمية ونسبية. وهذا ما ينطبق أيضاً على النظريات العلمية حيث تخضع النظريات العلمية للتعديل، والتغير المستمر حيث لايوجد نظرية علمية يطلق عليها بأنها نظرية عامة أو مطلقة.

(٢) النظرية العلمية ماهى إلا فرض عام تم التحقق منه. لايمكن قبول النظرية العلمية على أنها حقيقة يسلم بها بصورة مستمرة، بقدر ما تعتبر النظرية موجه عام يسعى الباحث أو العالم للتحقق منها، فهى بمثابة فرض علمى تم التحقق منه بواسطة جمع كبير من العلماء الباحثين، وذلك عن طريق العديد من الوسائل التى يستخدمها العلماء فى التحقق من فروضهم وتحليلاتهم.

(٣) النظرية العلمية تشمل عدد كبير من القوانين المفسرة للظواهر. ولايمكن أن يطلق مصطلح النظرية، إلا بعد تأكد العلماء بأنها (النظرية) تم دراستها وتحليلها وإخضاعها للتجربة. ولذا، كما إشرنا سابقاً، أن النظرية تخضع دائماً للتعديل والتطور، لأنها ترتبط بالمعرفة والحقائق، التى يسعى الإنسان لجمعها ودراستها. وبما أن الحقائق والمعرفة الإنسانية متغيرة، فلابد أن تتسم النظرية بنفس هذه الخاصية[1].

---

(١) يمكن الرجوع للمزيد من التفاصيل حول النظرية إلى :

- عبدالله محمد عبد الرحمن، النظرية السوسيولوجية (الكلاسيكية) (الجزء الأول)، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠.

ثانياً: وظائف النظرية.

بعد الإشارة الموجزة، لأهم تعريفات النظرية وخصائصـــها العامـــة، نحاول فيما يلى أن نشير إلى أهم وظائف النظرية:

(١) تعتبر النظرية أداة للتوجيه العلمى والبحث: يتفق العلماء والباحثين علـــى مهمة النظرية فى توجيهها لـــهم خـــلال دراســـاتهم وتحليلـــهم للظواهـــر والمشكلات التى يقومون بدراستها بصورة مستفيضة. كما تساعد النظريـــة فى تحديد أنواع الحقائق التى ينبغى أن يســـتخدمها البـــاحث فـــى ميـــدان دراسته. ولذا، يرى معظم العلماء، أن بدون النظرية سوف تتداخل ميـــادين ومجالات البحث. ولذا، فهى تساعد على تصنيف البيانات والشواهد التـــى يتم جمعها من الواقع. علاوة على ذلك، فإن للنظرية وظيفة أخرى، تتبلـــور فى إنتقاء الحقائق التى يتم جمعها من الواقع ذاته.

(٢) تقوم النظرية بصياغة المفاهيم والمصطلحات العلمية: لكل علم من العلـــوم مفاهيمه Concepts، أو مصطلحاته الفنية التى يستخدمها، وتعتـــبر هـــذه المفاهيم، أهم خصائص هذا العلم وتفرده عن العلوم الأخرى، حتـــى ولـــو كانت هذه العلوم تنتمى لمجالات عامة ومشتركة مثل العلوم الطبيعيـــة أو الاجتماعية. فعالم الطب، أو الفلك، أو الكيميـــاء لكـــل منـــهم مفاهيمـــه، ومصطلحاته الخاصة بعلمه ومجاله. وهذا ما ينطبق أيضاً على مجـــالات العلوم الاجتماعية. فعالم الاجتماع لديه مفاهيم ومصطلحات لا تطابق تماماً ما يستخدمه علماء النفس أو التاريخ، أو الانثربولوجية، أو الجغرافيا وهكذا. ولكن الذى يحدد لغة المفاهيم المتخصصة، هى النظريـــة العلميـــة التـــى يستخدمها العلماء والباحثين فى مجالات دراساتهم وتحليلاتهم.

فى نفس الوقت، نجد أن العلم الواحد مثل علم الاجتماع، لديـــه نظريـــات مختلفة ومتباينة، ولكل مجموعة من العلماء الذين يتبنون هـــذه النظريـــات مفاهيم مختلفة تميزهم عن غيرهم. مثال ذلك، علماء النظرية الماركســـية لديهم مصطلحات ومفاهيم مختلفة، عن علماء النظرية البنائيـــة الوظيفيـــة ايضاً. كما أن عملية تطور النظريات ترتبط بأنماط معينة مـــن المفـــاهيم والمصطلحات، فهناك تمايز فى المفاهيم التى تستخدمها النظريـــة البنائيـــة المحدثة، أو الماركسية المحدثة، عن هـــاتين النظرتيـــن فـــى مرحلتيـــهما التقليدية أو الكلاسيكية.

(٣) تقوم النظرية بتلخيص الكثير من الحقائق العلمية ومعرفة العلاقات فيما بينها: حيث تقوم النظرية بجمع الحقائق التفصيلية التى ترتبط بظاهرة أو مشكلة أو مجال معين، نظراً لتشعب هذه المعارف التى ترتبط بكل منها. فمهنة النظرية أنها تساعد على تجميع البيانات والحقائق وتصنيفها، حتى يسهل الرجوع إليها أو تحليلها. ها بالإضافة إلى أن النظرية العلمية، تقوم بتحليل العلاقات المتداخلة بين الحقائق أو المعارف أو البيانات، التى يتم الحصول عليها، حتى يتمكن الباحث أن يبرهن على ذلك بصورة علمية ومميزة.

(٤) تكشف النظرية عن مدى القصور فى المعارف العلمية: إن مهمة النظرية تتركز فى تضمنها للحقائق العلمية ولاسيما، ذلك النوع من الحقائق التى لم تبحث من قبل. كما تهدف النظرية فى إطار وظائفها العامة ودورها فى خدمة العلم، أنها تخضع كل المعارف للبحث والتدقيق منها ومعرفة العلاقات المتداخلة فيما بينها. كما تهدف أيضاً، إلى إستبعاد المعارف العلمية التى يتم تعديلها. أو بمعنى أخر تقوم بتبنى الحقائق المعرفية الجديدة، ولاسيما، أن المعرف الجديدة تساعد العلم والعلماء على فتح مجالات جديدة للبحث والدراسة. كما تساعد العلماء فى طرح فروض علمية جديدة، يجب أن تخضع للدراسة والتحليل والتجريب العملى، حتى يتم التحقق منها وتسهم فى بلورة قوانين جديدة، والتى تعزز بدورها أيضاً المكونات العامة للنظرية العلمية،أى كان مجال تخصصها الدقيق.

(٥) تساعد النظرية على التنبؤ العلمي: إن النظرية ووظائفها المتعددة تبرهن على دورها وأهميتها فى عملية التنبؤ، وتساعد العلماء والباحثين بتوقع حدوث الظواهر والمشكلات، والتخطيط لها مسبقاً بصورة علمية. وبالطبع، إن عملية التنبؤ الناتج عن تطور النظريات، لاتأتى من فراغ، بقدر ما تنتج من إتاحة الفرصة أمام الباحثين للتعرف على الظواهر أو المشكلات المدروسة ومعرفة إتجاهاتها وعلاقاتها السببية أو أسباب حدوثها وتكرراها، وتوقع ذلك الحدوث أو التكرار فى فترات زمنية، وأماكن جغرافية أو أيكولوجية محددة. علاوة على ذلك، أن تطور النظرية بصورة عامة، طور أيضاً من مهامها الوظيفية فى التنبؤ بما يحدث فى الواقع بصورة مسبقة وهذا ما يعزز عموماً من دور النظرية أو الإستفادة من النظريات العلمية.

على أية حال، إن تحليل وظائف النظرية قد يطول ويحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحليل، أو تصنيف هذه الوظائف بصورة أكثر ولكننا نهدف حالياً لإعطاء القارئ صورة مبسطة لأهم الوظائف العامة للنظرية. وهذا ما يجعلنا أن نلخص هذه الوظائف في إطار تحديد الأدوار الرئيسية التي تقوم بها النظريات في تطور العلم الحديث، ومن أهم هذه الأدوار مايلي:

١- تقوم النظرية بتحديد مجالات البحث العلمي أمام الباحثين وتوجههم لإختيار المعلومات والحقائق والظواهر التي يجب دراستها وتحليلها.

٢- تقدم النظرية، الإطار التصوري العام الذي يصنف به المعلومات والحقائق كما ينتج عند دراسة الظواهر ومعرفة العلاقات المتدخلة بينها.

٣- تقوم النظرية بتلخيص الوقائع ووضعها في صورة من التعميمات، في نسق منطقي مميز.

٤- تعتبر النظرية بمثابة (الأداة) التي عن طريقها يستطيع العلم والباحثين، بالتنبؤ المستقبلي حول العديد من الظواهر والمشكلات أو الظواهر التي توجد في الواقع الخارجي.

٥- تقوم النظرية بتحديد الثغرات أو ما يسمى بالثغرات العلمية، أو مواضع النقص العلمي الذي يوجد في المعرفة الإنسانية.

٦- تساعد النظرية في مجال التطبيق العلمي وتعزز من قدرة الإنسان على سيطرته المستمرة على البيئة الطبيعية الخارجية، وأيضاً في معرفة بيئته الإجتماعية المعقدة بقدر الإمكان.

٧- تساعد النظرية في تنظيم إجراءات البحث العلمي واساليبه وأدوات جمع البيانات أي ما يعرف بالخطوات المنهجية للبحث العلمي عموماً.

٥- البحوث الاجتماعية النظرية والواقعية.

" في إطار تحليلنا لطبيعة المفاهيم المرتبطة بقضايا البحث العلمي الاجتماعي، ونوعية تحديد هذه المفاهيم خاصة بالنسبة للباحث المبتدئ، الذي يحتاج إلى المزيد من التحليل والدراسة والتعريف بهذه المفاهيم ولاسيما المرتبطة بعملية البحث الاجتماعي، والأسس النظرية والمنهجية التي يقوم عليها هذا البحث. نحاول أن نتعرف على طبيعة البحوث الاجتماعية والنظرية والواقعية (الميدانية) وهل يوجد اختلاف وتمايز بينهما ؟ وهل ظهرت هذه

الأنماط من البحوث مثل الأخرى؟. وماهى العلاقة بين كل من البحوث النظرية والميدانية وهل تثرى كل من هذه البحوث وتسهم فى تطور النظرية العلمية السوسيولوجية ؟ أو ما علاقة البحوث النظرية والميدانية فى تطوير أسس النظرية والمهنية للبحث الإجتماعى عامة، والبحث السوسيولوجى خاصة؟.

للإجابة على هذه التساؤلات، التى لاتزال تشغل إهتمام ليس فقط المبتدئين أو القارئ العادى في علم الاجتماع أو العلوم الاجتماعية، ولكن أيضاً الكثير من الباحثين المتخصصين فى هذه العلوم فى نفس الوقت ونحاول فيما يلى أن نعرض لطبيعة الإختلاف والتمايز بين البحوث النظرية والمقصود بها وبين البحوث الميدانية (الواقعية).

أولاً: البحوث النظرية.

يقصد بهذا النوع من البحوث مجموعة الدراسات النظرية التى تهتم بمناقشة قضايا ومشكلات وظواهر تشغل العقل الإنسانى بصورة كبيرة، وتتم تحليلها بصورة نظرية مجردة فقط، دون استخدام طرق وأدوات للبحث الاجتماعى التى تركز على دراسة الواقع (الإمبيريقى). علاوة على دراسة، أن هذا النوع من البحوث، قد يعتمد على الطابع (المكتبى)، أو يعتمد على ذلك الوثائق والسجلات مثل البحوث الاجتماعية التاريخية. فقد يحاول الباحث أن يحلل قضية اجتماعية معينة من الناحية النظرية دون اللجوء إلى أساليب البحث الاجتماعى الواقعى محاولاً أن يطرح أفكاره وتصوراته من أجل تعزيز أساليب البحث النظرى والمنهجى فى نفس الوقت.

ويوضح لنا تحليل التراث السوسيولوجى للبحوث الاجتماعية النظرية، أن هذا النوع من البحوث (النظرية)، كانت الشغل الشاغل لاهتمامات العلماء والباحثين فى علم الاجتماع منذ نشأته الأولى. فلقد حاول " أوجست كونت " A. Comte، أن يناقش قضايا علم الاجتماع ومبررات نشأته وأهميته ومجالاته من خلال الاعتماد على التحليلات النظرية الخالصة Theoritical. Pare Analysis وهذا ما ظهر فى تحليلات وأبحاث كونت، حول قانون المراحل الثلاث وتطور المجتمعات من المرحلة اللاهوتية، إلى الميتافيزيقية، ثم المرحلة الوضعية أو العلمية. كما جاءت تحليلات " دوركايم " Durkeim وخاصة تحليلاته من الناحية الموضوعية، ومحاولة إرساء قواعد المنهج العلمى. أو

دراساته النظرية حول تطور المجتمع من المرحلة الآلية إلى المرحلة العضوية، أو دراساته المميزة حول تطور النظم القانونية والتربوية والأخلاقية.

كما كانت تصورات " كارل ماركس " K. Marx، التى تناول فيها تحليلاته عن رأس المال، والأيديولوجية، والإغتراب، والصراع الطبقى، والمجتمع الشيوعى، وغير ذلك من تصورات جاءت جميعها دراسات أو بحوث نظرية خالصة، حيث لم يقم ماركس بأى دراسة ميدانية أو إمبريقية على الإطلاق. وإن كانت وجهت هذه التحليلات أو الدراسات النظرية، العديد من البحوث والدراسات الميدانية أو الواقعية بعد ذلك، وهذا ما أشرنا إليه سابقاً، عندما حاولنا إثبات الدور الوظيفى للنظرية العلمية، مثل (النظرية الماركسية) فى توجيه الباحث لدراسة الواقع بصورة شاملة.

وربما تعتبر دراسات " ماكس فيبر" M. Wober وغيره من رواد علم الاجتماع الألمانى من أمثال "زيمل"، و"توينز"، "سيمون"، و"مانهايم" وغير ذلك من العلماء الاخرين من الدراسات النظرية، ولاسيما دراساتهم الأولى. ولكن بالطبع هناك إسهامات لـ "فيبر" على سبيل المثال فى مجال البحوث التطبيقية (الواقعية) فلقد حرص "فيبر" على أن يطرح العديد من النماذج التصورية التى بلورها ببراعة فى فكرته عن النماذج المثالية Ideal Types، لتلك الفكرة التى شملت تحليلات نظرية رائعة مثل النماذج المثالية المرتبطة بالبيروقراطية أو العقل الإنسانى، أو مقولة الفهم، التى تعتبر فكرة نظرية خالصة، ولكنها تعتبر بعد ذلك موجهاً لإجراء الدراسات الميدانية، نظراً لأنها من أهم الأفكار المنهجية والنظرية التى طرحها "فيبر" لتوجيه البحوث الإجتماعية، كما ظهر ذلك فى قواعد المنهج عند " دوركايم" على سبيل المثال.

وبالطبع، أن البحوث النظرية الاجتماعية التى ظهرت منذ ظهور علم الاجتماع حتى الآن كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، لم تنتهى حتى الآن، ولاسيما، أن هناك مجالات متخصصة لعلم الإجتماع مثل مجال علم الإجتماع النظرى Theoritical Socciologyy. الذى يركز على دراسة النظريات السوسيولوجية أو نقد النظرية السوسيولوجية. وهذا ما تبلور حديثاً فى الإتجاهات والمداخل النظرية(النقدية) التى تهدف إلى تعديل الخطوط العامة للنظرية السوسيولوجية بصورة مستمرة وربما تعكس تحليلات مدرسة فرانكفورت Frankfourt

School ذات الطابع التقليدى حالياً، مثلاً واضحا على هذا النموذج من التحليلات ولا سيما أنها تنتمى إلى المدرسة السوسيولوجية الألمانية التى هاجرت إلى أوروبا والولايات المتحدة، وإكتسبت خبرات واقعية كثيرة ناقشت فيها الكثير من قضايا المجتمع الحديث بصورة عامة.

بإيجاز، يمكن القول، بأن البحوث الاجتماعية قد نشأت منذ ظهور علم الاجتماع، ولاتزال تثرى هذا العلم ومجالاته التى تعددت وتنوعت بفضل هذا النوع من الدراسات النظرية المجردة. كما لايزال تعد النظرية السوسيولوجية، أو مجال دراسة النظرية من المجالات (المجردة) التى تعتبر جوهر ولب علم الإجتماع ذاته. ولكن يجب أن نشير إلى حقيقة هامة مؤداها أن العلاقة بين النظرية أو البحوث الإجتماعية النظرية، والبحوث الاجتماعية الميدانية (الواقعية)، هى علاقة متبادلة ومتداخلة. فالبحوث النظرية، تعتبر الموجه الأول للدراسات الواقعية (الميدنية)، كما ان هذه الدراسات تسهم فى صقل وإختبار وتوجيه وتعديل الدراسات النظرية. وهذا ما أشرنا إليه عامة عندما حاولنا تحليل طبيعة القوانين والنظريات العلمية فى بداية هذا الفصل.

ومن هذا المنطلق، يجب أن نشير إلى أن جميع العلوم بدون إستثناء سواء أكانت علوم طبيعية أم اجتماعية، فإنها تشمل نوعين من البحوث (البحوث النظرية)، و(البحوث الميدانية) أوالواعية. كما أن كثيرمن الدراسات أو البحوث النظرية تهتم بمعالجة مشكلات وظواهر وقضايا تهتم جميعها بدراسة الواقع الذى نعيش فيه. كما ان البحوث الميدانية أى كان نوعها تسهم فى صقل طبيعة الدراسات النظرية، حتى ولوكانت هذه الدراسات هى النظريات العلمية التى توجه البحوث الميدانية ذاتها.

ثانياً : البحوث الواقعية (الميدانية).

يقصد بهذا النوع من البحوث، الدراسات الميدانية التى تركز على دراسة الواقع مستخدمه العديد من الاساليب البحثية والمنهجية، التى تجمع فيها البيانات اللازمة حول الظاهرة، أو المشكلة، والقضية المراد دراستها وتحليلها. وبالطبع، أن هذا النوع من البحوث تعتبر مكملاً للدراسات (النظرية) الخالصة، والتى تسهم جميعها فى تطوير البحث العلمى والنظريات والأساليب المنهجية فى نفس الوقت وفى الواقع، لم يهتم علماء الاجتماع بهذا النوع من

الدراسات فى بادئ الأمر، وهذا ما جاء فى تحليلات " أوجست كونت" على سبيل المثال.أو أفكار "هربرت سبنسر" ، أو تصورات "إميل دوركايم" التى تميزت فى مرحلتها الأولى بالتركيز على الدراسات النظرية بصورة أساسية.

لكن مع نشأت وتطور علم الاجتماع، وإسهامات العلوم الاجتماعية الأخرى وخاصة علم الأنثربولوجيا، وعلم النفس على سبيل المثال، تم توجيه جانب كبير من دراسات علم الاجتماع، إلى الدراسات الميدانية (الامبريقية). كما كانت قد تبلورت ملامح النظرية السوسيولوجية العلمية، التى أسهمت بدورها فى وضع الأسس المنهجية، كما كانت إسهامات علماء الاجتماع المتخصصين فى مجالات مناهج وطرق البحث الاجتماعى دور كبير فى التخطيط لمثل هذا النوع من البحوث والدراسات (الميدانية)، وخير مثال على ذلك الإهتمام، دراسات "إميل دوركايم"، التى ركزت على الدراسات النظرية أولاً ، ثم الدراسات المنهجية ثانياً، ثم الراسات الميدانية ثالثاً، وهذا ما تبلور فى دراسته الشهيرة عن (الإنتحار)، التى تزال من الدراسات السوسيولوجية الواقعية (الميدانية) المميزة فى هذا المجال. وحاول فيها أن يطور نظريته وإهتماماته السوسيولوجية النظرية الخالصة عن التضامن الاجتماعى Social Solidarity، ثم ركزفيها على إختبار تصوراته المنهجية عن قواعد المنهج في علم الاجتماع. كما حاول أن يختبر كل من التصورات النظرية والمنهجية معاً فى دراسة ميدانية نادرة حول الإنتحار.

وبالطبع، سعى "دوركايم" إلى أن يحلل أفكاره النظرية حول (التضامن الاجتماعى) فى دراسات متعددة مثل دراسة حول المناهج وطرق التدريس والمقرارت الدراسية فى فرنسا ومقارنتها فى ألمانيا والعديد من الدول الاوروبية الأخرى. وإن كان "دور كايم" لم يجرى دراسة ميدانية واحدة (غير دراسته عن الانتحار)، بقدر ما أجرى دراسات واقعية متنوعة.

وهذا ما ينطبق أيضاً على دراسات "فيبر" الواقعية الميدانية، والتى تم تصنيفها فى إطار إسهاماته الإمبريقية، وما يعرف بالجانب التطبيقى (الميدانى) لـ "فيبر" [1]. وهذا ما أشرنا إليه فى دراستنا حول علم إجتماع التنظيم Sociology of Organization، حيث سعى "فيبر" لإنشاء منظمة السياسة

---

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر، عبد الله عبد الرحمن، علم اجتماع التنظيم، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية،١٩٨٧.

الاجتماعية Social Policy Organization. وإهتم من خلالها بإجراء مجموعة من الدراسات الميدانية فى ألمانيا ومن أهم هذه الدراسات التطبيقية:

(١) دراسة مشاكل مصانع النسيج والكتان.

(٢) دراسة عن تباطئ العمل فى مؤسسات الإنتاج.

(٣) دراسة إقتناء السلع وقت الأزمات والحروب

(٤) دراسة االعلاقة بين الملاك والمستأجرين فى القطاع الزراعى.

حقيقة، لسنا في موضع لأن نسرد طبيعة الدراسات الميدانية والامبريقية، التى قام بها علماء الاجتماع الأوائل، أو المعاصرين منهم، أوحتى الدراسات الحديثة التى تعددت وتنوعت، بقدر ما نطرح بعض الأمثلة التى أشرنا فيها إلى إسهامات كل من "دور كايم"، و"فيبر" على سبيل المثال. وكيف حرص كل منهما على إختبار تصوراته النظرية والمنهجية معاً فى إجراء عدد من الدراسات الواقعية (التطبيقية) التى تعد من أهم الدراسات السوسيولوجية فى علم الاجتماع حتى الوقت الحاضر. ولاسيما، أن الدراسات الاجتماعية الامبريقية، جاءت لإختيار الإطار التصورى(النظرى) من ناحية، وتأسيس الأطر المنهجية التى ينبغى أن تتبع عند إجراء هذا النوع من الدراسات (الميدانية) من ناحية أخرى. وهذا ما تبلور عموماً فى قواعد المنهج عند " دور كايم"، أو مجموعة الدراسات الامبريقية التى أجراها "فيبر" بصورة عامة.

بإيجاز، إن تصنيف الدراسات النظرية والواقعية (الامبريقية)، يوضح لنا مدى تداخل الدراسات الاجتماعية، ولكن بالطبع إن عملية التطور التاريخى الذى شهده علم الاجتماع وفروعه المتخصصة المختلفة، تعكس لنا أن علم الاجتماع جاء أولاً، من خلال تصورات نظرية خالصة ولكنها حاولت إختيار قضايا ومشكلات وظواهر واقعية ملموسة. وهذا ما تبلور فى فلسفة "كونت" الوضعية، وقواعد المنهج الدوركايمى، ومقولة الفهم والنموذج المثالى عند "فيبر"؛ وما إلى ذلك من دراسات أخرى معقدة. ولكن ما لبث أن أنتشرت الدراسات الامبريقية (الواقعية)، التى كان لها دوراً كبيراً فى صقل الأبعاد النظرية والتصورية لعلم الاجتماع، وعدلت كثير من هذه التصورات بفضل إختبارها وتحليلها على الواقع الاجتماعى الملموس أو بفضل تطور مناهج البحث العلمى وطرق جمع بياناته المختلفة.

٦-أخلاقيات البحث الاجتماعي.

يصعب على الباحث الاجتماعي، أن يتناول أخلاقيات البحث الاجتماعي بصورة موضوعية تامة، ولاسيما أن الحكم على طبيعة موضوعية أو حياده العلمي أمراً يرجع إلى الأخرين وحكمهم على ذلك. كما يصعب أيضاً، أن نتناول قضية أخلاقيات البحث الاجتماعي بصورة عامة تشمل كافة جوانب متطلبات العمل الاجتماعي ومستوياته تجاه العلم، والمجتمع، وتحقيق الأهداف العامة للمؤسسات البحثية التى تتوعت بصورة كبيرة خلال السنوات الأخيرة. علاوة على ذلك، أن أخلاقيات البحث الاجتماعي، قد أصبحت من القضايا والموضوعات الهامة التي يتم معالجتها بواسطة الباحثين الاجتماعيين أنفسهم أو المهتمين عموماً بأخلاقيات وأدبيات البحوث الاجتماعية والطبيعية فى نفس الوقت. حقيقة، أن أيديولوجيات البحث الاجتماعى أو ما يعرف بسياسات البحوث الاجتماعية على إختلاف أنواعها وأنماطها، قد لعبت دوراً كبيراً فى توجيه مجريات وأهداف ونتائج هذه البحوث، والشواهد والأحداث مليئة بتلك الوقائع والأحداث التى جريت بصورة كبيرة خلال القرن العشرين.

على أية حال، إن إهتمامنا الحالى يتركز بصورة أساسية لإعطاء الباحث الاجتماعى المبتدئ، بعد الافكار العامة التى تدور حول أخلاقيات البحث الاجتماعى ومسئولياته التى تشمل كل من البحوث ذاتها وأهدافها، وأيضاً المسئولية المهنية Professional Ressponsibilities، للعاملين فى مجال البحوث الاجتماعية. ولاسيما، أن معظم قارئ هذا الكتاب، سوف يصبحون بصورة أو بأخرى باحثين إجتماعين وينضمون إلى فئة المهتمين عموماً بالمشكلات الاجتماعية(كمحترفين)، يجب أن توضع لهم بعض المعايير والأسس العامة لأخلاقيات البحث الاجتماعى، وما ينبغى أن تكون عليه مسئوليات مهنهم تجاه مجتمعهم ومؤسساتهم ونظمهم وايضاً فى أدوارهم البشرية عموماً. ومن هذا المنطلق، سوف نعالج أخلاقيات البحث الاجتماعى من خلال تناولنا لها من عدة مستويات وهى كما يلى:

أولا: تراث دراسة أخلاقيات البحث الاجتماعي.

حقيقة، أن تحليل التراث السوسيولوجي والاجتماعي لأخلاقيات البحث الاجتماعي، كانت موضع إهتمام كبير من جانب علماء العلوم الاجتماعية، وهذا ما تبلور في تحليلات رواده الأوائل من أمثال " أوجست كونت"، و "دور كايم"، و "سبنسر" وغيرهم آخرون. ولكن بالطبع، يجب أن نشير إلى تراث العلامة العربي "أبن خلدون" في مقدمته الشهيرة، عندما حدد متطلبات البحث العلمي والمعرفي والتاريخي، وما يجب أن يكون عليه صفات المؤرخ للأحداث الاجتماعية، الذي يجب أن يتوخى الدقة التامة، وأن يعالج أحداثه التاريخية ليس كمجرد سرد لأحداث مجردة عن واقعها الاجتماعي، ولكن يجب أن يهتم بتحليلها في سياقها المجتمعي الذي حدثت فيه. وهذا ما جاء في إنتقاد أبن خلدون للمؤرخ الشهير "الماسعودي" عند دراسته للتاريخ بصورة مجردة وجوفاء. علاوة على ذلك، لقد كان أبن خلدون ذاته مثالاً للباحث الاجتماعي الذي لم يعتمد على جمع البيانات بصورة تقليدية، بقدر ما جاءت معايشته وتنقلاته وترحاله من المغرب إلى المشرق العربي، علامة كبيرة لما ينبغي أن يقوم به الباحث عند جمع بياناته وتحليلها وكتابتها بصورة علمية وواقعية.

كما جاءت إهتمامات "كونت" عن الفلسفة الوضعية مؤشرا كبيرا لما ينبغي أن يهتم به الباحث الاجتماعي، والذي يجب أن يبتعد عن المثالية، واليوتوبية (المثالية) الفلسفية، ويسعى لأن يكون موضوعياً في تحليل أفكاره وتصوراته. كما ركز "دوركايم" في قواعد المنهج في علم الاجتماع، إلى أهم أدبيات الباحث والبحث الاجتماعي عموماً، وكيفية الالتزام بالحياد العلمي، والموضوعية، ومعالجة الظواهر على أنها حقائق As Facts، وغير ذلك من قواعد المنهج العلمي، الذي يجب أن يحتذي به الباحث عند تناول دراساتهم وبحوثهم النظرية والميدانية. وهذا ما أهتم به "ماكس فيبر"، عند معالجته لأخلاقيات البحث العلمي والدور الاجتماعي والمهني الذي ينبغي أن يقوم به طلاب البحث الاجتماعي وأيضا أساتذتهم، ومؤسساتهم العلمية وأصبحت مثل الجامعات والمراكز العلمية. ولاسيما أن "فيبر" ، كان مديراً لمنظمة للبحوث الاجتماعيية (منظمة السياسة الاجتماعية) التي أسهمت كثيراً في دراسة العديد من المشكلات والظواهر التي كانت توجد في ألمانيا وأوروبا خلال القرن

التاسع عشر وأوائل القرن العشرين[1].

حقيقة، أن الاهتمام بدراسة أدبيات وأخلاقيات البحث الاجتماعي تعتبر من المجالات الهامة ولاسيما أن جانبا كبيرا من هذه البحوث، توصف بأنـــها بحوث تقويمية Evalution Researches، أو بحوث تشخيصية Dignosis Researches، أو غير ذلك من أنواع مختلفة من البحوث الاجتماعيـة التـي تنوعت في السنوات الأخيرة. ولكن بالطبع، هناك الكثير من التساؤلات التـي تدور حول أخلاقيات هذه البحوث ومسئولياتها الاجتماعية، كما تدور تسـاؤلات كثيرة حول أخلاقيات الباحثين، وما ينبغي أن تكون علية هذه الفئة المهنية، بعد أن تزايد عددهم في القرن الماضي، وتنوعت الاعباء المهنية والأخلاقية، التـي يتحلوا بها عند معالجتهم للمشكلات والظواهر الاجتماعيـة، لأن مثـل هـذه المسئوليات وأهدافها هي التي تحدد القيمة العلمية والفائدة النفعية والاجتماعيـة من هذه البحوث عامة.

ثانياً : أخلاقيات البحث الاجتماعي.

في الواقع، أن هذه الأخلاقيات التي نطرحها حالياً، تجئ من خـلال خبرة الباحث وتجاربه في مجال البحوث الاجتماعية طيلـة الثلاثـون عامـاً الماضية، والتي نطرحها بصراحة وموضوعية عن طبيعة أخلاقيات البحـث الاجتماعي، وما ينبغي أن تكون عليه هذه البحوث. ثم سنشير بعد ذلك، إلـى أهم أخلاقيات الباحث الاجتماعي، في إطار تحليلنا بصورة مختصرة للمسئولية المهنية والاخلاقية والاجتماعية للباحثين في مجال البحوث الاجتماعية عامـة، والسوسيولوجية خاصة.

١- أهمية المشاكل البحثية: يجب أن تكون البحوث الاجتماعية جديرة بطـرح قضايا ومشكلات بحثية، تحتاج إلى المعالجة والدراسة والتحليل، وذلـك مـن أجل التوصل إلى علاج لهذه المشكلات، أو التصدي لها مستقبلاً، وهـذا مـا يعكس عموماً طبيعة أهداف البحث الاجتماعي عامة.

٢- التوجهات الايديولوجية للبحث: يجب أن تكون الخطة العامة للبحث بعيـداً

---

(١) توجد تحليلات هامة حول أخلاقيات المهن الاجتماعية في المرجع التالي:

-عبد الله محمد عبد الرحمن، إدارة المؤسسات الاجتماعية، الاسـكندرية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠١.

عن التوجهات السياسية والايديولوجية، التى تؤدى إلى الانحياز وعدم الحياد العلمى، فكثيراً ما تضيع أخلاقيات البحث العلمى الاجتماعى، نتيجة هذا النوع من التوجهات الايديولوجية والعنصرية أو السلالية أو الطائفية.

٣- موضوعية النتائج: يجب أن تحدد النتائج العامة للبحث بصورة دقيقة، بدون التدخل فى النتائج الأخيرة، التى يتوصل إليها، حتى يمكن أن توصف البحوث ونتائجها بالموضوعية، ووصف الحقائق كما هى بعيداً عن الأهداف غير الأخلاقية للبحث.

٤- الإهتمام بالبيانات والإحصاءات الفعلية: يجب أن يكون البحث وخطته العامة مركزه على جمع البيانات الواقعية، وماهو موجود فى الواقع، دون أرتكاب أخطاء متعمده، أو كتابة بيانات ناقصة، أو التعمد فى إخفاء أى بيانات مرتبطة بالقضايا والمشكلات المدروسة.

٥- التحديث والتجديد فى قضايا البحوث الاجتماعية: يجب أن توجه البحوث الاجتماعية، نحو معالجة قضايا اجتماعية جديرة بالدراسة والتحليل، وما أكثر هذا النوع من القضايا التى تفرض ذاتها أمام الباحثين نتيجة للمشكلات المتزايدة التى حدثت فى المُجتمع الحديث.

٦- ترابط الأفكار والعناصر العامة للبحث: لابد لأى بحث علمى، أن تكون عناصره وأفكاره متسلسلة سلسلاً منطقياً، وأن يعالج أفكار محددة وواضحة، ويهدف إلى إصدار نتائج ترتبط أساساً بأفكاره وتصوراته الآلية التى وضعها مسبقاً للإجابة عليها.

ثالثاً : أخلاقيات الباحث الاجتماعى.

هذه القضية تعرض لأهم مكونات المسؤولية المهنية والأخلاقية للباحثين الاجتماعين، الذين يعتبرون من أهم الفئات المهنية التى توجد فى المجتمعات الحديثة. وبالطبع، أن هذه المسئولية المهنية والأخلاقية تندرج تحت إطار المسئولية الاجتماعية Social Responsibilitiy، التى تعد من أهم القضايا العامة التى تواجه الفئات المهنية فى الوقت الحاضر، ويمكن الإشارة إلى عدد من المبادئ التى يجب أن يتبعها الباحث الاجتماعى:

١- النضج العلمى والوعى الكاف بمتطلبات البحث العلمى: يجب على الباحث أن يكون قد أتم مرحلة إعداده جيداً، ويكون لديه خبره كافية بمتطلبات البحث العلمى بدء من جمع البيانات، حتى كتابة التقرير النهائى للبحوث الاجتماعية، ويشمل ذلك معرفة الأساليب النظرية والمنهجية، وتحليل البيانات وغيرها من خطوات فنية وإجرائية لازمة.

٢- ضرورة التغلب على الصعوبات بمزيد من العلم والصبر: لكل بحث من البحوث الاجتماعية مشكلات جمه، فهناك مقدمات نظرية، ومنهجية، وإجرائية، وغير ذلك، فعلى الباحث أن يتسلح بالعلم والصبر، فى أداء مهنته وعلمه، حتى يشبع أولويات وضروريات هذه المهنة، أهمها الإشباع والرضا التام بالضمير الأخلاقى والمهنى.

٣- الأمانة الموضوعية: إن رسالة الباحث العلمى من الرسائل الاجتماعية الهامة والتى تنتج عموماً تحت إطار المسئولية الاجتماعية، فيجب أن يكون الباحث أميناً فى نقل المعلومات والمعارف، وأن يراعى الأسس المنهجية المتفق عليها، كما يجب أن يلتزم بالموضوعية والحياد العلمى كشرط ضرورى لتحقيق رسالته المهنية والاخلاقية.

٤- سرية البحث العلمى: يجب أن يراعى الباحث سرية البحوث العلمية التى يقوم بإجراءتها، كما يجب أن يحافظ على سرية المبحوثين، دون التعرض لإيذائهم، ولاسيما الفئات الاجتماعية البسيطة، التى أعطت له كثيراً من أفكارها وأرائها وتصوراتها، وتوسمت فيه الثقة الكاملة على جزء من حرياتها ومبادئها.

٥- وضوح أهداف البحث وتحديدها مسبقاً: من أهم متطلبات البحث العلمى وما ينبغى أن يقوم به الباحثين الاجتماعيين، وضوح الاهداف أو الأفكار العامة التى يسعى إلى تحقيقها. وهذا ما يجب أن يشير إليه الباحث للمبحوثين دون خداعهم فى بادئ الأمر، حتى يحصل على مايريد دون مراعاة إحترام المبادئ وأخلاقيات البحث العامة، وهى المحافظة على حريات ورغبات وآراء الآخرين.

٦- تبنى فكرة العلاقات العامة فى البحث الاجتماعى[١]: ويقصد بتلك الفكرة أن البحث الاجتماعى، يتطلب نوع من العلاقات العامة بين فريق البحث، ولاسيما إذا كانت عملية إجراء البحث تتطلب العمل الجماعى والتنسيق عموماً من أجل تحقيق أهداف البحث، وتنفيذ متطلباته الأساسية، ويشمل ذلك: التعاون التام، والأمانة العلمية، والسرية، والإتصال السريع مع الهيئات والمؤسسات أو عينات البحث، وغير ذلك من متطلبات مهنية وأخلاقية متعددة.

---

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر: حسن الساعاتى، تصميم البحوث الاجتماعية، مرجع سابق، ص٤٢- ص٤٥.

الفصل الثانى
نشأة البحث الاجتماعى وتطوره

تمهيد:

١- مرحلة ما قبل ظهور الاجتماع.

٢- مرحلة النشأة المبكرة لعلم الاجتماع.

٣- مرحلة المداخل البحثية السوسيولوجية الحديثة.

(أ) المدخل التنظيمى الحديث.
(ب) المدخل الايكولوجى.
(جـ) المدخل التفاعلى الرمزى.
(ء) المدخل الفينومينولوجى.
(و) المدخل الأثنوميثودولوجى.

تمهيد:

تعتبر عملية النشأة التطورية لكل من علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الاخرى من الدراسات الهامة، التى تساعد القارئ أو الدارس المبتدئ، أن يتعرف بوضوح على مجموعة العوامل والأسباب التى أدت إلى وجود هذه العلوم وكيفية تطورها خلال العصر الحديث. كما تعكس لنا عملية دراسة تطور البحث الاجتماعي، طبيعة تطور العقل الاجتماعى من ناحية، وتطور المجتمعات من ناحية أخرى، هذا بالإضافة إلى معرفة الظواهر والمشكلات والقضايا التى تم طرحها بواسطة علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى خلال مرحلة العصر الحديث. فى نفس الوقت، إن دراسة هذه القضايا والمشكلات تعكس لنا طبيعة الحاجات المجتمعية، التى جعلت من هذه القضايا والمشكلات - قضايا بحثية - تم معالجتها بصورة علمية ومميزة. حقيقة، أن دراسة المشكلات والظواهر الاجتماعية لم تأتى من فراغ، بقدر ما جاءت كإنعكاس لحاجة المجتمع بضرورة دراسة هذه المشكلات، ولاسيما أن المجتمع الحديث يسعى دائماً للتغلب على كل من العوامل والظروف البيئية الطبيعية والاجتماعية فى نفس الوقت.

ومن هذا المنطلق، يهتم علماء المناهج والبحث العلمى السوسيولوجى، بدراسة كيفية تطور البحوث والدراسات الاجتماعية ولاسيما خلال القرن العشرين، أو لتحديد خلال العصر الجديث. وخاصة، أن النشأة التطورية الأولى لعلم الاجتماع، كأحد العلوم الاجتماعية الهامة، جاء مع ظهور المجتمع الحديث، ليتناول بصورة خاصة لمجموعة التغيرات الاجتماعية والإقتصادية والثقافية التى نتجت عن هذه التغيرات وإنعكاسها على كل من البناءات والنظم والسياسات الاجتماعية المختلفة. من ناحية أخرى، أن عملية تطور البحث الاجتماعى لم تحدث فجأة فى العصر الحديث، بقدر ما جاءت نتيجة لتطور تاريخ البحث الاجتماعى، أو بعبارة أخرى، بنتيجة لتطور الفكر الاجتماعى عبر العصور التاريخية السابقة. إلا أن عملية الدراسة والبحث العلمى الحديث، إرتبطت بالطبع بظهور علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية الحديثة، التى صاحبت عملية تطور المجتمعات البشرية الحديثة.

على أية حال، نسعى خلال هذا الفصل للتركيز على نشـــأة البحـــث الاجتماعي وتطوره، متناولين أولاً، كيف تطور هذا البحث قبل ظـــهور علـــم الاجتماع، وخاصة أن تاريخ الفكر الاجتماعى جاء منذ فترة بعيدة قبل ظـــهور علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية. كما سنعالج أيضاً، كيف تطـــور البحث الاجتماعى (السوسيولوجى) بصورة خاصة خلال مرحلة نشـــأة علـــم الاجتماع، أو ما يعرف بمرحلة عصر الرواد الأوائل الذين أسسوا هذا العلـــم؟ ولاسيما، أن إسهامات هؤلاء الرواد عكست بصورة مميزه كيفية تطور الأسس النظرية، والقضايا المنهجية البحثية، التى كان يعالجها علماء الاجتماع بصورة عامة. من ناحية أخرى، سنركز ايضاً على كيفية تطـــور هـــذه الإســـهامات السوسيولوجية والبحثية المنهجية، وكيفية معالجة علمـــاء الاجتمـــاع لقضايـــا المجتمع، التى عاصروها بالفعل وخاصة الجيل الثانى من علمـــاء الاجتمـــاع بصورة عامة، وكيفية تأسيسهم لمجموعة من المداخل السوسيولوجية النظريـــة والمنهجية، التى تستخدم فى دراسة المشكلات والقضايا والظواهر الاجتماعية، التى أصبحت موضع إهتمام للعديد من المهتمين عموماً بقضايا البحث العلمـــى فى الوقت الحاضر.

١- مرحلة ما قبل ظهور علم الاجتماع.

ما من شك أن مرحلة تطور العلم قد سبقت بكثير نشأة علم الاجتماع، الذى يعتبر أحد العلوم الحديثة نسبياً مقارنة بغـــيره مـــن العلـــوم الإنســـانية والطبيعية. هذا إذا ما حاولنا أن نحدد النشأة الأولى لـــهذا العلـــم، وإن كـــان بالطبع، إهتمامات إبن خلدون فى علم العمران، الذى أشار إليه فـــى مقدمتـــه الشهيرة، وتنسب إليه تسميته لعلم الاجتماع خلال العصور الوسطى الإسلامية. كما ان تاريخ الفكر الاجتماعى يمتد جذوره إلى قبل هذه العصور، ولاسيما أن تطور الفكر الإنسانى يرجع إلى مرحلة ظهور الحضارات الأولى، وخاصـــة الحضارات الشرقية القديمة (الفرعونية - البابلية - الآشورية - والهنديـــة - والصينية) وغيرها، كما أيضاً إلى حضارات الغرب التى تمثلت فى الحضـــارة الإغريقية (اليونانية القديمة). على أية حال، إن إهتمامنا الحالى سوف يشـــير بصورة موجزة إلى طبيعة تطور أساليب التحليل العلمى والنظرى والمنـــهجى، التى عززت بعد ذلك من نشأة مناهج البحث العلمى المتطور، والتى ظـــهرت مع نشأة علم الاجتماع خلال البدايات الأولى من القرن التاسع عشر

ومن هذا المنطلق، سنعرض أهم أنماط التحليل العلمى والبحث للمشكلات الاجتماعية أو التى شغلت الفكر الإنسانى خلال مرحلة ما قبل ظهور علم الاجتماع، والتى يمكن أن نصنفها من خلال عرضنا للمراحل التصنيفية التقليدية للتطور التاريخى لنشأة العلم كما يلى:

(١) العصور القديمة[١].

أولاً: الحضارات الشرقية:

كشفت تحليلات المؤرخين وعلماء الآثار والأنثربولوجيا والسياسة والفلسفة، وغيرهم، عن طبيعة أنماط من التحليل العلمى المميز الذى كان موجوداً خلال العصور القديمة(الفرعونية). فلقد أهتم الفراعنة بإستخدام مناهج علمية وبحثية، لاتزال لغزاً محيراً لكل من يهتم بدراسة هذه الظاهرة حتى الوقت الراهن. كما أهتم الفراعنة بدراسة مشكلاتهم البيئية والإقتصادية والسياسية فى إطار معتقداتهم الدينية التى كانت مصدراً للإلهام والتفكير المستمر، وذلك لأيمانهم بحياة البعث بعد الممات. كما يعالج الفراعنة تصوراتهم عن الآله، والاساطير ودراساتهم للهندسة والعمارة والزراعة والرى، من خلال تبنيهم لأساليب علمية ودقيقة جداً أتُبع فيها أحدث التصورات التى ساهمت عموماً فى بناء حضارة شامخة لاتزال تتحدى التاريخ عبر العصور المختلفة، ولتكون شاهد عيان على نوعية إستخدام الفراعنة كافة الأساليب البحثية، التى ربطت بين حياتهم الطبيعية(البيئية) والاجتماعية بحياتهم الدينية بصورة عامة.

كما جاءت معالجات علماء ومفكرى الحضارة الهندية والصينية القديمة، لتعكس لنا مدى تفوق هذه الحضارة فى مرحلة كان فيها الغرب يعيش فى ظلام مستمر. فلقد أهتم الصينيون القدماء بأساليب متطورة فى بحث المشكلات والقضايا والظواهر التى كانت توجد فى محيطهم البيئى الطبيعى والاجتماعى. فإهتموا ببناء السدود لتنظيم عمليات الرى وتطور الزراعة وإنتاج المحاصيل الزراعية التى تشبع حاجات شعوبهم وتعكس عموماً طبيعة

---

(١) يمكن الرجوع للمرجع التالى للمزيد من التفاصيل:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، تاريخ الفكر الاجتماعى، الاسكندرية، دار المعرفة، ١٩٩٩.

التقدم الحضاري والعلمي الذى ساعدهم في السيطرة على هذه الطبيعة ثم جاءت ايضاً، أهتماماتهم فى مجال الرى والزراعة والهندسة وبناء الأسوار الكبرى (مثل صور الصين العظيم) الذى يعد أحد المعالم الاثرية الكبرى حتى الوقت الحاضر، ولتعكس مدى العلاقة بين أنماط الفكر الصينى (المادى) الذى سعى للسيطرة على البيئة الخارجية، والتعاليم الكونفوشوسية التى بنيت على أساس أخلاقى ودينى فى نفس الوقت. ولاتزال حتى الوقت الحاضر تبرهن على مدى العلاقة بين التقدم العلمى المادى والطابع الأخلاقى، الذى يقوم على أسس ومبادئ سامية وتعكس نزعية التراث الشرقى الصينى القديم.

وهذا ما تبلور أيضاً فى حضارة الهند القديمة، التى لم تظهر إلا من خلال نسق معين من التفكير السليم وإستنتاج طرق وأساليب معينة، للتغلب على المشكلات والظواهر البيئية الاجتماعية والطبيعية المادية فى نفس الوقت. فلقد أهتم الإنسان فى الهند القديمة بدراسة كيفية تغلبه على الطبيعة الخارجية، فى إطار مجموعة من التعاليم الاخلاقية والدينية القديمة، وهذا ما جاء فى التعاليم (البوذية) التى كانت بمثابة مجموعة من المبادئ والقواعد العامة التى يجب أن يحتذى بها كل من العلماء والفلاسفة والمفكرين وأيضاً الأفراد العاديين. تلك التعاليم الأرضية التي لاتزال تسيطر على نسق المعتقدات الفكرية والأيديولوجية العامة، والتى توجه حياة الشعب الهندى حتى الوقت الراهن وإن كان بالطبع، تم تحديث الكثير من أساليب التغير والبحث العلمى المتطور، الذى جعل من الهند دولة متقدمة إقتصادياً وسياسياً بالرغم من مشاكلها الداخلية مثل السلالات واللغة والفقر وغيرها. بإيجاز إن نمط الحياة الهندية القديمة، لايختلف كثيراً عن نمط الفكر وأساليب دراسة الظواهر والمشكلات البيئية والطبيعية والاجتماعية التى كانت موجودة فى الحضارة الشرقية القديمة، والتى ربطت بين نمط التفكير المادى والبحث فى الأشياء والظواهر المادية من خلال التفكير الدينى والأخلاق.

ثانياً: الحضارة الإغريقية:

بدأت الحضارة الإغريقية من منظور بحثي ومهنى مختلف نسبياً عن الحضارات الشرقية مثل الفرعونية أو الهندية أو الصينية القديمة، حيث جاءت آراء كل من سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، على سبيل المثال لتجعل من العقل

البشرى أداة للتفكير أو البحث العقلانى، الذى يتناول بالدراسة والتحليل كافة الظواهر والمشكلات الواقعية، والميتافيزيقية، و الفلسفية فى نفس الوقت. فلقد إستخدم سقراط على سبيل المثال، منهج بحثى مميز يسمى منهج التحكم والتوليد، من أجل تحليل الأفكار والآراء والمعتقدات لدى الآخرين، ثم يبدأ مرحلة أخرى، وهى الإزدراء والتهكم عليها، من أجل خلق نوع من الشك وعدم اليقين عند خصومة من الفلاسفة إو السفسطائين. ثم يبدأ مرحلة أخيرة، وهى بث الأفكار والأراء الجديدة، التى يسعى لأخضاع خصومة بقبولها بدلاً من أفكارهم الأصلية، وتسمى مرحلة التوليد، للإفكار الجديدة. وهدا ما إستخدمه سقراط فى منهجه العلمى المميز، الذى لايزال يرتبط بمحاور دراسته الفلاسفية المعروفة. كما جاءت أفكار سقراط وتصوراته فى محاربة الأفكار والإدعاءات التى سعى أعداؤه لتلفيقها إليه، وإن يناقش هذه الإسهامات بصورة عقلانية، ومتبنياً أسلوب البحث أو المحاور الفيلسوف الشجاع، الذى يدافع عن أفكاره بصورة منطقية وفلسفية وأخلاقية فى نفس الوقت، وهذا ما ظهر فى محاوراته أو دفاعه أمام عملية محاكمته الشهيرة.

أما تلميذه أفلاطون، فلقد تبنى مدخلاً فلسفياً مثالياً طرح فيها تصوراته الخالصة، والميتافيزيقية وأصبحت فيما وراء الطبيعة، كما حرص على دراسة المشكلات والظواهر الواقعية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بصورة تحليلية، تعكس فى مجملها طبيعة النسق العلمى أو العقلى لدى فلاسفة الإغريق. كما طرح أرؤه المثالية عن المدينة الفاضلة (المثالية) بصورة تحليلية رائعة لاتزال تشغل العقل البشرى حتى الوقت الراهن، حيث جاءت أفكار أفلاطون المثالية، لتناقش قضايا واقعية شغلت إهتمامه كمواطن إغريقى وفيلسوف متميز مثل تصوراته عن الطبقات الاجتماعية، وعلاقة الحاكم بالمحكومين، وطبيعة المهن الاجتماعية، والحاجة إلى التعاون، وحجم وأنواع السكان، وطبيعة الغذاء، وغير ذلك من آراء ومشكلات طرحها للمعالجة على أساس التفكير العقلى الواقعى والمثالى فى نفس الوقت.

أما أرسطو، تلميذ أفلاطون، فتوصف تحليلاته الفلسفية والسياسية والاقتصادية والمنطقية فى إنها تحليلات واقعية وموضوعية، وبعيدة عن التصورات المثالية التى ظهرت فى فكر استاذه فلقد ناقش أرسطو فى

محاوراته المتعددة طبيعة السياسة، والدولة القومية، والسلطة السياسية، وأنواع الحكومات وتصنيفاتها المنطقية سواء أكانت فاسدة أم ناجحة. كما ناقش قضايا أخرى ترتبط بالعلاقات الاجتماعية بين الفئات المتصارعة في المجتمع البشرى، وعلاقة الإنسان بالمجتمع، ونوعية البناءات الأسرية والجماعات الاجتماعية، وعملية التغير الاجتماعى، وأنماط الثورات الاجتماعية، والسياسية، وحقوق المواطنة، وطبيعة الثروة والملكية، وكيفية شغل وقت الفراغ والعمليات الثقافية والترفيهية، التى يجب أن يتمتع بها المواطن في دويلات الإغريق القديمة، وغير ذلك من قضايا ومشكلات وظواهر إجتماعية إعتمد فيها على أبعاد تحليلية ومنهجية بحثية متميزة، وخاصة إستخدامه للعقل الإنسانى كمحور للتفكير ودراسة طبائع الاشياء التى توجد فى البيئة الخارجية. كما إستخدم الملاحظة فى تحليله لكثير من هذه المشكلات التى حللها بصورة واقعية ومنطقية، لاتزال فى مجملها تعكس نمط الفكر المنهجى الأرسطى حتى الوقت الحاضر.

(٢) العصور الوسطى:

أولاً: العصور الوسطى المسيحية:

جاءت العصور الوسطى المسيحية بأنماط أخرى من التفكير والتحليل والدراسة البحثية، التى إرتبطت بالنسق الدينى الكنيسى الذى سيطر على العقل البشرى فى أوروبا لعدة قرون طويلة، وهذا ما جاء فى تحليلات القديس أوغسطين ST. Augustine، والقديس تونى لاكوينى ST. T. Aquinas، على سبيل المثال. فلقد أهتم الأول بطرح نمط معين من التفكير العلمى الذى أتسم بالطابع الدينى والأخلاقى المسيحى، وناقش العديد من القضايا الهامة ولاسيما قضية المعرفة الإنسانية Human Knowledge حيث حاول أوغسطين أن يستخدم التحليل العقلى المنطقى فى دراسته للكتاب المقدس، وأن يتعمق فى معاينه وأفكاره وفهمه ومبادئه. وإن كان يرى بعض المحللين لأفكار وأسلوب أوغسطين فى الدراسة والبحث العلمى أنها تشبه إلى حد كبير تحليلات أفلاطون المثالية. وإن كانت مثالية أوغسطين قد جعلت بين المسيح عليه السلام والكتاب المقدس مثالاً، يجب أن يحتزى بهما من قبل المؤمن أو المواطن المسيحى سواء فى المعاملات السلوكية البشرية، أو الإيمانية

العقائدية(١). وهذا ما ظهر على سبيل المثال فى تحليلـه لمكونـات المعرفـة الإنسانية وأحداثها، ومن أجل سعى الإنسان للتزود بها وتحقيق الرضا النفسـى والسكينة، والسعادة عن طريق إستخدامه للعقل ذاته. هذا بالإضافـة، إلـى أن أوغسطين، سعى أيضاً لدراسة العديد من القضايا الفكرية التى شغلت العقـل الإنسانى خلال العصور الوسطى أو حتى الوقت الحاضر، قبل دراسته المميزة عن الإدارة، والتغير والتطور، ودراسته لأنماط الفترات التاريخية، والقـانون والملكية وغيرها من القضايا البحثية والفكرية الهامة.

أما توما لاكوينى، فجاءت أفكاره وتصوراته العقلية والبحثيـة مـن خلال طرحها فى مؤلفاته التى أطلق عليها بالخلاصات، مثل الخلاصة الأولـى (فن الوثنيين) ، والخلاصة الثانية، اللاهوتية، ورركز من خلالـهما بتفسـير وشرح أعمال أرسطو الواقعية، ومن أهمها تفسير العبارة، والبرهان، والسماع الطبيعى، والسماء والعالم، والنفس، والحس والمحسوس، وما بعـد الطبيعـة، والسياسة، والكون والفساد، كما حاول لاكوينى، أن يركز على إستخدام العقـل بصورة أكثر واقعية عن أوغسطين، الذى أشتملت تحليلاته بالفكر المسـيحى (اللاهوتى)، حيث أهتم لاكوينى، بضرورة فصل العديد من الفلسفة، وحـرص إهتمامه للربط بين الابحاث والمعرفة الطبيعية، وما يعرف بالصلة بين العقـل والفعل. حيث أكد على وجود سبقة جدلية للعقل على المعرفـة الطبيعيـة أو الإدراك الإنسانى وعلى اية حال، لقد تأثر لاكوينى كثيراً بالمنـهج التحليلـى الجدلى عند أرسطو، وأكد على أن العقل يعتمد على الخـبرات الحسـية فـى تكوينه للمعرفة الإنسانية سواء أكانت معرفة محسوسـة أم ماديـة أو عقليـة خالصة. كما يعالج لاكوينى ايضاً، قضايا فلسفية ومنهجية هامة عنـد تحليلـه لمشكلة السياسية والقانون، والحرية والملكية، والأخلاق، تلك القضايـا التـى إستمدها أولاً من الفلسفة الإغريقة وايضاً من الديانة المسيحية، ومحـاولاً أن يبرهن على قدرة العقل الإنسانى فى البحث وبرهنة الأشياء والحقائق.

---

(١) أنظر على سبيل المثال:

Foster, M.B, Master of Pditical Thought vol.(1), London: Geoyge: Group LTD,1981.

ثانيا: العصور الوسطى الإسلامية:

جاء الفكر الاسلامى ليضيف أبعادا جديدة فى طرحه الدراسة و التحليل وتعقل الأشياء، وخاصة لإستخدام العقل الإنسانى كأداة معرفية للتحقق من الظواهر والشواهد الواقعية، وإعطاء الحرية الكافية للفرد فى دراسة ما حوله من ظواهر دنيوية ودينية في نفس الوقت وخاصة، بعد أن سيطرت أنماط عقلية جامدة على منطقة الشرق الأوسط خلال فترة الحكم الرومانى وفترات المسيحية، التى جعلت من الآراء الكنيسية مصدراً أساسياً، لكل من يحاول أن يبحث فى الحقائق الخارجية أو الدينية عامة. وجاءت المراحل الأولى من نشأة الدولة الإسلامية لتعزز منزلة العلم والعلماء، وتجعلهم فى المرتبة التالية للأنبياء، إحتراماً لمكاناتهم وعقليتهم فى بحث دراسة وتحليل الاشياء الخارجية التى تحيط بالبشرية. كما تطورت مكانة العلم والعلماء المسلمين، ولاسيما بعد أن تبنوا العديد من المناهج التجريبية والأساليب العلمية، التى تعتمد على التجربة والملاحظة والشواهد الحسية المتعددة وهذا ما أسهم عموماً فى تكوين الحضارة الإسلامية، وبروز علمائها فى الطب، الهندسة، والكمياء، والفلك من أمثال " أبن سينا " و " جابر أبن حيان "، و " الرازى " ، و " الطبرى "، " أبن الهيثم " وغيرهم آخرون.

وجاءت معظم تصورات هؤلاء العلماء ة والمفكرين و الفلاسفة لتضيف للعقلية الشرقية والعربية خاصة، أمجاد هائلة فى مجال البحث العلمى، التي تعددت مجالاته بصورة عامة. وفى إطار تبادلنا لتطور أنماط وبحوث الاجتماعية نشير بإيجاز شديد إلى كل من أحمد المقريزى(١٣٦٤م-١٤٤٢م)، ايضاً أستاذه أبن خلدون (١٣٣٢م-١٤٠٦م). حيث تميزت تحليلات كل منها بطابع مميز فى البحث العلمي وخاصة إهتماماتهم بالتحليلات الاجتماعية وطرق البحث الاجتماعى فقلد أهتم المقريزى فى كتابه الشهير آغاثة الأمة بكشف الغمة، أن يطرح منهجاً علمياً مميزاً عند دراسته الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والطبيعية أيضاً. ولاسيما، أيضاً أنه يعمل بمجال الإدارة، والتدريس لسنوات طويلة فى مصر وهذا ما وضعه فى مؤلفه عن الخطط المقريزية، التى تشمل بُعداً تحليلاً إجتماعياً وتاريخياً وسياسياً وإقتصادياً فى نفس الوقت. ولن نناقش كثيراً من القضايا والمشكلات التى

طرحها المقريزى، بقدر ما نشير إلى المنهج العلمى الذى تميزت به تحليلاته: فلقد تبنى عدد من الأدوات البحثية والمنهجية والتي لاتزال تعتبر مرجعاً أساسياً للعديد من علماء الاجتماع والأنثربولوجية ، والسياسة والإقتصاد حتى الأن. وخاصة أنه تناول مشكلات إجتماعية مثل الجماعة، والنساء والعديد من المشكلات الاقتصادية والسياسية التى ظهرت فى مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ومن اهم الأدوات التى إستخدامها المقريزى هى: (١) الملاحظة بالمشاركة، (٢) المقارنة، (٣) الإطلاع على الدراسات السابقة، (٤) إستخدام الإخباريون[1].

أما العلامة العربى (ابن خلدون) وفكره ومنهجه المتميز، قد فرض ذاته على جميع علماء الاجتماع الاوروبين خاصة فى العقود الاخيرة من القرن العشرين، ولاسيما العلماء الذين سعوا للتحقق من فروضهم العامة التى طرحتها حول من هو مؤسس علم الاجتماع الحقيقى ؟. هل هو ابن خلدون أم أوجست كونت ودوركايم؟. حقيقة أن تحليل التراث المعرفى والاجتماعى، يوضح أن هناك العديد من المقالات والكتابات التى سعت إلى تثبيت العالم العربى (أبن خلدون) وجعله المؤسس الأول لعلم الاجتماع أو ما أسماه بعلم العمران. ولاسيما، أن ظهر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، أى قبل كونت، بما يقرب من خمس قرون من الزمان. كما جاء هذا الإهتمام الغربى بعد نشر مقدمة أبن خلدون إلى الفرنسية عام ١٨٠٦م بواسطة "إسحاق دى ساس" S.Sacy وذلك باللغة الفرنسية. كما توالت بعد ذلك نشر هذه المقدمة، ومقالات مطولة وحولها باللغة الألمانية خلال الفترة من ١٨١٢-١٨١٦ لتبرهن على حتمية إنتقال تحليلات أبن خلدون إلى العالم الأوروبى قبل نشأة أو ظهور المدارس الأوروبية الاجتماعية المبكرة.

على أية حال، أن ما يعنينا حالياً، هو إعطاء فكرة موجزة عن إسهامات أبن خلدون المنهجية حيث يعد المنهج الخالدونى من أهم المناهج الاجتماعية المميزة، فقلد أعتمد فى دراسته للمشكلات والظواهر الاجتماعية

---

(١) لمزيد من التفاصيل:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، تاريخ الفكر الاجتماعى، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩.

على ملاحظة هذه الظواهر ودراسنها وتحليلها بصورة واقعية وملموسة. وجاء ذلك عن طريق الترحال والسفر، والملاحظة بالمشاركة، ومعرفته كبائع الاشياء والشعوب والجماعات والطبقات الاجتماعية. كما ساعد ذلك ايضاً التعرف بوضوح على طبيعة حدوث وتكرار الظواهر والتفكير في أسباب حدوثها، وتفسير العلاقات المتداخلة بينها والعوامل التى تشكلها وتحدثهاعموماً.

وعلى أية حال، يتكون المنهج العلمى عند أبن خلدون فى دراسته للظواهر الاجتماعية، ويستخدم هذا المنهج فى مرحلتين اساسيتين وهما: أولاً مرحلة الملاحظات الحسية التاريخية لظواهر الاجتماع، وثانياً: مرحلة دراسة العلميات العقلية، التى يمر بها على الظواهر المراد دراستها وتحليلها. ويهدف هذا المنهج، لإعطاء فرصة للباحث لأن يصل إلى ما يصبو أو يهدف إليه مُن العلم، ألا وهو الكشف عن القوانين التى تحكم الظواهر الاجتماعية وتفسيرها تفسيراً علمياً وبإيجاز، يمكن القول بأن خطوات المنهج العلمى عند أبن خلدون تتمثل فى المجموعة من الخطوات التالية[1]:

١- الشك والتمحيص.

٢- التشخيص المادى الدقيق.

٣- معرفة أسباب الظواهر وطبيعة العمران.

٤- إستخدام القياس والإستدلال بالشواهد.

٥- تفسير البيانات وتحليلها.

٦- التصميم والوصول إلى القوانين بصورة جذرية.

تلك هى أهم خطوات المنهج العلمى الاجتماعى الذى تبناه أبن خلدون فى دراسته للظواهر الاجتماعية. التى أسس بها علم الاجتماع العمرانى أو الإنسانى، والتى سبق فيها غيره من علماء الاجتماع.

٣- عصر الإصلاح والتنوير.

أتسمت التحليلات الفلسفية والسياسية التى ظهرت خلال العصور الوسطى المسيحية بالطابع الدينى (اللاهوتى) والأخلاقي، والتى جاءت نتيجة سيطرة السلطة الدينية الكنيسية فى أوروبا لعدة قرون طويلة سميت حسب تصورات العلماء الغربين أنفسهم، بأنها عصور الظلام الدامس. نظراً لأن تلك

---

(١) أنظر : عبد الله محمد عبد الرحمن، المرجع السابق.

الفترة لم تسمح للعقل البشرى، بأن يتقدم خطوه واحدة تجاه البحث عن الحقيقة أو التمحيص فى الظواهر والأشياء التى توجد فى البيئة الطبيعية الخارجية. وإن كانت قد ظهرت عدة محاولات جريئة للبحث عن علل الظواهر ومعرفة أسباب حدوثها وتكرارها، إلا أن تلك المحاولات تم التصدى لها ببطش وقوة من جانب رجال الكنيسة الأوروبية. وهذا ما جعل الفكر الأوروربىالغربى خلال تلك العصور مرتبطاً بالتغيرات الدينية والاخلاقية كما أشرنا إلى ذلك سلفا. فى مقابل ذلك، وجدنا نهضة إسلامية شرقية ظهرت فى العالم العربى، وأهتمت بإستخدام العقل والمنطق والتحليل العلمى فى مختلف التخصصات، التى عكست بعد ذلك نهضة وحضارة إسلامية مهدت،كلية لتطور الفكر الاوروبى خلال عصور النهضة والإصلاح بصورة عامة.

وجاءت الإستكشافات الجغرافية للعديد من دول أوروبا التى أمتدت إلى نصف الكرة الجنوبى والولايات المتحدة، لتبنى أسلوب البحث العلمى والتحرر النسبى من السيطرة الكنسية، والبحث عموماً من أجل الثروة والمال والسيطرة عن طريق تطوير أساليب البحث العلمى بكل معانيه. وتعكس العديد من مؤلفات وكتابات رواد عصر النهضة والإصلاح الأوروبين خلال القرنين الخامس عشرن طبيعة أساليب البحث العلمى الواقعى التى تبنتها هذه المؤلفات. والتى ظهرت فيها ايضا حركات التمرد ضد السلطة والكنيسة، وإن كانت مصطبغة بالإسلوب الفلسفى فى بادئ الأمر. ولاسيما يعتبر كتاب الأمير The Prince لميكافيللى Machiavelli وايضاً مؤلف الجمهورية The Reupublic لجان بودان J.Bodin خير تمثيل لهذه الفترة فلقد ظهرت أفكار ميكافيللى (١٤٦٩-١٥٢٧)[١] لإبراز طبيعة البشر الإنسانية وطموحهم لتحقيق الثروات والحياه والسلطة، بأى وسيلة إن كانت سواء عن طريق المؤامرات السياسية او الثورات أو الفساد وما إلى ذلك من وسائل مشروعة وغير مشروعة، تؤكد على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة تلك النزعة الميكافيللية التى عكست بصورة عامة ضرورة إستخدام كافة الوسائل فى تحقيق الأهداف وإن كانت تحليلات

---

(١) أنظر على سبيل المثال:
Fletcher, R, The Macking of Sociology vol. (1) London: Thoma Nelson, 1972

ميكافللى جاءت من خلال إقتناع بضرورة وجود قيادة سياسية قوية تبرز فيها دور الأمراء والحاكم الذى يستغل كل شئ فضيلة أم رزيلة لبلوغ غاية وهدف لإقامة دولة قوية ذات طابع سياسي.

أما آراء"بودان" التى ظهرت فى السادس عشر فى كتابه (الجمهورية) فلقد شمل أهتمامه على دراسة وتحليل عدد من القضايا والمشكلات الاجتماعية والسياسية والدينية التى شغلت مفكرى عصر النهضة ولاسيما قضايا (السيادة) والإصلاح السياسى، وحدود السلطات الدينية وعلاقتها بالسلطة السياسية، وإمتيازات النبلاء والطبقات الحاكمة، وتاثير العوامل الداخلية والخارجية على بناءات السلطة، وقضية إنشاء الدولة القومية، وإصلاح القوانين السياسية والإقتصادية، والإدارية وغير ذلك من قضايا متعددة. ولقد إستخدم بودان فى تحليلاته المدخل أو المنهج التحليلى المقارن ولاسيما عندما جعل هذه القضايا السابقة، ومحاولاً أن يتنبأ بالشواهد والدولة التاريخية والقانونية. ويسمى من الناحية المنهجية والبحثية. الإستعانة بالتاريخ مدخل أو منهج مميز للدراسة والتحليل[١]. من ناحية أخرى، لقد أنتهج بودان، نظرية عامة جعلها نقطة أنطلاق تصوراته بالسياسية والدينية، وهى نظرية الحكم المطلق(الملكية) أو نظرية السلطة الملكية المطلقة التى ظهرت فى الدول القومية الأوروبية والتى تمتعت بالمبدأ العام المرتبط بالحق الإلهى للملوك، وساهمت فى التخلص من الحكم المطلق أو التفويض الإلهى للسلطة الكنيسة البابوية.

وخلال القرن السادس عشر والبدايات تنتشر فى أوروبا السابع عشر، ظهور علم الإحصاء كأحد العلوم الوظيفية. التى بدأت تنتشر فى أوروبا بأسرها ولاسيما، بعد ظهور علماء الحاسبون السياسيون[٢] Political Arichmeticans، الذين ظهرو منذ بداية العصر العلمى، ولاسيما، بعد أن تولت إستخدام البحث العلمى فى العديد من المجالات الطبيعية مثل(الفيزياء)، والتى أكدت على أهمية الملاحظة والتجربة كأساليب للبحث العلمى كافة. كما ظهر هذه الفترة مجموعة العلماء البارزين من أمثال فرنسيس بيكون، وجاليلو،

---

(1) Foster, M.B, Master of Politicat Thought op: cit.

(٢) لمزيد من التفاصيل :أنظر، السيد عبد العاطى السيد، علم إجتماع السكان، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٨.

وهارفى، وكبلر، الذين أكدو على أهمية منهج الملاحظة العلمية فى دراسة وفهم مشكلات وظواهر العالم الطبيعى. كما جاءت أهتمامات الحاسيون السياسيون مختلفة فى تحليلات كل من " جون جرونت " J. Graunt، وسيرولهم بيتى S.W.Petty، وجوهان سيسملش J. Sussilch،وغيرهم آخرون لتؤكد على أهمية إستخدام الإحصاء ودراسة كافة المشكلات الإقتصادية والاجتماعية وهذا ما ظهر فىتحليلهم لإعداد أو إحصاء السكان. وقوائم المواليد، والموظفات، والضرائب، وأسعار السلع والأطيان، والمحاصيل الزراعية، ورأس المال والثروة، وعدد الجيوش، وغير ذلك من تحليلات إعتمدت على المنهج الإحصائى الاجتماعى، الذى إستخدام بصورة كبيرة، على أسسه علم السكان والإحصاء، وكان الباعث الأول لظهور تحليلات مالتوس الهامة بعد ذلك. وبإيجاز، أن أفكار الحاسبون السياسيون، جاءت معاصرة لأفكار العالم الشهير إسحق نيوتن J. Newton، الذى كان له الفضل الأكبر فى تأكيده على الأسلوب العلمى لإكتشاف القوانين الطبيعية.

ما من شك، أن تطور حركة البحث العلمى أخذت أنماط أكثر أنتشار ولاسيما بعد ظهور أصحاب نظرية العقد الاجتماعى Social Contract Theory، التى ظهرت خلال القرن السابع عشر ممثلة فى تحليلات كل من توماس هوبز .T. Hobbes (١٥٨٨- ١٦٧٩) وجولولوك J. Lock (١٦٢٢-١٧٠٤)، وجان جاك J.Rousseam (١٧١٢- ١٧٧٨).[1] وركزت آراء هذه النظرية على أهمية إستخدام العقل والمنطق كاسلوب للدراسة والتحليل لأستبدال نظرية (العقد الاجتماعى) بدلاً عن نظرية (التفويض الإلهى المطلق) ومحاولة أن تختبر مجموعة الخصائص السيكولوجية والذاتية والغريزية لدى الأنسان سواء فى مجتمعه الاول(البدائى) وحتى المجتمع الحديث، وايضاً تكشف مجموعة العوامل الخارجية (البئية) التى تحيط بالبشر كمخلوقات إجتماعية وتتعرف على حدود هذه العوامل وتسعى من أجل تكوين سلطة سياسية عليا، عن طريق إبرام تعاقد إجتماعى معها من أجل حفظ النظام والإحترام المتبادل بين الجميع وحسب وجه نظرنا، إن أسلوب الدراسة

---

(١) لمزيد من التحليلات علىسبيل المثال:

- Roussea , J.J. The Social Contract, Cerdon: Peng uuin Books, 1968.

والتحليل العلمي، الذى تتبعه رواد نظرية العقد الاجتماعى، حرص على إستخدام الكثير من الشواهد والبراهين التاريخة من ناحية والظروف والسمات السيكولوجية والاجتماعية والبيئية الأيكولوجية، من ناحية الأخرى، التى تدعم وجهات نظر رواد هذه النظرية حول اهميتها وضرورة قيام العقد الاجتماعى الذى يكون أهم مقدمات المجتمع المدنى الحديث Modern Civil Society.

ومع أواخر القرن السابع عشر و أوائل الثامن عشر، تغيرت أساليب البحث العلمي نتيجة لحدوث طفرة كبيرة فى مجال العلوم الطبيعية، ونتيجة الإسهامات مجموعة من العلماء الطبيعين الذين ظهروا خلال القرن السابع عشر من أمثال بيكون، ونيوتن، وغيرهما كما ساعدت هذه العلوم على تطور النظريات السياسية والإحصاء الرياضى، ودراسات السكان وغيرها. كما ظهرت خلال القرن الثامن عشر مجموعة من النظريات الاجتماعية، التى تبلورت فى إطار مجموعة من القوانين الاجتماعية، التى يجب أن تماثل القوانين الطبيعية، عند دراستها للظواهر البيئية الخارجية، وبدأت هذه النظريات وقوانينها المختلفة، تتبنى أساليب من البحث العلمى، الذى يقوم على الملاحظة والتجربة كأساس للبحث العلمي وبديلاً عن النظريات المعرفية والمثالية والأخلاقية الدينية وهذا ما جاء على سبيل المثال، فى تحليلات "مونتشكيو" Montesquieu (١٦٨٩-١٧٥٥) ، و" كندروسيه" Condorcet (١٧٤٣-١٧٩٤)[1]. وخاصة كتابه الأول(روح القونين) The Spirite of The Caws، الذى إستخدم فيه "مونتسكيو" المدخل المقارن، فى دراسته لأبعاد التاريخية والجغرافية والسياسية والفلسفية والإقتصادية والقانونية، وحاول أن يناقش فكرة القانون الطبيعى The Natural Law من منظور إجتماعى وسياسى وعلمى واقعى، وبعيداً عن التغيرات اللاهوتية عامة. وكما حاول كندروسيه أن يستخدم مفهوم التقدم ليحلل بصورة تاريخية مقارنة كيفية تطور العقل البشرى عبر العصور التاريخية، وأن يعطى فكرها لتطور التقدم الشامل الذى يحدث لكل من المجتمعات الإنسانية والطبيعية فى نفس الوقت. وهذا ما ظهر بعد ذلك بوضوح فى تغير أسلوب البحث العلمى عند علماء الاجتماع من أمثال أوجست كونت الذى تاثر بكتابات وتحليلات العلماء فى القرن السابع والتاسع عشر.

---

(1) Arobr, A , Durkhein. Montesqueean and Roussea Michiam Dress. 1960.

٢- مرحلة النشأة المبكرة لعلم الاجتماع.

حقيقة، أن البحث الاجتماعى يعتبر سلسلة متصلة الحلقات يصعب تجزئتها لمعرفة الحدود الفاصلة بين كل حلقة وأخرى، إلا أن عملية تميز بين مرحلة وأخرى شئ من السهل معرفته وتحليله بواسطة المهتمين بقضايا التطور التاريخى لمراحل البحث الاجتماعى، وهذا هو موضع إهتمامنا الحالى الذى يدور بصورة اساسية، حول معرفته أهم المراحل التاريخية التى عززت من أهمية وجود وتطور البحث الاجتماعى بصورة عامة. وما من شك، أن علم الاجتماع سواء من الناحية النظرية أو المنهجية (البحثية) لم يأت من فراغ بقدر ما جاء من خلال إرهاصات علمية (بحثية منهجية ونظرية) فى نفس الوقت. وهو ما يؤكد عليه عموماً علماء المناهج وطرق البحث الاجتماعى فى الوقت الحالى، حينما يؤرخون لتطور كل من مناهجهم، وطرق وأدوات بحثهم، التى تطورت فى مجملها مع مجموعة العلوم الطبيعية والاجتماعية بصورة عامة. فطبيعة البحث العلمى لجميع العلوم لابد وأن تتح فى إطار مجموعة من العناصر الأساسية وهى:

أولاً: العلماء والباحثين، الذين لديهم الفضل الأول فى الدراسة والتحليل، وتناول القضايا والظواهر والمشكلات التى يسعون لدراستها وتحليلها والتى توجد فى مجتمعاتهم وبيئاتهم وخلال حياتهم التى عاشو فيها بالفعل.

ثانياً: النظريات العلمية، وهى مجموعة النظريات التى يتم إستخلاصها من القوانين والتصميمات العامة التى تعكس جملة الإسهام العلمى.

ثالثاً: مناهج وطرق وأدوات البحث العلمى، وهى بمثابة الأساليب أو الأدوات، التى عن طريقها يستطيع العلماء الباحثين تناول قضاياهم ومشكلاتهم والظواهر التى يقومون بدراستها بصورة علمية ومنهجية واضحة المعالم.

على أية حال، نسعى حاليا فى إطار إشارتنا الموجزة، لعمليات التطور التاريخى للبحث الاجتماعى، وأن نوضح أهم مرحلة تاريخية لظهور البحث الاجتماعى عامة، والتى عاصرتها نشأة علم الاجتماع وظهور ونظرياته، ومناهجه وطرق وأدوات بحثه بصورة عامة. ولكن قبل الإشارة

لأهم الإسهامات يمكن تعريفهم بمرحلة الرواد الأوائل لعلم الاجتماع، يجب أن نوضح حقيقة هامة مؤداها: إننا لسنا في موضع عرض هذه الإسهامات بصورة مستفيضة، بقدر ما نركز اساساً على الإسهامات المنهجية والبحثية والتى ظهرت خلال مرحلة الرواد، وذلك للإجابة على تساؤلين اساسين وهما:

أولاً: إلى أى حد جاءت هذه الإسهامات أنعكاسا لتطور البحث الاجتماعى والعلمى خلال المرحلة السابقة على القرن التاسع عشر والعشرين ؟.

ثانياً: كيف أسهمت تحليلات علماء الاجتماع (المنهجية) فى تطور أساليب ومناهج وطرق البحث العلمى عامة، والسوسيولوجية خاصة؟.

وعموماً، سوف تجئ إشارتنا الموجزة إلى مرحلة الرواد فى علم الاجتماع لأسهاماتهم البحثية الاجتماعية، وذلك من خلال إعتمادنا على تصنيف إسهاماتهم حسب إنتمائتهم السياسية، أو حسب الموطن الأصلى لهؤلاء الرواد.

(١) البحث الاجتماعى فى فرنسا:

ما من شك، أن عملية تطور البحث الالجتماعى قد إنتشرت فى أنحاء أوروبا مع أواخر فترة الإصلاح أو النهضة، وهذا ما أشرنا إليه خلال الصفحات السابقة وإن كانت بصورة موجزة ولكننا نلاحظ أن إسهامات العلماء والمفكرين الفرنسين، كانت لهم النصيب فى هذا التطور للبحوث الاجتماعية، ويمثل ذلك فى تحليلات روسو، و مونتسيكو، وكندروسيه من العلماء الذين اشرنا إليهم. ولكن بالطبع، هناك إسهامات أخرى عززت من عملية تحديث الفكر العقلى والعلمى، وهذا ما جاء فى أفكار رائد المدرسة الاجتماعية الفرنسية وهو سان سيمون S.Simon، أو مؤسس الفكر الإشتراكى الفرنسى خلال القرن التاسع عشر، ويعتبر أستاذ علم الإنسان، للوقوف على سير العلوم وتطورها من الناحية المهنية والبحثية، من ضرورة أن تتداخل جميع العلوم فى وحدة منهجية، حتى تتضح أهمية وفائدة هذه العلوم (الطبيعية والاجتماعية) مجتمعه، ويطلق على العلم الجديد بالعلم العام، وبإيجاز تلك الفكرة التى مهدت سبيل بعد ذلك، إلى ظهور الفلسفة الوضعية عند كل من تلميذه كونت ودوركايم وتحديدها لقواعد المنهج العلمى فى العلم الاجتماع وتأسيس هذا العلم كلية، وهذا ما سنعالجه بصورة موجزة ايضاً فى إطار تحليلنا للإسهام الزمنى فى تطور مجالات البحث الاجتماعى.

أولاً : أوجست كونت. A.Conte (١٧٩٨-١٨٥٧م).

يعد كونت أول من أستخدم كلمة سوسيولوجى Sociologie، بعد أن كان يطلق على علمه الجديد ما يسمى أولاً بالفيزياء الاجتماعية Social Phppsics وذلك فى كتاباته الأولى، ولكن العالم " أدولف كتليه " قد نشر عام ١٨٣٥ بعد الدراسات الاجتماعية الإحصائية تحت هذا العنوان (الفيزياء الاجتماعية)، ومن ثم فلقد سبق كونت فى وضع وإستخدام هذا العنوان. وعموماً جاءت إستخدامات كونت لمصطلح الاجتماع، أكثر إهتماماً وإنتشاراً بعد ذلك ولاسيما تبنى العديد من العلماء الاوروبين الغربين من إستخدام ذات المصطلح عن أمثال هربرت سبنسر H.Spencer. وتبدو لنا من خلال إستخدام كونت وتسميته الأولى لعلم الإجتماع بمفهوم الفيزياء الاجتماعية، إن كونت كان يحرص أولاً على أن يكون هناك علما إجتماعياً على غرار الفيزياء. ولاسيما، أنه لاحظ، أن العلوم الطبيعية ومنها (الفيزياء) قد تطورت كثيراً أو سبقت العلوم الاجتماعية التى كانت موجودة بالفعل مثل السياسة، والنفس، والقانون، والإقتصاد وغيرها. ومن ثم، يجب أن يظهر علم جديد ألا وهو علم الاجتماع، ليستخدم منهجية بحثية جديدة فى دراسة الظواهر الاجتماعية، وأن يتوصل إلى مجموعة من القوانين الاجتماعية أيضاً، التى يمكن عن طريقها أن يصل إلى مرحلة التعميم وتصيغ نظريات إجتماعية، تهتم بدراسة المشكلات والقضايا التى تحيط باللإنسان وبيئته الاجتماعية، ويمكن عن طريقها دراستها بصورة علمية، طالما أن الإنسان إستخدام العلوم الطبيعية، فى دراسة الظواهرأو البيئة الطبيعية التى تحيط به وجعلها بصورة دقيقة ومحددة.

وتظهر إهتمامات أوجست كونت بالقضايا البحثية المنهجية بصورة خاصة، ليس فقط من خلال طرحه لمفهوم علم الاجتماع، ويمكن من خلال تركيزه على الأسس المنهجية، التى يجب أن يقوم عليها علمه الجديد. وهذا ما ظهر فى أوائل حياته العلمية، ففى الرابعة والعشرين من عمره وما لتحديد عام ١٨٢٢، نشر أول كتاب له تحت عنوان "خطة البحوث العلمية اللازمة لإعادة تنظيم المجتمع". ويتضح لنا من هذا العنوان وموضوعه مدى إهتمام كونت أولاً بمنهجه البحث الاجتماعى العلمى، وظيفة هذا البحث فى تنظيم المجتمع

الصناعيّ، الذى تلازمت عمليه نصوره ونشاته الأولى مع ظهور افكار كونت السوسيولوجية بصورة عامة. كما أن رغبة كونت المديج . جعلته أن يوظف هذا العلم الجديد (علم الاجتماع)، من أجل إعادة تسلسل العلوم بأكملها على اسس من الموضوعية، ومدى الإستفادة من هذه العلوم بعضها البعض. هذا المبدأ الذى أستشفه كونت من إستاذه سان سيمون، حينما نادى بأهمية وجود العلم العالم، أو العلم الشامل الذى يجب أن يحتزى به العلوم كافة من الناحية المنهجية والبحثية وإن كان سيمون لم يشر إلا أنه علم الاجتماع، إلا أن التسمية ترجع إلى كونت ذاته.

ومن ثم، يمكن القول بأن كونت حرص أن يوضح المنهج العلمى، الذى يجب أن يستخدم بواسطة علم الاجتماع، ويهتم أولاً وأخيراً بملاحظة الظواهر والسعى لتصنيفها. كما حرص ايضاً، على أن يحدد خطوات المنهج العلمى أو مقومات البحث الاجتماعى العلمى من خلال تاكيده على مبدأ معرفة الأسباب التى تشكل حدوث الظواهر الاجتماعية عن تكرارها على غرار دراسة الظواهر الطبيعية العلية أو المسببة لهذه الظواهر عامة. فى نفس الوقت، حرص كونت على إستبعاد كافة التفسيرات الغيبية أو الميتافيزيقية، والتى تهتم بدراسة وتبرير الظواهر الاجتماعية بصورة غيبية وضعية أو علمية. كما أن فى خطوة منهجية أخرى، إن مهمة علم الاجتماع، تهدف إلى الوصول للحقائق التأملية، وليس لتبرير الظواهر التى يدرسها على أسس لاهوتية دينية أو أخلاقية.

من ناحية أخرى، نجد أن كونت حرص لعقد مقارنة بين العلوم الإنسانية والطبيعية، مرتكزاً على أن نستخلص من هذه المقارنة بعض الملاحظات والحقائق المنهجية والبحثية الهامة، والتى تمثلت فى أن العلوم الطبيعية إستطاعت أن تقطع شوطاً كبيراً فى مجال دراستها للظواهر الطبيعية أو البيئية التى تقدم تحليلها عن طريق الملاحظة، والتجربة، ومعرفة الشواهد والبراهين، والأسباب العلية. ولذا، أكد على أهمية، أن تطور العلوم الاجتماعية من أساليبها وطرق دراستها البحثية المختلفة منها بالطبع، علم الاجتماع، من أجل أن تماثل العلوم الطبيعية. وهذا ما أكد عليه بالفعل، فى مهمة علم الاجتماع الأولى، والتى تتبلور بإيجاز شديد، فى إستخدام المنهج العلمى

ودراسته للظواهر الاجتماعية، وذلك من أجل إعادة تنظيم المجتمع الذى تنشأ فيه الكثير من التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية التى أحدثتها الثورة الفرنسية ليس فقط فى فرنسا ولكنه في أوروبا والعالم بأسره.

وعموماً، تتبلور أهمية إسهامات كونت فى تطور البحث الاجتماعى، من خلال تركيزه على أهم مقومات وعناصر المنهج العلمى، الذى يجب أن يتبنه علم الاجتماع وعلمائه. وهذا ما حدده فيما أسماه كونت بالإجراءات الأربعة للمنهج العلمى، والتى ظهرت بالتحديد فى نظريته عن المعرفة الوضعية The Positive Science. أو المعرفة الوصفية، وهذه العناصر:[1]

١- الملاحظة. ٢- التجربة.
٣- المقارنة. ٤- المنهج التاريخى.

كما حرص كونت على أن يطرح قواعد المنهج العلمى ويربطها عموماً بنظريته عامة توجه البحث العلمى الاجتماعى ككل، وتسعى إلى التوصل لعدد من القوانين الأجتماعية العلمية، التى تهتم بعد ذلك بدراسة وتحليل الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية. وهذا ما ظهر بوضوح فى طرحه لقانون المراحل والحالات الثلاث The Law of Three Stages، وغيره من القوانين الاجتماعية التي تميزت كلية ملامح البحث الاجتماعى عامة، والسوسيولوجى بصورة خاصة.

ثانياً: أميل دوركايم E. Durkheim (١٨٥٨-١٩١٧م).

ينسب إلى دور كايم أولاً وإلى المدرسة السوسيولوجية الفرنسية ثانيا عملية نشأة علم الاجتماع، كعلم أكاديمى وخاصة خلال المراحل الأولى لظهور تحليلات الأخير، ذات تأثير بالغ على نهضة علم الاجتماع، وتطور البحث الاجتماعى. إلا أن إسهامات دور كايم تعتبر من الإسهامات السوسيولوجية المميزة لأنها جاءت من إهتمامات عالم إجتماعى أكاديمى عمل بالجامعات الفرنسية كأستاذ، لعلم الاجتماع، وفى العديد من الجامعات الأوروبية. كما تتبلور أهمية تحليلات دور كايم من خلال الخطوط العامة التى

---

(١) أنظر: عبد الله محمد عبد الرحمن، علم الاجتماع النشأة والتطور، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩.

حددها لتطور البحث الاجتماعى عامة، والسوسيولوجى خاصة. وهذا ما تبلور فى كتابه المميز عن قواعد المنهج فى علم الاجتماع، الذى يعتبر المؤلف الأول فى تحديد لما ينبغى أن تقوم عليه الاسس المنهجية فى نفس الوقت أو إسهامات دور كايم البحثية، لم تقتصر على المعالجات النظرية أو التحليلية للمشكلات والظواهر الاجتماعية التي عاصرها بالفعل، بقدر ما حاول أن يطبق قواعد المنهج العلمى، وأسس البحث الاجتماعى على مجموعة من الدراسات أو الظواهر التى تم معالجتها بالفعل.

ومن ثم، سنشير بإيجاز شديد، إلى إسهامات دوركايم عن قواعد المنهج فى علم الاجتماع، وايضاً نعرض لتحليلاته الوقعية والميدانية البحثية خاصة لدراسة ظاهرة الإنتحار، وأيضاً رؤيته لعلاقة علم الاجتماع وقضية المنهج فى فرنسا، كنوذجين فقط يعبران عن إسهامات دور كايم، فى مجال تطور البحث الاجتماعي، وتحديده للقواعد المنهجية التى يقوم عليها علم الإجتماع.

(أ) قواعد المنهج فى علم الاجتماع.

يعتبر هذا المؤلف، ثانى مؤلف نشره دور كايم عام ١٨٩٥، بعد نشر رسالته للدكتوراه حول تقسيم العمل عام ١٨٩٣[١].وحاول فيه دور كايم أن يطرح مجموعة من القواعد المنهجية والبحثية التى يجب أن يتبنها كل من علم الاجتماع والمهتمين بهذا العلم عامة. ويمكن فيما يلى أن نلخص أهم القواعد أو المبادئ العامة التى حددها دور كايم كما يلى[٢]:

(١) يجب دراسة الظواهر الاجتماعية بوصفها أشياء أو حقائق As Facts: بمعنى أن الظواهر الاجتماعية تماثل الظواهر الطبيعية وتوجد فى الواقع الخارجى، ويمكن إخضاعها للملاحظة، والتجريب، والتحليل والتفسير بصورة عامة.

---

(١) للمزيد من التحليلات إرجع إلى:

-عبد الله محمد عبد الرحمن، تاريخ الفكر الاجتماعى، مرجع سابق، ص٣٢٢.

(2) Durkheim, E, Thhe Rules of Sociological Methed. N.Y: The Free Dress, 1961.

(٢) يجب عدم التسليم بصدق قضية معينة: أى ضرورة أن يتوخى الباحث الحذر والسرية، عند دراسته لقضايا أو مشكلات معينة أو يكون لديه أحكام مسبقة حول صدق أو كذب هذه القضية إلا بعد خضوعها للدراسة والتحليل.

(٣) يجب على الباحث أن يتحرر من كل فكرة سابقة يعلمها عن الظاهرة الاجتماعية: بمعنى أن الباحث الاجتماعى يجب ان لا يكون متحيزاً أو متاثراً بمشاعر او أفكار أو أيديولوجيات محددة التى تبعده كثيراً عن جوهر القضية موضوع الدراسة.

(٤) يجب أن يضع الباحث فى ذهنه فكرتى التحليل والتركيب: أى يجب على الباحث أن يستخدم أسلوب التصنيف أو التقسيم العلمى والمنطقى الذى يبدأ من القضايا البسيطة حتى ينتهى إلى القضايا المركبة، وأن تساعده القضايا الأولى فى بناء قضايا لاحقة.

(٥) يجب أن تكون أهدف البحث واضحة تماماً: تتبلور أهمية البحث فى وضوح هدفه وهو البحث عن الحقيقة والوصول إلى تفسيرات علمية محددة تجاهها، لأن ذلك يعتبر الغاية الأساسية من البحث العلمى عامة.

(٦) يجب أن تكون عناصر البحث مترابطة: يقصد بذلك الترابط أن البحث يبنى مكوناته من مجموعة من الأجزاء أوالقضايا، التى يهتم بتفسيرها ومعالجتها، ومن ثم يجب أن تكون هذه القضايا المعاصرة والأجزاء متجانسة وغير متناقضة.

(٧) يجب أن لا يشمل البحث على تعريفات بعيدة عن موضوعه، وتعد هذه المسلمة ذات أهمية جوهرية، ولا سيما أن تعريفات أو المفاهيم تعتبر اللغة العلمية التى يستعين بها فى تفسير الظواهر والأشياء بصورة مقبولة ومتعارف عايها.

(٨) يجب على الباحث أن يكون على علم بالقوانين والنظريات العلمية: إن مهمة علم الإجتماع تكرس من أجل التوصل إلى مجموعة من القوانين والنظريات العلمية، على غرار العلوم الطبيعية ولا سبما أن هذه القوانين والنظريات، تلعب دوراً أساسياً فى تفسير الظاهرة الاجتماعية، على غرار دراسة الظواهر الطبيعية والكونية.

(٩) يجب على الباحث أن لا يقتصر إستخدامه على منهج واحد فى دراسته للظواهر: وهذا ما أكد عليه "دور كايم"، وخاصة ما يعرف بمبدأ المرونة المنهجية، الذى يتيح فرصة أكبر لأستخدام أكثر من منهج لدراسة الظواهر وتحديد عملية الموضوعية والحياد العلمى للباحثين عند دراستهم لهذه الظواهر والمشكلات قيد البحث.

(١٠) ضرورة أن يحدد الباحث أفضل الطرق والوسائل التى ينبغى الإعتماد إليها فى دراسته العلمية: ولاسيما أن عملية إختيار هذه الوسائل تساعده فى تحديد مصادر البيانات وأهداف البحث، ومناهجه وتسهم فى النهاية إلى دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية وموضوعية[١].

وبإيجاز، إن المبادئ العشر السابقة، التى طرحها "دور كايم" فى كتابه قواعد المنهج فى علم الاجتماع، تعتبر بمثابة مسلمات أو مبادئ عامة يجب أن يهتم بها هذا العلم، والمتخصصين به بصورة عامة. وهذا بالفعل ما يلاحظه علماء المناهج وطرق البحث الاجتماعى فى الوقت الحاضر، إن آراء " دور كايم" السابقة، تعتبر الموجه الأول لهم عند دراستهم وتحليلهم لطبيعة هذه المناهج والطرق والأدوات البحثية بصورة شائعة.

(ب) دراسة الإنتحار **Suicidie**.

تعتبر هذه الدراسة نموذجاً هاماً للدراسات السوسيولوجية، التى ركزت على مجموعة القواعد والأسس المنهجية التى إعتمد عليها " دور كايم" وطرح عدد من المبادئ أو المسلمات الهامة التى يجب الإهتمام بها بواسطة علماء الاجتماع والمشتغلين عموماً بالعلوم الاجتماعية. ولاسيما، أن " دوركايم" حرص على أن يعرض مشكلة الإنتحار، كظاهرة إجتماعية، أعطى إليها أولوية هامة بين الناحية البحثية والمنهجية، وحاول فيها أن يثير نظريته السوسيولوجية المعروفة عن التضامن الاجتماعى Social Solidarity كما سعى لطرح عدد من الأهداف العامة والإفتراضات العلمية، التى يجب أن يطرحها الباحث على هيئة تساؤلات يسعى البحث لتحقيقها وتفسيرها بصورة موضوعية وحاول ايضا " دور كايم"، أن يتعرف بصورة واقعية على أهم الفئات الاجتماعية والمهنية، والنوعية، والدينية، التى ترتكب الإنتحار، وأن

---

(١) أنظر : غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعى، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤، صص ٢١-٢٢.

يحقق فيما بينها حساب المؤشرات الأعلى من الإنتحار. علاوة على ذلك، حرص " دوركايم"، على إستخدام المنهج الإحصائى *Statistical Mothod* لتحليل هذه الظاهرة[1]. خاصة أنه إعتمد على الإحصاءات المنشورة، والتى كانت متاحة في أوروبا خلال إجراءات الدراسة. ودون الدخول فى تفاصيل كثيرة حول هذه الدراسة العلمية الرائدة، إى إننا نلاحظ أن " دور كايم" حرص على أن يتوصل إلى عدد من النتائج الهامة مثل أن الإنتحار يرتبط إرتباطاً عكسياً مع درجة التكامل للجماعات الاجتماعية.

(جـ) علم الاجتماعى وقضية المنهج فى فرنسا[2]:

يعتبر هذا المؤلف العلمى " لدور كايم" من أواخر الأعمال العلمية التى نشرت له وكان ذلك فى عام ١٩١٦؛ أى قبل وفاته بعام واحد. ولقد طرحنا للإشارة إليه بإيجاز شديد، كمثال نموذجي وعلمي ومنهجي، لإستخدم فيه دور كايم كافة الاساليب البحثية والمنهجية التى طرحها مسبقاً فى قواعد المنهج لعلم الاجتماع، وإستخدام فيها خبرته كأستاذ للتربية فى العديد من الجامعات الفرنسية الشهيرة ولاسيما جامعة السربون وباريس. وحاول " دور كايم " أن يناقش قضية المناهج والمقررات الدراسية التى توجد فى فرنسا، مستخدماً فى ذلك عدد من الاساليب البحثية وطرق البحث الاجتماعي مثل: الإحصاءات، والوثائق، والملاحظة، والمقابلة، وتحليل المضمون وغيرها. ولاسيما، أن حرص على تحليل المحتوى العلمى لمناهج الدراسة ومقررات التدريس فى المراحل التعليمية المختلفة فى فرنسا، ومقارنتها بغيرها من الدول الأوروبية التى قد قطعت شوطاً كبيراً فى هذا المجال التعلميى ولاسيما ألمانيا. وبإيجاز، لقد حرص " دور كايم " على أن ينشر آراءه العلمية والمهنية والبحثية فى أهم حوليات علم الاجتماع التى أسسها فى فرنسا منذ عام ١٨٩٨، لنشر تصوراته المنهجية والبحثية، والنظرية، ومعالجته لقضايا ومشكلات مجتمعه التى عاصرها بالفعل.

---

(١) إرجع إلى: - Durkheim, E, Suicidie, N.Y:The Free Press, 1961.

(٢) لمزيد من التفاصيل أنظر:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، علم إجتماع التربية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٨.

٢- البحث الاجتماعى فى ألمانيا.

تعتبر المدرسة الألمانية من المدارس الاجتماعية الهامة، التى زودت الفكر الاجتماعى خلال العصر الحديث بالعديد من المفكرين والفلاسفة والعلماء، الذين طوروا كثيراً من معالم هذا العصر، بفضل إرهاصات علمهم وأفكارهم ونظرياتهم المتنوعة فى مجالات مختلفة، ومنها بالطبع مجال العلوم الاجتماعية. ولكننا لسنا فى موضع تقديم حصر أو إحصاء شامل لهذه الإسهامات، بقدر ما نركز حالياً إلى مدى إسهام المدرسة الألمانية فى تطور البحث الاجتماعى. ولاسيما، فى مرحلة عصر رواد علم الاجتماع الأوائل. ولكن قبل إشارتنا إلى هذا الإسهام، نود أن نوضح حقيقة هامة مؤداها: أن الفكر الألمانى الذى ظهر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كان له الفضل الأكبر فى تطور مجالات التفكير الاجتماعى، سواء من الناحية النظرية، أو المنهج، أو أساليب التفكير، أو نوعية القضايا والمشكلات التى تم طرحها للمعالجة. وأدى هذا الفكر فى مجمله إلى تطور البحث الاجتماعى والعلوم الاجتماعية كافة خلال القرنين التاسع عشر والعشرون.

وربما تعتبر إسهامات فلاسفة التاريخ الألمان من أمثال " أمانيول كانت " E.Kant[1]. (١٧٢٤- ١٨٠٤م)، من أهم الإسهامات التى وضعت الجزور الأولى للفكر الاجتماعى ونظرياته المختلفة فيما بعد ذلك. فلقد حرص " كانت" ، على أن يستخدم بصورة منهجية وبحثية متطورة العديد من المناهج العلمية لدراسة التاريخ، ولاسيما ما يسمى بالمنهج التحليلى التاريخى المقارن. كما جاءت أفكاره من الناحية المنهجية والبحثية لتضع مايسمى بالنظريات الفلسفية التاريخيه النقديه، التى مهدت فى النهاية لتحليل كافة النظريات المعرفية والإنسانية، التى حاولت تفسير تاريخ البشرية وتطور المجتمعات الأنسانية. ثم محاولته بعد ذلك صياغة نظرية علمية تفهم من خلال عملية ضرورة التاريخ أو إعادة كتابة هذه النظريات بصورة موضوعية، تجعل من حركة التاريخ، إطاراً عاماً لفهم حياة الإنسان وتطور الحضارات البشرية. كما حاول ايضاً، أن يستخدم أساليب للبحث العلمي، لفهم طبيعة الصراع التاريخى،

---

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر ما كتبناه فى مؤلفات أخرى مثل:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، تاريخ الفكر الاجتماعى، مرجع سابق.

الذى يوجد داخل النفس البشرية أو الحضارات الإنسانية، وذلك من أجل وجود نظام سياسى يهدف إلى تحقيق أكبر قدر من الحريات العامة ويقلل من العداء المستمر أو الصراع الدائم الذى يوجد بين المجتمعات أو النفس البشرية.

على أية حال، أن إسهامات "كانت" فى فلسفة التاريخ كانت لها اثراً عميقاً فى الحركة النقدية الفلسفية، واسلوبها فى الدراسة والتحليل للظواهر والحقائق والاشياء التى توجد فى البيئة الطبيعية الاجتماعية فى نفس الوقت. وتعتبر الإسهامات نوع من تقييم الأساليب المنهجية والبحثية التى كانت تعرف بالنظريات المثالية الأخلاقية، ومن النظريات الواقعية الوصفية. وبإيجاز، سوف نركز إهتمامنا حالياً للإشارة إلى كل من إسهامات " كارل ماركس" ، و "ماكس فيبر" كنموذجين متميزين للبحث الاجتماعي الالمانى، ويمثلان مرحلة الرواد المبكرة فى علم الإجتماع.

أولاً: كارل ماركس K.Marx (١٨١٨-١٨٨٢م).

تمكن أهمية إسهامات "ماركس"، لأنها جاءت فى الفترة الأولى نشأة علم الاجتماع، وإن كان لم يستخدم هذا المفهوم (علم الاجتماع) مثل " كونت" أو غيره من رواد هذا العلم، ولكن أفكاره الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والمجتمعية بصورة عامة كانت تنتشر بسرعة شديدة بين علماء ومفكرى القرن التاسع عشر، نظراً لأنها تعالج قضايا هامة، لم يعرفها المجتمع البشرى من قبل وخاصة تحليله لقضية الصراع الطبقى Class Conflict وما يعنينا حالياً، هو أن " ماركس" متبنى المنهج الجدلى (الريالكتيكى)، الذى قد إستمد فحواه مضمونه من أستاذه الروسى، " هيجل" Hegal ذلك الفليسوف المثالى الألمانى، الذى يعتبر رئداً المدرسة المثالية الاجتماعية الحديثة. وهذا ما جعل ماركس وزميله أنجلر Engler، بطرح أفكارها ونظريتها عن المادية الجدلية، أو المادية التاريخية[1].من خلال تبنيها لأنساق معينة من التحليل والدراسة والتفكير، وذلك عن طريق إستخدامهم للتاريخ، كمصدراً حياً لعرض أفكارهم حول هذه النظرية علاوة على ذلك، لقد إستخدم " ماكس" الملاحظة، والملاحظة بالمشاركة فى نقده للظواهر الاجتماعية والقضايا والمشكلات التى عاصرها تطورها بالفعل، خلال وجوده فى مراحل حياته الأولى حول

---

(١) يمكن الرجوع لمزيد من التحليلات إلى المرجع التالى:
- Lefebvre, The Sociology of K.Marx, London: Allen Lane. 1968.

الطبقات الفقيرة (العامة) في ألمانيا، أو خلال هجرته إلى العديد من الدول الأوروبية الرأسمالية الأخرى.

ومن هذا المنطلق، فإننا نرى أن منهجية " ماركس" لم تأتي من فراغ، بقدر ما جاءت نتيجة للإسهامات الهيجيلية، وايضاً إعتماده على التاريخ أو المنهج التحليلي المقارن، الذى برعت في إستخدامه المدرسة الألمانية في علم الاجتماع ككل. كما إهتم "ماركس" بفكرة (التقدم) والتطور أو ما سمى بالنزعة التطورية، التي كانت تؤمن بأساليب ومناهج دراسة الظواهر الطبيعية وكيفية تحليلها لفهم الأسباب أو العلل التي تؤثر في حدوثها. ولاسيما، أن هذه التفرقة (التطورية) كانت تؤمن بأن الطبيعة قد وضعتا نظاماً محدداً للتطور، وأن جميع الكائنات الموجودة في هذه الطبيعة، بما فيها (الإنسان)، ولابد وأن يخضع لهذا النظام كقانون حتمي للتطور. وهذا ما آمن به "كونت" مؤسس علم الإجتماع، وحرص أيضاً "ماركس" على إستخدامه بصورة محددة يقينية، فإن كل المجتمعات سوف تمر بمراحل التطور. وقد حددها في عدة مراحل تاريخية وتمثلت في نظريته عن تطور المجتمعات البشرية، تلك المراحل التي تتشابه مع العديد من تحليلات علماء الاجتماع وخاصة "كونت" . إلا أن أساليب ماركس التحليلية والمنهجية، كانت تختلف عن غيره من علماء الاجتماع، ولا سيما أن حرصه على ضرورة إستخدام (الثورة)، كعامل يسبب لإسراع حركة التطور والتغير في المجتمع، وهذا ما طرحه بصورة تحليلية متميزة في افكاره حول أهمية البروليتاريا أو الطبقة العمالية في المجتمع الحديث.

ثانياً: ماكس فيبر M.Weber (١٨٦٤-١٩٢٠م).

تعد إسهامات فيبر من أهم الإسهامات المنهجية، التي وضعت أسس علم الاجتماع وحددت معالمه النظرية والبحثية بصورة عامة. ويصعب علينا عرض هذه الإسهامات المنهجية والبحثية بصورة مفصلة، بقدر ما نحرص حالياً أن نشير إليها بصورة موجزة جداً لأعتبارات مكانيسة ترتبط بطبيعة عرض الموضوع وإسهامات (فيبر) في مجال فترة رواد علم الاجتماع الأوائل. وحقيقة، لا يوجد مؤلف واحد لم يعرض فيه فيبر منطلقاته النظرية والأسس المنهجية، التي بنى عليها تحليلاته العلمية التي لاتزال تغزى التطور العام لمناهج وطرق البحث الاجتماعي. وربما تجئ إسهاماته عن المنهج

وطرق البحث الاجتماعى فى عدد من المؤلفات التى تركها ومن اهمها: مقالات علم الاجتماع (١٩٤٦)، ونظرية التنظيم الإقتصادى والاجتماعى (١٩٤٧)، منهجية العلوم الاجتماعية (١٩٤٩)[١].على أية حال، نركز حاليا للإشارة إلى، إسهامات فيبر المنهجية والبحثية النظرية، وثانياً، إلى إسهاماته الإمبريقية (الميدانية).

(أ) الإسهامات المنهجية والبحثية (النظرية).

١- الفهم السببى:

سعى فيبر منذ البداية لأن يحدد ماهية علم الاجتماع من تحديد المنهج العلمى الذى يقوم عليه هذا العلم، وجاء ذلك فى منهجه أو مقولته عن الفهم السببى Interpretive Understanding، الذىأشار فيه لنا ينبغى أن تكون عليه العلوم الاجتماعية ومنها بالطبع علم الاجتماع، وإعتمادها على المعايير الموضوعية الدقيقة فى دراستها وتحليلها للظواهر والحقائق والمشكلات الاجتماعية الواقعية. وطرح فيبر هذا المنهج، ليقوم بعملية تحليل وفهم المعانى الخاصة بالفعل والسلوك الاجتماعى (البشرى) أو دراسته للظاهرة الاجتماعية. ولاسيما أن هذه الظاهرة لايمكن تحليلها ودراستها بدون تقديم فهم سببى لها، ومعرفة كيفية حدوثها وتكرارها بصورة مستمرة. وهذا ما أكد عليه فيبر بضرورة أن يسعى العالم الاجتماعى بتبنى هذا المنهج من أجل دراسة وسبر أغوار الظاهرة الاجتماعية لأنها تتميز بالصعوبة والتعقيد مقارنة بدراسة العالم الطبيعى عند دراسته للظواهر الطبيعية. فى نفس الوقت، حرص فيبر، على ضرورة أن يحدد مهام مقولة أو منهج الفهم السببى، لأنها تساعد الافراد العاديين فى تكوين معنى ذاتى، يؤهلهم لدراسة سلوك أفعال الأخرين من ناحية، وتعقل الأشياء والظواهر الاجتماعية التى توجد فى العالم الطبيعى والاجتماعى من ناحية أخرى.

(١) بالطبع نشرت هذه المؤلفات بعد ترجمتها من الألمانية إلى الإنجليزية وللمزيد من التفاصيل أنظر:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، تاريخ الفكر الاجتماعى، مرجع سابق.
- عبد الله محمد عبد الرحمن، علم إجتماع التنظيم، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨.

٢- النماذج المثالية:

طرح فيبر النماذج المثالية Ideal Types، بإعتبارهـــا مــن الأدوات المنهجية والبحثية الهامة، التى تنسب إليه و إلى غيره من علمــــاء المدرســـة الألمانية الاجتماعية من أمثال تونيز، وزيمل، وغيره من أنصــــار المدرســة المحدثين. ولكن إرتبطت النماذج المثالية بتحليلات فيبر المنهجية، خاصة وأنــه حرص على طرح هذه النماذج، كمحاولة لتعزيز الأدوات المنهجية التى يجــب أن يستخدمها العالم الاجتماعى، عند دراسته للظواهر والمشكلات الاجتماعيــة. كما هدف ايضاً، إلى وجود هذه النماذج فى إسهامها فى فهم العقل الإنســـانى، وتقديم تفسيرات سببية ذو معنى لهذا الفعل، ومجموعة الأفعـــال والســـلوكيات والأنشطة البشرية عامة.

ومن هذا المنطلق، حدد فيبر المقصود بالنماذج المثالية بأنها ما هـــى إلا بناءات (تصورية) عقلية Mehtal Constructions، يطرحـــها البـــاحث مسبقاً كفرض أو فكرة مثالية، يحاول بعد ذلك إختبار مدى وجودها أو عدمـــه فى الواقع. إذن، يمكن القول، بأن النماذج المثالية، مـــاهى إلا فكـــرة ذهنيـــة مجردة يطرحها الباحث الاجتماعى بصورة مثالية من واقـــع فهمــه وخيالـــه وتصوره الذاتى، كما يراد دراسة وتحليله. ثم يحاول بعد ذلـــك البـــاحث، أن يقارن بين هذه الفكرة والنموذج المثالى، وبين الواقعية التى يـــهتم بمعالجتـــها وتحليلها. ولكن أكد فيبر، على أن هذه النماذج - تعتبر أدوات منهجية وبحثيـــة تحليلية من الدرجة الأولى- وهى ليست بمثابة فروض علمية، بقدر مـــا هـــى وسائل وأدوات يمكن الإسترشاد بها فى دراسة الواقع وظواهـــره ومشـــكلاته المختلفة. كما إنها تساعد على بلورة مفاهيمه وأفكــــاره وصياغتـــه للقوانيـــن والإستنتاجات التى يتوصل إليها بشأن الظاهرة المدروسة. وعموماً أو بصورة موجزة، فإن مهمة أو وظيفة النماذج المثالية - بالرغم من الإنتقـــادات التـــى وجهت إليها- إلا أنها كانت من الأدوات المنهجية التى عززت عملية تطـــور البحث الاجتماعى خلال القرن العشرين، ولقد إستخدم فيبر هذه النمـــاذج فـــى تحليلاته عن السلطة السياسية، والبيروقراطية، والمدنية وغير ذلك من القضايا التى عالجها بصورة واقعية وملموسة.

(ب) الإسهامات المنهجية والبحثية (الميدانية).

تكمن أهمية إسهامات فيبر فى علم الاجتماع عامة، وتطـــور مجـــال البحث الاجتماعى خاصة لأنها جمعت بين إطارين متمايزين من التمثيل همـــا: أولاً: الإطار النظرى (التصورى) الذى يتبلور فى منهجه عن مقولــــة الفـــهم السببى، والنماذج المثالية. وثانياً: تحليلاته الميدانية التى قام بها فـــى ألمانيـــا وأجرى دراسات إمبريقية مكثفة. فلقد كون فيـــبر منظمـــة تســـمى السياســـة الاجتماعية Social Policy Organization، تهدف بالدرجة الأولى، لإجـــراء بحوث إجتماعية وتعالج مشكلات وقضايا فى كافـــة القطاعـــات الإقتصاديـــة والإنتاجية، والزراعية، والمشكلات الواقعية التى تواجه المجتمع الألمانى عامة خلال الفترة من (١٨٤٨-١٩١٤) .ولقد إستخدم فيـــبر كافـــة أدوات البحـــث الاجتماعى وطرقه المختلفة ممثلاً فـــى الملاحظـــة المباشـــرة، والملاحظـــة بالمشاركة، وإستمارة البحث (الإستبيان)، ووضع العديد من الأساليب البحثيـــة والمنهجية فى الكثير من الدراسات الميدانية التى إهتم بها ويمكن إيجازها بشدة كما يلى[١]:

١- دراسته عن مشاكل العمال الصناعية فى ألمانيا:

إستغرقت هذه الدراسة قرابة عامين فى الفترة مـــا بيـــن (١٩٠٩-١٩١١) للكشف عن مشكلات العمل الصناعى فى الشركات الإنتاجية الألمانية وخاصة فـــى قطاع أو مصانع النسيج والكتان، وحاول فيبر أن يتعرف بصورة واقعية على طبيعة كل من ظروف العمل الإدارية، والمهنية، والظروف الفيزيقية (الضوضاء- التهوية- وضع الآلات وغيرها). وإستخدم فيبر إستمارة البحث كأداة لجمع البيانات الواقعيـــة سواء من العمال أو الإدارة حول مشكلات العمل. بهذه المصانع. وحدد فيبر الإطـــار المنهجى للبحث فى ثلاث أقسام متميزة حدد فى القسم الأول: الملامح العامة للبحث، والقسم الثانى، المشاكل العلمية التى تواجه البحث، والقسم الثـــالث، منـــهج البحـــث الاجتماعى. كما حدد أهداف البحث بصورة واضحة خلال بداية دراسته الميدانيـــة، كما توصل إلى العديد من النتائج العامة التى أسهمت بعد ذلك فى حـــل مشـــكلات العمل فى الشركات أو القطاعات الصناعية التى قام بدراســـتها وتحليلـــها بصـــورة عامة.

---

(١) أنظر: عبد الله محمد عبد الرحمن، علم الإجتماع الصنـــاعى، بـــيروت: دار النهضـــة العربية، ١٩٩٩.

٢ – دراسته عن مشكلة تقييد الإنتاج:

فى فترة ما قبل الحرب العلمية الأولى، ظهرت فى ألمانيا مشكلة تباطؤ العمال فى المصانع والشركات، بهدف الحد من الإنتاج أو تقييده بصورة لا تجعل العمال خارجين عن قوانين العمل، نظراً لعدم تمتعهم بحق الإضراب عن العمل كلية، ولا سيما أن الدولة كانت تهئ نفسها لدخول الحرب العلمية الأولى. ومن ثم، تعمد العمال، تقييد العمل بصورة مقصودة وذلك بهدف حل مشكلات العمل الداخلية. وتم إسناد حل هذه المشكلة إلى ماكس فيبر، الذى حاول أن يختبر بصورة واقعية الأسباب وراء هذه الظاهرة التى أنتشرت فى جميع الشركات الصناعية الألمانية. وحاول فيها أن يستخدم العديد من طرق وأدوات البحث الميدانية، مثل الملاحظة المباشرة، والإحصاءات، وإستمارة بحثية، والمقابلة وغيرها من الأدوات التى طرحها لتعزيز عملية جمع البيانات. وتوصل إلى عدد من النتائج العامة التى ترتبط بهذه الظاهرة، متمثلة فى طبيعة الأمور، وظروف العمل الداخلية، ونسق الأداة التنظيمية، وأهمية وجود النقابات أو إتحادات العمل لحل مشكلات الإنتاج مع الإدارة.

٣– دراسة لمشكلة العلاقة المستأجرين وملاك الأراضى الزراعية(١):

بدات الدول الأوروبية منذ بداية القرن العشرين، بتطوير اساليب العمل والإنتاج فى كافة القطاعات الإنتاجية. وهذا ما حدث فى ألمانيا كأحد الدول التي أهتمت بمشكلات العلاقة المتبادلة بين الملاك والمستأجرين وخاصة فى القطاع الزراعى.وتحديد القيمة الإيجارية(النفة) لأستغلال الأرض، والعائد المادى الذى يجب أن يحصل عليه فئة الملاك(أصحاب الأرض).ولقد أجرى فيبر دراسته المميزة فى القطاع الزراعى لوضع سياسة زراعية ملائمة يراعى فيها حقوق وواجبات كا من أصحاب الأرض والمستأجرين. ولقد إستخدم فيبر إستمارة البحث، التى طبقت على عينة منها بلغت أكثر من (٣آلاف حالة). وعن طريق تحليله البيانات الإقتصادية، وملاحظته للمشكلات الواقعية، طرح فيبر، النتائج العامة التى توصل إليها من خلال دراسته الميدانية، ومجموعة

---

(١) للمزيد من التفاصيل أنظر:

– عبد الله محمد عبد الرحمن، علم إجتماع التنظيم، مرجع سابق.

من التوصيات إلى السلطات الرسمية لوضع سياسات وقوانين وتشريعات لتنظيم العلاقة بين الملاك والمستأجرين، وتهدف في النهاية زيادة الإنتاج الزراعي القومي.

٣- البحث الاجتماعي في بريطانيا.

(١) تشارلز داروين C.Darwin.

إرتبطت آراء المدرسة البريطانية الكلاسيكية خلال القرن الثامن عشر والتاسع بآراء بعض العلماء البارزين من أمثال " هربرت سبنسر" H.Spencer، و " تشارلز داروين C.Darwin "، وإن كانت آراء الأول ترتبط بالتحليلات السوسيولوجية المتميزة التي لاتزال تجد صداها العلمي في الأوساط الأكاديمية حتى الوقت الراهن. ولكن قبل الإشارة إلى آراء سبنسر، يجب أن نوضح بعض الحقائق العامة التي ساعدت على تطور البحث الاجتماعي وإسهمت بصورة فعالة في الترويج لأفكار سبنسر وغيره من علماء الاجتماع. ومن بين هذه الحقائق هي ظهور أفكار داروين وكتابه الشهير عن أصل الأنواع، الذي نشر عام ١٨٥٩م. وحاول فيه أن يستخدم عدد من المناهج البحثية والتحليلية، التي إعتمدت على العلوم الطبيعية وخاصة البيولوجيا، ومحاولته التوصل إلى عدد من القوانين الاجتماعية مماثلة للقوانين الطبيعية التي تحكم العالم الطبيعي. وهذا ما جاء في قانون الإنتخاب الطبيعي، الذي توصل إليه داروين، والذي عن طريقه يمكن تفسير عملية تطور أبسط الكائنات العضوية إلى أشكال أكثر تخصصاً وتعقيداً.

كما نجد أن " داروين"، قد رفض النظريات الطبيعية والفلسفية والأخلاقية الدينية، التي كانت منتشرة في بريطانيا وأوروبا، وحاول أن يطرح بصورة منهجية وعلمية، كيفية الإستعانة بالمناهج الطبيعية والبيولوجية، وخاصة عند دراسته لتطور الكائنات الحية العضوية بما فيها الإنسان ذاته، وهذا ما أسماه بفكرة التطور الطبيعي، إلا أن آراء " داروين " وجدت من يؤيدها ويعارضها في نفس الوقت. ولاسيما، الفريق المعارض، الذي يؤكد على ضرورة أن يتوصل الإنسان أو مقدرة الإنسان في تغير مسيرة حياته التطورية، والتي تختلف عن الكائنات العضوية أو الحية الأخرى. وهذا ما أكد عليه العلماء إلى ضرورة التأكيد على " إدارة الإنسان ورغبته " ومن هذا

المنطلق، فإنني أرى أن افكار " داروين " إستمدت أصولها الأولى من خلال الأفكار المالتوسية (نسبة إلى مالتوس)، وأفكاره التشاؤمية عن الزيادة السكانية. ولاسيما أن كل منهما يعبران عن مراحل التطور فى طرق البحث العلمى الذى ظهر فى بريطانيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وأيضاً آراء المدرسة البريطانية التى أهتمت بالنزعة العلمية التطورية، ومستخدمه فى ذلك العديد من النظريات والأساليب المنهجية والبحثية التى توجد فى العلوم الطبيعية.

٢- هربرت سبنسر H.Spencer (١٨٢٠-١٩٠٣م).

ما من شك أن سبنسر عاش فى فترة ظهور علم الاجتماع على أيدى كونت، وتطوره بواسطة دوركايم، وهذا ما جعل "سبنسر " يؤيد " كونت " فى إستخدامه لمصطلح علم الاجتماع منذ بادئ الأمر. كما تعكس تحليلات "سبنسر" العديد من الأبعاد التطورية لمناهج البحث الاجتماعى عامة، والسوسيولوجى خاصة. كما يعكس ذلك مجموعة المؤلفات العلمية، التى نشرها " سبنسر " وإرتبطت بالمناهج وطرق البحث الاجتماعى، مثل الإحصاء الاجتماعى ١٨٥٣، ومبادئ البيولوجيا ١٨٦٤، ودراسة علم الاجتماع ١٨٧٣ وإهتم فيها بصورة عامة لنشر نظريته الشهيرة عن المماثلة البيولوجية. وحقيقة، أن هذه المماثلة لم تكن نظرية سوسيولوجية فحسب، بقدر ما تعكس عموماً منهجاً متميزاً فى علم الاجتماع، وتعبر عن بدء ظهور مرحلة جديدة من جانب علماء الاجتماع الذين يؤكدون على ضرورة الإستعانة بالعلوم الطبيعية، وخاصة البيولوجيا، وهذا الإلتقاء الفكرى والمنهجى كان مماثلاً بين " كونت " و " سبنسر " ، فلقد حرص الأول، على ضرورة وجود علم إجتماعى أسماه بالفيزياء الاجتماعية، ثم أسماه بعد ذلك بعلم الاجتماع. أما " سبنسر " فأكد على ضرورة إتباع عالم الإجتماع لمناهج واساليب التحليل وخاصة علم الأحياء، ودراسته الظواهر الاجتماعية بصورة علمية ودقيقة.

ولقد حاول " سبنسر " ، أن يتصور المجتمع على أنه كان عضوى حى يتكون من مجموعة من التحليلات التى لها وظائف معينة، مثل الكائن العضوى الذى يتكون من بناء (عضوى) ، وسوسيولوجى وظيفى. وإذا حدث خلل وظيفى فى مكونات البناء، فسوف يؤثر على بقية الوظائف والتبادلات

الأخرى. وبإيجاز شديد، لقد حرص " سبنسر " في مماثلته البيولوجية، على أن يطرح ابعاداً منهجية وبحثية جديدة، لم تتبلور إلا في أفكار المدرسة البريطانية. ولكن بالطبع، أن أفكار " سبنسر " لاقت إنتشاراً كبيراً، ولاسيما بعد أن طرح ايضاً " داروين " أفكاره في كتابه عن أصل الأنواع. ولقد حاول " سبنسر " أن يوظف أفكاره أو الأفكار التطورية الأخرى، من أجل طرح عدد من المناهج وطرق البحث الاجتماعي الحديث، التي عن طريقها يمكن دراسة التغير الذي حدث على التنظيمات الاجتماعية. وهذا ما جعله يحلل بصورة مقارنة بين عمليات التغير التي تحدث على التنظيمات الاجتماعية العسكرية التقليدية، والتنظيمات الصناعية الحديثة. وهذا ما أثر عموماً في تطور المناهج البحثية السوسيولوجية، ولاسيما تلك المناهج التي إعتمدت عليها المدرسة البنائية الوظيفية. وبإختصار، أن المدرسة البريطانية، كما جاءت في أفكار " داروين " و" سبنسر " تمتد جذورها ذات النزعة التطورية والبيولوجية من الفكر البريطاني الذي ظهر خلال القرن السابع عشر عند مالتوس وتزايد أو تكاثر الإنسان. تلك الفكرة البيولوجية التطورية كانت بمثابة المنهج البحثي والعلمي لدراسة عملية الإستنساخ في القرن العشرين في بريطانيا على وجه الخصوص.

٤- البحث الاجتماعي في إيطاليا.

تعكس طبيعة المجتمع الإيطالي من الناحية الجغرافية والتاريخية، دور هذا المجتمع في تطور حركة البحث الاجتماعي خلال العصور الوسطى (الميسحية)، وايضاً خلال عصر الإصلاح والتنوير. وحيث تعتبر "روما" عاصمة الإمبراطورية الرومانية، من أمثال " شيشرون" وغيره، ثم تطورت حركة البحث الاجتماعي خلال العصور الوسطى المسيحية، وتدخل إيطاليا في مرحلة مظلمة سادت فيها الأفكار التسلطية الدينية المسيحية، التي لم تسمح بإستخدام العقل الإنساني في دراسة الأشياء الطبيعية الخارجية، إلا في إطار تعاليم الكنيسة المحددة. ولكن طبيعة العلم لايمكن أن تقبل هذه التعاليم أو الحدود لأن العلم وتطوره لاحدود له على الإطلاق. فظهرت مرحلة جديدة بعد أن تضاءلت فيها إسهامات القساوسة المسيحيين من أمثال " أوغسطين و" لاكويني "، وظهرت أفكار عدد من الفلاسفة والمفكرين والسياسين، الذين

مهدوا أيضا، لظهور عدد من العلماء البارزين من أمثال " جاليليو " على سبيل المثال، ومن أهم هؤلاء المفكرين الذين ظهرو خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أحد فلاسفة التاريخ البارزين وهو " فيكو "، G.Vico، الذى أسهم كثيراً فى تطور وإحياء مرحلة التطور العلمي والبحثى خلال عصر النهضة، وكان له الفضل الأول، فى الهام العديد من العلماء الاجتماعين، بعد ذلك من أمثال " باريتو " Parito، الذى يعد من أهم رواد علم الاجتماع، الذين أسهموا فى أفكار حركة البحث الاجتماعى خلال القرن العشرين. وسوف نشير لهاذين العالمين بصورة موجزة فى إطار تحليلنا لأسهامات العلماء الإيطالين فى تطور البحث الاجتماعى.

(أ) فيكو G.Vico (١٦٦٨-١٧٤٤).

صنفت أفكار " فيكو " الإيطالى فى إطار فلاسفة التاريخ، الذين وضعوا أسس التفكير العلمى خلال عصر النهضة، حيث حاول هذا المفكر أن يطور نمط واساليب البحث العلمى ومنهجيته، ويستبعد تماماً التحليلات المنهجية، التى إعتمد على الفلسفة المسيحية المثالية والأخلاقية، والتى ركزت على الدفاع المستمر لنظرية التفويض أوالحق الإلهى . وحاول " فيكو " أن يقيم مدخلاً علمياً يعتمد على المنهج التحليلى والنقدى، مستخدماً الشواهد التاريخية، كأدلة للإسترشاد بها على صحة تحليلاته وأفكاره وتصوراته. فلقد ركز " فيكو " على إستخدام البعد الثقافى والسيكولوجى والتاريخى، فى دراسة مكونات طبيعة الشخصية البشرية، والسلوك الإنسانى وطبيعة البناءات والنظم السايسة والأنثربولوجية، التى تسهم فى نقل التراث الثقافى للأجيال عبر العصور التاريخية[١]. فى نفس الوقت إستخدم " فيكو " تحليل المضمون كأداة بحثية ومنهجية متميزة لدراسة طبيعة اللغه والأساطير، ومدى إسهامات تكوين البناء الايديولوجى لكل من الأفراد أو الشعوب، والتى يمكن الإستفادة منها فى تعزيز عملية التضامن والتماسك الاجتماعى.

---

(١) أنظر على سبيل المثال:

- Coser, L., Masters of Sociologcal Thought, N.Y: Harcowrt Brance, 1977.

من ناحية أخرى، تظهر إسهامات " فيكــو " فــى تطوير البحـث الاجتماعي، عن طريق إستخدامه للمنهج التاريخي، بإعتباره واحد مــن أهــم فلاسفة التاريخ، الذين ركزوا على إستخدام فكرة (التطور) والتقــدم، لمحــور أساسي للدراسة والتحليل ليس فقط كل من الأفراد، والجماعات، ويمكن ايضــاً المجتمعات والحضارات البشرية. وهذا ما جعله يقوم بتقسيم المراحل التطورية التي يمر بها كل من الأفراد والمجتمعات والحضارات. وهذا ما جعاه يتوصــل إلى عدد من التصنيفات التي لعبت دوراً أساسياً في تشــكيل أنمــاط البحــث الاجتماعي عند غيره من العلماء الاجتماعين الأوروبين وخاصة " كونـت "، و " ماركس ". فلقد حدد " فيكو " المراحل التطورية إلى ثلاث مراحــل وهــى: المرحلة اللاهوتية، ومرحلة ظهور البطولات، ومرحلة العلم الواقعي. وتكشف هذه المراحل مدى التشابه الكبير بينها وبين أفكار " كونــت " و" سبنسـر " و " ماركس " وغيرهم من علماء الاجتماع الذين تبنو فكرة التطور فــى نفــس الوقت، بلقد إستخدم " فيكو " العديد من المفاهيم والتصورات السوســيولوجية، التي ترّكز على دراسة عملية التغير الاجتماعي، وكيفية حدوثه عــن طريــق الطفرات، أو الشكل الدائري، أو التراكمي (المعرفي). وتعتبر هذه الأفكار مــن أهم القضايا التي ركزت على دراسة العلاقة بين البناء الاجتمــاعي والثقافــة والتغير المستمر، تلك الفكرة التحليلية والبحثية، التي وجدت إهتمامات ملحوظة عن الكثير من علماء الإجتماع من أمثال " سوروكين " و "فيبر " على ســبيل المثال.

٢- فلفريدو باريتو (١٨٤٨ - ١٩٢٣م).

تكمن أهمية إسهامات " باريتو " في المدرسة الإيطالية، التي وضــع جذورها الأولى خلال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، مــن خلال إستخدامه للمنهج الرياضي التحليلي في دراسة الظواهــر والمشــكلات الاجتماعية. ويعد هذا الإستخدام المنهجي لباريتو، نوعا من الإنعكاس العلمــي والمهني، حيث كان يعمل مهندساً للسكك الحديدية في إيطاليــا، كمــا يظهــر إستخدامه للمنهج الرياضي والهندسي في رسالته للدكتــوراة عــن العنــاصر

الأساسية لتوازن الأجسام الصلبة(1).كما تبنى بعد ذلك " باريتو " المنهج الإحصائى ولاسيما أنه إستطاع أن يؤسس أكبر مدرسة للإقتصاد فى أوروبا، وهى مدرسة كوزان، الذى اسسها عالم الإقتصاد الشهير " والاراس " Walars، ثم عمل بعد ذلك " باريتو " أستاذ للإقتصاد السياسى Policical Economy فى جامعة لوزان Lausanne Univ لسنوات طويلة. وهذا ما يعكس لنا عموماً، طبيعة العمل العلمى والمهنى الذى لا يشكل فقط طبيعة النظريات والأفكار، التى يتبنها العالم فى تحليلاته، ولكن أيضاً يوضح طبيعة المنهج العلمى الى يستخدمه فى دراسة القضايا والمشكلات والظواهر التى يتناولها بالفعل.

فى نفس الوقت، تعكس بعض مؤلفات " باريتو " وخاصة كتابة العقل والمجتمع The Mind and Society الذى نشر باللغة الإنجليزية تحت هذا العنوان عام ١٩٣٥، ولكن النسخة الاصلية نشرت عام ١٩٠٦ بعنوان The Treatise onGeneral . وحاول فيه أن يتبنى أيضاً العديد من المناهج الطبيعية والكيميائية، بالإضافة إلى المنهج الرياضى، والمنهج الإحصائى فى دراسة الظواهر الاجتماعية والمشكلات الواقعية التى إهتم بدراستها وتحليلها. ويرى بعض المحليين تطور البحث الاجتماعى والمنهجى عند " باريتو "، إن هذا العالم قد شهد مرحلة تطورية علمية ومنهجية كبيرة، ولاسيما بعد أن أهتم العديد من العلماء الطبيعين بدراسة الظواهر الاجتماعية، وكان من بينهم بالطبع " باريتو ". وهذا ما ظهر فى إستخدامه للمناهج الطبيعية، وحاول تطبيقها بصورة كبيرة، بالرغم من الصعوبات التى واجهته فى ذلك، إلا أنها فى مجملها كانت نوع من الطموح العلمى والبحثى لتبنى المناهج الكمية والطبيعية فى دراسة الظواهر الاجتماعية.

علاوة على ذلك، تكمن أهمية إسهامات " باريتو " فى تطور البحث الاجتماعى، نظراً لتنوع إستخداماته لطبيعة المناهج العلمية والتفسيرية التى إستخدامها فى دراسته للقضايا والظواهر الاجتماعية. بالإضافة إلى المناهج (الرياضية) والطبيعية، والكيمياء. وإستخدم أيضاً المنهج السيكولوجى فى

---

(١) لمزيد من التفاصيل إرجع إلى: عبد الله محمد عبد الرحمن، النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠١.

دراسته للعديد من الظواهر والمشكلات السيكولوجية والاجتماعية، وهـذا مـا ظهر في تحليلاته عن فكرتي (الرواسب - والمشكلات)، أو تحليله للأفعـال المنطقية أو غير المنطقية، التي حاول فيها أن يطبـق المنـهج السـيكولوجي والمنهج الإحصائي، والمنهج الرياضي في دراسته وتحليله لهذه القضايا، التي عززت كثيراً من عمليات البحث والتحليل بعد ذلك. وهذا ما جعل " بـاريتو " يطرح نظريته السوسيولوجية، وأن يشير إلى منهجية حديثة لعلـم الاجتمـاع، وتصوره بأنه علم رياضي، منطقي، تجريبي، وهذا ما أكد عليه فـي مقدمـة مؤلفه عن علم الاجتماع. وهذا بالإضافة إلى، أن " باريتو " حرص علـى أن يفتح المجال سواء لعلماء الاجتماع، أو النفس، أو الإقتصاد، أو السياسة لتطور مناهج هذه العلوم وإعتمادها على الملاحظة والتجربة وبمكانيتها في التوصـل إلى قوانين علمية تساعد على التنبؤ المستقبلي، وذلك عن طريـق إسـتخدامه للمنهج العلمي الوصفي الكمي الشامل.

بإيجاز، لقد طرح " باريتو " ست خطوات اساسية توضح منهجه العلمي كما يلي:

١- لايندرج تحت نطاق البحث العلمي إلا ما يخضع للملاحظة والتجربة.

٢- تعتبر الظواهر الاجتماعية متساندة وظيفياً.

٣- تستبعد نهائياً الظواهر المؤقته من نطاق البحث العلمي، لإن العلم لا يـهتم إلا بالظواهر الدائمة.

٤- ضرورة دراسة القضايا المشتركة والتي لها صفة العمومية بين المجتمعات.

٥- ضرورة وجود علم الاجتماع المقارن الذي يمهد الطريـق لأقامـة علـم إجتماع عام.

٦- يعتبر المنهج الوصفي الكمي، من أفضل المناهج العلمية لدراسة الحقـائق الواقعية، والذي يسعى لأقامة معرفة يقينية بعيدة عن الخيال.

٣- مرحلة المداخل البحثية السوسيولوجية الحديثة.

تركت مرحلة الرواد إسهامات متعددة في مجـال تطـور البحـوث الاجتماعية، وإن كنا لاحظنا أن طبيعة النشأة الأولى لعلم الاجتمـاع، أهتمـت بتناول العديد من القضايا والمشكلات الاجتماعية والإقتصادية والسياسية، التـي توجد في المجتمع الحديث، ولاسيما أن عملية نشأة علم الاجتماع قد تلازمة مع ظهور المجتمع الصناعي، وهذا ما ظهر في تحليلات كل من " كونـت "، و "

ماركس "، و "سبنسر "و "فيبر "وغيرهم. كما ظهر خلال هذه المرحلة أنماط مختلفة من مناهج البحث العلمى وطرقه وأدواته المختلفة، وخاصة أن الكثير من هؤلاء الرواد الأوائل حرصوا على أهمية تبنى المناهج العلمية المختلفة مثل المنهج التاريخى، والمنهج التجريبى، والإحصائى (الرياضى)، وغير ذلك من مناهج وطرق وأدوات بحثية ومنهجية متنوعة. وقد إستعان هؤلاء العلماء بالملاحظة، والملاحظة بالمشاركة، والإستبيان (إستمارة البحث)، وتحليل المضمون، والسجلات والإحصاءات والوثائق، وغير ذلك من وسائل متعددة أسهمت فى مجملها إلى تنوع البحوث والنتائج والتعليمات، التى توصلت إليها بصورة عامة.

إلا إن عملية تطور البحث الاجتماعى منذ البدايات الأولى من القرن الماضى (العشرين)، أخذت أبعاداً تحليلية ومنهجية متعددة الأنواع، وجاء هذا التنوع لعدد من الأسباب التالية:

أولاً: تطور النظرية السوسيولوجية العامة، والتى تعتبر الموجه الأول لإجراء الدراسات سواء أكانت نظرية أم إمبريقية (ميدانية).

ثانياً: تنوع التخصصات الفرعية المختلفة لعلم الاجتماع، والعلوم الاجتماعية الأخرى، وهذا ما أسهم فى تطور عمليات التعاون البحثى والمنهجى بين العلوم الاجتماعية من ناحية، والعلوم الطبيعية من ناحية أخرى.

ثالثاً: التركيز على كل من الملاحظة، والتجربة، كأساس لتطور البحوث الاجتماعية وإخضاع الكثير من الظواهر والمشكلات الاجتماعية قيد البحث العلمى الدقيق.

رابعاً: ظهور عدد من المداخل البحثية السوسيولوجية المتطورة، التى حدثت بكل من مناهج وطرق وأدوات البحث الاجتماعى، وطبيعة تناول ودراسة المشكلات والظواهر الاجتماعية التى توجد فى الوقت الراهن بصورة عامة.

خامساً: تطور مؤسسات البحث الاجتماعى سواء فى الدول المتقدمة والنامية، أو الجامعات أو المعاهد البحثية العليا المتخصصة، إيماناً بالدور الإيجابى وأهمية البحث العلمى الاجتماعى فى حل المشكلات الواقعية.

على أية حال، سنركز إهتمامنا الحالى، للإشارة إلى أهم هذه المداخل وكيفية إسهامها فى تطور البحث السوسيولوجى خاصة، والبحوث الاجتماعية والطبيعية عامة.

١ - المدخل التنظيمى الحديث Modern Organizational Approach.

منذ أن وضع " ماكس فيبر " نظريته عن التنظيم البيروقراطى، حاول أن يطبق هذه النظرية وإختبارها من الناحية الميدانية خاصة عندما درس عدد من التنظيمات الصناعية فى المجتمع الألمانى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ومستخدماً العديد من المناهج والطرق وأدوات البحث الاجتماعى، ويتحقق من مدى صحة نظريته ووجودها فى الواقع الاجتماعى الذى عاش فيه. كما حرص أيضاً، على أن يختبر العديد من الأدوات المنهجية البحثية، التى إصطبغت بإسمه مثل النماذج المثالية، وغيرها التى طرحها لتكون موجهاً نظرياً عاماً، يسعى الباحث لدراسته وتحليله، بإعتبارها نصور عقلى، وعلمى فى نفس الوقت. إلا أن طبيعة الإهتمام بدراسة التنظيمات الإجتماعية. أى كان نوعها مثل المستشفيات، والمصانع، والشركات التجارية، والمدارس، والجامعات وغيرها يتخذ أبعاداً تحليلية وبحثية ومنهجية جديدة، نتيجة لتطورات البحوث الاجتماعية، ونوعية النظريات، وأدوات البحث وطرقه المختلفة، وتنوع التخصصات العلمية التى شاركت فى هذه البحوث.

وما نقصده حالياً، بالمدخل التنظيمى الحديث وأثره فى تطور البحوث الاجتماعية (السوسيولوجية)، وهو الإهتمام بدراسة التنظيم كمؤسسة إجتماعية حديثة بدات تستقطب إهتمام الكثير من العلماء والمتخصصين فى مجالات متعددة ومتنوعة مثل قطاع الشركات الصناعية على سبيل المثال. ولقد أجريت دراسات ميدانية منذ العقود الأولى من القرن الماضى (العشرين) من أمثال دراسة " فريدريك تايلور " F.Tylor صاحب نظرية الإدارة العلمية Scientific Managment Theory، والذى حاول أن يدرس كيفية تطور أساليب العمل والإنتاج فى الشركات الصناعية الأوروبية والأمريكية، مستخدماً الكثير من الأساليب البحثية والمنهجية ولاسيما، الملاحظة، والتجربة، وتطبيقها على العمال ولفئات المهنية الأخرى وذلك من أجل زيادة إنتاجياتهم. كما إستخدم مقاييس كمية لقياس حجم العمل والإنتاج، أو ما يعرف بإستخدامه

لأساليب بحثية ومنهجيه دقيقة لقياس كل من الحركة والزمن، ووصـف كـل عملية إنتاجية بصورة دقيقة. ثم حاول بعد ذلك، أن يحدث من أساليب العمـل والإنتاج عن طريق إستخدام وسائل وطرق البحث الاجتماعي المتعددة. وكانت لدراسات " تيلور" وإعتماده على التجارب الميدانية والملاحظة المباشرة أثـر كبير في ظهور دراسات أخرى لرواد نظرية العلاقـات الإنسـانية Human Relations Throry ومن أمثال " التون مايو " A. Mayo وزملاؤه، الذيـن سعوا لتبنى الكثير من أساليب البحث ومناهج وطرق جمع البيانـات اللازمـة والتى ركزت على إستخدام التجربة العلمية داخل الشركات الصناعيـة، مثـل تجارب مصنع " هاورثون " Hawthorne التابعة لشركة ويسترن اليكترك فـي الولايات المتحدة، وذلك في الفترة من ١٩٣٢/٢٧، ثم وحدة البحوث الثانية في الفترة ١٩٤٢/٤٠. وحاولت هذه الدراسات، أن تبنى المنهج التجريبـي، عـن طريق إستخدام مجموعات من العمال وتطبيق الأساليب العلمية عليهم خـلال عمليات البحث والدراسة، ثم تطور هذا النوع من البحوث إلى حارج الولايات المتحدة، وإنتقلت إلى أوروبا، لتطبق بوسطة " بارديه " Bar]det في فرنسـا، ودراسة معهد " تافستوك " Tavistock في إنجلترا بإشراف " اليوت جـالكيس " E..Jaques [١].

إلا أن مجال دراسة التنظيمات قد تنوع بعد ذلك، خلال الخمسـينات وحتى السبعينات، حيث ظهرت مجموعة من العلماء الذين يطلق عليهم علمـاء علم إجتماع التنظيم الحديث، الذين تأثرو بكتابات " روبـرت ميرتون " R. Merton، و " تالكوت بارسونز " T.Pursons وتعزيزهما لعدد من النظريـات السوسيولوجية ذات الطابع التنظيمي وخاصة النظريات الفرعية، والتى يطلـق عليها بنظرية الأنساق الاجتماعية Social Systems Theory، والتى حـاولت أن تنظر إلى التنظيمات الحديثة على أنها أنساق فرعيـة، تتـأثر بـالعوامل الداخلية والخارجية التى توجد في المجتمع الخارجي. وهذا ما يتبلـور علـى سبيل المثال في دراسات " بارسونز " و " سيملسر " Semelser، على عدد من التنظيمات التعليمية والتربوية، سواء في الولايات المتحدة أو فـي بريطانيـا

---

(١) للمزيد من التفاصيل على إستعمال التجربة بوسطة هؤلاء العلماء : إرجع إلى ما كتبنـاه في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

وغيرها من الدول الأوروبية. ولقد إستخدم هؤلاء العلماء العديد من المناهج التجريبية، والإحصائية (الرياضية)، مثل دراسات " سميلسر" على المدراس البريطانية، وتطبيقه للعديد من المناهج الكمية والكيفية، ولاسيما، تحليل المضمون. هذا بالإضافة إلى الإعتماد على الملاحظة المباشرة، والوثائق والسجلات، وغير ذلك من أدوات البحث الاجتماعى التى ركزت على التنظيم، بإعتباره وحده للدراسة والتحليل أو نسق من الأنساق الاجتماعية التى تتأثر ببقية الأنساق الأخرى.

ولقد تطور هذا الإهتمام خلال الثمانينات والتسعينات ودراسة التنظيمات الاجتماعية الأخرى، مثل الجيوش والتنظيمات العسكرية، والمؤسسات العلاجية مثل المستشفيات على سبيل المثال وتعتبر دراسات " اليون فريد سون " E.Firedson، على عدد من المستشفيات كنموذج على هذا التحديث فقلد حاول أن يختبر عدد من التصورات النظرية المرتبطة بطبيعة البناءات التنظيمية للمستشفيات، كتنظيمات خدمية Organizations Services، ويعمل بها العديد من الفئات المهنية والطبيعية والإدارية المتخصصة، والتى تزايدت مؤخراً بعد تحديث ما يعرف بالتكنولوجيا الطبيعية Medical Technology ويدخل هذا النوع من الدراسات أيضاً تحت إدارة المستشفيات Mangament of Hospital، كما حاول الباحث أن يؤكد على طبيعة التباين والإختلاف بين التنظيمات الاجتماعية (الإنتاجية وغير الانتاجية) وما تعرف بتنظيمات الخدامات، ومستخدماً الكثير من المناهج التجريبية والكمية فى دراسة المستشفيات. وهذا ما حاولنا أيضاً دراسته على عدد من مستشفيات المصرية بمدينة الإسكندرية، حيث يركز البحث على إستخدام عدد من الأساليب المنهجية والبحثية وطرق أدوات جمع البيانات المتعددة سواء عن طريق الملاحظة، أو إستمارة الإستبيان، أو الملاحظة بالمشاركة، أو الإحصاءات، أو الوثائق، والبيانات غير الجاهزة، وذلك لتقييم كل من مدخلات ومخرجات Inputs- Outputs، العملية الإنتاجية للمستشفى كتنظيم إجتماعى، وايضاً للفئات المهنية العاملة به.

هذا بالإضافة إلى ظهور العديد من الدراسات التنظيمية التى تعـــرف بدراسات العامل التحليلى الأوحد، والمقصود بهذا النوع من الدراســـات هـــو التركيز على عامل واحد يؤثر فى بقية العوامل والعمليات الداخلية للتنظيم مثل عامل التكنولوجيــا Technolgy ، أو عــامل إتخــاذ القــرارت Decision Macking يمثل النوع الأول مــن الدراســات دراســة " تشــارلز بــيرو " C.Perow، والتى تركز على بُعد التكنولوجيا كعامل مؤثر فى جميع مدخــلات ومخرجات دراسة التنظيم. كما يمثل دراسة إتخاذ القرار بُعداً أخر بواســطة " مارش وسيمون " March & Simon. وبالرغم من هذه الدراسة قد ظـــهرت فى الستينيات من القرن العشرين، إلا أن الدراسات الحديثة فى مجال التنظيـــم تعتبراً إطاراً مرجعياً لدراسة أنماط العلاقات والتفاعل من خلال تحليل عمليـــة إتخاذ القرار..... بالطبع، تعتبر دراسات كا من " تيرنر " Turner، " لورنس" Lawrence، و " ديوين " Dubin، و" بافيلاس " Baveles من هذا النوع مـــن الدراسات التى إعتمدت على كل من الملاحظة المباشرة، والمقابلة وإســـتمارة البحث، كأدوات للبحث الاجتماعى. بالإضافة إلى المنهج التحليلـــى المقـــارن، والمنهج التجريبى، والإحصائى لتطوير هذا النوع من الدراسات التى اعتمـــدت على كل من المقاييس الكمية والكيفية. وإيجاز، لقد تطور الاهتمـــــام بـــالدخل التنظميى الحديث لدراسة الكثير من أنماط التنظيمات الحديث، مثل الشـــركات العالمية الصناعيةMultinal Gorporation، والمؤسسات الإعلاميـــة Mass Media Organizations، ومؤسســـات إدارة العدالـــة (القضائيـــة) Justics Organization، والتي استخدمت فيها كافة المناهج البحثية وأدوات وطـــرق البحث الاجتماعي المختلفة بصورة عامة.

٢- المدخل الأيكولوجي Ecological Approach.

يعتبر المدخل الأيكولوجى (البيئى) من المداخل السوسيولوجية، التـــى تمتد جذورها الأولى إلى اهتمامات علماء الاجتماع الأوئل، الذين جعلو البيئـــة الأيكولوجية نقطة إهتمامة الأساسى، وهذا ما ظهر فى دراســـات كـــل مـــن " سبنسر" و " ودر كايم " و " ماكس فيـــبر "، فلقـــد إهتـــم الأول بالمماثلـــة البيلوجية. كنمهج للدراسة والتحليل والمقارنة بين المجتمع كـــائن إجتمـــاعى والكائن العضوى(الحى)، الذى يتأثر كل منهما بالبيئة الخارجية التـــى يعيـــش

فيها. كما عالج " دوركايم " طبيعة تقسيم المجتمع المحلى، إلى مجتمعات آليه، ومجتمعات عضوية، كما ناقش فكرتي الجوانب الايكولوجية الإستاتيكية والديناميكية في المجتمعات، وتأثير كل من حجم السكان، والتقدم التكنولوجي والإقتصادى، وأنساق الإتصال، وتغير إيكولوجية المجتمعات من مجتمعات معزولة إلى مجتمعات متحضرة. أما رؤية "فيبر" للأيكولوجيا، كما جاءت في تحليلاته الكثيرة عن المدينة، والتقدم الحضرى، وظهور المجتمعات الميتروبولينية الكبرى، المرتبطة بتقسيم العمل والتخصص وغير ذلك من آراء أخرى. وعموماً تطور المدخل الايكولوجى فى إجراء بحوث علم الاجتماع، أو ظهور ما يعرف بالمدرسة الجغرافية أو الأيكولوجية كما جاءت فى دراسات " لامارك " Lamarck، و" كارل ريتر" K.Ritter، و " فريدريك لوبلاى " F.Leplay، وغيرهم آخرون من الذين ركزوا على إستخدام المناهج والابعاد التحليلية والبحثية المتعددة ودراسة العلاقة بين البيئة (الأيكولوجية) وطبيعة التنظيم الاجتماعى، والسلوك البشرى، والتدرج والطبقة الاجتماعية، والتوطين الصناعى والحضرى، والتوزيع المكانى والأيكولوجى.

إلا أن فترة ما بين الحرب العالمية الأولى والثانية، نشطت خلالها الدراسات السوسيولوجية، التى تبنت المدخل الايكولوجى ولا سيما، بعد أن تطورت إسهامات المدرسة الأمريكية السوسيولوجية. كما جاءت فى نشأة علم الإجتماع الحضرى Urban Sociology، وإهتمام مجموعة من العلماء بإستخدام المناهج السوسيولوجيية التى تم تحديثها بصورة سيئة عما كان عليه خلال القرن التاسع عشر والثامن عشر. كما ركزت على دراسة الكثير من المناطق الأيكولوجية الحضرية أو المتخلفة، مثل دراسات "كليفوردت" ، و" سميث" و" بارك" و" ماكينزى" [1].وغيرهم آخرون. الذين ركزوا على إستخدام مناهج البحث الاجتماعى لدراسة الوحدات الجغرافية والأيكولوجية والإقليمية وتأثيرها على السلوك الإنسانى أو البشرى، ومعرفته تأثير الحراك أو التنقل الاجتماعى، وعلاقة الإنسان بالأرض، والمسكن أو البيئة ومعدلات الجريمة. ومشكلات التخطيط الحضرى والعمرانى، وجماعات الأحداث، وغير

---

(١) أنظر لمزيد من التفاصيل:

- السيد عبد العاطى السيد، البيئة والمجتمع، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥.

ذلك من دراسات معقدة ثم إستخدام كل من الملاحظة، والمقابلة، وإستمارات البحث، والإحصاءات، والخرئط والرسوم والاشكال البيانية التي تظهر علاقة البيئة الأيكولوجية بالظواهر والمشكلات المدونة.

ويحدد " جورج ميثودورسون G.Theodorson " للتطورر التاريخي للمدخل الايكولوجي في علم الإجتماع بأربعة مراحل أساسية وهي بإيجاز:

١- المرحلة الكلاسيكية: وتعكس تحليلات (بارك) أهم ملامح هذه المرحلة. وتميز في مجملها بين المجتمعات الإنسانية والمملكات البدائية في تاثير كل منهما بالبعد الايكولوجي والبيئي.

٢- المدخل التقليدي المحدث: وخلال هذه المرحلة التي ظهر ما بعد الثلاثينيات من القرن العشرين وتجاول إعادة تقييم وإستخدام المدخل الأيكولوجي سواء من ناحية المفاهيم، أو التصورات النظرية، أو المناهج التحليلية وذلك من أجل معرفة العلاقة بين توطين الإنسان ببيئته الأيكولوجية ومستوى تقدمه وتطوره.

٣- المرحلة السوسيوثقافية: وهذا ما ظهر في تحليلات " والترفايري W.Fixey، الذي إستخدم الجوانب السوسيولوجية والثقافية في دراسة البيئة أو العمليات الأيكولوجية دون التاكيد على الجونب أو العوامل الحيوية أو الإقتصادية. وهذا ما ظهر في تحليلاته للثقافة أو القيم الثقافية، التي تلعب دورا أساسياً في تحديد العلاقة بين الإنسان والمجتمع من جانب، وبين الفيريقية المكانية، من جانب آخر.

٤- مرحلة مدخل تحليل المناطق الاجتماعية: ذلك المدخل الذي يؤكد على اهمية العلاقات المكانية ومجموعة العوامل الأخرى التي تفسر علاقات الأنسان ببيئته الايكولوجية. وهذا ما ظهر في تحليلات كل من شيكي " E.Sheky و " دونل بيل " W.Bell. وتعتبر الأسس المنهجية والبحثية التي ظهرت خلال هذه المرحلة من أهم الأسس المنهجية والبحثية السوسيولوجية عموما، والتي ظهرت بواسطة الإعتماد على المدخل الأيكولوجي والتي تعرف في الوقت الحاضر بمدخل التحليل العاملي، أو الأيكولوجيا العمالية.

وبإيجاز، إن الإهتمام بالمدخل الايكولوجى، ساعد على تطور المناهج البحثية المختلفة لعلم الاجتماعى وغيره من العلوم الاجتماعية و الطبيعية فى نفس الوقت. ولاسيما، أن علماء المناهج والبحث العلمى فى هذه العلوم تؤكد على أهمية وجود نوع من التقارب بين إهتمامات المتخصصين سواء فى العلوم الاجتماعية والطبيعية، للإستفادة من خبراتهم البحثية النظرية والميدانية. وهذا ما جعل علماء الطب عند دراساتهم للأمراض المتوطنة أو المعدية يركزون على أهمية دراسة العوامل البيئية والاجتماعية، أو عندما يهتم علماء الهندسة وخاصة تخطيط المدن الحديثة أن يهتموا بدراسة طبيعة أنماط التوطين الحضرى. والتخطيط العمرانى سواء من ناحية المرور أو الكثافة السكانية، وتوسيع الخدمات والمرافق وغير ذلك من علماء العلوم الاجتماعية.

٣- المدخل التفاعلى الرمزى Symbolic Interaction Approach.

يعكس هذا المدخل التقارب المنهجي والبحثى بين العلوم الاجتماعية، ولاسيما بين علم الاجتماع، وعلم النفس، ذلك التقارب الذى ترجم إلى بعض التخصصات العلمية المشتركة مثل علم النفس الاجتماعى Social Psycology، وغيره من التخصصات الأخرى التى تطورت منذ العقود الأولى من القرن العشرين، والتى ركزت على ضرورة الإستفادة من المناهج السيكولوجية والسوسيولوجية فى دراسة المشاكل والقضايا الاجتماعية، ولاسيما أن إستفادة العلوم الاجتماعية للتقارب المنهجي والبحثى بين العلوم الطبيعية مثل الكيمياء والأحياء والطبيعة والفلك وغيرها والتى إستطاعت أن تقطع شوطاً كبيراً فى دراستها للظواهر الطبيعية ومقدرتها على التنبؤ المستقبلى لها. وعلى أية حال، أن تطور المدخل التفاعلى الرمزى، يرجع إلى إسهامات علماء النفس الاجتماعى الأوائل من أمثال " تشارلز كولى " C.Cooly، و " جورج هومانز " G.Homims، وغيرهم من العلماء الأوليين الذين إهتموا بدراسة الجماعة Group Study وإستفاد منهم بعد ذلك علماء مدرسة العلاقات الإنسانية فى دراساتهم لأنماط التفاعل فى الشركات بين الجماعات العمالية وجاء ذلك فى دراسات كل من " وليام هويت " W.White فى دراسته لجماعات الناصية Street فى كورنيل بمدينة نيويورك، ثم دراسته أيضاً على جماعات العمل فى المطاعم الكبرى[(١)].

---

(١) أنظر ما كتبناه فى الفصل الخامس على التجربة فى مجال دراسات الجماعة

كما تتبع تطور هذا المدخل إسهامات علماء مدرسة ميتشجن من أمثال " ليكرت " R.Likert، الذى حاول أن يدرس طبيعة عملية القيادة والإشراف Leadership & Supervison وعلاقتها بعمليات الإنتاج، وطبيعة أنساق العلاقات الإنسانية والاجتماعية. كما كانت هذه الدراسات حافزاً لدراسات أجرها أصحاب مدرسة جامعة أوهايو مثل دراسات كل من " كارول " Karol، و " شابل " Chapple و" تشاتل " Shattle، و " أستوجول " Stogdili، حول طبيعة الرضا فى العمل، والمكافأة والجزاء، والضبط الرسمي وغير الرسمى. وبالرغم من يقود المناهج السوسيو- سيكولوجية، وأدوات البحث الإجتماعى التقليدى مثل الملاحظة، وإستمارة البحث، والمقابلات المكثفة، والإحصاءات، والوثائق والسجلات، وتحليل المضمون. إلا أن تطورات دراسات الجماعة أخذ أبعاداً أخرى، منهجية وبحثية لدراسة العلاقات الاجتماعية داخل الجماعات، وإجراء العديد من التجارب على الكثير من التنظيمات والمؤسسات الصناعية والإنتاجية والخدمية. عموماً، جاء هذا التطور بعد إجراء " مورينو " Moreno للعديد من الدراسات الميدانية ومحاولاً أن يستخدم المقاييس السوسيومترى Socio-Meter، وذلك بقياس شبكة العلاقات الإجتماعية بصورة كمية. ثم تطورت بعد ذلك إستخدام المقاييس الكمية لمعرفة العلاقات بين أفراد الجماعة، وجاء ذلك فى إطار إختراع مقايس للتفاعل (الكونوجراف)، وهو بمثابة آلة حاسبة للقياس الكمى للعلاقات بين أفراد الجماعة. ثم ظهرت مقاييس كمية لدراسة العلاقات أكثر تطور من المقاييس الأكثر دقة وهى السوسيوجرام Socio-Grams.

ولكن تطورت بعد ذلك، إهتمامات علماء النفس الإجتماعى، الذين إهتمو بمعالجة قضايا سوسيوسيكولوجية ليس فقط داخل قطاع الشركات أو التنظيمات الصناعية، ولكن أيضاً لدراسة العديد من أنماط التفاعل فى المؤسسات الاجتماعية الأخرى مثل الجيوش، والمدارس، ودور الحضانة، والجماعات، وغيرها. ولاسيما، ودراسة مشاكل التنشئة الإجتماعية Socicelization Problem، وغيرها من القضايا الأخرى مثل مستويات التحصيل الدراسى، أو الذكاء، وعلاقة التلميذ بزملائه، أو القوانين المدرسة والتنظيمات الاجتماعية الأخرى مثل الاسرة. وربما يرجع هذا الإهتمام إلى منهجية بعض العلماء التربوين من أمثال " وبلار دوبلر " W.Waller الذى رأى أن المدرسة، ماهى إلا كائن عضوى، أو إنها وحده للتفاعل بين

الشخصيات الفردية. ولقد تلازم هذا التطور مع تطـــور آراء علمـــاء النفـــس- الاجتماعي من أمثال " جورج ميد " G.Mead، و " هلــبرت بلومــر " . H Blaomer، الذين حاولا إستخدام المدخل التفاعلى الرمزى، لدراســـة طبيعـــة العلاقات داخل المدرسة أو المؤسسات التربوية الأخــــرى، ومعرفـــة كيفيـــة إختلاف أنماط التفاعل والمواقف العامة وسلوكيات التلاميذ والفئـــات المهنيـــة التربوية الإدارية، ومدى إنعكاس العلاقات المتبادلة بين المدرسة والتنظيمـــات التعليمية بالوسط البيئى والثقافى، والسياسى، الذى يوجد فى المجتمع الخارجي.

وبالطبع، لقد تم إستخدام العديد من المنـــاهج التاريخيـــة، والتجريبيـــة، وأدوات البحث الاجتماعى التى تم تعزيزها بالمناهج الرياضية، التـــى إســـتطاع الكثير من أنصار المدخل التفاعلى الرمزى، ولاسيما ذلك النوع مـــن المقـــاييس الكمية سواء أكانت سوسيومترية أم أثنوجرافية أو سوسيوجرافية. لكن مع تطـــور الحاسب الآلى (الكمبيوتر)، تم تعزيز المقاييس الكمية، فى دراســـتها للظواهـــر والمشكلات الاجتماعية بصورة عامة، كما ساعدت هذه الأجـــهزة التكنولوجيـــة المتقدمة على سرعة الحصول على البيانات والمعلومات. وإن كـــانت دراســـات أنصار المدخل التفاعلى الرمزى، تركزت للجمع بين إيجابيات كل من المقـــاييس الكمية والكيفية فى نفس الوقت، وذلك من أجل تعزيز النتائج التى تـــهدف إلـــى تحقيقها والتعميمات المنتظرة من هذه النتائج وربما تعتبر دراسات كل من " أرون سيكرول " A .Cicourol، و " جون كيتوس " J.Kitsuse. فى دراسة التنظيمات والمؤسسات التربوية مثل الجامعات بالولايات المتحدة خير دليـــل علـــى ذلـــك. ولاسيما، عند تركيزها على دراسة عملية صنع القـــرار Decision Macking داخل هذه المؤسسات. وإستطاع الباحثين للتوصـــل إلـــى عـــدد مـــن القوانيـــن والتعميمات حول الدور الوظيفى والمهنى، الذى تلعبه القيادات التعليميـــة ســـواء على مستوى القطاعات الحكومية العامة،أو على مستوى النظام التعلمي المحلـــى، أو على مستوى المدرسة فى صنع عملية القرار الـــتربوى. وبـــالطبع، أعتمـــد الباحثين من المقاييس البحثية والواقعية دراسة أنماط تفاعل والعلاقات الاجتماعية نتيجة صدور هذه القرارات.

إلا أن مجال إستخدام المدخل التفاعلى الرمزى قد تطور بعـــد ذلـــك، وشمل أيضاً العديد من التنظيمات العلاجية أو الطبية، مثل المستشفيات ســـواء أكانت علاجية عادية أو مؤقته أم دائمة مثـــل مستشـــفيات الصحـــة العقليـــة

Mental Heolth Hospital. وحاول بعض علماء علـــم-الاجتمــاع الطبـــى Medical Sociology، أن يتعرفوا على أنماط التفاعل والعلاقات سواء بيـــن المرضى، أو بين الفئات الطبية والعلاجية المتخصصــــة، مثــل الجراحيـــن، والأطباء، السيكولوجين، أو هيئات التمريض. كما حاول البعــض أن يـــدرس العلاقة بين الأطبا.. أو المرضى وما سميت بدراســـة Patients - Doctors Relationship، والتي تعكس في مجملها العديد من أنماط التفاعل، ونوعيـــة المواقف، وتقبل القرار الطبى، والإمتثال لقواعد المستشفى، وإحترام مواعيـــد الدواء وغير ذلك من عمليات وسلوكيات متعددة وتمثل دراسات كـــل مـــن: رينر " Renner، و " أيـــبر " Auber، و " كينـــج " King، و " توماســـك " Tomasic، خير مثال على ذلك. ولقد إستخدم هؤلاء الباحثين العديد من مناهج البحث السوسيولوجى والسيكولوجى والطبى فى نفس الوقت. ولقد طور مـــن أساليب المدخل التفاعلى الرمزى عن طريق التركيز على فكرة أهمية الفريـــق المعالج Medical Tean، الذى يشمل نوع من المعالجات الطبيعية ذات الطابع التعارضى أو مشترك بين أفراد المهن الطبية. وهذا ما يظـــــهر ســـواء فـــى العلاقات السوسيولوجية أو الجسمانية أو السيكولوجية عامة. وعموماً، نجد أن تطور المدخل التفاعلى الرمزى، جاء نتيجــــة تحديـــث كـــل مـــن المنـــاهج السوسيولوجية والسيكولوجية، وايضاً الطبية معاً مع التركـــيز علـــى عـــاملى الملاحظة، والتجربة، كأساس للدراسة والتحليل، وتحديـــث ايضـــاً الأســـاليب والمقاييس الكمية والكيفية والإستفادة منها فى دراسة المشاكل الاجتماعية فـــى العديد من المؤسسات الطبية والعسكرية والإقتصادية، والسياسية. وأيضاً فـــى دراسات الجريمة والإنحراف.

٤- المدخل الفينومينولوجى Phenamenology Approach.

تمتد جذور هذا المدخل إلى الفكر الفلسفى الذى ظهر خلال القرنيـــن الثامن عشر والتاسع عشر، وخاصة بعد أن نشرت أعمال رائد هـــذا الإتجـــاه الفينومينولوجى أو ما يسمى بالإتجاه الظاهراتى أو دراســـة الظـــاهرة عنـــد " إدموند هومسرل " E. Husser (١٨٥٩- ١٩٣٨)، ولكن مالبث أن إنتقـــل إلى علم الإجتماع تحت المسمى ذاته، وإستخدام بصورة كبيرة ولاسيما بعد أن تناوله العالم الألمانى الاجتماعى " الفرد شوتز " A. Schutz(١٨٩٩-١٩٥٩)

الذى رفض الكثير من الإتجاهات السوسيولوجية الوضعية ومناهجها المختلفة لأكتشاف الحقيقة أو دراسة الظواهر الخارجية. وحاول " شوتز " أن يستخدم هذا المدخل (الفينومينولوجى) من أجل إيجاد منهج علمى جديد، يركز فيه على أهمية الدور الإيجابى الفعال للفرد أو الذات. ولاسيما، أن طبيعة الواقع الاجتماعى والبيئة المعرفية والثقافية، ماهى إلا نتيجة طبيعية للأفعال والسلوكيات والأنشطة، التى يقوم بها الأفراد والجماعات فى حياتهم اليومية. كما حاول " شوتز " بهذا المعنى، أن يطور منهجه علم الاجتماع، وجعل الأفعال ذات المعنى، هى جوهر إهتمام هذا العلم وموضوعه الأساسى.

وإنطلاقاً من هذا التفسير السابق، للمدخل الفينومينولوجى، سواء من منطلقاته الفلسفية أو الاجتماعية (السوسيولوجية)، فإنه يسعى لتبنى منهج علمى جديد، يجمع بين المناهج التحليلية الفلسفية التى تؤثر على حتمية الذات الإنسانية فى دراسة وتعقل الأشياء والأفعال التى توجد فى الحياة اليومية. كما تتبنى الأراء السوسيولوجية التى تعتمد على هذه الفكرة الفلسفية فى درجة الواقع الاجتماعى، وتحليل معناه بصورة موضوعية. وعموماً يعتمد المنهج الظاهراتى أو الفينومينولوجى على مسلمتين أساسيتين وهما[1]:

أولاً: الإمتناع عن إصدار أية أحكام تتعلق بالواقع الموضوعى، وعن تجاوز حدود التجربة الذاتية.

ثانياً: إعتبار عملية المعرفة، وموضوعها هى الوعى الخالص وليس الوجود الحقيقى.

تلك المسلمتين اللتان ظهرا فى أفكار رائد هذا الإتجاه الفلسفى هو " سرل " الذى عنى أساساً بفكرة بناء الوعى وعلاقته الذاتيه بالمنهج العلمى. ولاسيما إنه كان يؤكد على أن منهجية أى علم من العلوم لم تأت من فراغ، بقدر ما ظهرت هذه المنهجية إنعكاساً ونتيجة حقيقية لطبيعة القضايا المعرفية التى سبقت مرحلة المنهج العلمى بمراحل طويلة.

ومن هذا المنطلق، أن منهجية البحث الاجتماعى قد تطورت بفضل تبنى العديد من الإتجاهات الفلسفية والسيكولوجية والإقتصادية والرياضية والإحصائية بالإضافة إلى إسهامات المناهج فى العلوم الطبيعية الأخرى مثل الأحياء. وهذا ما ظهر خلال التقارب الفلسفى – السوسيولوجى ونتج عن تبنى

---

(١) أنظر : سمير نعيم، النظرية الاجتماعية، القاهرة: مكتبة سعيد رأفت، ١٩٧٧.

المنهج الفينومينولوجي – أو الإتجاه الظاهراتي في دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية. ولاسيما، أن أنصار الفلسفة الظاهراتية يرون أن معرفتنا بالعالم الطبيعي الخارجي، أنما تأتي عن طريق خبرتنا الذاتية، وهذه الخبرة هي التي تمكنا من إدراك جوهر الاشياء. وهذا يعني بكلمات أخرى، هو إهمال كل المعارف السابقة عن الأشياء الخارجية، قبل إصدار أحكام معينة حولها. وبالطبع، أن هذه الفكرة ترجع إلى آراء العديد من الفلاسفة من أمثال " كانت "، إلا أن هذه الأفكار كإسلوب منهجي للحصول على المعرفة، وجدت قبولاً كبيراً من العديد من علماء الإجتماع من أمثال " ماكس شيلر " M.Scheler، و " شولتز " Schutz، و " جوفمان " Goffman، و " جارفينكل " Garfinkel، و " بيتر برجر " B.Berger، وغيرهم آخرون.

وما يعنينا حالياً، أن المدخل الفينومينولوجي، تركز على إستخدام منهج علمي وتحليلي جديد، حاول فيه أن يدمج الكثير من الأفكار والمفاهيم المختلفة مثل (الوعي)، و(الغيرة)، والتجربة، والشعور، والمعرفة، والظاهرة. علاوة على ذلك، فإن أنصار المدخل يعترفون بالولاء إلى تحليلات " ماكس فيبر " M.Weber، ولاسيما أن هناك الكثير من المماثلة والتشابه بين تحليلات ودراسات أنصار المدخل الفينومينولوجي المحدث، وأفكار فيبر التقليدية حول المنهج العلمي، الذي ينطلق من مقولة الفهم أو المعنى الذاتي للأفعال الإنسانية، والتي تعتمد على كل من النماذج المثالية والتصورات العقلانية كمسلمات او بديهيات منهجية تعزز من عملية البحث السوسيولوجي ودراسة القضايا والظواهر التي يواجهها العالم الخارجي. وخاصة، أن تحليل عملية المعرفة الإنسانية Human Knowledge، تحتاج إلى نوع من المناهج الكيفية، بصورة خاصة، وتعمد على عملية العقل وتفسير الأشياء، ومعرفة الاسباب والعوامل وراء تكرار حدوث الظواهر، أو الإعتماد على كل الخبرة العقلية، والملاحظة، والتجربة العلمية في نفس الوقت.

وفي الواقع، لقد إستخدم علماء الاجتماع المدخل الفينومينولوجي منذ بداية الستينيات من القرن الماضي(العشرين)، ومحاولين أن يُحدثوا من أساليب البحث الاجتماعي، نوعية المناهج المستخدمة في دراسة المشاكل والقضايا الاجتماعية. ولاسيما، بعد أن تعددت إستخدامات المناهج الكمية وتطور

الحاسبات الآليه، و إجراء البحوث التى تعتمد فى جمع بياناتها على المناهج الكيفية فى نفس الوقت. وهذا ما ظهر على سبيل المثال فى دراسات علماء إجتماع التربية Sociology of Education، خلال الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضى، محاولين دراسة نسق التربية ونظام المعرفة الإنسانية، التى يتلقاها الفرد أو النشئ فى مؤسسات التعليم المختلفى، ومحاولتهم تمثيل مستويات الشعور، والتفاعل، الإدراك، والوعى، والخبرة، وتحليل المعانى والمفردات، وأنماط المعارف المختلفة التى يحصل عليها التلميذ فى المؤسسة التعليمية. وهذا ما ظهر فى دراسات عالم الإجتماع البريطانى "ميشيل يونج"[1]. M.Young، الذى سعى لتطبيق المدخل الفينومينولوجى، وإعتباره منهجاً جديداً يسهم فى دراسة العديد من المشاكل والقضايا التى ترتبط بأنساق ومؤسسات المعرفة الثقافية، مثل المؤسسات التربوية، متحليل دور هذه المؤسسات، ومدى مساهمتها فى تطوير النسق المعرفى والثقافى لتلاميذ أو الأجيال عبر العصور.

وفى السنوات الأخيرة، ظهرت دراسات متعددة فى العديد من تخصصات وفروع علم الاجتماع الحديثة، التى تهتم بتبنى المدخل الفينومينولوجى فى دراسة المشكلات والقضايا الاجتماعية الواقعية، عن طريق إستخدام أساليب البحث العلمى المتطور الذى يعتمد على المنهج الكيفى، الذى يعتمد عليه غالباً أنصار هذا المدخل. ولكننا لسنا حالياً، فى إطار سرد جميع هذه الدراسات، بقدر ما نشير هنا إلى أن إسهامات (يونج) السابقة، قد عززت بالعديد من الدراسات الميدانية سواء فى أوروبا أو الولايات المتحدة أو الدول النامية، مثل دراسات " كرابل " Karabel، و " هالس " Haslsey، و " جيرالد " Gerald، التى بدأت تناقش قضايا معرفية وثقافية، لا ترتبط فقط بطبيعة الدور الذى تلعبه مؤسسات التعليم فى إمتلاك الثقافة، ولكن أيضاً دور المؤسسات الإعلامية. مثل الصحافة، والتلفزيون، والسينما، والإنترنت،

---

(١) للمزيد من التفاصيل أنظر :

- Young , M.(ed) Knowledge and Contrd: New Direction For Sociology of Education , London: Macmillon, 1971.

وغيرها من وسائل الإتصال الجماهيرى[1]. وحاولت هذه الدراسات أن تناقش على سبيل المثال، الدور الوظيفى والمهنى لمؤسسات المعرفة الثقافية الحديثة سواء كانت مؤسسات تربوية تقليدية، أم مؤسسات إعلامية فى تشكيل البناء المعرفى والثقافى للجماهير والمجتمعات.

٥- المدخل الإثنوميثودولوجى Echnomethodology Approach.

يرتبط هذا المدخل بالدراسات الظاهرتية (الفينومينولوجية) وايضا المداخل السلوكية (التفاعلية الرمزية)، التى أثرت كل منها فى مناهج البحث والدراسة فى علم الاجتماع، وغيرها من العلوم الاجتماعية. وإن كان المدخل الأثنوميثودولوجى، قد تطور منذ أواخر الستينيات من القرن الماضى (العشرين) على يد " هارولد جارفنيكل " H. Garfinkel. أما مصطلح (الإثنوميثودولوجى) فإنه يشير إلى جزئين أو مقطعين أساسيين هما: الإثنو Ethno، وتوضح حجم المعرفة التى عن طريقها يستطيع الفاعل أو الذات البشرية أن تصف الاشياء الخارجية المادية أو اللامادية، وذلك طبقاً لما هو شائع إستخدامه بوسطة أفراد المجتمع أو ما هو معروف واقعياً. أما مصطلح ميثو Mothod، فهى المنهج أو الوسيلة التى عن طريقها يستطيع الأفراد أن يحللو أو يصفوا أو يتعقلوا معانى الاشياء الذاتية والواقعية وما نسعى لتحليله حالياً، ليس دراسة الإتجاه الإثنوميثودولوجى كإتجاه نظرى بقدر ما نركز على علاقة هذا الإتجاه بتطوير البحوث الاجتماعية عامة، البحوث السوسيولوجية خاصة. ولاسيما، أن المدخل الأثنوميثودولوجى يتبنى مناهج بحثية تحليلية، تعتمد على المقاييس الكيفية من الدراجة الأولى، لأنها تسعى للكشف عن أصل الأشياء والوسائل، التى يمكن عن طريقا أن نتعقل حقائق الاشياء وأنماط المعرفة الإنسانية وحياتنا اليومية والسلوك البشرى، وذلك عن طريق إستخدام ميكانزمات بحثية ومنهجية معينة.

---

(١) للمزيد من التحليلات إرجع إلى:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، سوسيولوجيا الإتصال والإعلام، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠.

ويصف البعض المنهج الإثنوميثودولوجى، بمنهج، الشعوبية، أو منهج الطرق الشعبية السابق، التى تحدث فى الحياة اليومية العادية، ولاسيما أن سلوكيات الأفراد خلال ممارستهم اليومية وشعوبياتهم وأفعالهم تحدث بصورة تلقائية أو عفوية روتينية، لذا فإن مهمة علم الاجتماع ومناهجه يجب أن تتطور لدراسة هذه الممارسات والسلوكيات اليومية ومعرفة المعاني الضمنية والذاتية التى تحملها وتشير إليها. إذن يمكن القول، بأن المنهج أو المدخل الإثنوميثودولوجى من وجهة نظر علماء الاجتماع، يهدف إلى فهم الموقف الاجتماعى Social Situation. من الداخل، وكما يبدو للناس الذين يعيشون ويحسون به. كما أم مهمة علم الاجتماع، يجب أن تهتم بدراسة الجانب (غير المرئى)، الذى لا تحس به أو قد يكون مألوفاً لدى كثير من الأفراد ومن ثم، فإن مهمة علم الاجتماع يجب أن تركز منهجياً هموماً، والكشف عن هذا الجانب، وجعل الناس يدركونه والإحساس به، ربما عن طريق معرفة مخالفاتهم له. وهذا ما يظهر بوضوح عند معرفة أسباب خروج الفرد عن القواعد والسلوكيات العامة المعترف بها إجتماعياً.

ومن الناحية المنهجية والبحثية لأستخدامات المنهج الإثنوميثودولوجى، الذى يركز على كيفية إستخدام المقاييس الكمية والكيفية لدراسة الاشياء أو المعلومات الذاتية التى توصف بالبيانات المعرفية فى نفس الوقت. فلقد طور علماء علم الاجتماع القانونى، وسوسيولوجيا الإتصال والإعلام، وعلم الاجتماع الطبى، وغير ذلك من التخصصات التى تهتم بدراسة وديناميات الجماعة، وتفسر السلوك الاجتماعى المتطور والمعقد بمرور الوقت، وذلك عن طريقه إستخدام المنهج الأثنوميثودولوجى، الذى يمكن تعريفه أولاً، على إنه يستخدم مجموعة من الطرق والأساليب البحثية لدراسة سلوك الأفراد الذين قاموا بتنفيذ أفعال وسلوكيات معينة، وجعل هذه الأفعال والسلوكيات فى موقف Situation، يمكن إعادة إنتاجية Reproducing، مرة أخرى، وبصورة تجعل الباحثين أو الأفراد الآخرين ودراسته وتحليله. ومن ثم، يمكن القول بإيجاز شديد، أن الهدف الأساسى من المنهج والمدخل الأثنوميثو دولوجى هو جعل أفعال وسلوكيات الأفراد وطرق حدوثها فى مواقف تجريبية وإجتماعية معينة، من أجل خضوعها للدراسة

والتحليل أو تفسير أسباب حدوثها، وذلك من قبل مجموعة مــن (المحكميــن) سواء كانوا من الباحثين أو الأفــراد العــاديين المــهتمين، بدراســتها هــذه السلوكيات، وذلك من أجل وضع تقارير مكتوبة حول هذه السلوكيات وطــرق أدائها ككل.

وفى الواقع، لقد تطورت الدراسات الأثنوميثودولوجية فى الســنوات الأخيرة، وأصبحت تستخدم فى العديد من البحوث الاجتماعية والسوسـيولوجية المختلفة. ونشير هنا حالياً، لإستخدامها فى مجال علم الاجتماع القانون، وعلــم الإتصال والإعلام، كمثال فقط للإشارة لتنوع إستخدامات المتخصصين فى علم الاجتماع ككل. ففى المجال الأول (علم الاجتماع القانونى)[1]. إهتم عدد مــن العلماء من أمثال " هــارت " Hart، و " جــايس " Jayyuse، و " هيســتر " Hester و " بولوز " Polner و " مازر " Mother وغيرهم آخرون بإستخدام المنهج الإثنوميثودولوجى. وذلك عند تحليلهم ودراساتهم إلى طبيعة إرتكــاب الجرائم بواسطة المجرمين، ولاسيما فى حالة جرائم الإغتصــاب، والســرقة بالإكراه، والقتل المتعمد وغير ذلك. حاول الباحثين، أن يتعرفوا من الناحيــة المهنية على طبيعة الدوافع Motives، والأسباب التى عــن طريقــها يقــوم المجرم بأسباب الجريمة، كما يحاول رجال القانون والسرقة، معرفة الأســباب والدوافع وملابسات الجريمة، حتى يمكن الإستفادة منها فى إجــراء أبحاثــهم المستقبلية، نظراً لتنوع وإختلاف ظروف دوافع وملابسات كل جريمــة عــن أخرى وخلال عملية وصف المجرم وإجباره، على تمثيــل عمليــة إرتكابــه الجريمة، يقوم المحققون والباحثون بدراسة الأساليب والطرق التى عن طريقها يمكن معرفة كل التفاصيل المرتبطة بها، ويكتبون تقارير عنها، مستخدمين فى ذلك وسائل الملاحظة، والتجربة، والمقابلات، وإستمارة البحــث، والتســجيل المرئى والصوتى والموقفى عموماً السلوك المجرم خلال عملية تمثيله لكيفيــة إرتكاب الجريمة بصورة عامة.

---

(١) أنظر على سبيل المثال:

- Feeley . M, The Process in The Punishment Handling Cases in Lawer Coures, N.Y: Rassel SAGE, 1979.

كما تكشف أيضاً معظم الدراسات الإثنوميثودولوجية مثـل دراسـة " مازر " Mather على محاكم لوس إنجليوس[1] **Los Angeles**، نوع مـن التطور البحثي والمنهجي، لأساليب وأدوات جمع البيانات المرتبطـة بمجـال الجريمة والإنحراف وإدارة العدالة القضائية. ولاسيما، أن إسـتخدام الأدوات التقليدية مثل الملاحظة، وكتابة التقارير تحتاج إلى نوع من التطور والتحديث، وخاصة لدى الفئات المهنية القانونية التي تعمل في المؤسسات القضائية مثـل المحاكم سواء أكانوا قضاة، أو محامين، أو هيئـات المحلفيـن، أو محققيـن إداريين وشرطة أو ممثلي الإدعاء والنيابة العامة. لـهذه الفئـات لابـد وأن تتعرف على المزيد من المعلومـات والبيانـات التـي ترتبـط بـالمجرمين والخارجين على القانون وما يعرف عموماً بالمعرفة الثقافية القانونيـة، التـي تمكنهم من تفسير السلوك الإجرامي، وكيفية التعرف على الأسباب وظـروف وسلوكيات مرتكبي هذا السلوك المعقد. في نفس الوقت، طور الباحث بعـض الأساليب والأدوات البحثية التي تمكن هذه الفئات من تطور قدراتهم بصـورة عامة. ولقد تطور المنهج الإثنوميثودولوجي دراسة أيضاً عمليات المناقشـات والمفاوضات التي تحدث بين هيئات المحلفين، أو بين المحامين والقضاه قبـل إصدار الأحكام القانونية.

وفي مجال الإتصال والإعلام، نجد أن الكثير من القائمين على وضع البرامج الإعلامية (القائمين بالعملية الإتصالية)، يهدفون إلى جعل المشاهد إلى هذه البرامج، في موقف إجتماعي معين، يستطيع أن يحكم علـى الأشياء أو السلوكيات أو الأفعال، أو المواقف التي يتم تمثيلها بصورة تعتمد على المناهج الإثنوميثودولوجية التي تسعى إلـى تجسـيد رؤيـة المشـاهد فـي الأفـلام والمسلسلات، وإعطاء فرصة للجمهور للحكم عليـها مـن وجهـة نظرهـم الخاصة. وبعد ذلك يحدث نوع من التقييم الذاتي للجمهور لطبيعة سـلوكياته، وأفعاله وحياته اليومية الروتينية، والتي يمكن عن طريقها أن يقييم الفرد ذاتـه من خلال حكمه على أفعال وسلوكيات الآخرين، حتى ولو تم تصورهـا فـي مشاهد سينمائية أو تلفزيونية فكاهية أو درامية.

---

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر:

- Mather, I ,Pela Bargaining or Trail. The Proces of Criminal. Case Lengton: Mass, 1979.

الفصل الثالث

طبيعة المنهج العلمى فى الدراسات الاجتماعية

تمهيد:

١- تعريف المنهج العلمى وخصائصه.

٢- خطوات المنهج العلمى.

٣- المنهج العلمى فى دراسة الظواهر الاجتماعية.

٤- حدود المنهج العلمى فى البحوث الاجتماعية.

تمهيد:

مع بداية القرن الحادى والعشرون يتطلع علماء الإجتماع وغيرهم من علماء العلوم الاجتماعية، نحو المزيد من التقدم العلمى فى مجالات بحوثهم وتخصصاتهم المختلفة، بما حققه علماء العلوم الطبيعية، والطفرة العلمية التى تم إنجازها فى مجالات الطب، والفلك، والأحياء، والهندسة، والكمياء وغير ذلك من تخصصات مشتركة ظهرت مع نهاية القرن العشرين مثل الهندسة الحيوية، والبيوكيميائى، وغير ذلك من فروع حديثة جاءت نتيجة للتعاون العلمي والبحث المنهجى بين علماء العلوم الطبيعية المختلفة. وهذا ما ظهر فى الإنجازات العلمية التى حدثت خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين قبل عملية الإستنساخ، والهندسة الوارثية، وغير ذلك من إنجازات لايمكن تحقيقها إلا عن طريق تبنى أساليب بحثية ومنهجية حديثة ومتطورة، إهتم فيها علماء العلوم الطبيعية بتحديث أنماط تفكيرهم ومعالجتهم للقضايا والمشكلات الطبيعية عن طريق إستخدام الملاحظة، والتجربة، والفروض العلمية، والتوصل إلى قوانين ونظريات أكثر حداثه وتطوراً عما كانت عليه خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن الماضى (العشرين).

ومن ثم، أصبحت قضية المنهج العلمى Scientific Method، من أهم القضايا التى تشغل إهتمام كل العلماء والباحثين فى تخصصاتهم الاجتماعية والطبيعية. وهذا ما ظهر خلال البديات الأولى لظهور المجتمع الحديث، وإهتمام علماء الاجتماع والعلوم الانسانية، بأهمية تبنى اساليب البحث العلمى والمنهجى، التى توجد فى العلوم الطبيعية، نظراً لما حققته هذه العلوم من تقدم ملحوظ فى دراساتهم والظواهر التى يهتمون بمعالجتها بصورة مستمرة. ولقد لاحظنا خلال الفصول السابقة، مدى تطور البحث الاجتماعى عامة والسوسيولوجى خاصة، خلال القرنين التاسع عشر والعشرون، ولاسيما فى الدول المتقدمة التى لاتزال تعطى إهتماماً ملحوظاً لقضايا البحث العلمى والمتطلبات المرتبطة به. وإن كانت هناك عدد من الدول النامية التى إهتمت بمراكز البحث العلمى، رغبة منها فى تحقيق التقدم والتطور الذى لايمكن تحقيقه إلا عن طريق الإهتمام بمجال البحوث العلمية سواء أكانت طبيعية أم إجتماعية. وبالفعل لقد ظهرت محاولات جادة من جانب علماء الاجتماع خلال

القرن العشرين، الذين إهتموا بالمنهج العلمي وتطور أساليب الدراسة والتحليل، عند تناولهم للظواهر والمشكلات التي يعالجونها في الواقع. ولاسيما التركيز على الملاحظة، والتجربة، كأساس منهجي لتتبع حدوث الظواهر ومعرفة أسبابها بصورة علمية ومدروسة.

وفي إطار إهتمامنا بدراسة مناهج البحث العلمي الاجتماعي، وأدواته ووسائل جمع بياناته المختلفة، نركز حالياً على تحليل عدد من القضايا المنهجية والبحثية، التي تعد موضوعات هامة بالنسبة لطلاب علم الاجتماع خاصة، والعلوم الاجتماعية عامة، وأيضاً إلى الباحثين المبتدئين الذين بدأوا بالفعل ممارسة العمل والخدمة الاجتماعية، سواء على المستوى النظري أو الامبيريقي والميداني، أي في مجال البحوث الواقعية، أو ممارسة العمل والنشاط الاجتماعي في مختلف المؤسسات الاجتماعية المختلفة. ومن أهم هذه القضايا البحثية، التعرف على طبيعة المنهج العلمي المستخدم في الدراسات الاجتماعية، ومن أهم تعريفاته وخصائصه المختلفة، وإلى أي حد يمكن تمييز تحديد صعوبة هذا المنهج من قبل العلماء الاجتماعيين المتخصصين في مجال المناهج والبحوث الاجتماعية. وايضاً، تناول أهم الخطوات الاساسية التي يتكون منها المنهج العلمي، ومعرفة إلى أي حد تطورت هذه الخطوات أو المكونات الأساسية للمنهج خلال المرحلة السابقة. هذا بالإضافة إلى معرفة مدى إمكانية إستخدام المنهج العلمي في دراسة الظواهر الاجتماعية، وهل يوجد تباين وإختلاف بين الظواهر الطبيعية والاجتماعية عند إستخدامها للمنهج العلمي؟. واخيراً، سنشير بإيجاز، إلى أهم حدود أو قصور المنهج العلمي وإستخداماته في البحوث الاجتماعية، وما حققته هذه البحوث عند تبنيها لهذا المنهج، ولاسيما في مجال البحوث السوسيولوجية خلال النصف الأخير من القرن الماضي؟.

١- تعريف المنهج العلمي وخصائصه.

حقيقة، يعكس لنا تحليل التراث للمنهج العلمي منذ القرن الثامن عشر، أن هناك تعريفات متعددة قد إرتبطت بهذا المنهج ولاسيما بعد حدوث طفرة البحث العلمي التي مهدت لظهور المجتمع الحديث وتقدمه. ومن ثم، يصعب علينا حالياً، أن نشير إلى هذا الكم الهائل من تصورات وآراء العلماء أو الباحثين وتميزهم للمنهج العلمي، بقدر ما نسعى حالياً للإشارة لأهم التعريفات التي إختلفت على

المنهج العلمي، وخاصة إستخداماته في مجال البحوث والدراسات السوسيولوجية، أو بالتحديد آراء علماء مناهج وطرق البحث الاجتماعي، الذين أدلو بدلوهم في قضية البحث العلمي الاجتماعي، ونوعية مناهجه وأدوات جمع البيانات التي أرتبطت به. ومن ثم، نود أن نشير إلى حقيقة هامة مؤداها : إننا سنعرض فقط، وبإيجاز لأمثلة من تعريفات هؤلاء العلماء وتصوراتهم للمنهج العلمي، وخاصة إستخداماته في مجال الدراسات الاجتماعية وهى كمايلي:

أولاً التعريفات العربية:

(١) تعريف عبد الرحمن بدوي، الذي يرى أن المنهج العلمي " هو الطريق المؤدي للكشف عن الحقيقة في العلوم المختلفة. وعن طريق مجموعة من القواعد العامة، التي تسيطر علي سير العقل، وتحديد عملياته حتى يصل إلي نتيجة معلومة "[١].

(٢) تعريف محمد طلعت عيسى، يتصور مناهج البحث العلمي " على أنها جميعاً تشترك في وصفها بأسلوب للتفكير العلمي المنظم، الذي يعتمد على الملاحظة العلمية. والحقائق والأرقام، في دراسة الظواهر الاجتماعية والاقتصادية، دراسة موضوعية بعيدة عن المؤثرات الشخصية أو الاتجاهات التي تمليها المصالح الذاتية "[٢].

(٣) تعريف كل من إبراهيم أبولغد ولويس مليكه بأن المنهج العلمي " هو الطريقة العلمية، أو الأسلوب الإستقرائي فى التفكير، ويبدأ بملاحظة الظواهر، وتؤدي الملاحظة إلى فرض الفروض، وهى علاقات نتخيلها بين الظواهر لملاحظتها، ثم نحاول التحقق من صدقها "[٣].

(٤) تعريف جمال زكي، الذي يرى " المنهج العلمي على أنه الوسيلة التى عن طريقها يمكن الحصول إلى الحقيقة أو مجموعة الحقائق، في أى موقف من المواقف، ومحاولة إختبارها للتأكد من صلاحيتها في مواقف أخرى،

---

(١) عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٨، ص٥.

(٢) محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعي، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة،١٩٦٣، ص٣٥.

(٣) إبراهيم أبو لغد، لويس مليكه، البحث الاجتماعي: مناهجه وأدواته، القاهرة، سرس الليان، ١٩٥١، ص١٠.

وتقيمها لنصل إلى ما نطلق عليه إصطلاح نظرية، وهي هدف كل بحث علمي "[1].

(٥) تعريف عبد الباسط عبد المعطي، الذي يرى المنهج العلمي في علم الاجتماع " بإعتباره رؤية العلم، وتناوله للبيئة الاجتماعية، وحركتها وظواهرها، ومكوناتها وعلاقاتها. كما تتألف هذه الرؤية من خلال إعتمادها على مسلمات العلم عامة، ومسلمات علم الاجتماع خاصة " [2].

ثانياً: التعريفات الأجنبية.

(١) تعريف "جورج ليند برج" G. Lundberg. المنهج العلمي "هو الوسيلة التي عن طريقها يكون لدينا قدرة للتنبؤ، ودراسة الظواهر تحت ظروف أو شروط معينة تمكننا من دراستها بصورة علمية ".

ويظهر من خلال التعريف السابق، أن لندبرج، حاول أن يربط بين المنهج وطبيعة العلم، خاصة وأن هناك تمايز بين العلوم ومجالات دراساتها وتحليلها، ومن ثم فهي (العلوم) أيضاً تتبنى نظريات Theories معينة، وتتناول ظواهر معينة أيضاً. وهذا ما يجعل طبيعة المناهج ترتبط بكل من النظريات، ومحصلة العلم والمعرفة. وهذا ما جعل (ليندبرج) يطلق على المنهج العلمي أيضاً " بأنه وسيلة المعرفة، التي تصمم في إطار علم مميز، بغض النظر عن طبيعة الموضوع أو القضايا التي تهتم بدراسته وتحليله "[3].

(٢) تعريف بيتر مان P. Mann الذي يرى أن " المنهج العلمي يتميز عن المناهج العلمية بوسائل متعددة، منها، إن المنهج العلمي تميز بأن لديه أهداف محددة، هذه الاهداف تجعله قادراً على إكتشاف الحقيقة، بل الحقيقة بذاتها "[4].

---

(١) جمال زكي، السيد ياسين، أسس البحث الاجتماعي، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٢، ص٨.

(٢) عبد الباسط محمد عبد المعطي، البحث الاجتماعي: الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥، ص٥٢.

(٣) لمزيد من التفاصيل أنظر:

- Lundberg, G, Social Research, London: 1948, pp. 4-5.

(4) Mann. H. P. Methods of Socialogyical Enquiry, Oxford: Basil Blackwell, 197799, p.30.

كما يحاول (بيترمان)، أن يضيف إلى أن المنهج العلمي، وأهدافه ترتبط بأهداف العلم وخاصة الإلتزام بالموضوعية Objectivty، والحياد العلمي، والإعتماد على الملاحظة. وهذه هي اهداف العلم، ومن ثم فإن علم الاجتماع ومنهجه العلمي يجعله علماً متميزاً وفريداً في دراسته للظواهر الاجتماعية.

(٣) تعريف إبراهام كابلان A. Kaplan، الذى يسعى لتعريف المنهج العلمي لأستخدامه بصورة برجماتية (عملية) " بإعتباره الوسيلة التي عن طريق إستخدامها يزداد فاعليتها، وزيادة معرفتنا وفهمنا للحقائق، وهى أيضاً (المنهج العلمى) وسيلة عملية ومفيدة لكل من الفرد والمجتمع "[١].

(٤) تعريف بيرنارلد فيليبس B. Phillips[٢] الذى يعرف المنهج العلمى بأنه " الوسيلة التى عن طريقها يمكن زيادة فهمنا للظواهر من عدة نواحي وهى ١- تحديد المشاكل أو الظواهر المراد دراستها وزيادة معرفتنا لأسباب حدوثها،٢- الحصول على البيانات والمعلومات الأساسية المرتبطة بالمشاكل والظواهر المراد معالجتها، ٣- تحليل وتفسير هذه البيانات، فى ضوء القواعد التى يتم تصنيفها عليها، ٤- التوصل إلى نتائج عامة ترتبط بالظواهر أو المشكلات التى نهتم بمعالجتها ".

وفى الواقع، إن حصيلة التعريفات السابقة الخاصة بالمنهج العلمي سواء أكانت تعريفات عربية أم أجنبية توضح عدد من النقاط التالية التى نستطيع أن نوجزها كما يلى:

١- أن طبيعة المنهج العلمى تعكس نوعية إهتمامات البحث الاجتماعى، الذى إرتبط بعلم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية، ولاسيما أن هذا المنهج ما هو إلا وسيلة لزيادة معارفنا وقدراتنا لدراسة الظواهر الاجتماعية المعقدة.

٢- أن للمنهج العلمى فوائد علمية وتطبيقية هامة، فهو ليس مجرد وسيلة لجمع البيانات، ولكن ايضاً يساعد للتنبؤ بها وكيفية حدوثها وتطورها بصورة عامة.

---

(1) Kaplan, A , The Conduct of Inquiry: Methodology for Behavioral Science: San Francisco: Chandler, 1964, p.4.

(2) Phillips, S, P, Social Research: Strategy and Tacticss, N.Y: Macmillan Publish. co, 19799. p. 4.

٣- أن المنهج العلمي يتميز عن غيره من المعارف الإنسانية، نظراً لإرتباطه بالعلم، وللعلم أهداف يسعى لتحقيقها وذلك في ضوء المسلمات المرتبطة بالعلم ذاته.

٤- يساعد المنهج العلمي، ليس فقط لجمع البيانات حول الظواهر المراد معالجتها، بل ايضاً يسهم فى تصنيفها وتفسيرها وتحليلها، والتوصل إلى نتائج عامة حولها.

٥- أن المنهج العلمي لايمكن تفسيره أو إستخدامه من الناحية العملية، إلا عن طريق إرتباطه بالنظرية العلمية، ولاسيما أنها تعتبر الموجه الاساسي لكل من الباحثين ومفاهيمهم المستخدمة في دراسة الواقع.

وبإيجاز، يمكن أن نعرف المنهج العلمي بأنه " طريقة للتفكير، والبحث العلمي، الذي يعتمد على مسلمات العلم الأساسية مثل الملاحظة، والفروض، والتجربة، والنظرية، كما يسهم المنهج العلمي من الناحية (العملية)، بتحديد المشكلات الاجتماعية، وجمع البيانات المرتبطة بها، وتفسيرها وتحليلها، والتنبؤ بها، والوصول إلى عدد من القوانين العامة التي تعزز مجال الدراسات الاجتماعية مستقبلاً ".

- الخصائص العامة للمنهج العلمي:

حقيقة، طرحت التعريفات السابقة للمنهج العلمي العديد من الافكار المرتبطة بطبيعته والمفاهيم المتصلة به، وأهدافه، ولقد أشرنا في السطور السابقة بعض التصورات العامة حول هذه التعريفات، والتي أشارات إلى عدد من الخصائص المتعلقة بالمنهج العلمي. ونظراً لأهمية هذه الخصائص نحاول أن نصنفها بصورة أكثر تحليلاً فى ضوء مراجعتنا لتراث ما يتناوله علماء المناهج وطرق البحث الاجتماعي، حول هذا الموضوع، ويمكن إيجاز هذه الخصائص كما يلي[١]:

(١) يعتبر المنهج العلمي أفضل الأدوات التي يستخدمها الفرد من أجل زيادة معارفه وإدراكه للحقائق والأشياء والظواهر المراد دراستها وتحليلها، وتوسيع حصيلة المعرفة المرتبطة بهذه الظواهر. ومن ثم، فإن المنهج العلمي يعتبر

---

(١) أنظر:

- عمر محمد الشيباني، مناهج البحث الاجتماعي، بيروت: دار الثقافة، ١٩٧١، ص٥٦ومابعدها.

من أهم الوسائل التى يسهم فى زيادة المعارف الإنسانية والبيئية والطبيعية ومحاولة التحقق منها بصورة علمية ومدروسة.

(٢) يرفض المنهج العلمى الإعتماد كلية على، آراء السابقين وخاصة الآراء والتصورات التى لا تستند إلى الاسلوب العلمى أو تستند إلى التفسيرات الغيبية، أو التى لديها أحكام غير موضوعية أو ذاتية أو أيديولوجية. ومن ثم، فإن الباحث العلمى والاجتماعى، يجب أن يتحرى الدقة فى الآراء السابقة، ولا يحق له أن يصدر أحكام مسبقة، حول ظواهر أو مشكلات أو قضايا معينة ومن إختيارها بصورة علمية، ويعتمد فيها كلية على أساليب المنهج العلمى وخطواته الاساسية.

(٣) إن الحقائق التى يصل إليها المنهج العلمى، يجب أن تكون هى ذاتها قابلة للدراسة والتحليل، وأيضاً قابلة للغير والتعديل، نظراً لأن المنهج العلمى ما هو إلا وسيلة للتفكير المنظم والمتطور. علاوة على ذلك، أن هذا المنهج يهتم بدراسة قضايا ومشكلات وظواهر متغيرة بمرور الزمن وتتباين حسب معدلات الوقت والمكان أو البيئة الاجتماعية والجغرافية. ومن ثم، كما يرى بعض علماء المناهج، إن كل بحث علمى تم إختياره بواسطة المناهج العلمية، حقائقه وقوانينه التى توصل إليها، هى حقائق كمية مؤقته. وهذا ما يجعل التطبيق العلمى للمنهج قابل للتغير والتدريب المستمر.

(٤) يقوم المنهج العلمى فى دراسته للظواهر والحقائق على كل من الملاحظة، والتجربة كأساس لدراسة هذه الأشياء بصورة دقيقة، ولذا يستلزم الباحث الاجتماعى عند تطبيقه للمنهج العلمى، أن يستخدم هذه الوسائل (الملاحظة، والتجربة). كما يحرص على تعقل معانى الاشياء عن طريق إستخدامه لهذه الوسائل ولاسيما أنها تساعد فى تحقيق الموضوعية والبعد عن الذاتية بقدر الإمكان أو ما يعرف بالحياد العلمى. وهذا ما أكد عليه " إميل دور كايم " E. Durkheim فى كتابه المميز (قواعد المنهج فى علم الاجتماع) ، بأن الظواهر الاجتماعية يجب دراستها على أنها اشياء أو حقائق As Facts[1].

---

(١) للمزيد من التفاصيل إرجع إلى :

- إميل دور كايم، قواعد المنهج فى علم الاجتماع، ترجمة / محمود قاسم، القاهرة: دار النهضة المصرية، ١٩٦١، ص٩٠، ص١١٦.

(٥) يجمع المنهج العلمى بين الإستنباط والإستقراء، وبالتالى بين الفكر والملاحظة، وهذا ما يعتبر فى حد ذاته أحد خصائص المنهج العلمى، الذى ينتقل ما بين الإستنباط والإستقراء، بإعتبارهما أساس التفكير التأملى، الذى يستخدم بواسطة العلم للبحث عن الحقيقة. فالإستقراء، يمهد لتكوين الفروض وصياغتها، أما الإستنباط، يهدف لإكتشاف النتائج المنطقية الناتجة من طرح الفروض العلمية، وبالطبع إستبعاد البعض منها. ومن ثم، فإن كل من الإستنباط والإستقراء، بإعتبارها أساس التفكير التأملى، يجب أن يستخدمها الباحث الاجتماعى، من أجل بناء نسق من المعرفة الموثوق بها، والتى تبدأ منذ طرح الفروض العلمية، ومحاولة التحقق منها، ثم إصدار تعميمات عامة تعتبر بمثابة نتائج علمية ثم التوصل إليها.

(٦) يتميز المنهج العلمى بإستبعاد العاطفة البشرية، أو ما يسمى بالتحيز الإنفعالى والعاطفى، وأن لايكون لدى الباحث الاجتماعى -الموضوعى- أى دوافع ذاتيه أو شخصية أو عنصريه أوسلاليه أو دينية، قد تقصف بنتائج دراساته وأبحاثه بعيداً عن الموضوعية كأساس للبحث العلمى، ويجعله عرضه للشك والخطأ سواء من جانب ضميره العلمى، أو من خلال نتائج دراسات الباحثين الأخرين حول النتائج التى توصل إليها هو فى دراساته، التى بنيت على اسس غير موضوعية أو منطقية.

(٧) يمتاز المنهج العلمى بخاصية المرونة والقابلية عموماً للتطبيق، لدراسة العديد من الظواهر والمشكلات والقضايا التى قد تتنوع حسب طبيعة ومجالات العلوم وتخصصاتهم الفرعية. وهذا ما أكد عليه الكثير من العلماء، بأن المنهج العلمى لايمكن أن يقوم على مجموعة من القواعد المنطقية الجامدة (الإستاتيكية) الغير قابلة للتعديل بصورة مستمرة. ولاسيما، أن جميع العلوم سواء أكانت طبيعية أم إنسانية متنوعة المجالات والتخصصات وتختلف فيما بينها على أسس معياريه أو تحليلية.

(٨) يتميز المنهج العلمى بأنه منهج واحد فى كل العلوم سواء أكانت إجتماعية أم طبيعية، وقد يرى البعض خطأ أن طبيعة المنهج العلمى تتغير داخل العلم الواحد، وهذا ما يجعل داخل علم الاجتماع العديد من المناهج المستخدمة مثل المنهج التجريبى، والمنهج التاريخى، وبالمنهج الوصفى، والمنهج المقارن وما

إلى ذلك من تسميات أخرى، تؤكد في مجملها إلى عدم أوحادية المنهج العلمي المستخدم في العلوم ومنها علم الاجتماع بالطبع. ولكن الحقيقة أن المنهج العلمي هو منهج واحد في جميع العلوم بما فيها علم الاجتماع، ولكن الذى يتغير هو الأساليب والإجراءات الفنية، التي تجعل داخل العلم ذاته مناهج متعددة مثل التي ذكرت من قبل. وهذا ما يؤكد عليه علماء المناهج " بأن المنهج العلمي واحد والاساليب هي المتعددة " [1].

عموماً، تلك أهم الخصائص العامة التي تم إستخلاصها من خلال تحليلنا للتراث العلمي المرتبط بالكتابات وإهتمامات علماء المناهج والبحث العلمي عامة، والاجتماعي والسوسيولوجي خاصة، والتي أكدت على عدد من المميزات التي يتصف بها المنهج العلمي، ويوضح كثيراً من التعريفات، التي طرحت مسبقاً حول المنهج العلمي وإستخداماته بواسطة العلماء المتخصصين في مجال البحث العلمي الاجتماعي. حقيقة، أن تطور البحث الاجتماعي، مرهون بالتطور الذى يحدث في الخصائص العامة لهذا المنهج وطبيعة إستخدامه كأداة للتفكير العلمي المنظم، والذى تتميز به العلوم الحديثة عن بقية المعارف (غير العلمية) الأخرى، التي قد يهتم بها الإنسان. علاوة على ذلك، أن للمنهج العلمي تطبيقات عملية أو إستخدامات (برجماتية)، كما حاول بعض العلماء تحديدها في تعريفاتهم للمنهج العلمي، كما لاحظنا في تعريف "كابلان" Kaplan على سبيل المثال.

٣- خطوات المنهج العلمي.

أشرنا في بداية تحليلنا بأن قضية البحث العلمي من القضايا التي شغلت العقل البشرى منذ قرون طويلة، ولاسيما أن هذا العقل يسعى دائما للبحث عن الحقيقة وهذا ما بدأه لدراسة الأشياء التي تحيط بعالمه الطبيعي الخارجي أو الذاتي العقلي. ولذا، نرى أن البحث العلمي لم يحدث فجأة بقدر ما ظهر على مراحل عدة، وهذا ما يتضح لنا من خلال مناقشتنا لتطور كل من البحوث الاجتماعية، والمنهج العلمي المستخدم في هذه البحوث والدراسات.

---

(١) للمزيد من التفاصيل يرجع إلى:

- عبد الباسط عبد المعطي، مرجع سابق، ص٤٣.

فالبحوث العلمية التي قامت على أسس منهجية أو إستخدمت المنهج العلمي الحديث، قد تطورت بعد التطور الهائل الذى حدث فى مجال التفكير العلمي Scientific Thought، وذلك التفكير الذى قام على إستخدام العقل والتأمل أو ما يعرف بالتفكير التأملي، وهو ايضاً من أنماط التفكير العقلاني المنظم، الذى يستخدم العقل في دراسة المشكلات وحلها، أو التي تواجه الجنس البشري. ومن ثم، يمكن القول، بأن كل من التفكير العلمي أو التفكير التأملي، مرادفات تستخدم من قبل الباحثين للإشارة إلى تطور البحث العلمي عامة.

والتفكير العلمي في مجمله نوع من ألوان التفكير الإنساني، الذى يساعد الإنسان للتوصل إلى حل مشكلاته، ولكنه يشمل أكبر قدر من هذه الألوان أو الأنواع. خاصة، وأن التفكير العلمي يشمل كل من التفكير الإستقرائي، والتفكير الإستنباطي، والتفكير الإستدلالي، ويمكن الإشارة إلى هذه الأنماط بإيجاز شديد كما يلي:

(١) التفكير الإستقرائي The Inductive Thought، هو ذلك النوع من التفكير الذى يقوم على إستقراء الجزئيات والأمثلة، وربط الحقائق بعضها ببعض، ومعرفة أسباب حدوثها، والخبرات المكتسبة والوصول عموماً إلى قاعدة عامة أو قانون عام.

(٢) التفكير الإستنباطي The Deductive Thought، ويستخدم هذا المصطلح أيضاً بمفهوم (القياس)، الذى يحاول فيه الشخص أن يطبق القاعدة العامة، أو القانون العام على الجزيئات، والحالات الخاصة الجديدة، التي تعرض له بمجرد أن يدرك ترابطها بالقانون العام.

(٣) التفكير الإستدلالي Reasoning Thought، هو ذلك النوع من التفكير الذى يبدأ من قضايا يسلم بها ويستدل منها على قضايا أخرى تتنتج عنها بالضرورة، دون إستخدام التجربة، أو تستخدم الأقيسة والقواعد المنطقية الخالصة، ولذا يطلق على هذا النوع بالتفكير المنطقي أو غير التجريبي أحياناً[١].

---

(١) عبد الرحمن بدوى، مناهج البحث العلمي، مرجع سابق، ص٨٢.

على أية حال، إن ما نقصده بعرض هذه التعريفات المبسطة السابقة لأنماط التفكير العلمى وأنواعه المختلفة، والتى تترادف إستخداماتها بواسطة الباحثين فى مجال مناهج وطرق البحث الاجتماعى، حرصاً منا (أولاً) على توضيح هذه التعريفات والتباين النسبى بين هذه الأنماط من التفكير، والتى قد يستخدم البعض على أنها مناهج علمية، دلت عليه، للإشارة إلى طبيعة التنوع العلمى أو التفكير العلمى الذى يستخدمه العقل البشرى فى دراسته الحقائق أو الأشياء أو المشكلات التى تشغله عموماً. وبإيجاز. يمكن القول بأن العقل الإنسانى يستخدم هذه الأنماط المختلفة من التفكير سواء أكانت إستقرائية، أم إستنباطية، أم إستدلالية، والتى جميعها تندرج تحت مفهوم التفكير العلمى بصورة عامة. ولكن ما نسعى إليه حالياً، أن نهتم بدراسة مناهج البحث العلمى الحديث، التى قد تطورت بالطبع نتيجة لتطور أنماط التفكير العلمى بانواعه المختلفة على نحو ما اشرنا إليه سابقاً. وعلى اية حال، لقد أتسمت تحليلات علماء مناهج البحث العلمى الاجتماعى، بتركيزها على مجموعة من الخطوات أو أسس المنهج العلمى والتى نحللها بصورة مختصرة كما يلى:

(١) الملاحظة العلمية The Scientific Observation:

تعتبر الملاحظة من أهم أدوات البحث الاجتماعى، كما تعد أولى خطوات المنهج العلمى أى كان إستخدامه فى أى فرع من فروع العلوم المختلفة سواء أكانت طبيعية أم إجتماعية. ولذان نجد ان الكثير من علماء الاجتماع يحددون الملاحظة بأنها قاعدة العلم، لأنها نقطة البدء عند جميع الافراد والباحثين، الذين يهتمون بدراسة المشاكل والظواهر المختلفة. ولذا لايمكن ان باحث أو متخصص يصل إلى أى نتيجة ويستطيع أن يصوغ قانون، أو يطرح تساؤلات أو فرضاً علمياً، دون أن يعتمد على الملاحظة. كما أن الملاحظة العادية، أو ما يطلق عليها بالملاحظة العابرة، قد أفادت الكشف العلمى بالكثير من البيانات والمعلومات. بل أن البعض منها قاد العلم والعلماء إلى نظريات وقوانين هامة مثل قوانين الجاذبية على سبيل المثال إلا أن الملاحظة العلمية تمثل محاولة منهجية، وتقوم على أسس وخطوات مدروسة وتهدف للكشف عن الظواهر، وتسعى للتوصل إلى القوانين.

وللملاحظة أنواع متعددة من التصنيفات، فهناك من يصنفها على أنها نوعـــان وهما:

١- الملاحظة البسيطة(غير المقصودة)، وهى لاتهدف للكشف عـــن حقـــائق علمية محددة، ونظرية معينة. وهذا النوع من الملاحظـــة يمثـــل جـــزء مـــن المعرفة الحسية (التجريبية)، كما إنها تسهم فى تفسير الظواهر وتحليلها، وتفيد فى زيادة معارفنا النظرية، وتشجع على التفكير النظرى الخالص أيضاً. كمـــا توجد عدة خصائص للملاحظة غير المقصودة (البسيطة) وهى[1]:

(أ) تأتى من غير عمد Unanticipateed، أى غير مقصودة، قد يلاحظ الباحث شئ ما، ولكن خلال عملية مشاهدته، يشاهد حقيقة أخرى لم يكن يسـعى أو يهدف أساساً إلى مشاهدتها.

(ب) تدعو للدهشة Anommalous، لأن الحقائق التى تحصل عليها الملاحظـة قد تثير نوع من الدهشة، لأنها قد تفيد الحقائق السابقة، التى حصل عليـــها الباحث، ولم تكن معروفة فى الوسط العلمى سابقاً.

(جـ) قد تصبح ذات أهمية علمية Scientific Strategy، لانها قـــد توصـــل الباحث إلى حقائق علمية جديدة، وخاصة أن مثل هذا النوع من الحقـــائق يمنك التأكد من صدقها، وتعتبر من الآراء والنظريات السابقة.

وهناك الكثير على حدوث هذا النوع من الملاحظات البسيطة أو غـير المقصودة، وهى ملاحظة التفاحة وسقوطها بواسطةالعالم الطبيعـــى الشـــهير نيوتن. فسعى لدراسة ظاهرة سقوط الأجسام وتوصل فى النهاية إلـــى وضـــع قانون الجاذبية الأرضية. وفى مجال العلوم الإنسانية، إستطاع العالم الروســـى بافلوف، أن يقوم بإبحاث علمية تجريبية على الكـــلاب وإطعامـــهم بواســـطة مؤثرات شرطية مقرونة بتقديم الطعام لهم، وهذا ما جعله يتوصل إلى فكـــرة الإنعكاس الشرطى والوصول عموماً إلى نظرية التعلم الشـــرطى فـــى علـم النفس.

٢- الملاحظة العلمية (المقصودة) وهى تتميز بالوضوح وتحديـــد الاهـداف والغايات التى تسعى إليها، ويمكن تحديدها وتعريفها بصورة موجزة فيما يلـى

---

(١) أنظر : عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص٤١٩.

فهى محاولة منهجية يقوم بها الباحث بدقة تامة، وفق قواعد محددة، للكشف عن تفاصيل الظواهر ولمعرفة العلاقات التى تربط بين عناصرها. ولذا، فهى تتميز ببعض الخصائص عن الملاحظات العابرة (البسيطة أو غير المقصودة):

(أ) مخططة ومنظمة Organized & Planned وذلك عن طريق مجموعة من الخطوات والإجراءات التى يتبعها الباحث بصورة دقيقة.

(ب) تهدف لتحقيق أهداف معينة To Achive Specific Goals، أى إنها تركز من أجل إنجاز عدد من الأهداف التى يسعى إليها الباحث لتحقيقها.

(جـ) تستخدم تسجيلات دقيقة Certain Recorded، لابد وان يهتم الباحث بتسجيل البيانات التى يصل إليها بصورة مستمرة ومنظمة حول الظاهرة المدروسة، حتى يتأكد من صحة بياناته وتكرارها.

(ء) تسمح بدراسة تكرار الظواهر للتحقق منها Rexamied Phenomenan، تعتمد الملاحظة العلمية على مدى تكرار حدوث الظواهر لتثبت البيانات والتفاصيل المرتبطة بحدوثها، ومراجعة العوامل والأسباب والعلاقات المتداخلة بين الحقائق أو الأشياء المكونة لذات الظاهرة.

وعموماً، لقد ساعدت الملاحظة العلمية البحوث التطبيقية فى كافة المجالات التى سواء أكانت طبيعية أم إجتماعية. فلقد تقدمت علوم الفلك، والطب، والهندسة، و الكمياء، والأحياء، وغير ذلك من التخصصات المشتركة بينها عن طريق إستخدام الملاحظة العلمية. أما فى مجال العلوم الاجتماعية، فلقد إهتم علماء النفس، والأنثر بولوجيا، والإجتماع، بصورة خاصة بالملاحظة العلمية فى دراسة المشكلات والظواهر التى توجد فى المجتمع. فبدراسة السلوك الاجتماعى لطبقة العمال فى المصانع كانت موضع دراسات نفسية وإجتماعية وإقتصادية متعددة وهذا ما ظهر فى مجموعة دراسات علماء نظرية الإدارة العلمية، من أمثال "فريدرك تايلور "F. Tyloor، وملاحظاته على كيفية زيادة الإنتاجية للعمال فى المصانع والشركات. وهذا ما ظهر أيضاً فى خلال أبحاث مدرسة العلاقات الإنسانية Human Releations School بقيادة " التون مايو "E. Mayo وزملاؤه التى أجريت على شركة وسترن اليكتريك ما سمى بتجارب هاوثورون خلال العشرينات وحتى نهاية الاربعينات من القرن الماضى (العشرين) ويكشف الكثير من العلاقات

الإنسانية وأثرها على تطور الإنتاج، وملاحظة العلاقات غير الرسمية إلى جانب العلاقات الرسمية بين العمال والإدارة، وأدى ذلك كله إلى ظهور نظريات الإدارة والبيروقراطية وغيرها من النظريات نتيجة إلى إستخدام الملاحظة العلمية.

وبإيجاز، أن المنهج العلمي يقوم أساساً على الملاحظة العلمية التي تهدف إلى تحقيق مجموعة من الأهداف أو التحقق من الفروض والتساؤلات، التي يطرحها الباحث للإجابة عليها حول الظاهرة أو المشكلة المراد دراستها وتحليلها. وإن كانت هناك مجموعة أخرى من الشروط التي يجب توافرها عند إستخدام الملاحظة، فيجب أن تشمل كافة العوامل والظروف المرتبطة بالظاهرة، وثانياً يجب أن تكون الملاحظة موضوعية، ومن الضروري الإستعانة بالعديد من الوسائل والأدوات التي تسمح بتسجيلها ومعرفة كافة البيانات المرتبطة بها عموماً.

(٢) الفروض Hypotheses.

أولاً : أهمية الفروض وتعريفاتها:

تعتبر الفروض من أهم مكونات المنهج العلمي وخطواته الأساسية، وتتكون من حصيلة المعرفة الإنسانية والخبرة التي يكتسبها الباحث خلال حياته اليومية أو ممارسة أعماله العلمية. كما أنها ترتبط بجميع أنماط التفكير العلمي سواء أكانت معرفة إستقرائية أم إستنتاجية إم إستدلالية، نظراً لأنها تعتمد علي أبعاد كثيرة، في تكوينها سواء عن الملاحظة، أو التأمل الذاتي المرتبط بظاهرة أو مشكلة معينة تدور في ذهن الباحث أو تكون موضع إهتمامه الأساسي. وهناك ترادف لإستخدام أو معنى الفروض، لأنها ببساطة نوع من التساؤلات، التي يطرحها الباحث أو تشغل عقله، ويحددها بصورة علمية من أجل الإجابة عليها، أو يخضعها للبحث العلمي التجريبي.

ومن ثم فإن الفروض لايمكن أن تكون قاصرة على ميدان البحث العلمي، بقدر ما تظهر في حياة الفرد اليومية، ولاسيما أن طبيعة الحياة ومشكلاتها تطرح أمامه العديد من التساؤلات والإستفسارات بشأن هذه المشكلات. فالإنسان العاقل يحاول جاهداً أن يفسر ما يدور حوله من مشكلات وظواهر تواجه حياته أو يشاهدها بصورة ملحوظة. ويسعى الإنسان لطرح

عدد من الإحتمالات، قد تكون إجابات محددة أو شبه محددة لطبيعة التساؤلات التي يطرحها مسبقاً. ومن ثم، فإن أهمية الفروض متعـددة فـي البحـث أو التفكير العلمي، هذا ما يؤكده علماء المناهج الذين كثيراً مـا يرادفـون بيـن الفروض والنظرية، ويرون بأن الأخيرة، ماهي إلا مجموعة من الفروض التى تم تكوينها بواسطة العقل الإنساني. ولكن بالطبع، يوجد إختلاف واضح بيـن الإثنين، وهذا ما يجعلنا نحدد تعريف مميز للفروض على إنها " قضايا تصـاغ من أجل إختبارها ميدانياً، وقد تجئ نتائج الإختبار محققة لتلك الفروض، وقـد تدفعنا نفس هذه النتائج إلى التخلى عن الفروض، فنبحث عن فروض أخـرى تخضع للإختبار أيضاً "(١).

ثانياً :متطلبات الفروض:

يوضح التعريف السابق للفروض، على أنها مجرد تساؤلات يطرحـها الباحث بصورة مسبقة حول المشكلة أو الظاهرة، التى يحاول تفسيرها والتحقق منها سواء عن طريق الملاحظة أو التجربة، ويجعلها قيد البحث العلمي. ولكن هناك عدد من المتطلبات التى يجب توافرها عند طرح وإسـتخدام الفـروض منها:

١- يجب أن يكون للفرض العلمي إجابة محددة حول طبيعة المشـكلة التـى يدرسها، أى يجب أن يرتبط الفرض بدراسـة المشـكلة والإجابـة علـى التساؤلات المفروضة حولها أو على الأقل أن يقدم إجابات مرتبطة ببعـض جوانب المشكلة أو البحث.

٢- يجب أن يكون الفرض مبسطاً ليقـدم إجابـة مبسـطة حـول الظـاهرة المدروسة: فلا يمكن أن تصاغ الفروض بصورة معقدة أو مركبة يتعـذر علينا فهمها أو بحثها بصورة واضحة أو كاملـة و إذا كـانت الفـروض غامضة فإنها سوف تكون مبهمة ومضللة، ولا جدوى لـها فـي البحـث العلمي.

٣- يجب أن يكون الفرض قابلاً للتحقق منه: بمعنى إذا تم صياغة الفـروض بصورة يصعب التحقق منها وتحليلها، فإنها تكون عديمة الجدوى. ولـهذا يجب ان يسمح الفرض بالتحقق منه عن طريق التجربة، ومعرفـة مـدى

---

(١) محمد على محمد، المنهج العلمي، مرجع سابق، ص٩٦.

صدقه أم بطلانه. وهذا ما يجعل الفروض العلمية متميزة عن الفروض الفلسفية حيث أن الأخيرة قد تبدو صحيحة من ناحية التركيب والقضايا، ولكنها لاتخضع للتحقق منها، وهذا ما أدى إلى فشل الكثير من الفروض الفلسفية خلال العصور الوسطى.

٤- يجب أن تصاغ الفروض على نحو يسمح بإثبات بطلانه، فالفروض ما هى إلا مجموعة من التساؤلات، التى تخضع للتحقق منها عن طريق التجربة، ومن ثم، فإن الفروض التى لم تسمح بالتحقق منها غير علمية عموماً.

ثالثاً :صعوبات تواجه صياغة الفروض:

فى الواقع، إن عملية صياغة الفروض لا تعتبر من الخطوات والعمليات السهلة عند إجراء البحوث العلمية أو تبنى خطوات المنهج العلمى بصورة دقيقة، ولاسيما أن الفرض العلمى يعتبر من أهم اسس البحث العلمى التجريبى. فى نفس الوقت، إن الفروض ما هى إلا حلقة إتصال بين النظرية والبحث والتى تساعد على الكشف عن الحقائق وإضافة المعلومات المرتبطة بدراستها وتحليلها. وعلى أية حال، هناك عدد من الصعوبات التى ترتبط بعملية صياغة الفروض يمكن إيجازها كما يلى:

١- عدم وجود إطار نظرى مناسب: فالنظرية تعتبر الموجه العلمى والاساس للبحث والباحثين، ويجب أن يكون لكل بحث نظرية محددة وواضحة من البداية

٢- فقدان القدرة العلمية والمنطقية للإستعانة بالإطار العام للنظرية: أى ان البحث العلمى أى كان نوعه، لابد وأن يحدد معالم النظرية التى يستخدمها. ولاسيما النظرية تعتبر الموجه لكل مكونات البحث، بالإضافة إلى أن تحديد الإطار العام بصورة منطقية، يعد مطلباً أساسياً، حتى يمكن تحديد الفروض والإجابة عليها خلال مراحل البحث (الإمبيريقى) المتعدد المراحل.

٣- عدم معرفة أساليب البحث السائدة: تعتبر الفروض مجموعة من التساؤلات التى تحتاج إلى إجابات مقنعة ومحددة، وعدم دراية الباحث بطبيعة الاساليب البحثية أو طرق البحث الاجتماعى وأدواته المختلفة مثل الملاحظة، المقابلة، إستمارة البحث وغيرها وكيفية إستخدام كل منهما،

حسب نوعية البحث ومتطلباته العامة، قد تؤدى عموماً إلى تقديم إجابات كافية حول هذه الفروض أو التساؤلات المطروحة مسبقاً.

رابعاً : أنواع الفروض:

يوضح تحليل التراث لدراسة إستخدامات المنهج العلمي فى الدراسات الاجتماعية، أن هناك أنماط متعددة للفروض التى تم إستخدامها بواسطة علماء الاجتماع، ويمكن فيما يلى أن نعرض لأهم هذه الأنواع بإيجاز:

١- الفروض التى تعزز وجود إرتباطات أو إطراد بين ظواهر واقعية: ويشمل هذا النوع من الفروض، التى تظهر فى المسوح الاجتماعية والتى تهتم بالكشف عن المعالجات الإحصائية بين الظواهر والمشكلات المدروسة: فهناك دراسات تهتم بمعرفة الأحوال الاجتماعية للطبقة العاملة، أو مشكلة النساء العاملات وتربية أطفالهن، أو الإرتباط بين حجم الأسرة والهجرة الريفية الحضرية. كما توجد أيضاً، إنماط من الدراسات التى تستخدم هذا النوع من الفروض مثل،وصف سلوك الطلاب، أو الشباب، أو المراهقين، أو عصابات الاحداث وغيرها وهذا النوع من الفروض عموماً تعتبر من الفروض البسيطة المستخدمة فى البحث الاجتماعى.

٢- الفروض التى تتناول نماذج مثالية مركبة Complex Ideal Type: ويهدف هذا النوع من الفروض للتحقق من وجود علاقات منطقية بين الإرتباطات الواقعية، ويظهر ذلك فى دراسات علماء الايكولوجيا البشرية التى خلصت إلى إرتباطات إحصائية بين متغيرات مثل: قيمة الارض، التوطن الصناعى، طبيعة الإدارة، الجماعات العنصرية، وغير ذلك من متغيرات توجد علاقات منطقية ومركبة فيما بينها. ولذا أمكن إخضاعها للإختبار الميدانى،و تم إستخلاص عدد من النماذج المثالية، مثل نماذج تطور المدينة، التى يمكن أن تظل فرضاًعاماً للعديد من المدن فى العالم.

٣- الفروض التى تتناول العلاقة بين متغيرات تحليلية Analyised Variebles وهذا النوع من الفروض يهتم بمعرفة العلاقة بين ما يطرأ على المتغيرات الاجتماعية، أو معرفة التغير الملحوظ عليها بعد خضوعها للتجريب أو الإختبارز والمتغير هنا، ينطوى على قيمتين أو أكثر، مثل حجم الأسرة أو

تماسك الأسرة أو تفككها، فجميعها متغيرات سوسيولوجية. وفـــى الدراســـات السوسيولوجية يوجد العديد من الإرتباطات بين متغيرات وأخـــرى، فطبيعـــة التعليم، لديها إرتباطات متعددة مع متغيرات أخرى مثـــل الـــثروة، الدخـــل، وطبيعة الوظائف والمهن، والمستوى الثقافي، وغيرها.ويمكن للباحث أن يحدد العلاقة بين التعليم كمتغير، والدخل كمتغير آخر، ويعرف مـــا يحـــدث مـــن متغيرات نتيجة للتعليم، أو قد يتناول بالدراسة والإختبار بيـــن الدخـــل وبقيـــة المتغيرات السابقة جميعاً. وبالطبع، يستلزم ذلك العديد من المقاييس والأسـاليب البحثية الدقيقة التى تؤدى إلى نماذج الإختبار الميدانى.

(٣) إختبار الفروض. The Examination of Hypotheses.

كشفت التحليلات السابقة، أن الفروض بإعتبارها تساؤلات علميـــة لا جدوى لها إلا عن طريق إختبار صحتها عن طريق التجربة، ومن ثـــم فـــإن الفرض لابد وأن يتبع بمرحلة أخرى مكملة له عن طريق إجراء التجـــارب، وذلك للتأكد من صحتها، وملاحظة حقائق علمية أخرى، قـــد تحـــدث علـــى معطيات البحث والدراسة التي يقوم بها الباحث خلال عملية تتبعه لخطـــوات المنهج العلمى فى إجراء البحوث الاجتماعية. وهذا ما ظهر واضحـــاً خـــلال تناولنا لعدد من أنماط الفروض الشائع إســـتخدامها بيـــن علمـــاء الاجتمـــاع، ولاحظنا بالفعل أن طبيعة هذه الفروض، أى كان نوعها، لايمكن التحقق منها، إلا عن طريق التجربة أو الإختبار الإمبيريقى. ولاســـيما، أن بعـــض أنـــواع البحوث الاجتماعية العلمية، لايمكن التحقق منها عن طريق التجربة المعمليـــة، كما توجد فى الدراسات والبحوث التطبيقية، ولكن هناك الكثير من البدائل عـــن المنهج التجريبى، أو إستخدام التجربة، مثل المنهج التـــاريخى مثـــلاً، ولكـــن بالطبع أن إستخدام التجربة على أسس علمية تعتبر من الوسسائل الهامة التـــى يهتم بها علماء العلوم الاجتماعية فى نفس الوقت، وهذا ما سنشير إليه لاحقـــاً فى الفصول القادمة، عند تناولنا لكل من المنهج التاريخى، والمنهج التجريبـــى وذلك بمزيد من التفصيل.

وعموماً، إن عملية إختبار الفـــروض وإســـتخدام التجربـــة، تـــهدف للتعرف على ما يحدث بين المتغيرات والإرتباطات التى توجد بينهما، وخاصة أن للظواهر الاجتماعية جوانب متعددة، يصعب الكشف عنها بسهولة ويســـر،

بقدر ما نحتاج إلى معرفة كل الإرتباطات المتداخلة بين المتغيرات بعضها وبعض. وهذا ما ظهر فى علاقة التعليم، بالدخل، أو الثروة، والمستوى الإقتصادى، والطبقى وما إلى ذلك من جوانب او متغيرات أخرى، يصعب فهمها إلا عن طريق الإختبار أو التجربة. وبالطبع، هناك الكثير من الفروض التى تم طرحها مسبقاً بواسطة العلماء وتم دراستها وتحليلها للتحقق منها، مثال على ذلك الفرض القائل، بأن هناك أثراً واضحاً بين الوراثة و البيئة وبين إرتكاب الجرائم أو السلوك الإجرامى أو الذكاء[1]. ولقد لجأ العلماء إلى تثبيت أحد المتغيرات (الوراثة والبيئة) لدراسة أثر الأخر. وإهتم العلماء للتحقق من ذلك. حيث حاولوا أولاً معرفة أثر البيئة على الذكاء، حيث ثبتوا عامل الوراثة وقاموا بإجراء أبحاثهم على التوائم المتشابهة، الذين تم تنشئتهم فى بيئات مختلفة. وثانياً، حينما حاولوا دراسة أثر الوراثة على الذكاء، فإنهم على عكس مما سبق، فقد ثبتوا عامل البيئة وأجروا أبحاثهم على أطفال منتسبين لأباء مختلفين، وأجريت تنشئتهم معاً فى أماكن أخرى مثل أطفال الملاجئ.

وتوجد بالطبع، مجموعة من المتطلبات الهامة التى يجب إتباعها عند إجراء إختبار الفروض ومن أهمها:

(أ) ضرورة عدم إختبار أكثر من فرض فى وقت واحد: أى أن على الباحث التركيز فى دراسة احد الفروض، دون طرح فروض أخرى فى نفس الوقت للإجابة عليها، وإلا حداث نوع من الخلط وعدم التركيزعند معرفة ودراسة وإختبار الفرض الأساسى الذى يهتم بمعالجته.

(ب) يجب أن لا يتحيز الباحث للفرض الذى طرحه للإجابة عليه: حقيقة أن عملية التحيز، أى كان نوعها حتماً ستؤدى إلى إرتكاب اخطاء عديدة، وتبعد الباحث وموضوع بحثه عن تحقيق الموضوعية وعدم التدخل فى مجريات ومسيرة عملية البحث.

(جـ) يجب الإستفادة عموماً من عملية إختيار الفروض التى تم التحقق منها أو الأخرى التى تم بطلانها فى نفس الوقت: أن مهمة المنهج العلمى ليس فقط فى معرفة الحقائق الصحيحة، ولكن ايضاً لابد وأن يعرف الباحث

---

(١) عبد الباسط حسن، مرجع سابق، ص٣٩.

لماذا إستبعدت حقائق أخرى كاذبة. لأن ذلك يسهم في إثراء عملية تفسير الظواهر والحقائق المرتبطة بها سواء أكانت صحيحة أو غير صحيحة.

(ء) يجب أن تؤدى عملية إختيار الفروض إلى تقديم إجابات شاملة حول الظاهرة أو المشكلة المدروسة. لأن ذلك سيؤدى بالطبع إلى إصدار تعميمات وقوانين ونظريات علمية بعد ذلك، وهذا ما سنشير إليه لاحقاً حول بقية خطوات المنهج العلمي.

عموماً، إن عملية إختبار الفروض تعتبر من العلمليات أو الخطوات المنهجية الهامة، التى تستخدم فى إجراء الدراسات والبحوث الاجتماعية، وبالرغم من عدم إستخدام التجربة فى هذا النوع من الدراسات مقارنة بغيرها من الدراسات التطبيقية(الطبيعية)، إلا ان تاريخ البحث الاجتماعى خلال القرن العشرين، يكشف لنا عن الكثير من الدراسات السوسيولوجية العالمية، التى حدثت فى الكثير من القطاعات والمؤسسات الاجتماعية، مثل المصانع والشركات الإنتاجية، والمستشفيات، والمدارس والجامعات، وغيرها من المؤسسات الاخرى، وحققت نتائج ملحوظة واسهمت فى تطور عمليات البحث العلمى عامة. وبإيجاز، أن البحوث التجريبية تسهم فى التحقق من الفروض العلمية التى يطرحها الباحث، إلا أن هذا النوع من البحوث ايضاً، يحتاج إلى عدد من الخطوات والقواعد العامة، التى يجب غتباعها خلال عملية إجراء التجربة أو الإختبار الميدانى، وهذا ما سنعالجه بصورة اكثر تحليلاً عند تناولنا لأسس وقواعد المنهج التجريبى بصورة خاصة.

(٤) التعميمات والقوانين Genalizations & Laws.

تتلخص قيمة المنهج العلمي وخطواته المختلفة فى تحقيق الاهداف العامة، التى يصبوا إلى تحقيقها، ألا وهى الوصول إلى مرحلة التعيمم وصياغة القوانين أو النظريات العلمية. فإن قيمة البحث العلمى، أى كان نوعه لابد وان يتوج بمرحلة هامة، وهى المرحلة التى يسعى كل من الباحثين وأهداف بحوثهم نحو تحقيقها، وهذا ما حدث بالفعل فى مجال إستخدام المنهج العلمى فى الدراسات الإجتماعية. فبدأ بإستخدام الملاحظة العلمية، وبطبيعة طرح الفروض حول الظواهر والمشكلات والقضايا، ومحاولة إخضاع هذه الفروض للإختبار الإمبيريقى (الميدانى) أو التجربة العملية، لينتج عن ذلك

مجموعة من التعميمات والنتائج العامة المرتبطة بنوعية المشكلات والقضايا، التي تم تحديدها مسبقاً بواسطة الباحثين، والتي تعتبر محور الدراسة العلمية والمنهج العلمي والبحث العلمي ككل.

ومن ثم، فإذا أيدت نتائج عملية التحقق من الفروض، وأصبح الفرض العلمي صحيحاً، ولا يوجد أي نوع من الفروض أو التساؤلات التي تعارضه، ينتقل هذا الفرض العلمي (الصحيح) إلى مرحلة القانون، وعن طريق تكوين مجموعة من الفروض الصحيحة، التي وصلت إلى مرحلة القانون، يمكن تكوين مجموعة من القوانين العلمية، التي اصبحت لها صفة التعميم، والتي تفسر جميعاً عدد من الظواهر أو القضايا أو المشكلات، فإن هذه التعميمات أو القوانين يمكن ان يطلق عليها بمرحلة قانون القانون. ويمثل هذا النوع من القوانين، بأنها تشمل على أكبر قدر من القوانين المستقلة أو الجزئية، وبالطبع، أن هذه المرحلة بلغتها الكثير من العلوم الطبيعيه ولاسيما، الفيزياء، التي بها عدد كبير من القوانين العامة، والتي عززت مكانة هذا العلم. وبالطبع لقد جاء ذلك عن طريق التوصل إلى العديد من القوانين، التي تم التوصل إليها عن طريق فحص وإختبار الفروض، وإستخدام التجربة والمقاييس العلمية الدقيقة.

في نفس الوقت، أن عملية التوصل إلى هذه القوانين والتعميمات في الدراسات الاجتماعية، قد حدثت بالفعل من خلال تقدم هذا النوع من الدراسات، التي تبنت جميع خطوات المنهج العلمي، وإن كان ذلك النوع لاينفي على الإطلاق، وجود حدود وصعوبات لاتزال تواجه دراسة البحوث الاجتماعية، وهذا ما سنشير إليه لاحقاً خلال هذا الفصل. ولكن بالطبع، إن عملية الوصول إلى قوانين علمية لايمكن أن يكون نهاية المطاف للباحثين والعلماء. وخاصة، أن عملية وضع القوانين، يدعوا عامة إلى طرح عدد من النظريات العلمية Scientific Theories، التي تعمل على تفسير الحقائق والقوانين، التي أمكن التوصل إليها مسبقاً بواسطة البحث التجريبي والإمبيريقي (الميداني). فالنظرية العلمية، ما هي إلا إستخلاص لعدد من القوانين العلمية، التي وصلت إلى مرحلة التعميم، أو تم الإتفاق حولها بواسطة مجموعة كبيرة من الباحثين العلماء، وأصبحت جزءاً من مكونات العلم الحديث. في نفس الوقت، أن الوصول إلى نظريات علمية ، تصبح أكثر من

إحتمالاً للصدق والواقع، إذا إستطاعت هذه النظريات ان تفسر أكبر قدر من الحقائق والقوانين العلمية. وبالطبع، إن تاريخ البحث العلمى، يكشف لنا عن مجموعة كبيرة من النظريات، التى تم إستخلاصها من مجموعة النتائج والقوانين، التى إصطبغت بخاصية التعميم، واصبحت (النظريات) بمثابة موضع الإختبار والفحص والتدقيق المستمر من جانب أجيال الباحثين والمهتمين بالعلم الحديث.

وعموماً، يكشف لنا تحليل التراث الحديث للمنهج العلمى وإستخداماته فى العلوم والدراسات الاجتماعية، أن عملية الوصول إلى تعميمات وقوانين ونظريات عامة، أصبحت فى الواقع شيئاً هاماً فى مجال تطور هذه الدراسات على مختلف أنواعها. فلقد ظهرت نظريات فىعلم النفس مثل نظريات التعليم، ونظريات الذكاء. وفى علم الاجتماع ظهرت ايضاً مجموعات كبيرة من النظريات السوسيولوجية العامة، مثل النظرية البنائية الوظيفية، سواء كانت تقليدية أم محدثة، وأيضاً النظريات الماركسية التقليدية والحديثة. كما ظهرت أيضاً نظريات إجتماعية وسوسيولوجية من العديد من فروع علم الاجتماع مثل نظريات التنظيم والإدارة مثل الإدارة العلمية، ونظريات العلاقات الإنسانية ونظرية البيروقراطية. كما توجد نظريات أخرى. فى علوم الإتصال والتنمية مثل نظريات التنمية الرأسمالية، أو التنمية الماركسية (التبعية) أو التبعية الثقافية، ونظريات التحديث ونظريات التغير الاجتماعى، وما إلى ذلك من نظريات علمية تم التوصل إليها بواسطة علماء الاجتماع. وبإيجاز، أن هذه النظريات العلمية جاءت نتيجة لأستخدام المنهج العلمى، وتتبع خطواته الاساسية، ولاسيما ان الخطوة النهائية، هى الوصول إلى تعميمات وقوانين ونظريات، تصبح بعد ذلك خاضعة للتطور، والتعديل والتغير المستمر، لأن ذلك من خصائص كل من النظريات والمناهج العلمية على حد سواء.

٣- المنهج العلمى ودراسة الظواهر الإجتماعية.

تطورت إهتمامات علماء الاجتماع خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، لتركز على دراسة أهم مكونات علمهم واسس النظرية والمنهجية، وهذا ما ظهر بالفعل فى تحليلات علماء النظرية السوسيولوجية، وعلماء المناهج وطرق البحث الاجتماعى. وأية كانت هذه التحليلات سواء المرتبطة

بالنظرية وبالمناهج تعتبر تخصصات فرعية وكل التخصصات العامة لعلم الاجتماع، إلا أن طبيعة تناول النظرية والمنهج تعتبر من أهم المتطلبات العامة، التى يسعى للإهتمام بها كل باحث أو متخصص فى هذا العلم، ولاسيما أن كل من هاتين القضيتين النظرية والمنهج، تعتبران جوهر علم الإجتماع، وأهم الركائز العلمية التى يقوم عليها بصورة عامة. وفى إطار إهتمامنا بدراسة طبيعة المنهج العلمى فى الدراسات السوسيولوجية لقد حدث جدل طويل حول طبيعة هذا المنهج، ومدى إستخدامه فى ابحاث ودراسات علم الإجتماع سواء على المستوى النظرية السوسيولوجية، أو على مستوى إجراء الدراسات والبحوث الإمبيريقية (الميدانية). بالطبع، يعكس هذا الجدل بين المشتغلين فى علم الاجتماع خاصة، والعلوم الاجتماعية والطبيعية عامة، حول مدى تطبيق وإستخدام المنهج العلمى فى دراسة الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية.

وفى الواقع أن الإجابة على هذا التساؤل، هو الذى جعلنا نهتم منذ البداية بدراسة أهم مكونات المعرفة العلمية، وما طبيعة خصائص المعرفة العلمية وتميزها عن المعرفة غير العلمية ؟ كما جعلنا أيضا نعالج مفهوم العلم ووظائفه وإستخداماته من جانب المتخصصين فى العلوم الحديثة المختلفة. ولاسيما أن العلم يهتم بدراسة الواقع، ويسعى للتحقيق المنطقى، والوصول إلى عدد من القضايا والقوانين، كما يتسم العلم بالعمومية، والتجريد، علاوة على ذلك، فإن العلم يعتبر عملية مستمرة من ناحية أخرى، لقد تناولنا بعض المشكلات والقضايا الهامة التى تم إثارتها بواسطة علماء الاجتماع أنفسهم، مثل طبيعة الإختلاف والتمايز بين البحوث الاجتماعية الميدانية و البحوث الاجتماعية النظرية الخالصة Pure Theoritical، وما مدى إسهام كل منهما فى تطور عملية البحث الاجتماعى. كما اشرنا أيضا إلى كيفية تطور البحث الاجتماعى ونشأته خلال القرنين الماضيين التاسع عشر والعشرين، وإلى أى حد أصبح هذا البحث السوسيولوجى، يمثل مكانة مرموقة بين جميع أنواع البحوث العلمية الحديثة، ولاسيما بعد أن حقق علم الاجتماع، المزيد من التقدم والتطور من حيث النظرية، والمنهج، ونتائج البحوث السوسيولوجية التى تناولت جميع المشكلات والقضايا التى ظهرت فى المجتمع الحديث.

ومن هذا المنطلق، نحاول حالياً أن نطرح سؤلاً مؤداه، ما هو واقع إستخدام المنهج العلمى فى دراسة الظواهر الاجتماعية ؟ أو بعبارة أخرى إلى أى حد تم تطبيق المنهج العلمى عن معالجته الظواهر والمشكلات الاجتماعية الواقعية ؟. وهل هناك أى نوع من الإختلاف والتباين عن تطبيق المنهج العلمى على كل من الظواهر الاجتماعية والظواهر الطبيعية ؟. تلك التساؤلات التى لا تزال تطرح ذاتها أمام الباحثين المتخصصين فى كافة فروع ومجالات علم الاجتماع المختلفة، وأيضاً المشتغلين بقضايا العلوم سواء أكانت علوماً طبيعية أم إنسانية (إجتماعية). حقيقة، أن الإجابة على تلك التساؤلات، تجعلنا نعود مرة أخرى إلى الجدل الفكرى السابق حول ماهية علم الاجتماع ومكانته بين العلوم عامة، ذلك الجدل الذى تم طرحه بواسطة مؤسسه الأول " أوجست كونت " A. Comte، حينما اشار بوضوح إلى أن مكانة علمه الجديد يجب ان يتربع على قمة التسلسل الهرمى للعلوم كافة سواء أكانت طبيعية أم إجتماعية. وخاصة، أن علم الاجتماع، يجب أن يستخدم المنهج العلمى، فى دراسته ومعالجته للظواهر والمشكلات الاجتماعية. وهذا ما وضح بالفعل حينما اشرنا خلال الفصول السابقة حول منهجية كونت فى علم الاجتماع، وهذا ما أيده ايضاً العديد من رواد هذا العلم الأوائل، كما وضح جلياً فى إسهامات دوركايم حول قواعد المنهج العلمى فى علم الاجتماع.

ومن ثم، فإن إستخدام العلم (كمفهوم ومصطلح) تم إطلاقه وإستخدامه على علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى طيلة القرنين الماضيين. ولكن التساؤل الذى يثار بين علماء الاجتماع أنفسهم بصورة، مستمرة هو ما مدى إمكانية أن تكون البحوث الاجتماعية (بحوث علمية) وموضوعها يختلف عن موضوع البحوث الطبيعية؟. أو بمعنى أخر، هل ثمة إختلاف بين إستخدامات المنهج العلمى فى كل من دراسة البحوث أو الظواهر الاجتماعية والطبيعية؟. وعلى أيةحال، أن هذا التساؤل الأخير، أصبح من أهم القضايا البحثية التى تشغل إهتمامات علماء الاجتماع عامة، والمتخصصين فى مناهج البحث الاجتماعى وطرقه خاصة. ولاسيما، أن هذا التساؤل، قد لايختلف كثيراً عن مضمون وجوهر التساؤلات السابقة، التى طرحت حول إمكانية تطبيق المنهج العلمى فى العلوم الاجتماعية، وهل بالفعل يمكن إطلاق مصطلح أو مفهوم العلم على هذا بالعلوم مجتمعه وخاصة، أن طبيعة إهتمامات هذه العلوم ومنها علم الاجتماع، تختلف عن العلوم الطبيعية، من ناحية موضوعها ونطاق

ومجال دراستها ونوعية الظواهر التي يعالجها كل منهما. وهل بالفعل يمكن تبني وإستخدام نفس المنهج للعلوم الطبيعية في دراسة الظواهر الاجتماعية ؟. ولاسيما أن هذه العلوم قد قطعت شوطاً كبيراً فى مجال الدراسة والتحليل والتفسير والتوصل إلى قوانين ونظريات علمية شاملة.

وللإجابة على هذا التساؤل عامة، نجد أن علماء الاجتماع أنفسهم قد تباينت آرائهم وإنقسموا فيما بينهم إلى فريقين أساسيين:

أولاً : الفريق المؤيد لإستخدام المنهج العلمى فى علم الاجتماع: ويرى أنصار هذا الفريق، أن علم الاجتماع كعلم إجتماعى، له قواعده وركائزه العلمية الأساسية، التى تقوم عليها العلوم جميعها، ومن ثم يجب أن يتبنى المنهج العلمى في دراسة الظواهر والمشكلات التى يهتم بدراستها وتحليليها. ويجب أن يحتذى إستخدامه للمنهج العلمي، لكى يصل إلى ما حققته العلوم الطبيعية، ولاسيما، أن هذه العلوم إستطاعت أن تقطع شوطاً كبيراً فى مجال قدراتها على إكتشاف القوانين، والتنبؤ بالظواهر التى تهتم بمعالجتها ودراستها وتحليلها. كما يجب أن يستخدم علم الاجتماع، المنهج العلمى، لكى يستطيع علماؤه الوصول إلى مرحلة التعميم وصياغة النظريات العلمية التى تماثل النظريات الطبيعية الأخرى. وبالطبع، أن هذه القدرات والإمكانات سواء القوانين، والنظريات، أو القدرة على التنبؤ لحل المشكلات، مكنت علم الاجتماع بأن يكون علما أساسيا وجوهرياً فى دراسة المشكلات المضطردة فى المجتمع الحديث.

ثانياً : الفريق الثانى (المتحفظ) على إستخدام المنهج العلمى ليس بسبب إمكانية إطلاق مفهوم العلم على علم الاجتماع أم لا، بقدر ما يرجع سبب (تحفظه) على طبيعة هذا العلم كغيره من العلوم الاجتماعية، فعلم الاجتماع يعتبر حسب وجهة نظرهم دراسة إنسانية تاريخية، لا تهدف إلى إكتشاف القوانين أو التوصل إلى النظريات العلمية العامة، التى تفسر واقع الإنسان وثقافته بقدر ما تعكس طبيعة هذه الثقافة مكونات المعرفة الإنسانية التى توجد منذ ظهور الإنسان على الأرض. فالمعرفة الإنسانية قديمة منذ القدم، وهى (المعرفة الإنسانية)، سابقة الوجود على العلوم الحديثة جميعها بما فيها العلوم الطبيعية. علاوة على ذلك، أن العلوم الطبيعية توصلت إلى العديد من المقاييس الدقيقة،

التي تستخدمها في دراسة الظواهر الطبيعية. ذلك النوع من المعـــايير التـــي يصعب إستخدامها في دراسة المعرفة الإنســانية والظواهـــر الاجتماعيـــة[1]. وبإيجاز، يرى ايضاً هذا الفريق، ضرورة التميز بين العلوم الطبيعية أو العلوم الإنسانية (التاريخية والثقافية)، ولاسيما أن العلوم الأولى، تهدف إلـــى تقديـــم التفسيرات السببية (العلية) عند دراســتها للظواهـــر الطبيعيـــة، أمـــا العلـــوم الثانية(الإنسانية) ومنها علم الاجتماع، تسعى لتقديم تفسيرات لمعانى المعرفـــة والثقافة والإتصال والأنشطة الإنسانية، وتهدف إلى الفهم، والنقد، والتقويم أكثر من إهتمامها بالتفسير العلمى أو السببى مثلما يحدث في العلوم الطبيعية.

وربما نجد هناك الكثير من المؤيدين للإتجاه الأخـــير مـــن علمـــاء الاجتماع المعاصر من أمثال "رايت ميلز" C. W.Mills، الذى يتصـــور بـــأن علم الإجتماع ما هو إلا حرفة أو مهنة أكثر من كونه علماً، كمـــا ان عمليـــة التركيز على دراسة علم الاجتماع فى عملية التنبؤ، يعتبر شيئاً صعبـــا يؤيـــده مجموعة من العلماء الذين لا يعرفون حقيقة العلم. كما يتصور ذلـــك الـــرأى بصورة نسبية " روبرت بيرستيد " R.Bierstedt، الذى يرى أن مكانـــة علـــم الاجتماع، لايمكن أن تكون بنفس مكانة العلوم الطبيعية الأخرى، بقدر ما تجئ مكانته بين أنماط الفنون التى ساعدت على تحرر العقـــل الإنســـانى بصـــورة عامة. وحقيقة، أن تصور هؤلاء العلماء لايمكن أن ينكر قدرات هـــذا العلـــم (الاجتماع)، بقدر ما ينكر مقدرته على دراسة الظواهـــر الاجتماعيـــة بنفس إمكانات العلوم الطبيعية ما دراستها للظواهر الطبيعية. علاوة على ذلـــك، أن عدداً كبيراً من أنصار هذا الإتجاه يتبنون أفكارهم على حقيقة هامة مؤداها: أن الظواهر الاجتماعية لاتخضع لقوانين طبيعية، وأن العلوم الطبيعية تبحث عـــن القوانين التى تفسر العلاقات البيئية بين الظواهر االطبيعيـــة، والتـــى تحـــدث بصورة متكررة وتسهيل دراستها وملاحظتها. أما (علم الإجتماع) فإنه يركـــز على دراسة الأحداث التاريخية والأفعال والسلوكيات والأنشطة العامة، التـــى تكون فى مجملها خبرة البشرية، وتكوين المعرفة الإنسانية ككل.

---

(١) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعيـــة، ١٩٨٣، ص٧٨.

ومن ثم، فإن وضع دراسة الظواهر الاجتماعية يختلف كلية عن مثيلتها من الظواهر الطبيعية، فالأحداث والأفعال التاريخية والاجتماعية تعتبر أحداث متميزة، ولايمكن تكرارها بسهولة. ولذا، يصعب وضعها قيد البحث والتجربة والاساليب الإجرائية الأخرى، التى تستخدمها العلوم الطبيعية التى تبحث عن القوانين السببية المفسرة عن حدوث الظواهر الطبيعية. ولكننا نرى، أن هذه التصورات تنكر ما حققه علم الاجتماع، بالرغم من حداثة النشأة التاريخية لهذا العلم مقارنة بغيره من العلوم الطبيعية الأخرى. فلقد توصل إلى الكثير من التفسيرات السببية الناتجة، عن حدوث الكثير من الظواهر والمشكلات الاجتماعية، التى توجد بصورة متكررة فى حياتنا اليومية والاجتماعية. وهذا ما حدث بالفعل فى دراسة مشكلات الأسرة، والجماعات الصغيرة، مثل جماعات العمل، والصداقة، وإنحراف الأحداث والعصابات، ودراسات الجريمة والإنحراف. هذا بالإضافة إلى إمكانية إستخدام المناهج التجريبية والتاريخية فى نفس الوقت، عند معالجة العديد من المشكلات والظواهر الواقعية التى تحدث فى مختلف المؤسسات الاجتماعية. فكثيرا ما توصل علم الاجتماع لتفسيرات سببية عن أشكال وصور العلاقات الاجتماعية السوية وغير السوية.

هذا بالإضافة إلى إمكانية تطور البحوث الاجتماعية التى إستخدمت المنهج العلمى بصورة واقعية وإمبريقية، ليس فقط فى دراسة صور العلاقات الاجتماعية بين الجماعات الصغيرة مثلما حدث فى بحوث التنظيمات الصناعية، والمعسكرات، أو التنظيمات العلاجية مثل المستشفيات أو غيرها. ولكن ايضا، إستطاع علماء الاجتماع، أن يتوصلوا إلى الكثير من التفسيرات السببية، التى ترتبط بدراسة ظواهر ومشكلات إجتماعية، وجميع مظاهر الحياة مثل دراسة القرابة، والسلطة، والتعليم، والتربية، والنظام القانونى، والضبط الاجتماعى، والصراع، وغير ذلك من موضوعات خضعت للبحث العلمى المتطور، الذى إستخدم الكثير من المقاييس الكمية والكيفية. وهذا ما ظهر مؤخرا فى تطور بحوث الإتصال والإعلام أو دراسات قياس الرأى العام، أو إتجاهات الجمهور حول السلطة السياسية، او القيادات، أو أنماط الإنتاج والسلع الحديثة. فبدون شك لقد إستفادت الكثير من المؤسسات الإنتاجية فى كافة المجالات البشرية، وخاصة ذلك النوع من المؤسسات التى تعتمد على التكنولوجيا المتقدمة فى أساليب إتصالها بالجمهور أو الفئات أو الطبقات

الاجتماعية، ولاسيما من خلال إستخدامها لبحوث الإتصال والإعلام المتنوع، والكشف عن إتجاهات ورغبات الجمهور في المادة الإعلامية وطبيعة تأثير الإعلان والدعاية، والعلاقات العامة، وغير ذلك من بحوث علمية متطورة إستخدمت المناهج العلمية الحديثة ذات الطابع الكمي والكيفي.

حقيقة، أن طبيعة المنهج العلمي واحدة بين العلوم سواء أكانت طبيعية أم إنسانية، وهذا ما جعل الكثير من علماء المناهج وطرق البحث المعاصرين، يركزون على مقولة هامة مؤداها: أنه لايوجد تميز بين العلوم الطبيعية وبين العلوم الإنسانية، من حيث إستخدام كل منهما للمنهج العلمي. خاصة، أن لهذا المنهج مجموعة من الأسس والخطوات والقواعد، التي يقوم عليها، ويجب أن يتبعها العالم الطبيعي أو العالم الاجتماعي. ولكن هناك بالطبع، ثمة خلافات بين إستخدامات كل من العلماء الطبيعين، والعلماء الاجتماعيين، عند دراساتهم للظواهر والمشكلات التي يهتمون بها، وترجع تلك الإختلافات إلى طبيعة إجراءات وأساليب التطبيق المنهجي والميداني، أو مجموعة الوسائل الفنية التي يستخدمها العلماء الطبيعين عند دراساتهم المعملية (التجريبية) التي تختلف بالطبع عن التطبيق علماء الاجتماع أو غيرهم من العلوم الاجتماعية على الظواهر الاجتماعية بصورة كاملة. وهذا ما جعل بعض علماء الاجتماع، من امثال "راد كليف براون" R.Brown، الذين أكدوا على ضرورة وجود علم طبيعي لدراسة المجتمع أو الظواهر الاجتماعية، ولابد من التوصل إلى مجموعة من القوانين والتفسيرات السوسيولوجية.

وربما تعتبر المحاولات المنهجية لعالم الاجتماع الشهير "ماكس فيبر" M.Waber، وتركيزه على وحدة المنهج العلمي في كافة العلوم الاجتماعية والطبيعية، إلا أن طبيعة العلوم الاجتماعية ومنها علم الاجتماع لايقدمون فقط على إستخدام منهج علمي واحد مثل المنهج التجريبي فقط، بقدر ما يعتمد على المنهج التاريخي، والمنهج الوصفي، والمنهج المقارن في دراسته للظواهر الاجتماعية والإنسانية. وهذا ما طرحه فيبر في منهجه المميز عن منهج الفهم التفسيري Explainatory Understauding، الذي يوضح كيفية إستخدام الأساليب الكمية والكيفية في دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية. وأن كان (فيبر) أكد على أن طبيعة القوانين السببية التي يمكن الحصول عليها بعيد

دراسة الظواهر الاجتماعية، لابد وان تختلف عن مثيلتها من القوانين التي تصاغ حول الظواهر الطبيعية. علاوة على ذلك، عقد "فيبر" حواراً منهجياً وضح فيه طبيعة التباين بين كل من العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية الثقافية . وخرج من هذا الحوار المنهجي بفكرة هامة مؤداها: أن علم الاجتماع قادراً على أن يقدم إطاراً منهجياً سوسيولوجية، يشمل الكثير من خصائص العلوم الطبيعية والاجتماعية في نفس الوقت. ولاسيما، أن علم الاجتماع وموضوعه الأساسي يتركز في دراسة القيم والمعاني، التي ترتبط بدراسة الاشياء والحقائق الموجودة في العالم الطبيعي والعالم الثقافي عامة. كما أكد ايضاً، على أن العلم مفهوماً وموضوعاً، لايمكن أن يختلف من حيث ماهيته وهدفه أو غايته سواء اكان يعالج ظواهر عقلية أو إجتماعية أو طبيعية فيزيقية في نفس الوقت.

ونظراً لأهمية معالجات "فيبر" عن المنهج العلمي وإستخداماته في دراسة الظواهر الاجتماعية، وتبرير تبني هذا المنهج عند إهتمام علماء العلوم الاجتماعية به، نحاول فيما يلي أن نستخلص عدد من الافكار العامة التي يمكن ان تؤيد فكرة إستخدام وتطبيق المنهج العلمي في العلوم الاجتماعية:

١- أن إستخدام المنهج العلمي في دراسة الظواهر الاجتماعية، من شأنه أن يطور دراسة هذه الظواهر وتحليلها بواسطة علماء العلوم الاجتماعية، وهذا فضلاً عن أهمية تبني هذا المنهج الذي يطور العلوم الاجتماعية من حيث المنهج والموضوع والنظرية.

٢- يهتم علم الاجتماع بدراسة وبحث الاسباب، كما يهتم بدراسة المعاني، وعن طريق دراسة كل منهما، يستطيع أن يصل إلى أعلى مستوى من الفهم، والذي يمكن تعريفه بأنه نوع من الفهم الملائم السببي والمناسب من حيث الفهم للمعاني.

٣- أن التمايز بين إستخدام المنهج العلمي في دراسة كل من الظواهر الطبيعية والاجتماعية،ينتج عن طبيعة أهداف العلوم الطبيعية والاجتماعية ذاتها، ولاسيما أن العلوم الاولى (الطبيعية) مركز على كيفية الضبط Control والسيطرة على الظواهر الطبيعية، في حين العلوم الاجتماعية، تركز على كيفية التقويم Evalution للنشاط الإنساني وتقدم معايير واقعية وملزمة أو مثاليات للأفعال والسلوك الفردي والإجتماعي والإنساني عموماً.

٤- ونتيجة للعوامل والافكار السابقة، فإن منهج علم الاجتماع يتركز في دراسة الأساليب، وفهم المعانى التى ترتبط بالأفعال والأنشطة والظواهر الإنسانية. ومن ثم فإن الهدف من إستخدام المنهج العلمي، يتبلور في تفسير الاسباب المرتبطة بالظواهر الاجتماعية وحدوثها، ويحاول أن يتوصل إلى عدد من القوانين والتعميمات المرتبطة بتكرار الظواهر، وايضا بنمط العلاقات وأشكال التفاعل البشرى.

وبايجاز، إن تصورات "فيبر" حول إمكانية إستخدام المنهج العلمى فى دراسة الظواهر الاجتماعية، وما ينبغيأن يطوع أهداف هذا المنهج فى دراسة السلوك الإنسانى وكيفية التباين والإختلاف حول إستخدامات المنهج في العلوم الطبيعية والاجتماعية ومنها علم الاجتماع. يجعلنا نؤيد هذا التصور "لفيبر" الذى يرد على انصار الإتجاه المحافظ أو غير المؤيد لإستخدام المنهج العلمى فى العلوم الاجتماعية. ولاسيما أن هذه العلوم قد قطعت شوطاً كبيراً فى إستخدامها للعديد من المناهج الكمية والكيفية، وتوصلت إلى تعميمات هادفة وموضوعية. وهذا ما ظهر عموماً، فى تحليلات أنصار الإتجاه الرياضى وتحليلاتهم فى علم الاجتماع، وإلى إستخدام الطفرة العلمية السريعة فى المقاييس الكمية، ولاسيما بعد تطور إستخدام الحاسبات الآليه (الكمبيوتر) فى دراسة الظواهر الاجتماعية المعقدة، ويجعل إمكانية التنبؤ المستقبلى حول هذه الظواهر شئ ليس بالمستحيل إطلاقاً.

ربما نجد أن تصورات "فيبر" السابقة حول إستخدام المنهج العلمى، برغم من أهميتها، إلا إنها طرحت خلال أوائل القرن الماضى (العشرين)، ولكننا نرى وجود بعض التصورات الحديثة، التى حدثت كثيراً من آراء وأفكار علماء ومناهج البحث الاجتماعى، حول مدى التقدم العلمى الذى طرأ على أساليب البحث العلمى فى دراسة الظواهر الاجتماعية ولاسيما فى السنوات الأخيرة. فلقد طرحت هذه الأفكار تصورات حول إمكانية العلوم الاجتماعية ومنها علم الاجتماع وسعيها منذ فترة طويلة لتطوير الأساليب الإجرائية والمنهجية المستخدمة فى دراسة الظواهر الطبيعية. مثل ما هو موجود بقدر الإمكان فى دراسة الظواهر الطبيعية. ولاسيما أن طبيعة المسلمات العلمية التى تنطلق منها كل من هذه الظواهر مجتمعه، تؤكد على

فكرة الحتمية، أى حتمية الظواهر الطبيعية، وأيضاً حتمية حدوث الظواهر الاجتماعية. ولكن فكرة الحتمية المطلقة، اصبحت من الناحية العلمية بعيدة عن الواقع، لأن مفهوم الحتمية المطلق تم إستبداله بالحتمية الإحصائية أو الإحتمالية[1]. ولقد جاء هذا التحول فى صالح العلوم الاجتماعية وتطورها، ولاسيما بعد أن تطورت المقاييس الإحصائية الإحتمالية، التى عن طريقها يمكن دراسة ظواهر إجتماعية متغيرة مثل قياس الاتجاهات، الذى أمكن قياسه بصورة أكبر من دراسة بعض الظواهر الطبيعية مثل قياس الزلازل أو التنبؤ بها على سبيل المثال.

من ناحية أخرى، أن آراء علماء المناهج الحديثة قد لا يختلفون كثيراً عن تصورات أو آراء علماء الاجتماع من امثال "دوركايم" ، و"فيبر" حول وجود منهج علمى واحد بين العلوم الطبيعية والاجتماعية، ولكن الإختلاف يرجع إلى طبيعة تباين الظواهر الطبيعية عن الاجتماعية، وإستخدام إجراءات بحثية وفنية تختلف عن دراسة هذه الظواهر. فى نفس الوقت، يؤكد علماء المناهج المحدثين، على أن التباين بين العلوم الطبيعية والاجتماعية، يكمن فى حقيقة هامة وهى: أن العلوم الاجتماعية تواجه نوعين من المشكلات، أولاً تركيزها على ذلك النوع من المشكلات التى يمكن وصفها بالحقائق Faccts، وثانياً المشكلات التى تتصل بالقيم Values، بينما العلوم الطبيعية تهتم بمعالجة نوع واحد من الحقائق فقط (الطبيعية). وهذا ما يجعلما نصل إلى وجود ثلاث أنماط للنظريات: ١- نظريات العلوم الطبيعية، ٢- نظريات الحقائق الاجتماعية التى تفسر وتعالج الأوضاع الواقعية، ٣- النظرية المعيارية التى تطرح نظم إجتماعية مثالية، أو تهدف إلى تحقيق أهداف إجتماعية أسمى وأعلى من الموجودة فى الواقع. وبالطبع، إن إستخدام هذه النظريات، لها مناهجها واساليبها الاجرائية المتميزة، وبالفعل توجد ممثالة بين مناهج النظريات الطبيعية، ونظريات الحقائق الاجتماعية، والتى توجد فى العلوم الاجتماعية والطبيعية، ولكن هذه المناهج لاتتلائم مع دراسة النظريات المعيارية التى تتنظر أو تتطلع إلى أهمية وجود نظام إجتماعى أفضل لم يتحقق بعد من الناحية الواقعية.

---

(١) مصطفى ناجى، " النظرية والمنهجية والتقنية " مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية والإنسانية: جامعة الكويت، ١٩٨٧، ص٤٣.

٤- حدود المنهج العلمى فى البحوث الاجتماعية.

كشفت التحليلات السابقة، عن طبيعة إستخدام المنهج العلمى فى دراسة الظواهر الاجتماعية، ونوعية الجدل الدائم بين مؤيدى ومعارضى تبنى هذا المنهج فى العلوم الاجتماعية، حيث حاول كل فريق أن يوضح وجهة نظره، ومدى إمكانية تطبيق المنهج العلمى، وخاصة أن هناك نوع من التمايز والإختلاف بين الظواهر الاجتماعية والظواهر الطبيعية. وعلى أية حال، نحاول حاليا، أن نوضح عدد من الصعوبات، التى تعكس مدى حدود إستخدامات المنهج العلمى، عند إجراء البحوث الاجتماعية، وتطبيقها على دراسة الظاهرة الاجتماعية وهى كما يلى:

(١) صعوبة التعقيد.

ما من شك أن طبيعة الظواهر الاجتماعية تمتاز بالصعوبة والتعقيد، مقارنة بغيرها من الظواهر الطبيعية، فدراسة السلوك والافعال والانشطة الاجتماعية ليست بالسهولة دائماً. ولاسيما ان طبيعة هذه الظواهر الاجتماعية تمتاز بتداخلها الشديد فيما بينها. ومن ثم، فإن وضعها للدراسة والتحليل مثل الظواهر الطبيعية يعتبر شيئاً صعب المنال. وهذا ما اشار إليه (إميل دوركايم)، حينما وضح أن هذا الامر، يقف أمام إستخدام التطبيق الكامل للطريقة أو المنهج التجريبى فى مجال الدراسات الاجتماعية. ولاسيما، عند إستخدام ما يعرف بطريقتى الإختلاف والإتفاق، التى يتعين عند إستخدامها من الناحية الإجرائية، أن يقوم الباحث بعزل متغيرات أو عوامل معينة، حتى يتمكن من دراسة المتغيرات الأخرى. وهذا مالم يمكن حدوثه بصورة دقيقة، عند دراسة المتغيرات المكونة للظاهرة الاجتماعية، التى تمتاز بالتعقيد والتداخل، وتعد الأسباب والمتغيرات والعوامل المشكلة والمكونة لها.

فدراسة الظواهر الطبيعية، مثل ظاهرة كسوف الشمس وخسوف القمر، يمكن معرفة أسبابهما بسهولة جداً بواسطة عالم الطبيعة. وهذا ما ينطبق على عالم الكيمياء والبيولوجيا، عند دراسة الظواهر الطبيعية. أما الظواهر الاجتماعية، وخاصة الظواهر التى ترتبط بدراسة السلوك البشرى من الصعوبة تفسير اسبابها وإرجاع طبيعة هذا السلوك إلى المكونات الفيزيقية أو الجسمانية، والنفسية (السيكولوجية) أو العصبية أو البيئة الاجتماعية وغير ذلك. كما أن

دراسة سلوك المريض النفسى أو مرتكبى الجرائم من الصعوبة جداً أن نصل إلى تحليلها بصورة مرضية تماماً، نظراً لتعقد دراسة السلوك الإجرامى، أو أسباب حدوث المرض النفسى، ففقد يرجع الأسباب وراثية بيولوجية، وأخرى إجتماعية وبيئية، واسباب نفسية سيكولوجية. وهذا عموماً ما يحدد فى مجمله طبيعة إستخدام المنهج العلمى بصورة كاملة أو متماثلة عند دراسة الظواهر الاجتماعية التى تمتاز بالتعقيد مقارنة بدراسة الظواهر الطبيعية.

(٢) صعوبة التجربة:

تتميز الظاهرة الاجتماعية كما اشرنا سلفاً بأنها معقدة، ومتداخلة الأسباب والعوامل والمتغيرات عند تفسيرها وتحليلها. وهذا ما يجعل بعض علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية يتحفظون على إستخدام المنهج العلمى، وتطبيقه على الظاهرة الاجتماعية، نظراً لصعوبة إخضاع هذه الظاهرة، أو جعلها قيد البحث التجريبى Expiermental Research، أو صعوبة ملاحظتها بصورة دقيقة لعدة اسباب نوجزها فيما يلى:

١- صعوبة إخضاع الظاهرة الاجتماعية، لنوع من الملاحظة الدقيقة مقارنة بالظاهرة الطبيعية التى يتوفر فيها التجريب، ولاسيما أنها ترتبط بدراسة الإنسان أو الجماعة وسلوكها، الذى يتغير بصورة مستمرة ومن الصعوبة الوصول إلى سلوكيات وافعال إنسانية تنطبق تماماً مثل غيرها بصورة دائمة.

٢- إن طبيعة المادة الاولية للظاهرة الاجتماعية، هى الإنسان أو الجماعة الذين يتكونون من كائنات حية عاملة ومتميزة عن الكائنات الحية البيولوجية أو الحيوانية أو النباتية الأخرى التى تقوم عليها دراسة الظواهر الطبيعية.

٣- يلعب الباحث دوراً أساسياً - حتى لو كان هامشيا - فى التأثير على أهداف البحث مما يؤثر بصورة سيئة فى النتائج التى يتوصل إليها، وهذا مالم يحدث إطلاقاً فى دور الكميائى، أو عالم الطبيعة عند القيام بتجاربه وملاحظاته العملية.

٤- إذا تم وضع السلوك الإنسانى أو الفرد ذاته، قيد الملاحظة والتجربة، قد يجعله يسلك أو يتصرف سلوكاً آخر ومغاير لسلوكه الطبيعى، أو ما يقوم به خلال حياته اليومية العادية.

وبالطبع، إن عملية صعوبة التجريب في العلـ ـ الاجتمـ ـ ـيـ ـ ـ ـ ـ
إمكانية التطبيق للمنهج العلمي تواجه صعوبات عند إجراء البحوث والدراسات الاجتماعية بصورة مماثلة عند إجراء التجارب العلمية أو الطبيعية. كما يلاحظ أيضاً، أن الظواهر الاجتماعية من الصعوبة تكرارها بصورة منتظمة ودقيقة، مثل تكرار عملية تتابع دوران الليل والنهار وشروق الشمس وغروبها، تلك الظواهر الطبيعية التي يمكن مشاهدتها أو ملاحظتها بصورة عادية جداً. أما الظواهر الاجتماعية، فهي معقدة لأنها مركبة من مجموعة من العواطف، والإنفعالات، والدوافع، والرغبات الداخلية مثلما نلاحظ عند دراسة الشخصية الفردية أو الإنسانية. وبالطبع، أن مثل عرض هذه الصعوبة، لايمنع على الإطلاق محاولة عالم الاجتماع والنفس على سبيل المثال من إجراء تجارب علمية مثل علماء العلوم الطبيعية الأخرى، ولكن بالطبع هناك العديد من التجارب التي أجراها علماء العلوم الاجتماعية، مثل دراسة الجماعات الصغيرة، وسلوك الافراد داخل جماعاتهم الاولية والثانوية أو جماعات العمل. وهناك أدلة كثيرة على دراسات علماء الاجتماع الصناعي، وعلم النفس الاجتماعي. ولكن عموماً، تواجه هذا النوع من البحوث التجريبية صعوبات في التطبيق الكامل لإجراءات عملية التجريب.

٣- صعوبة الموضوعية.

تبين آراء أصحاب الاتجاه المعارض لأستخدام المنهج العلمي في دراسة الظواهر الاجتماعية، حقيقة ما يرتبط بدراسة الجوانب الذاتية والنفسية للإنسان والجماعات البشرية، والتي يصعب دراستها بصورة موضوعية. كما أن هذه الجوانب إن كانت معقدة عند دراسة السلوك الإنفعالي للجماعات والافراد، منها تؤثر ايضا على مجموعة الباحثين والعلماء كأعضاء المجتمع العلمي، الذين يشكلون عقبة خلال إجراء البحث التجريبي والاجتماعي، والذي يتناول قضايا قد ترتبط بهم كأفراد أو جماعات ينتمون إلى نفس المجتمع الذي تجري عملية الدراسة، أو تصاغ قضايا بحثهم ظواهر ومشكلات يجدون فيها أنفسهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة، مثل دراسة الدين، والسلالة، والقيم، والعادات، والتقاليد، والدوافع، والطبقات، وغير ذلك من متغيرات وجوانب من الصعوبة عزلها بعيدا عن ذاتية الباحثين، عند إجراء تجاربهم بصورة مماثلة

عندما يعزل الباحث العلمي الكيميائي أو البيولوجي أو علم الفيزياء ذاته عن الظاهرة الطبيعية التي يقوم بها.

وبالرغم من منادات " أميل دوركايم " في قواعد المنهج العلمي وإستخداماته في علم الاجتماع وتطبيقه على العلوم الاجتماعية، وتأكيده على الموضوعية، كقاعدة هامة، وإعتبارها من أهم مسلمات ومتطلبات المنهج العلمي، إلا إنني كباحث في علم الاجتماع، أجد صعوبة تطبيق الموضوعية بصورة مطلقة عند دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية صعوبة في ذلك، كما يحدث في العلوم الطبيعية، ولاسيما، أن قضايا البحث الاجتماعي، تتناول موضوعات مرتبطة بالذات البشرية، والافكار والمثل والقيم والايديولوجيات، والثقافة والصراع الطبقي، والعنصري، وغير ذلك من موضوعات من الصعوبة عزل الباحث الاجتماعي ذاته كلية عنها، دون إبداء الرأى أو الفكره أو التصور المستقبلي لحل هذه المشكلات بصورة موضوعية. ولكن هذا لاينفي على الإطلاق، أن الباحث لابد وأن يتحرى الموضوعية، وليس الموضوعية المطلقة، لأنها نوع من الحتمية المطلقة، التي يصعب إتباعها بواسطة علماء العلوم الطبيعية أنفسهم، والذين يأخذوا بمبدأ الاحتمالية أو الحتمية النسبية، مثل دراسة الظواهر الطبيعية التي لم يتوصلوا عند دراستها بالتحديد العلمي الدقيق مثل دراسة الزلازل والبراكين وغيرها. في نفس الوقت، أن إبداء الرأى أو المشورة بالنسبة للباحثين الاجتماعيين، دائماً يشكل جزء من متطلبات الباحث العلمي، الذي يملك قدرات النقد، والتحرر عن الآراء السابقة، التي قد تؤثر قطعاً على مجريات البحث وتجعله كباحث ، بعيداً عن تحقيق موضوعية البحث العلمي وأهدافه العامة. وهذا ما يجعلنا نؤيد الآراء القائلة بأن عملية تحقيق الموضوعية في البحوث الاجتماعية، تتطلب عدم التحيز لرأى معين، ومذهب محدد، ويجعل آرائه قريبة جداً إلى الواقعية ودراسة الأشياء على أنها حقائق إجتماعية.

٤ – صعوبة التعميمات وإستخلاص القوانين.

تعتبر هذه الصعوبة من أهم حدود تطبيقات المنهج العلمي في العلوم الاجتماعية، وهذا ما يجعل الكثير من علماء الاجتماع، يؤكد إستحالة الوصول إلى قوانين وتعميمات عامة حول الظواهر الاجتماعية، مثل القوانين الطبيعية

التى تم إستخلاصها بواسطة علماء العلوم الطبيعية.والسبب يرجع بالطبع إلــى تباين طبيعة ومكونات الظواهر الطبيعية والاجتماعية، على نحو ما أشرنا إلى ذلك من قبل. فعلماء الطبيعة توصلوا إلى قوانين عامة عن الجاذبية، والطفــو، والطرد والجذب، والضغط الجوى، والقصور الذاتى، وغير ذلك من قوانيــن علمية أخرى، تم إستخلاصها بعد إجراء العديــد مــن التجــارب المعمليــة، وإستخدام الملاحظة، وغير ذلك من أساليب وإجراءات منهجية وفنية متعــددة ولكن يتعزر إستخلاص تعميمات وقوانين عامة حول الأســرة، أو الطــلاق، والإنحراف والجريمة، والثورات، والثقافة، والعــادات والتقــاليد، والفســاد، والتعليم والتنشئة الاجتماعية، والتغير الاجتماعى، والتنمية، والتطور والتقــدم الاجتماعى، وغير ذلك من ظواهر ومشكلات إجتماعية أخرى متعددة.

وبالطبع، أن صعوبة ذلك ناتجة عن طبيعة الظواهــر الاجتماعيــة، وايضاً طبيعة خضوع المجتمعات البشرية لعمليات مــن التغــير الاجتمــاعى السريع بصورة مستمرة. فلا يمكن على سبيل المثال، تحديــد قــانون معيــن لحدوث الثورات الاجتماعية، مثل الثورة الفرنسية، أو قانون لنشــوء الحــروب العالمية أو المحلية، أوقانون بطبيعة علاقة الفقر بالجريمة والانحراف، يمكــن أن يوجد أو يستخلص من تعميمات عامة توجد فى جمع الــدول لمجتمعــات البشرية فيما ينطبق على زيادة أو نقصان معدلات الجريمة والإنحــراف فــى مجتمع معين دليلاً على صعوبة إصدار قانون ثــابت يطبــق علــى ظــاهرة الجريمة والانحرف على مر العصور التاريخية، كما يصعب إصدار قانون أو تعميم على حدوث الجرائم داخل المجتمع الواحد خلال فترة زمنيــة واحــدة، نظراً لتباين معدلات الجريمة والإنحراف داخل المنطقة أو الشارع أو الحى أو المدينة الواحدة. ولكن هذا لاينفى على الإطلاق، إمكانية القدرة العلميــة مــن جانب العلوم الاجتماعية، من معرفة الأسباب والعوامل التى ترتبــط بدراســة ظواهر إجتماعية معينة، فمشكلة أو ظاهرة البطالــة -كظــاهرة إجتماعيــة- يصعب إستخلاص تعميم أو قوانين عامة حولها، ولكن يمكن بسهولة معرفــة مجموعة الاسباب والعوامل والمتغيرات، التى يمكــن معرفــة طبيعــة هــذه المشكلة. ولاسيما أن ذلك، ينتج عن حدوث تكرار هذه الظروف والعوامل فــى المجتمع الواحد ذاته أو غيره من المجتمعات الأخرى، وذلــك عــن طريــق

إستخدام الكثير من الملاحظات والشواهد، والمناهج العلمية التحليلية والتاريخية والمقارنة، التي تعزز من عملية أو إمكانية الوصول إلى معرفة أسباب وعوامل حدوث الظاهرة مثل (البطالة)، ولكن لايمكن أن يكون ذلك سبباً لأصدار قانون عام عن البطالة ينطبق على المجتمعات الحديثة دون معرفة خصوصيات هذه المجتمعات وإختلاف ظروفها من الناحية الاجتماعية والاقتصادية عن الأخرى.

٥- صعوبة التنبؤ.

تعكس جملة الصعوبات السابقة المرتبطة بتطبيق المنهج العلمي في البحوث الاجتماعية والتي تمثلت في التعقيد، والتجربة، والملاحظة، والموضوعية، التعميم، وإستخلاص القوانين. وجود صعوبة أخرى، مرتبطة بجملة هذه الصعوبات، التي تشكل حدود تطبيق المنهج العلمي بواسطة علماء العلوم الاجتماعية. ولقد أحرزت العلوم الطبيعية التي تعالج ظواهر مختلفة تماماً عن الظواهر الاجتماعية، تقدماً ملحوظاً في مجال إستخدام الملاحظة، والتجربة، والإعتماد على المقاييس الكمية الدقيقة في رصد الظواهر الطبيعية والكونية والتنبؤ بها عموماً. ولقد إستطاع علماء الفلك، أن يتنبؤا بحدوث ظواهر كونية مثل كسوف الشمس وخسوف القمر، ومعرفة متى سوف تحدث هذه الظاهرة، وفي أي جزء من الكرة الأرضية ومتى سوف تشاهد بالتحديد الدقيق والكامل. ولكن هذا لايمكن أن يحدث عند دراسة الظواهر الاجتماعية، نظراً لطبيعة العوامل المفسرة والمسببة لها. والتي يتعذر حدوثها وتكرارها وملاحظتها وقياسها، وإخضاعها للتجربة مثل الظواهر الطبيعية الأخرى عامة: وإن كانت عملية التنبؤ في العلوم الطبيعية ايضاً لايمكن أن تصل إلى درجة الكمال المطلق أو التنبؤ المطلق، فلايزال علماء الطبيعة والفلك والجولوجيا غير قادرين على التنبؤ بحدوث الزلازل، أو البراكين في أوقات معينة ومحددة بالرغم من توصلهم إلى إكتشاف والتنبؤ بظواهر أخرى طبيعية.

وهذا بالفعل ما ينطبق على علماء العلوم الاجتماعية عند دراسة الظواهر الاجتماعية، التي تمتاز بجملة خصائص ومميزات فريدة من نوعها، لأهتمامها بمعالجة قضايا ومشكلات، ذاتية، وشخصية، وبيئية، وإجتماعية، وبيولوجية، في نفس الوقت. فلا يمكن على الإطلاق التنبؤ بصورة دقيقة،

لزيادة معدلات الجريمة والإنحراف فى مجتمع معيّن خلال عام ٢٠٠٥ مثـلاً، نظراً لإمكانية إنخفاض أو إرتفاع هذه المعدلات نتيجة لمجموعة العوامل والاسباب التى تشكل ظاهرة الجريمة والإنحراف فى هذا المجتمع المحدد. فالظاهرة الاجتماعية سواء أكانت أفعال أو سلوك أو أفراد أو جماعات أو مجتمعات متغيرة بصورة مستمر، ويصعب إخضاعها للمقاييس الكمية والتجريبية مثل الظواهر الطبيعية. فالتنبؤ مثلاً، بحدوث كارثة إجتماعية أو إقتصادية مثلاً في الاسواق المالية الغربية أو الاسيوية مرة أخرى، كما حدث فى دول جنوب شرق اسيا خلال أواخر التسعينات من القرن الماضى، من الصعوبة التنبؤ بحدوثه مرة أخرى فى فترة معينة بالتحديد، نظراً لوجود عدد من العوامل والأسباب، التى قد تحدث بصورة فجائية، وتتغير به عملية التنبؤ (الحتمى) لحدوث هذه الظاهرة بالضبط مرة أخرى ولكن هذا لاينفى على الإطلاق إمكانية معرفة الأسباب والعوامل والمؤشرات المحتملة التى تؤدى إلى حدوث الظواهر الاجتماعية والاقتصادية أو وقوعها، بعد عملية دراستها وتحليلها بصورة علمية، مثل حدوث الثورات الاجتماعية، أو الكوارث الاجتماعية الأخرى والتخطيط العلمى لمواجهتها والتنبؤ بصورة تقريبية لحدوثها مثل الجريمة والإنحراف، وإنهيار الأسواق المالية.

الفصل الرابع

المنهـــج التاريخـــى

تمهيد:

١- تعريف علم التاريخ والمنهـج التاريخى.

٢- تطـــور الاهتمـام بالمنهـج التاريخى.

٣- المسلمـات العـامة للمنهـج التاريخى.

٤- خطـــوات المنهـــج التاريخـــى.

٥- مصـــادر المنهـــج التاريخـــى.

٦- حدود استخـــدام المنهـج التاريخى.

تمهيد:

كشفت طبيعة استخدامات المنهج العلمي في دراسة الظواهر الإجتماعية، عن الكثير من الحقائق المرتبطة بهذا المنهج، ومدى إمكانية تطبيقه فى الدراسات الاجتماعية. ولاسيما، أن علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية المتخصصون منهم، حرصوا على ضرورة تبنى المنهج العلمي وإتباع خطواته الاساسية التى توجد فى العلوم الطبيعية، وإستخدمها فى دراسة وتحليل المشكلات والقضايا الاجتماعية. وهذا ما ظهر بالفعل فى إهتمامات علماء الاجتماع الأوائل، الذين أكدوا على ضرورة إستخدامها المنهج العلمي، وخاصة أن هذا المنهج أحرز تقدماً كبيراً في مجال دراسة الظواهر والمشكلات الطبيعية. وهذا ما ظهر فى تحليلات كل من " أوجست كونت "، و" دور كايم " و "سبنسر"، الذين وصل بهم الأمر إلى محاكاة المنهج العلمي، عن طريق الإستعارات المنهجية المتعددة. مثل حرص "سبنسر" عند طرحه أفكاره المنهجية حول المماثلة البيولوجية، إلا أن طبيعة الظواهر الاجتماعية متباينة ومختلفة كثيراً عن مثيلتها من الظواهر الطبيعية. وهذا ما جعل البعض من علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية يتحفظون على إستخدام المنهج العلمي وتطبيقه كلية عند دراسة القضايا والظواهر التى تهتم بها هذه العلوم.

ونظراً لتباين طبيعة الظواهر الاجتماعية التى يهتم بمعالجتها علماء الاجتماع كغيرهم من علماء العلوم الاجتماعية الاخرى مثل علم النفس، والاقتصاد، والسياسة، والتاريخ، والجغرافيا، حرص هؤلاء العلماء على ضرورة تنوع مناهج البحث الاجتماعي، وعدم تركيزه كلية على المنهج العلمي (التجريبي)، الذى يعتمد كلية على التجربة العلمية وخطواتها المعملية، نظراً لإستحالة تطبيق هذا المنهج بصورة عامة على دراسة السلوك والافعال والانشطة والأفراد والجماعات البشرية. وضرورة أيضاً، الإهتمام بالتجربة كمنهج علمى أو أداة تحليلية للتعرف على موضوعات وظواهر وقضايا إنسانية مثل قضية الثورة، البطالة، والتنمية، والتعليم، والتربية، والإنحراف والجريمة، والثقافة، والحضارة، والتطور، والتنمية، وغيرها. تلك الموضوعات التى تستلزم الإستعانة بمناهج أخرى أسماها بعض المتخصصين فى مجال وطرق البحث الاجتماعى بالمناهج المساعدة والاساسية فى دراسة

الظواهر الاجتماعية مثل المنهج التاريخى، Historical Method، الذى يمكن الإستفادة منه كثيراً فى دراسة وتتبع الظواهر الاجتماعية وتكرراهـا، وفهم أسباب حدوثها والعوامل التى تؤدى إلى ظهورها، والآثار الناجمة عنها، وتحليل طبيعة التباين والإختلاف والتماثل أيضاً، عند ظهورها فى فترات متباينة من الزمان، أو معرفة مدى تشابهها وظهورها فى مجتمعات معينة خلال فترة تاريخية مماثلة.

وإنطلاقاً من أهدافنا الحالية، نسعى للتعرف بوضوح على طبيعة المنهج التاريخى، كما أستخدمه بالفعل علماء مناهج البحث الاجتماعى خاصة، وعلماء الاجتماع بصورة عامة، ومعرفة إلى أى حد يمكن تحديد مفهوم المنهج التاريخى والتمييز بينه وبين علم التاريخ، وخاصة الاسباب التى دفعت علماء العلوم الاجتماعية، وفهم علم الاجتماع للإستعانة بهذا المنهج فى دراساتهم للظواهر والقضايا الاجتماعية ؟. وما هى إستخدامات هذا النهج من قبل رواد علم الاجتماع حتى الوقت الحاضر وذلك بصورة موجزة ؟. فى نفس الوقت يطرح هذا الفصل عدد من التساؤلات للإجابة عليها مثل، هل توجد بالفعل مسلمات ومبادئ عامة واساسية يقوم عليها المنهج التاريخى كمنهج علمى؟. وما هى أهم خطوات المنهج التاريخى، ومن أين تستقى مصادره ؟. وهل يوجد تباين وإختلاف حول طبيعة هذه المصادر، وما هى أهم تصنيفاتها ككل ؟. واخيراً، يجب علينا أن نحدد ايضا، طبيعة حدود إستخدام المنهج التاريخى أو الصعوبات، التى تواجه العلماء والباحثين عند تبنيهم لهذا المنهج فى دراساتهم وتحليلهم للظواهر الاجتماعية.

(١) تعريف علم التاريخ والمنهج التاريخى.

ما من شك، أن علم التاريخ علماً متميزاً ويعتبر من أهم العلوم الاجتماعية، وهو كعلم إنسانى له تعريفات واضحة، تحدده كعلم أساسى يسهل تميزه والتعرف عليه بواسطة المتخصصين فى العلوم الاجتماعية كافة. ولكن ما نقصده حالياً هنا ، تقديم تعريف أو تحديد مبسط لمفهوم التاريخ كعلم، وتعريف المنهج التاريخى، إنما نهدف به إعطاء الطالب أو الباحث المبتدئ فى علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية، فكره مبسطة توضح الفرق بينها. ولاسيما أننا نعرض أفكارنا وتصوراتنا الحالية فى إطار عام للتعريف بالمناهج العلمية

عامة، والمناهج المستخدمة فى الدراسات والبحوث الاجتماعية والسوسيولوجية خاصة. ومن ثم، يجب أن نشير أولاً، إلى مفهوم علم التاريخ، ثم نتناول بعد ذلك التعريفات المرتبطة بالمنهج التاريخى، وأهمية إستخداماته فى الدراسات الاجتماعية.

أولاً: مفهوم علم التاريخ.

حقيقة، لقد تعددت التعريفات المرتبطة بعلم التاريخ، ولكن نحرص حالياً لأن نشير بصورة موجزة، لرؤى بعض العلماء، وتحديدهم لمفهوم علم التاريخ للأسباب التى أشرنا إليها مسبقاً ومن أهم هذه التعريفات[1]:

(١) تعريف " هومر هوكيت " H. Hockett، الذى يرى أن التاريخ هو " السجل المكتوب للماضى أو للأحداث التاريخية الماضية "[2] ويكشف محتوى هذا التعريف أن المقصود بعلم التاريخ الإهتمام بدراسة تاريخ البشرية وخاصة ما دون منها. وهذا يحدد التاريخ – كعلم – فأنه يحلل تاريخ الإنسان منذ أن توصل إلى فن الكتابة وقام بتسجيلها بالفعل، ولهذا يستبعد هذا التعريف، المراحل والعصور التاريخية السابقة على مرحلة عصر الكتابة، ولذا سمى العلماء هذه المرحلة، مرحلة ما قبل التاريخ. وبالطبع، أن معرفة الإنسان الحديث أو عالم التاريخ يقتصر فقط على علم التاريخ المعروف، أو ماتم تحصيله والكشف عنه وأتفاق العلماء والمؤرخين حول البدايات الاولى للتاريخ وعصوره وحقبه المختلفة.

وفى الواقع، أن علم التاريخ كعلم متطور ومتغير مثله مثل العلوم الاجتماعية، التى تعتمد كل منها على الأخرى فى دراسة ظواهره ومشكلاته وقضاياه الاساسية. فعلماء التاريخ يمكنهم الإستفادة من دراسات الانثربولوجين أو الاكتشافات التاريخية والأثرية الحديثة، التى يقوم بها علماء الآثار والحفريات مؤخراً، من أجل التعرف على أصل وتطور البشرية، وعدم قصور علم التاريخ كعلم على بداية مرحلة عصر الكتابة والتدوين، لأن هناك

---

(١) وردت بعض هذه التعريفات فى المرجع التالى:

– عمر الشيبانى، مرجع سابق، ص ص ٧٨-٧٩.

(2) Hockett, H, The Critical Method in Hostorical Research, and Writing, N.Y: The Macmillan Conp, 1968, p.3.

الكثير من الحقائق التاريخية التى ظهرت فى الواقع فى عصور ما قبل التاريخ. وهذا ما يؤكده بالفعل الكثير من علماء التاريخ الذين يستعينون باكتشافات علماء الآثار، والأنثربولوجين، وعلماء الجولوجيا، وعلماء الفلك وغيرهم.

٢- تعريف "آلان نفنس" A. Nevins، الذى يرى أن علم التاريخ هو وصف الحوادث أو الحقائق الماضية وكتابتها بروح البحث الناقد عن الحقيقة الكاملة[1]. ويعكس هذا التعريف، أن التاريخ يهدف وصف الاحداث التاريخية، التى ظهرت فى الماضى ومحاولة إعادة كتابتها وتحليلها بصورة نقدية وواقعية، وتهدف هذه المبادرة للبحث عن الحقائق والاحداث الكاملة. وبالرغم من أهمية هذا التعريف، الذى لا يعترف إلا بالحقائق والأحداث الكاملة، إلا أنه قد يوجه إهتمام المؤرخين أو علماء العلوم الاجتماعية بضرورة تجنب الحقائق الغير مكتملة، التى لم تكشف جوانبها كلية. وحقيقة، أن هذا المطلب يعتبر شيئاً أساسياً بالنسبة لعلم التاريخ، ولكن يجب أيضاً أن يهتم المؤرخ بالحقائق غير المكتملة، ويحاول تجميعها من أجل التوصل إلى الحقائق التاريخية. خاصة، وأن هناك الكثير من الإكتشافات التاريخية، مثل إكتشاف الحضارة الفرعونية، لم تظهر إلا من خلال كشف سر كتابة اللغة الفرعونية من على حجر رشيد بواسطة الحملة الفرنسية بقيادة نابليون.

(٣) تعريف كل من "جود" G. Good و "سكاتس" D. Scates، اللذان يران أن التاريخ واسع كإتساع الحياة نفسها، ويضم الميدان الكلى الشامل للماضى البشرى، والحقائق والبيانات التاريخية، التى يجب أن ينظر على أنها جزء لا يتجزأ من عملية النمو الاجتماعى، وعملية الحياة الاجتماعية الشاملة، التى كانت تحيط بها أكثر منها حقائق متفرعة أو منفصلة عن الحياة المحيطة بها[٢].

يوضح هذا التعريف، أن التاريخ كعلم شامل لتاريخ البشرية والحقائق والأحداث التاريخية، التى لابد من فهمها وتفسيرها فى إطار التطور والتغير الاجتماعى، خاصة، وأن فهم التاريخ لايمكن سرده على أنه مجموعة من الاحداث التاريخية الجوفاء، بقدر ما تكشف هذه الاحداث، عن الكثير من

---

(1) Nenin, A, The Gateway of Hostory, Boston: D.C, 1938, p.22.

(٢) للمزيد من التفاصيل أنظر:

- Good, C & D. Scates, Method of Research. N.Y: Appletion. Crofts, 1954, p.1670.

ملامح الحياة وطبيعة العوامل الاجتماعية والثقافية والبيئية والسياسية عامة، والتى أثرت فى تكوين هذه الأحداث وتشكيلها ولذا هذا التعريف يؤكد ما أشار إليه العلامة العربى (أبن خلدون) فى مقدمته الشهيرة، عندما أنتقد الكثير من المؤرخين الذين ظهروا فى عصره مثل (المسعودى) الذين سردوا الأحداث التاريخية بصورة جوفاء. وهذا ما جعل أبن خلدون يؤكد على الحقيقة القائلة، أن التاريخ يبدو لبعض الناس فناً ولبعضهم علماً. ولكن يجب أن نوضح كما أشار أبن خلدون أن التاريخ فن للعامة، وعلم لدى الخاصة(1). عموماً تلك تصورات أبن خلدون على تعريف علم التاريخ وسنشير إلى إستخداماته للتاريخ والمنهج التاريخى لاحقاً.

ثانياً: تعريف المنهج التاريخى.

حقيقة، أننا لانهدف حالياً لسرد تعريفات شاملة حول علم التاريخ، والمنهج التاريخى، بقدر ما نهدف إلى وضع تمييز مبسط بين كل من علم التاريخ وإستخدامات المنهج التاريخى، أو المقصود بهذا المنهج – المنهج العلمى– يستخدم بصورة كبيرة فى دراسة الظواهر الاجتماعية. وهذا ما أكد عليه الكثير من علماء الاجتماع. حيث أشار البعض منهم إلى ان مهمة علم التاريخ بأن يقوم بوظيفة مضاده لفعل التاريخ، الذى يسير قدماً دون تراجع او تخلف، وهذه الوظيفة هى محاولة إسترداد ماكان فى الزمان، لاليتحقق فعلياً فى مجرى الأحداث، ولكن يستعيد فى الذهن وبطريقة عقلية صرفة ما جرى عليه أحداث، وكانه فى مجرى الزمان، محاولاً أن يتصور مجرى هذه الاحداث، وكأنه يجرى فى إطار موجه(2). وهذا بالفعل ما حرص عليه الباحثين لتوضيح وظيفة إستخدام علم التاريخ فى دراسة الظواهر والاحداث الاجتماعية والتاريخية والتى يجب أن يهتم بها الباحثين الاجتماعيين، عند الغستعانة بعلم التاريخ أو بالمعطيات التاريخية فى دارسة القضايا والمشكلات الاجتماعية وتفسيرها بصورة علمية.

---

(1) للمزيد من التفاصيل إرجع إلى: ما كتب لاحقاً عن أبن خلدون، المقدمة.

(2) عبد الرحمن بدوى، مناهج البحث العلمى، القاهرة، دار النهضة، ١٩٥٤، صـ١٨٣.

وفى الواقع، لقد ظهرت تحليلات كثيرة حول تحديد المنهج التاريخى وإستخداماته في العلوم الاجتماعية وخاصة علم الاجتماع، ولكن قبل الإشارة إلى هذه التعريفات، لابد وأن نحدد حقيقة هامة مؤداها: بأن المنهج التاريخى لايمكن أن ينفصل عن علم التاريخ، كما أن هذا العلم لايمكن أن يكون علماً بدون إستخدام المنهج العلمى - كما اشرنا قبل ذلك - لطبيعة المنهج العلمى ومسلماته الاساسية، وذلك فى الفصل السابع حيث لاوجود لعلم بدون منهج علمى يستخدمه فى جمع معلوماته وتحليلها وفحصها بصورة علمية ونقدية وموضوعية في نفس الوقت. ومن ثم، يمكن القول، بأن منهج البحث التاريخى هو الأداة المنهجية الخاصة التى يستخدمها علم التاريخ فى تحقيق أهدافه كعلم عام، وخاصة فى تفسير الاحداث الفعلية والتنبؤ بالاحداث المتوقعة مستقبلاً.

ويمكن لنا أن نؤكد بالفعل على تحديد تعريف المنهج التاريخى - كما أشار[1] إليه بعض الباحثين - على انه " الطريق الذى يتبعه الباحث فى جمع معلوماته عن الاحداث والحقائق الماضية، وفى فحصها ونقدها وتحليلها، والتأكد من صحتها، وفي عرضها وترتيبها وتنظيمها وتفسيرها، وإستخلاص التعميمات والنتائج العامة". ومن ثم، يمكن القول، بأن المنهج التاريخى، لا يستخدم فقط فى دراسة وتحليل فهم الاحداث التاريخية والاجتماعية الماضية، ولكن ايضاً يستخدم فى فهم وتفسير الاحداث والافعال وسلبيات الواقعية. علاوة على ذلك، يسهم هذا المنهج، فى فحص ونقد المصادر المختلفة التى تستقى منها الأحداث والحقائق التاريخية، وتصنيف البيانات والمعلومات وتنظيمها بصورة علمية يسهل الرجوع إليها، من أجل استخدام النتائج العامة، والتنبؤ والتخطيط للمستقبل.

على أيةحال، أن أهمية عملية إستخدام المنهج التاريخى فى البحوث الاجتماعية يقصد بها " الوصول إلى المبادئ والقوانين العامة عن طريق البحث فى أحداث التاريخ الماضى، وتحليل الحقائق المتعلقة بالمشكلات الإنسانية والقوى الاجتماعية التى شكلت الحاضر[2]. وهذا يوضح أن هدف الإستعانة بالتاريخ أو بالمنهج التاريخى أيضاً، لايتركز فى التأكيد على

---

(١) عمر الشيبانى، مرجع سابق، صـ٨٢.

(٢) عبد الباسط حسن، مرجع سابق، صـ٣٦٥.

الحوادث الفردية، أو تصور أحداث الماضي وشخصياتها بصورة تجعلنا نعيش معها أو نتعايش معنا، بقدر ما تهدف تحديد الظروف التي أطاحت بظهور هذه الحوادث والشخصيات، ومجموعة العوامل التي أثرت فيها ونتائجها على الجماعات والمجتمعات التي كانت موجودة معها. وهذا جعل بعض علماء الاجتماع، ولاسيما، المتخصصين في مجال البحوث والدراسات الاجتماعية مثل " بولين يونج " P Young، التي أشارت إلي أن أهميه المنهج التاريخي، تتبلور في تحديده علي موضوع من المناهج العلمية التي عن طريقها نتعقب التطور التاريخي، كي نعيد بناء العمليات الاجتماعية، ونربط الحاضر بالماضي، ونفهم القوى الاجتماعية الأولى التي شكلت الحاضر بقصد الوصول إلي وضع مبادئ وقوانين عامة متعلقة، بالسلوك الإنساني الفردي والجماعات والنظم الاجتماعية[1].

وربما يؤكد التعريف السابق (ليونج)، تصورات "ريكمان" R: Ckman في كتابه المميز عن منهج جديد للدراسات الإنسانية، الذي يرى فيه أن الفهم الضيق للتاريخ يجعله منصباً علي دراسة سلسلة التعبيرات الخاصة اللامرتدة، التي يؤثر فيها السابق تراكما علي اللاحق. وطبقاً لهذا الفهم، يمكن وضع تعريف محدد للمدخل (المنهج التاريخي) علي أنه: " محاولة لفهم التعبيرات ورؤيتها في ضوء علاقتها بسياقاتها التاريخية، وفهم السياق الكلي بواسطة الإنتقال من تعبير إلي أخر، والمقصود بالتعبيرات هي جملة الاحداث والافعال[2]" ويصف ريكمان، أن المنهج التاريخي يهتم عموماً بدراسة العلاقات المتداخلة بين العلوم، ومن ثم يجب عدد نقطتين أساسيتين توضحان هذه العلاقة كما يلي:

النقطة الاولي: أن المنهج التاريخي رغم أنه تاريخي أصلاً، إلا أنه كمنهج لايمكن أن يتحدد إلا في إطار التاريخ وحده، كما أنه منهج يستخدم في كل العلوم الإنسانية. فدراسة تاريخ الحالة تعتبر مدخلاً أساسياً لعلماء النفس عند دراسة جناح الاحداث، أو علماء الاجتماع عند دراسة الصراع الطبقي

---

(1) Young , P. Scientific Social Sarvey and Research: N.Y, 1947.

(٢) هـ . ريكمان، منهج جديد للدراسات الإنسانية: محاولة فلسفية ترجمة علي عبد المعطي، محمد علي محمد، بيروت: مكتبة مكارى، ١٩٧٩، ص٢٦٩.

والعائلى وهذا ما أكد عليه " ماكس فيبر" M. Weber عند تاكيده على ذلك فى ضوء إهتمامه بالشواهد التاريخية. كما أن هذا المنهج (التاريخى) يعتبر منهجاً عند تسجيل التجارب المعملية التى يمكن الإستفادة بها كشواهد تاريخية وعلمية، لكل من علوم الفيزياء والكيمياء، والطب وغيرهما من العلوم الطبيعية الأخرى بالإضافة إلى ذلك، أن إستخدام المنهج التاريخى فى تحديد موضوع خاص مثل دراسة الحالة Case Stude فى علم النفس، فإنه يعتبر مهماً جداً للدراسات العامة والشاملة لعلوم إنسانية أخرى، لدراسة تاريخ الإقتصاد أو السياسة، وتاريخ نظريات إجتماعية محددة.

ثانياً: أن إستخدام المنهج التاريخى فى العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية يعتبر أمراً مهماً، ولكن هناك تباين بين إستخدام كل من هذه العلوم ولاسيما أن المنهج التاريخى، يعتبر منهجاً أكثر ملائمة لدراسة العلوم الإنسانية التى تتسم بالطابع التاريخى، وهذا ما يعكس على سبيل المثال، كيفية تتبع تطور نظريات التحليل النفسى منذ ان طرحها عالم النفس (فرويد) حتى الآن. أما العلوم الطبيعية التى تهدف للتوصل لعدد من النظريات، فلا يهمها كثيراً معرفة تطور هذه النظريات من الناحية التاريخية فى نفس الوقت، أن العلوم الاجتماعية، تركز على دراسة الفهم والمعنى والخبرة، لتفسير الكثير من الظواهر والمشكلات الاجتماعية المتعددة الأسباب والعوامل والتفسيرات والنتائج أيضا.

عموما تعكس التحليلات السابقة، حول تحديد مفهوم علم التارخ وتعريف المنهج التاريخى، ما يقصده بالفعل علماء المناهج وطرق البحث الاجتماعى من إستخدام التاريخ كعلم؛ والمنهج التاريخى كمنهج للدراسة والتفسير والبحث، عن الكثير من الحقائق المعرفية والبحثية، التى لابد أن يتعرف عليها بوضوح كل من الباحث المبتدئ فى علم الاجتماع، والمتخصص أيضا. ولاسيما، أن هناك الكثير من الترادف فى إستخدامات هؤلاء المتخصصين، عند توضيحهم للعلاقة المتداخلة، بين علم التاريخ كعلم، وعلم التاريخ بمفهومه العام أو الخاص، وهذا ما يظهر فى الجدل النظرى حول علم التاريخ هل هو علم أم فن ؟ وجاءت لتحدد الإجابة على ذلك بواسطة " أبن خلدون "، بأنه فنا للعامة، وعلما للخاصة. أو تحليل الفرق بين إستخدامات المنهج التاريخى فى العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، والتى نتج عنها، أن

المنهج التاريخى يعتبر منهجاً مهماً لكلا من هذه العلوم. ولكن بالطبع، يرتبط هذا المنهج بصورة أكثر بالدراسات الإنسانية، ذات الطابع التاريخى، التى لا تعتمد بصورة كلية على المنهج التجريبى، أكثر من إستخدامها للمنهج التاريخى، الذى يعتبر منهجاً متميزاً لدراسة الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية، ومحاولة تتبع حدوثها وظهورها وتفسيرها فى سياقها الاجتماعى الذى ظهرت فيه، كم أن هذا المنهج يعتبر مهماً لدراسة الحاضر فى ضوء تجارب الماضى، وفهم كيفية تطور كل من الظواهر الاجتماعية ونظرياتها وإهتمامات العلماء بها وتطلعاتهم للتنبؤ بها مستقبلاً.

(٢) تطور الإهتمام بالمنهج التاريخى.

يعتبر المنهج التاريخى من المناهج العلمية، التى استخدمت بصورة كبيرة بواسطة علماء الاجتماع وغيرهم من علماء العلوم الاجتماعية، ولقد لاحظنا من خلال التحليلات السابقة، أن هذا المنهج يعتبر مهماً أيضاً للمهتمين بدراسة العلوم الطبيعية. فدارس الطب الحديث لا يمكن أن يتجاهل تاريخ الطب وتطوره عبر العصور التاريخية، وهذا ما ينطبق أيضاً على تطور فنون العمارة والهندسة التى لا يمكن فهم نظرياتها دون الرجوع إلى تطور العمارة، خاصة خلال مراحل ظهور الحضارات المتميزة مثل الحضارة الهندية، والإغريقية، والفرعونية، والبابلية والآشورية وغيرها. إلا أن أهمية استخدام المنهج التاريخى تزداد أهميتها فى العلوم الاجتماعية، نظراً لطبيعة الظواهر التى تقوم بدراستها وتحليلها والتى تختلف عن الظواهر الطبيعية الأخرى على أية حال، نركز حالياً لتتبع عملية تطور اهتمام علماء الاجتماع ومؤرخى هذا العلم حتى يومنا هذا، ولكن يجب أن نوضح حقيقة هامة مؤداها: أننا لسنا فى موضع لسرد الاهتمام بالمنهج التاريخى، الذى أستخدمه معظم علماء الاجتماع بدون إستثناء، ولكننا سنعرض حالياً بعض الأمثلة كشواهد لاستخدامات علماء الاجتماع لهذا المنهج بشيء من الإيجاز:

أولاً: الاهتمامات الكلاسيكية.

(١) أبن خلدون.

يعد المفكر العربى أبن خلدون أول من أستخدم المنهج التاريخى، وذلك بصورة تحليلية مقارنة، ولاسيما أنه عرف التاريخ والبحث التاريخي ووصفه بأنه فن للعامة وعاماً للخاصة. وهذا يعنى أن أبن خلدون حرص من خلال هذا التعريف، أن يشير إلى أهمية التاريخ كعلم وخاصة للمهتمين بدراسة الأحداث والشواهد التاريخية. وهذا ما جعله يؤكد على أهمية دراسة التاريخ فى إطار الواقع الاجتماعى والثقافى الذى ظهر فيه، لأن بدون الإستعانة بهذا الواقع يصبح التاريخ وأحداثه عبارة عن أحداث جوفاء لاقيمة لها. وهذا ما جعله ينتقد بعض المؤرخين الذين سبقوه من أمثال " المسعودى" لسرده الأحداث التاريخية دون ربطها بالوائع التى ظهرت فيه فى إطار إهتمامات أبن خلدون بالمنهج التاريخى وإستخدامه فى دراسة الظواهر الاجتماعية، حلل الكثير من كتب المؤرخين التى وجدها مليئة بالأخطاء والأخبار الزائفة وغير الصحيحة. وهذا ما جعله يؤكد على أهمية التحقق من الأخبار وتخليص التاريخ منها، والعمل على جعلها معبرة عن واقع المجتمعات التى ظهرت فيها. كما حدد الاسباب التى تؤدى إلى عدم الصدق من قبل المؤرخين ونقلهم للأخبار، وتشمل هذه الاسباب عدد من النقاط التالية:

(١) الأمور الذاتيه التى تتعلق بشخص المؤرخ وميوله وأهدافه، ولعلاج ذلك يجب أن يتحرر المؤرخ أو الباحث عن الهوى وتشخيص الأحداث ووصفها.

(٢) الجهل بالقوانين التى تخضع لها الظواهر الطبيعية، كظواهر الفلك والكيمياء والطبيعة وعلم الحيوان والنبات، ولعلاج ذلك يجب أن يهتم الباحث بالإلمام بتاريخ هذه العلوم وقوانينها.

(٣) الجهل بالقوانين التى تخضع لها ظواهر المجتمع الإنسانى، ولاسيما أن هذه الظواهر تحكمها قوانين إجتماعية، ولايمكن تفسيرها حسب أهواء المؤرخين أو الباحثين. وهذا ما أكده أبن خلدون على أهمية ربط الاحداث الاجتماعية والتاريخية من خلال الواقع التى ظهرت فيها وهذا ما أشار إليه فى الإعتماد على نقل الأخبار "... ليس مجرد النقل، ولم تحكم ..... طبيعة

العمران الأحوال فى الاجتماع الإنسانى.. فربما لم الفصور، من ومزلة رمز له القدم والجيد عن جارة الصواب "(1).

ومن ثم، يستخدم المنهج التاريخى عند أبـن خلـدون فـى دراسـته للظواهر الاجتماعية، فلقد أستخدم هذا المنهج على مرحلتين أساسيتين وهى:

أولاً: مرحلة الملاحظات الحسية التاريخية للظواهر الاجتماعية.

ثانيا: مرحلة دراسة العمليات الفعلية التى يمر بـها عنـى الظواهـر المـراد دراستها ويتضح لنا من خلال المرحلتين الاساسيتين للمنهج التاريخى عند أبـن خلدون، طبيعة هذا المنهج الذى حدد له مجموعة مـن الخطـوات والقواعـد المنهجية وهى(2)

(1) الشك والتمحيص.

(2) التشخيص المادى الدقيق.

(3) معرفة أسباب الظواهر وطبيعة العمران.

(4) إستخدام القياس والإستدلال بالشواهد التاريخية.

(5) تفسير البيانات وتحليلها.

(6) التقييم أو الوصول الى القوانين، ولكن بصورة دقيقة.

تلك الخطوات الأساسية، التى عكست بـالفعل رؤيـة هـذا المفكـر العربى، الذى سبق علماء العرب بما يقرب من خمسمائة عام وفرضه لقواعـد المنهج العلمى المستخدم فى دراسة الظواهر والأحداث الاجتماعية. ولاسيما أن ابن خلدون قد عزز إستخدام هذا المنهج من خـلال تركـيزه أيضـاً علـى الملاحظة المباشرة والملاحظة بالمشاركة وهى نفس الأدوات المنهجية التـى يستخدمها علماء الاجتماع والانثربولوجيا فى دراستهم للواقع الاجتماعى.

---

(1) عبد الرحمن أبن خلدون، المقدمة أبن خلدون (ط3) تحليـل عبـد الرحمـن وافـى، القاهرة: دار النهضة 1956، ص 262، ص219.

(2) للمزيد من التفاصيل أنظر:

- عبد الله محمد عبد الرحمن، تاريخ التفكير الإجتماعى، الإسكندرية، درا المعرفة الجامعية، 1999.

(٢) فيكو Vico

إهتم هذا المفكر الإيطالى الذى ظهر خلال النصف السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر ليعكس وجهة نظر متطورة عن إستخدام المنهج التاريخى، وهذا ما يعبر عنه صراحة فى كتابه (العلم الحديث)، Science Nouvelle، وإلى إستنباط عدد من النظريات التى تعتمد على الحقائق التاريخية، كما دعى إلى تطبيق منهج العلوم الطبيعية فى دراسة الظواهر الإنسانية. وإن كان إهتم بصورة اساسية، بالمصادر التاريخية ولاسيما الوثائق، بإعتبارها مصدراً هاماً لمعرفة أحوال الشعوب والمجتمعات القديمة، وذلك من أجل فهم طبائع هذه الشعوب ومحاولة تفسير عادتها وتقاليدها. وقد عبر "فيكو" عن إهتمامه بالمنهج التاريخي من خلال نظريته عن التطور للمجتمعات البشرية وهى المرحلة الدينية، والبطولية، ومرحلة الإنسانية.

ولقد حدد "فيكو" عدد من القواعد الاساسية التى يمكن تبنيها بواسطة الباحثين عند إستخدامهم للمنهج التاريخى، وهى بإيجاز:

(١) تحديد الظواهر المراد دراستها، والعمل على تعقبها خلال العصور التاريخية.

(٢) جمع الوثائق المرتبطة بالعادات والتقاليد والاديان والحوادث التاريخية.

(٣) إذا تعزر الإستعانة بالوثائق، عند الرجوع لبعض المجتمعات البدائية، التى لاتزال تعيش مرحلة تاريخية متأخرة للتعرف على طبائع الشعوب القديمة، والإستدلال بما هو معروف عما هو مجهول فى الماضى لتاريخ هذه الشعوب.

(٤) القيام بتحصيل المصادر التاريخية ومنها الوثائق للتأكد من صحتها.

(٥) الإعتماد على دراسة اللغات، كعامل أساسى للمؤرخين، ولاسيما أن "فيكو" وجد من اللغة مصدراً اساسياً للتعرف على طبائع الشعوب وتطور لغاتهم.

(٦) تصنيف الحقائق والتأليف بينها للوصول إلى قوانين تفسير الظواهر والاحداث الاجتماعية.

(٣) أوجست كونت.

جاءت إسهامات "كونت" مؤسس علم الاجتماع من خلال تركيزه على ضرورة إستخدام المنهج العلمي، الذي يوجد لدى علماء العلوم الطبيعية، نظراً لأن هؤلاء العلماء وعلومهم قد تطورت كثيراً، ويجب على علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الاخرى، أن يسلك نفس المسلك المنهجي عند تفسير الظواهر الاجتماعية. ولكن رأى " كونت" أيضاً، أن طبيعة الظواهر الاجتماعية ومعقدة، وتحتاج إلى مناهج أخرى مكملة لدراستها. ولذا، أكد "كونت" على اهمية الإستعانة بالتاريخ، وبالتحديد بالمنهج التاريخي المقارن لدراسة الظواهر الاجتماعية متعددة الاسباب، والتي تتشكل من جملة من العوامل والظروف، التي تجعلها متباينة عن الظواهر الطبيعية الاخرى. كما اكد "كونت" على أهمية إستخدام المنهج التاريخي بهدف الوصول إلى القوانين عامة ولفهم تطور هذه الظواهر وتغيرها بصورة مستمرة. ولاسيما، أن كونت أكد على أن حدوث الظواهر وتطورها حيث تتم في آن واحد كما يتأثر بعضها البعض، ولا يمكن فهم تطور الظواهر الاجتماعية جميعها أو واحدة مفردة، دون أن تكون لدى الباحثين فكرة عامة، عن قوانين التطور أو التقدم التي يمكن الإستعانة بها في تفسير تقدم المجتمعات البشرية.

ولذا، حرص كونت على طرح قانون المراحل الثلاث، الذي إستخدم في تفسيره المنهج التاريخي المقارن، فعن طريقه يمكن فهم تطور كل من المجتمعات الإنسانية والعقل البشرى في نفس الوقت. فلقد مرت المجتمعات من المرحلة الأولى (اللاهوتية) ذات التفكير الغيبي اللاعقلاني، إلى المرحلة الثانية (الميتافيزيقة) والتفكير فيما وراء الطبيعة، ثم إلى مرحلة الوضعية، أو مرحلة التفكير العقلاني التي يعتمد فيها على العلم وأدواته المنهجية المختلفة ولاسيما الملاحظة والتجربة. في نفس الوقت، حرص كونت على توضيح اهمية إستخدام الباحثين للمنهج التاريخي، ولاسيما أن دراسة الاحداث التاريخية، وإعتبارها شواهد علمية لها دلالتها من الناحية المنهجية والتفسيرية أيضاً. كما حدد طبيعة المنهج التاريخي من خلال اهمية تقسيم الظواهر التي يمكن دراستها أو ملاحظتها، وتحديد الفترات والعصور التاريخية تحديداً دقيقاً حتى يمكن الوصول إلى قوانين عامة بشأنها.

وربما تعكس لنا تصورات " ريمـون آرون " [1] R. Aron، أهميـة إستخدام " كونت " للمنهج التاريخي في دراسته لتطور المجتمعـات الغربيـة، وذلك من خلاله تركيزه على مجموعة الاسباب التي أدت إلى ظهور المجتمـع الصناعي الحديث، الذي ظهر بعد فناء مجتمعات العصور الوسطى الاقطاعية، ذلك النوع من المجتمعات الذي كان يتميز بالطابع الديني والعسـكري. أمـا المجتمع الصناعي الحديث، فتم تطوره عن طريق ظهور فئـة مـن العلمـاء والمفكرين بدلاً عن رجال الدين المسـيحي وأصحـاب النظريـات الغيبيـة اللاهوتية. ومن ثم، فلقد إنتقلت القوى الروحية The Spirticl Power، إلـى القوى العلمية The Scientific Power، التي أدت إلى تقدم المجتمع الصناعي وظهور فئة بين الصناعيين ورجال الأعمال والإداريين المهرة، الذين عكسـوا رغبتهم في الإصلاح والتغير والتطور المستمر. وبإيجاز، لقد حرص كونـت على أن يستخدم المنهج التاريخي ليس فقط في تتبع عملية التطور والتقدم الذي حدث في المجتمع الصناعي، بقدر ما حاول أن يفسر هذه العمليـة والمرحلـة التاريخية في إطار مجموعة من العوامل والاسباب التي بدونها يصعب فـهم هذه الاحداث التاريخية.

ثانياً: الإهتمامات الحديثة.

بعد الإشارة الموجزة لتطور الاهتمام بالمنهج التاريخي مـن جـانب مفكري وعلماء الإجتماع الأوائل، والتي طرحت أفكارهم مـن أمثـال أبـن خلدون، وفيكو، وكونت، فلقد أطلقنا على تحليلاتهم بالإهتمامـات الكلاسـيكية لأنها ظهرت ما قبل القرن العشرين. كما طرحنا هذه التحليلات لتكون بمثابـة أمثلة أو نماذج فقط من إستخدامات المنهج التاريخي فـي التفكـير والتحليـل السوسيولوجي بصورة موجزة. وحالياً نركز أيضاً على بعض الأمثلة الحديثة، التي ظهرت خاصة خلال القرن العشرين، ولاسيما التي ظهرت بعد الحـرب العالمية الأولى، لتعكس بصورة موجزة مدى تطور البحوث الإجتماعية وتنوع

---

(١) لمزيد من التحليل أنظر:

Aron, R, Main Current in Sociological Thoughht vol (1), London: Delcon Book, 1961.

مناهجها لدى علماء الإجتماع، وهذا ما سنشير إليه عند "رايت ميلز" R. Mills، و"كارل مانهايم" K. Mannheim. ولكن قبل تحليل إسهام كل منهما يجب أن نوضح حقيقة هامة مؤداها: أن إستخدامات المنهج التاريخي وتطوره جاءت فى تحليلات الكثير من علماء الإجتماع البارزين والمعاصرين أيضاً، ولكن يصعب علينا سرد هذه الإسهامات التى عززت من إستخدام المنهج التاريخي ذاته.

من أهم هؤلاء العلماء إسهامات "ماكس فيبر" M. Weber، و" كارل ماركس" K. Marx، و"سبنسر" Spenser ، و "باريتو" Pareto، و "ميتشيلز" Michels، و"سوركن" Sorokin، و"جولدنر" Gowldner. هذا بالإضافة إلى العديد من الإسهامات السوسيو-أنثربولوجية الحديثة، والسوسيو-سيكولوجي وغيرها التى إستخدمت المنهج التاريخي وأدت إلي تحديثه، وهذا ما تبلور فى إسهامات علماء هذه التخصصات التى عززت من خطوات هذا المنهج، وهذا ما تبلور فى الدراسات السوسيولوجية التاريخيه الثقافية، أو ما يعرف بمدرسة التأويل التاريخي للثقافة، وإعتمادها على المنهج التاريخي مثل تحليلات "كوبير" Koeber، أو ظهور علم الإجتماع التاريخي Historical Sociology، والتاريخ الاجتماعي، والتاريخ الإقتصادى والسياسي، وغير ذلك من إسهامات متعددة إعتمدت على المنهج التاريخي بصورة كبيرة، ويصعب علينا حالياً تحليلها.

(١) كارل مانهايم K. Mannheim.

ظهرت تحليلات "مانهايم" بعد الحرب العلمية الأولى والتى جاءت ، لتعكس رؤيته كعالم إجتماع له العديد من الإسهامات ولاسيما فى مجال سوسيولوجيا المعرفة[1] Sociology of Knowldge، أو تطويره للمدخل الفينومينولوجى Phenomological Approach، الذى يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية. ولكنه إتخذ مدخلاً موضوعياً لتمثيل الإتجاه الأمانى الذى تزعمه "ماكس فيبر"، و"ماركس" وغيرهم آخرون، إلا أن إسهامات "مانهايم" تمثلت فى

---

(١) لمزيد من التفاصيل إرجع إلى:-
- Mannheim, K, Essats on Sociology of Knowldge, London: Routledge, 1952.

تحليله لحصيلة المعرفة الإنسانية والنظريات التى حرصت بصددها، وحاول ان يحلل منهجه العلمي مركزاً على دراسة المعرفة - كحصيلة للفكر الإنساني- وموضوع الدراسة الموضوعية والعلمية. ومن هذا المنطلق، حاول "مانهايم" أن يعقد نوع من الترابط الفكرى بين النظريات السياسية أو الفكر السياسى، والنزعات الفلسفية (الفينومينولوجية) ، وردها إلى وجذورها الإجتماعية، واصولها التاريخية، عن طريق تتبع أساليب المهنج التحليلى التاريخى المقارن الذى برعت فى إستخدامه المدرسة الالمانية السوسيولوجية بدون إستثناء. وما من شك، أن جذور هذه المدرسة تمتد إلى إسهامات فلاسفة التاريخ الالمان من امثال "كانط" Kant "وهيجل" Hegal، على سبيل المثال.

ويمكن فيما يلى، أن نوجز بشدة إسهامات "مانهايم" فى تطور المنهج التاريخى فىعدة نقاط أساسية:

(١) إنتقد مانهايم علم الاجتماع الوصفى، وأكد على أن نقطة الضعف تتبلور فى نوعية المنهج المستخدم فى دراسة الظواهر الاجتماعية، وعدم التميز الواضح بين خصائص الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية، وعدم الإنتباه إلى التباين الفينومينولوجى(المعرفى) بين ما يحدث فى العالم المادى من موضوعات (جامدة) لاحياة فيها، وبين الظواهر (الحية) والقيم الإنسانية، التى يجب أن نهتم بها من خلال التركيز على المنهج التاريخى لدراسة محتوى الثقافة والمعرفة ككل.

(٢) ركز مانهايم على ضرورة نقد المعرفة الانسانية وإعادة تحليلها على أسس ومعايير علم إجتماع المعرفة الحديث، الذى يهدف لربط الفكر بالمعرفة بالظروف الثقافية والتاريخية، وتفسير مسألة الإدراك والفهم الإنسانى فى ضوء (روح العصر)، وما يسود تلك الروح من تيارات فكرية متباينة، وهذا ما أشار إليه فى تحليله للأيديولوجيات المتصارعة وأهمية الإعتماد على المنهج التاريخى فى تحليل مكونات الصراع الطبقى، وما تتضمنه من جذور تاريخية وثقافية ومعرفية لايمكن تفسيرها عن طريق المناهج الوضعية ولكن التاريخية المقارنة

(٣) تصور مانهايم، أن حركة التاريخ هى وحدها مصدر الفكر، وأن إستخدام الحدس التاريخى (المنهج التاريخى)، يعتبر المصدر الوحيد للمعرفة، تلك

المعرفة التى من الصعب فهمها وتفسيرها، إلا عن طريق إستخدام خطـــوات هذا المنهج، الذى يعتمد على الاصول التاريخية والمصادر والوثائق والجـذور التاريخية، التى يمكن أن تساعدنا ليس فقط على فهم المعرفة الماضية ،وحقيقة المعرفة الإنسانية الماضية ولكن ما يثار منها فى الوقت الحاضر.

(٤) حاول مانهايم، أن يبرهن على أن الفرد القارئ، يمكـــن أن يتعـرف علـــى مكونات المعرفة الإنسانية، عن طريق فهم كل المواقف التاريخية، التى يعاصرهـــا ولا سيما أن هذه المواقف تمثل روح العصر وسماته ومعايره الفكرية.

(٥) وحاول أن يبرهن على كيفية إستخدام ما يسمى بفلسفة المواقف التاريخيــة ونسبية الثقافة والمعرفة على مر العصور، وهذا ما تبلور فى إستخدامه للإتجاه الوظيفى فى تفسير الظواهر والاحداث التاريخية والاجتماعية، من أجل إعــادة بناء "الحقيقة الاجتماعية" . وذلك عن طريـــق إسـتخدام المنـــهج والتفسـير التاريخى، الذى يضفى على الوقائع والحقائق والأحداث معناها، لأن التـــاريخ هو الذى يصنع مقولات الفكر، ويخلق الافكار التى نشاهداها مرتبطة بـــروح الزمان التاريخى والاجتماعى

(٢) رايت ميلز R. Mills.

يمثل ميلز فترة تاريخية جديـــدة، حيـــث ظـــهرت تصوراتـــه عـــن إستخدامات المنهج التاريخى فـــى كتابـــه المميز بالخيـــال السوســـيولوجى Sociological Inagination،[1] ونجد فيه أن آرائه فى مرحلـــة الخمســـينات والستينات من القرن الماضى (العشرين)، والتى شهدت نوعـــا مـــن التطـــور المنهجى والتنظيرى فى علم الاجتماع، بعد ظهور العديد مـــن التخصصـــات الفرعية المتعددة لهذا العلم. وحاول ميلز أن يشير صراحة بضـــرورة تبنـــى المنهج التاريخى والإعتماد على التاريخ بصورة كبيرة، ولاسيما، أن إســـتخدام ذلك يساعد على تطور الروئ التحليلية السوسيولوجية، أو ما أسماه بالخيـــال السوسيولوجى للباحث، والتى تؤسس قدرته الفكرية ونظرته الواقعية الشـــاملة للإنسان والمجتمع والظواهر البيئية والظروف الخارجية، التى تحدد العلاقـــة

---

(١) لمزيد من التحليلات إرجع إلى:

- Mills, R, The Sociological Imagination: N.Y. 1966.

بين الشخصية الفردية والبناء الإجتماعى ككل. كما أكد ميلز، على أهمية الخيال السوسيولوجي واعتبره ضرورة ملحة لفهم المجتمع الحديث المتغير بسرعة، وهو بمثابة إدارة بحثية ومنهجية تعين الباحث على توسيع إدراكه للواقع الخارجي ومهمة المجتمع العالمي ككل، وليس بإعتباره عضواً فقط يعيش فيه بنوع من اللامبالاة والسلبية الفردية.

وحاول ميلز أن يطور تصوراته عن الخيال السوسيولوجي في دراسة الظواهر الاجتماعية، بإعتبار ذلك نوع من الرؤى المنهجية التاريخية، ولاسيما أن المنهج التاريخى يساعد على عدم عزل هذه الظواهر عند تحليلها، بقدر ما يجب أن يهتم الباحثين بالإطار التاريخى والاجتماعى والثقافى المحلى والعالمى الذى يحيط بهذه الظواهر. وهذا ما جعله يطرح تساؤلات رئيسية، يجب ان يهتم بها الباحث أو العالم الاجتماعى عند إستخدامه للخيال السوسيولوجى، وهى بإيجاز:

(١) رصد بناء المجتمع بصورة عامة، وماهى مكوناته الأساسية، وما هى الروابط أو الصلات بينها، وخاصة أوجه الإختلاف بين البناءات الاجتماعية، وما اسباب تغيرها ؟.

(٢) ما هو موقع المجتمع على خط التاريخ الإنسانى ؟، وما هو دوره فى تطور الإنسانية كلها، وما تأثيره على الحقبة التاريخية التى عاصرها؟ ، وما هى خصائص هذه الحقبة التاريخية، وإلى أى حد تختلف عن بقية حقبات التاريخ؟.

(٣) ما طبيعة التباين بين أنواع كل من الرجال والنساء وأدوارهم فى مجتمعاتهم خلال الفترة التاريخية التى عاشوها بالفعل؟ وما هى الطبيعة الإنسانية التى سوف يظهر عليها التمايز النوعى للجنس البشرى، وملامح الشخصية الفردية، والسلوك الاجتماعى الذى يمكن ملاحظته فى هذا المجتمع الحديث والحقبة التاريخية اللاحقة؟.

وهكذا، تعكس لنا التساؤلات السابقة التى يجب أن يستخدمها الباحث لدراسة الظواهر والاحداث الاجتماعية عن طريق ما أسماه ميلز بالخيال السوسيولوجى وتساؤلاته، الذى يعتمد على التاريخ أو المنهج التاريخى كأداة لطرح التساؤلات أو الفروض البحثية وكيفية الإجابة عليها وتفسيرها بصورة

واقعية، عند دراسة مشكلات المجتمع الحديث، وهذا ما جعله يؤكد على مهمة العلوم الاجتماعية وطبيعة الظواهر، التى تقوم بدراستها حيث أنها تعالج مشكلات تاريخ الحياة، والتاريخ، والإرتباط المتداخل بين البناءات والنظم الاجتماعية، أو مايمكن تسميته بتاريخ المجتمعات أو الحقب التاريخية. علاوة على ذلك، حرص ميلز، على إبراز مشكلة البحث السوسيولوجية والاجتماعية عامة، والتى تتبلور فى مشكلة الإنسان الحقيقية، ومدى فهمه للأحداث الجارية من خلال تتبعه لإسهامات مجتمعه ومكانته، ووضعه بين المجتمعات والبناءات المجتمعية، وهذا لايمكن تحقيقه، إلا من خلال الإعتماد على التاريخ، والذى إعتبره ميلز "جوهر الدراسات الاجتماعية". فى نفس الوقت، حرص على ضرورة أن يستخدم الباحث السوسيولوجى، مدخلاً متميزاً للإستفادة من المناهج السيكولوجية، عن فهم الشخصية الفردية، والمنهج التاريخى عند دراسته للمشكلات الاجتماعية، وهذا ما جعله يطرح تسمية جديدة لعلم الاجتماع وهى "علم الاجتماع التاريخى".

و بإيجاز، لقد حرص ميلز على أن يطرح العلاقة بين التاريخ وعلم الاجتماع، من خلال إستخدام المنهج التاريخى، وأداة التحليل السويولوجى، موضحاً أسباب تداخل هذه العلاقة، فى النقاط التالية:

(١) من الضرورى أن يكون للباحث الاجتماعى وعلماء الاجتماع خاصة، معرفة منظمة بتاريخ المجتمعات عامة وتطورها، ونوعية بناءاتها ونظمها، ومشكلات الإنسان منها، دون أن يحصر الباحث ذاته فى مجتمع معين بالذات، وبعيداً عن معرفة التمايز والتباين بين نماذج البشر ونظمها الاجتماعية، وهذا لايتم إلا عن طريق إستخدام المنهج التحليلى التاريخى المقارن.

(٢) تتميز الدراسات الاجتماعية التى تخلو من مضمونها التاريخى بالسطحية، وبعدها عن فهم أنماط التفاعل بين البناءات الاجتماعية الصغرى والكبرى، وتوصيلها إلى أفكار جامدة، لأنها لم تعتمد على الرؤى التاريخية أو فهم هذه البناءات فى سياقها التاريخى، حيث لايمكن فهم أى مجتمع دون معرفة الحقبة التاريخية التى ظهر فيها.

(٣) إن إستخدام المدخل التاريخي المقارن من شأنه أن يعزز نتائج بحوث علماء الاجتماع، والإقتصاد والسياسية وغيرهم الذين يبحثون مشكلات المجتمع الصناعي المتقدم، ومقارنته بما هو موجود في مجتمعات نامية أو مختلفة موجودة بالفعل، أو مجتمعات ظهرت في حقبات تاريخية مثل تتبع الرأسمالية في المجتمعات الغربية.

٣-٣ المسلمات العامة للمنهج التاريخي

أوضحت التحليلات الموجزة لتطور الإهتمام بالمنهج التاريخي في البحوث الاجتماعية (السوسيولوجية) عن مدى إهتمام علماء ومفكري علم الاجتماع بهذا المنهج، وهذا ما ظهر في تصورات بعض هؤلاء العلماء والذين طرحوا تصوراتهم (كنماذج فقط) للاهتمامات السوسيولوجية التي تهتم الأساسية بالمنهج التاريخي، وخاصة تلك الإهتمامات أو المعالجات التي تركت بصماتها واضحة المعالم على تحديث هذا المنهج، وتطور إستخداماته في دراسة المشكلات والظواهر الاجتماعية. كما كشفت هذه التحليلات من ناحية أخرى، عن كيفية تطور البحوث الاجتماعية منذ أن طرح أبن خلدون تصوراته العامة (أهمية إستخدام) التاريخ والمنهج التاريخي عند دراسة الظواهر الاجتماعية، وأيضاً عندما تبنى " كونت " وغيره من رواد علم الاجتماع المنهج التارخيي. بالإضافة إلى المناهج العلمية الأخرى عند دراساتهم السوسيولوجية. إلا أن بلورة المنهج التاريخي -كمنهج علمي- إستخدم بالفعل خلال القرن العشرين. ولاسيما بعد أن تنوعت المشكلات والظواهر الاجتماعية وتعددت التصورات النظرية الموجه للبحوث الاجتماعية ومناهجها ومنها بالطبع المنهج التاريخي، الذي يعتبر من أهم المناهج العلمية المستخدمة في الدراسات السوسيولوجية النظرية والإمبريقية (الميدانية).

ويتعين علينا قبل الإشارة إلى خطوات المنهج التاريخي ومصادره الاساسية، ان نوضح عدد من المسلمات أو المبادئ العامة، التي يجب أن يستخدمها الباحث الاجتماعي، أو يقوم عليها البحث والمنهج التاريخي بصورة اساسية، وهذه المسلمات كما يلي:

(١) ضرورة النظرة إلى الأحداث والحقائق التاريخية على أنها جزء من نمط الثقافة والمعرفة والحياة الاجتماعية العامة، والتي لايمكن فهمها إلا من خلال هذا السياق ورجوعها إلى أهدافها التاريخية وجزورها الاجتماعية. وهذا ما أكد عليه علماء مناهج البحث الاجتماعي، الذين تبنوا المنهج التاريخي،

ولاسيما التركيز على فهم الاحداث والظواهر الاجتماعية، فى إطـــار سـياق روح العصر، ومعرفة الروابط المتداخلـة بيـن هـذه الاحـداث والبنـاءات الاجتماعية التى ظهرت فيها.

(٢) العمل على فهم تاريخ البشرية والإنسانية، فى إطار تصورنا لهذا التـاريخ الذى يعتبر سلسلة متصلة الحلقات، خاصة أن تاريخ البشـرية يمثـل حقبـة تاريخية، لايمكن تجزئتها إلا بغرض الدراسة والتحليل. كما تسهم عملية فـهم تاريخ البشرية فى دراسة الواقع والحاضر، وايضاً بما سوف يحدث مسـتقبلاً، وهذا ما يعكس ضرورة الإستعانة بالمنهج التاريخى فى التنبؤ بالمستقبل.

(٣) إن من أهم خطوات المنهج التاريخى أو الإستفادة من دراسـة التـاريخ، دراسة أحداث الماضى، لفهم الحاضر، والتنبؤ بالمستقبل، وذلك عـن طريـق إستخدام إحدى أدوات المنهج التاريخى، ألا وهى الملاحظة التأملية للأحـداث التاريخية التى وقعت فى الماضى، والتى تساعدنا للوصول للمعرفة الحقيقيـة والتفسير الواقعى للتاريخ الحديث.

(٤) ضرورة فهم التاريخ ليس بمعناه الضيق أو البسيط المجرد، الـذى يقـوم على سرد الحقائق أو الوقائع أو الأحداث التاريخية، مثل الغزوات أو الحـروب أو الأبطال والمشاهير وسيرتهم الذاتيه الشخصية فقط، بل ضرورة إسـتخدام المنهج التاريخى التحليلى المقارن، الذى يفهم التاريخ بمعناه الواسع والشـامل، والذى يؤكد دراسة الحضارة البشرية[1]، وكيفية صنعها وتطورهـا وأسـباب حدوثها أو إنهيارها فى نفس الوقت.

(٥) يجب على الباحث الاجتماعى أن يعـرف جيـداً أن إسـتخدام التفسـير التاريخى، يمثل أهم مسـلمات المنـهج التـاريخى عنـد دراسـة الظواهـر الاجتماعية. فعن طريق هذا التفسير، يستطيع البـاحث ان يـدرك الظواهـر ويحللها بصورة واقعية ويستند إلى الشواهد التاريخية وتكرراها بصورة نسبية، وفى فهم الواقع أو المجتمع الذى يعيش فيه فدراسة تاريخ الشـعوب وتـاريخ الثورات وتفسيرها تساعد على فهم طبيعة هذه الشـعوب، واسـباب حـدوث الثورات، والحركات الاجتماعية النعددة التى توجد فى مجتمعنا المعاصر.

---

(١) محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٢٠١–٢٠٨.

(٦) ضرورة أن يدرك الباحث عند إستخدامه للمنهج التاريخى أو المادة التاريخية، أنها أكثر تعقيداً أو تركيباً من المادة الطبيعية، التى تستخدم فى العلوم الطبيعية . ومن ثم، يجب أن نفهم المادة التاريخية فى ضوء مجموعة العوامل والاسباب التى تشكلها وعدم الإعتماد على عامل البعد الواحد، وهذا بالفعل ما تؤيده اسباب حدوث الظواهر الاجتماعية والاحداث التاريخية الماضية.

(٧) يجب على الباحث والمؤرخ أو العالم الاجتماعى عموماً، أن يتحرى للدقة والموضوعية، والامانة العلمية، وأن يستبعد العواطف والاهواء الشخصية، التى قد تقصف بنتائج بحوثه ودراسته، وتعتبر نوعاً من التزيف العلمى والتاريخى. وهذا ما جعل أبن خلدون منذ البداية، يؤكد على اهمية ضرورة الفحص والتمحيص فى نتائج الأبحاث التاريخية السابقة، ومحاولة التحقق منها باكثر من مصدر من مصادر جمع البيانات التاريخية، مثل الوثائق على سبيل المثال.

٤- خطوات المنهج التاريخى.

طرحت المسلمات والمبادئ العامة للبحث والمنهج التاريخى، عدد من القواعد التى يجب إتباعها بواسطة الباحثين الذين يستخدمون هذا المنهج فى دراسة الظواهر والاحداث التاريخية والاجتماعية. ولاسيما، أن هذا المنهج التاريخى يعتمد عليه بصورة كبيرة فى دراسة هذه الظواهر، التى تتلائم من حيث طبيعتها ومضمونها مع مقومات هذا المنهج بصورة عامة. ويمكن حالياً، أن نطرح عدد من الخطوات الاجرائية التى يجب أيضاً أن يتبعها الباحثين عند إستخدامهم للمنهج التاريخى، تلك الخطوات التى تتطابق تماماً مع خطوات المنهج العلمى، الذى يستخدم فى دراسة الظواهر الطبيعية وخاصة، أن قواعد المنهج العلمى، لا تختلف من حيث التطبيق أو القواعد بالنسبة لدراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية فى نفس الوقت، ولكن الإختلاف يرجع حسب طبيعة بعض الاساليب الإجرائية والفنية الخاصة التى يستخدمها كل باحث، وتختلف حسب نوعية الموضوع أو الظاهرة المراد دراستها، وايضاً حسب طبيعة العلم أو التخصص العلمى الذى يدور فى إطاره الظاهرة العلمية أو الطبيعية قيد البحث والدراسة. وعموماً، يمكن الإشارة إلى أهم خطوات المنهج التاريخى وذلك بصورة موجزة كما يلى:

(١) تحديد المفهومات الاساسية للبحث وقضاياه وإطاره التصورى:

تعتبر هذه الخطوة أولى مراحل البحث العلمي التاريخى، التى يجب ان يحددها الباحث الذى يستخدم هذا المنهج أو منهج علمى أخر. ولاسيما، أن عملية تحديد المفاهيم تعد من الخطوات الاولية أو الاجرائية المنهجية، التى من شأنها تعزيز عملية جمع البيانات ووضوح مفرداتها ومفاهيم البحث العلمى النظرى والميدانى. كما تساعد هذه الخطواة على تصنيف البيانات، التى تم حصرها وتبويبها بصورة يسهل إستخدامها سواء من الباحث، أو من قبل الباحثين فى الدراسات التاريخية اللاحقة[1]. فى نفس الوقت، تعكس هذه الخطواة، طبيعة وجود لغة علمية متخصصة، متعارف عليها من قبل المتخصصين فى مجالات البحوث العلمية والاجتماعية. ولاسيما، أن هذه البحوث تستند للغة واضحة ودقيقة، وتم كتابتها وتجميعها بصورة منظمة، وتم تحديد قضاياها وإطارها التصورى النظرى الذى يوجه البحث عموما لمجموعة من الاهداف التى يسعى لتخصيصها بصورة عامة.

(٢) تحديد وحدة التحليل التاريخى:

يقصد بهذه الخطوة أن الباحث بعد تحديد المفاهيم والإطار النظرى أو النظرية الموجه للبحث من الناحية النظرية أو الميدانية، يجب أن يحدد بوضوح طبيعة المرخلة الزمنية أو الفترة التى يهتم بها البحث عموما. وهذا ما اشار إليه الكثير من علماء الاجتماع الذين أهتموا بتطوير المنهج التاريخى وفهمه على سبيل ريت ميلز، عندما اكد على ضرورة تحديد الحقبة أو المرحلة الزمنية والتاريخية، التى يجب أن يعرفها الباحث عند دراسة الظواهر والاحداث التى يهتم بمعالجتها. كما قد تكون البناءات أو النظم الاجتماعية أو ظاهرة معينة بالتحديد.

٣- تحديد مصادر جمع البيانات:

لكل بحث من البحوث العلمية طبيعة معينة ومحددة تستلزم من الباحث، أن يقوم بتحديد المصادر، التى يجب أن يستخدمها فى الحصول على المعلومات أو البيانات سواء أكانت نظرية أم ميدانية (واقعية). وفى البحوث التاريخية الاجتماعية، تم إتفاق العلماء على مجموعة من المصادر، فبعضها

---

(١) غريب سيد أحمد، تصميم البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ص١١٠-١١١.

مصادر أولية، والبعض الاخر مصادر ثانوية. أو كما يعرفها البعض من العلماء بالمصادر غير الميدانية مثل الإحصاءات، والسجلات والوثائق الرسمية وتحليلات المؤرخين، أو مصادر ميدانية مثل البيانات التي تم الحصول عليها من كبار السن عن طريق الباحثين والمقابلات التي يتم إجراؤها، والمعلومات التي يتم جمعها من الافراد العاديين سواء من المبحوثين أو الذين عاصروا مشكلة الدراسة (ونظراً لأهمية مصادر جمع البيانات سوف نعالجها لاحقا بصورة أكثر تحليلاً).

(٤) تحديد أدوات ووسائل جمع البيانات:

المنهج التاريخي من المناهج العلمية التي يستخدمها الباحث الاجتماعي، في الحصول على بيانات متوفرة حول الظاهرة المراد دراستها وتحليلها، وتعتبر خطوة تحديد أدوات البحث من الخطوات التي يجب أن تأخذ في الإعتبار خلال مرحلة إعداد الخطة الاولية لإجراء البحث النظري والميداني، حول الظاهرة أو المشكلة أو القضية التي تم إخضاعها للدراسة والتحليل. وقد تكون طبيعة الظاهرة، مشكلة أو ظاهرة فردية أو جمعية، مثل دراسة الحالة حول شخصية معينة أو مجموعة من الجماعات أو المجتمعات المحلية، أو ظاهرة إجتماعية معينة مثل البطالة، أو الفقر، أو الجريمة، أو غيرها. ويستلزم طبيعة دراسة هذه الظواهر، أدوات ووسائل جمع البيانات، قد تكون الإحصاءات، أو السجلات، أو تحليل المضمون أو المحتوى، والوثائق التاريخية أو غيرها. وكلما تعددت أدوات جمع البيانات وتنوعت المصادر التي يتم جمع البيانات من خلالها كلما ساهم ذلك في الحصول على المعلومات اللازمة، التي تسهم في تفسير وتحليل الظاهرة أو المشكلة قيد البحث والتحليل. وهذا ما يسمى عموماً، بمرونة تعدد الأساليب والأدوات اللازمة لجمع البيانات. وبالإضافة إلى الدراسات السابقة، يمكن أيضاً إستخدام المقابلة مع كبار السن أو غيرهم من المبحوثين من مفردات عينة الدراسة التي يتم تحديدها بصورة أساسية.

(٥) التحقق من البيانات التاريخية التي تم جمعها:

تعد هذه الخطوة من أهم الخطوات المنهجية، التي يجب الإهتمام بها من قبل الباحث، ولاسيما أن طبيعة البيانات التي يتم الحصول عليها لدراسة

الظواهر الاجتماعية، عن طريق المنهج التاريخى، تستلزم الدقة نظرا لطبيعة الظاهرة ذاتها، ومحدودية المصادر، وادوات حمع البيانات، ولاسيما فى الظواهر التى تندر حولها البيانات والمعلومات اللازمة، أو التى قد ترتبط بمشاكل أيديولوجية أو طائفية أو عنصرية من السهولة تزويدها أو تحريفها لصالح فئة معينة أو رأى أو جماعات المصلحة أو المستفيدين من الخطأ المقصود والمتعمد. وربما تكون مصادر جمع البيانات أولية أو ثانوية، كالإحصاءات والقوانين، والسجلات والوثائق، والكتب والبحوث العلمية والخرائط أو غيرها من مصادر أخرى، يجب على الباحث أن يتحقق بصورة مستمرة لتفسير وتحليل البيانات بأكثر من وسيلة للتأكد من صحة البيانات التى تم التوصل إليها، وذلك بصورة موضوعية، حتى يتوصل فى النهاية إلى تحقيق أهداف البحث ككل.

(٦) الوصول للنتائج العامة وكتابة تقرير البحث:

إن من أهداف أى بحث علمى الوصول إلى عدد من النتائج العامة أو القوانين المرتبطة بموضوع الظاهرة أو المشكلة أو القضية التى طرحها للمعالجة والدراسة والتحليل النظرى والميدانى. وخلال إستخدام المنهج التاريخى، يجب على الباحث أن يقوم بتنسيق الحقائق التى توصل إليها، وأن يربط بينها بصورة متكاملة، ولاسيما بعد قيامه بتحليلها وتفسيرها بصورة علمية وواقعية في إطارها التاريخي أو الاجتماعى أو الثقافى والحضارى. تلك البيانات والحقائق التى تم التحقق منها يمكن صياغتها في مجموعة من النتائج الجزئية والنوعية، التى يتم التنسيق فيما بينها. وتصنيفها بصورة تسمح بأن يطلق عليها بالنتائج العامة أو مجموعة الإستخلاصات العلمية المرتبطة بالظاهرة أو المشكلة التى خضعت للدراسة والتحليل والتفسير. فى نفس الوقت، عند كتابة التقرير النهائى للبحث، أن يقوم الباحث بالتأكد من مجموعة التساؤلات والفروض التى تم طرحها مسبقاً في إطار القضايا النظرية أو ما يعرف بالإطار التصورى للبحث، حتى يتمكن من الإجابة على كافة التساؤلات أو ما يعرف بإشكالية البحث التى قام عليها منذ البداية. وأخيراً، يجب أن تكون عملية كتابة التقرير واضحة، ومنسقة بصورة منطقية، وأن تطرح فى إطار عدد من التوصيات التى يمكن الإستعانة بها فى مجال الدراسة أو الظاهرة

ذاتها، أو الإستفادة منها في إجراء البحوث المستقبلية، والتنبؤ بحل مشـــكلات ذات الصلة بموضوع البحث أو الظاهرة الاجتماعية التي تم معالجتها بصـــورة علمية.

٥- مصادر المنهج التاريخي.

في إطار توضيحنا لخطوات المنهج التاريخي، أشـــرنا إلـــى خطـــوة مصادر جمع البيانات، وإعتبار هذه الخطوة من أهم خطوات هذا المنهج، نظرا لإعتماده بصورة أكثر على طبيعة ودقة المصادر التي يحصـــل فيـــها علـــى البيانات. ولاسيما أن كثير من هذه المصادر قد تكون نادرة أو صعبة الوصول إليها، أو من الجائز تزيفها أو تعمد الخطأ من وراء تحليلها، وغير ذلك مـــن إحتمالات كثيرة قد تؤدى بنتائج البحث والمنهج التاريخي المستخدم في دراســة الظاهرة أو المشكلة المدروسة إلى نتائج غير واقعية أو موضوعية بصــــورة كاملة. وعلى أية حال، أن مصادر المنهج التاريخي متنوعة ومتعددة، ويجمـــع علماء مناهج البحث الاجتماعي، أو يكاد يتفقوا على وجود ثلاثة أنواع أساسـيه لمصادر البيانات التاريخية وهي كما يلي:

أولاً: المصادر الأولية، ثانياً: المصادر الثانوية، ثالثاً: المصادر الميدانية.

ونظراً لأهمية وتنوع كل من المصدريين إلى مصادر أخرى فرعية نشير إلى أهم كل منها بصورة موجزة في إطار توضيحنا لطبيعة المنهج التاريخي و أهم خطواته ومصادره المختلفة:

أولاً: المصادر الأولية:

يقصد بهذا النوع من المصادر، التي تحتوى على معلومـــات أصليـــة وأولية عن الظاهرة أو الأحداث أو المشكلة أو وحدة التحليل التاريخي المـــراد دراستها وتحليلها. ويندرج تحت هذا النوع من المصادر نوعان أساسيان مـــن المصادر وهما (١) الآثار (٢) الوثائق، كما يحتوى هذان النوعان فئات فرعية أخرى، يمكن الإشارة إلى كل منهما كما يلي:

(١) الآثار.

وهي البقايا المادية التي تتمثل في بقايا الحضارات أو أحداث الماضي التي يستطيع أن يفحصها الباحث بدقة وبسهولة بقدر الإمكان، وذلك من أجـــل

الحصول على المعلومات المرتبطة بالحضارات والمجتمعات والشعوب والثقافات والأنشطة الإقتصادية والاجتماعية التي ظهرت خلال مرحلة معينة من مراحل التاريخ. مثال على ذلك، يستطيع الباحث أن يتعرف على النشاط الاقتصادى أو النشاط الرياضي أو العسكرى، لأحدى الأسر الفرعونية التي حكمت مصر في مرحلة ما قبل التاريخ الميلاد. ويمكن الحصول على ذلك من خلال ما كتب على الجدران من نقوش ورموز اللغة الهيروغريفية (الفرعونية القديمة)، والتي توجد في المعابد أو الأهرامات أو المتاحف وما تشملها من تماثيل ونقوش متعددة.

في نفس الوقت، يستطيع الباحث أن يتعرف على طبيعة المباني والمساكن والملابس وبقايا الأثاث الأسلحة والأدوات المنزلية[1] وجملة البقايا المادية مثل النقود، والمعادن وغيرها من الأشياء الأخرى التي تتمثل في الآثار المادية، التي قد يتم الحصول عليها بواسطة علماء الآثار والحفريات مثل هياكل الحيوانات من الديناصورات، وغير ذلك من بقايا قد تم الحصول عليها حديثاً، ولكن توجد مثيلتها على جدران الآثار المادية. كما تشكل إكتشافات علماء الأنثربولوجيا من بقايا للإنسان والحيوان في العصور القديمة مصدراً أساسياً لتطوير البحث التاريخي عن طريق الإكتشافات التي يتم العصور عليها بصورة مستمرة، ولاسيما بعد تطور أساليب جمع البيانات وخاصة من المجتمعات البدائية والمراحل التاريخية القديمة.

(٢) الوثائق.

ويقصد بها السجلات التي تم تدوين المعلومات والحقائق والأحداث الهامة التي حدثت في الماضي أو الحاضر، وقد تكون مكتوبة أو مصورة أو منقولة شفهيا، ويندرج تحت الوثائق كمصدر من المصادر الاولية للبحث التاريخي، عدد من الاشكال المتعددة، والتي يمكن إيجازها كما يلي:

١- السجلات الشفهية. وهي الكلمات المنقولة، والتي لم يتم تدوينها مثل الامثال والأساطير التراثية المنقولة من جيل لأخر، ويشمل ذلك الفلكور الشعبي، والسير الذاتية للأبطال، والخرفات، وعبارات الكهنة والرقصات

---

(١) أنظر على سبيل المثال: عمر الشيباني، مرجع سابق، ص ص٩٦-٩٧.

والإحتفالات، ويكون مصدرا الناس وناقلهم لهذا المصدر بمرور الزمن والأجيال.

٢- السجلات المكتوبة. ويشمل هذا النوع عدة أنماط فرعية وهى بإيجاز:

(أ) السجلات الرسمية: مثل الوثائق التشريعية والقضائية والتنفيذية التى تم صدورها بواسطة المؤسسات الحكومية مثل الدساتير والقوانين واللوائح، والعهود والمواثيق وإتفاقيات المعاهدات، والتقارير السنوية، والميزانيات العامة وغير ذلك من سجلات ذات طابع رسمى[١].

(ب) سجلات المؤسسات الأهلية والدولية، ويشمل ذلك قوانين ودساتير وتقارير وبرامج وميزانيات هذه المؤسسات، ونوعية الإحصاءات والمنشورات والمذكرات التى قامت بنشرها فى الماضى.

(جـ) السجلات الشخصية، ويقصد بها المفكرات والمذكرات الخاصة لبعض الأفراد الذين كانوا يحرصوا على كتابة أفكارهم وخواطرهم، وذكرياتهم اليومية، والرسائل والخطابات الخاصة، والوصايا، والعقود، وأصول الخطب، والمقالات، والكتب وغيرها.

(ء) المخطوطات، مثل هذا النوع من المخطوطات، التى وجدت على أوراق البردى فى الحضارات الفرعونية، أو التى كتبت على جلود الحيوانات، والاحجار وعن طريقها يمكن الحصول على معلومات هامة مرتبطة بالبحث التاريخى.

(هـ) الخرائط القديمة والمراجع والكتب الاساسية، ويشمل هذا النوع من الخرائط القديمة المرتبطة، بالطرق أو أماكن المدن، أو المعالم الاثرية القديمة أو مواقع الحروب أو حدود البلاد والدول. كما يشمل الكتب والمراجع الأساسية التى تعتبر قيمة تاريخية واثرية نادرة، والتى كانت فى يومها من أهم المعالم التى أصبحت بعد ذلك نوعاً من التراث العلمى والاثرى الوثائقى.

٣- السجلات المصورة: ويتضمن هذا النوع مجموعة الصور والنقوش والرسومات والنماذج، والتماثيل، والافلام المتحركة والشرائح المصورة

---

(١) أنظر على سبيل المثال:

Mann, P, Methods of Sociological Enqniry, London: Bas: Blackwell, 1976, chcp. (4).

والطوابع البريدية، والنقود وما إلى ذلك من سجلات يمكن الرجوع إليها.

٤- السجلات الصوتية: ومن ادلة هذا المصدر ما تم تسجيله من الأحاديث، والمحاضرات، والخطب السياسية، والمقابلات والمناقشات، التى يتم تدوينها على إسطوانات مثل " تسجيلات صوتية يتم إستخدامها فى تحضير البيانات والمعلومات المرتبطة بالدراسة".

ثانياً: المصادر الثانوية.

ويعتمد هذا النوع من المصادر على المصادر الاولية، حيث قد يتم نقلها أو الإعتماد عليها من المصادر الأخيرة، وقد تكون قد تعدد إستخدامها أو نقلها أكثر من مرة. ويشمل هذا النوع من المصادر كل ماكتب أو نقل بصورة غير شخصية من كتب وملخصات، نشرت مسبقاً فى الكتب أو الدوريات أو الصحف وغيرها من مصادر أخرى تعتبر مهمة جداً للحصول على البيانات أو المادة العلمية المرتبطة بالظاهرة أو المشكلة التى تخضع للدراسة والتحليل. ونظراً لأهمية هذا النوع من المصادر، يبدأ الباحث أولاً بإستخدامها ثم ينتقل بعد ذلك لإستخدام المصادر الأولية. وهذا ما يرتبط عند الإهتمام بدراسة عملية التطور التاريخي لمؤسسة[١] معينة فيبدأ الباحث بقراءة ما كتب عنها فى المصادر الثانوية، ولكن يجد نفسه مضطراً للرجوع للمصادر الأولية التى ترتبط بذات المؤسسة مثل اللوائح والقوانين والسجلات والتقارير بدراستها وتحليلها.

ثالثاً: المصادر الميدانية.

ويقصد بهذا المصدر من مصادر جمع البيانات للمنهج أو البحث التاريخى، أن كثير من البيانات والمعلومات، قد يتوافر لدى الباحث الحصول عليها سواء عن طريق المصادر الاولية مثل الوثائق، أو المصادر الثانوية الأخرى، ولكن يمكن الرجوع إلى بعض الافراد مثل كبار السن، أو الرحالة، أو من قاموا بإجراء أو مشاهدة أحداث حول الظاهرة المدروسة. وهذا المصدر قد إعتمد عليه العلامة ابن خلدون، الذى إعتمد على الترحال والسفر وجمع

---

(١) أنظر لمزيد من التحليل:

-إبراهيم أبولغد، ولويس مليكه، البحث الاجتماعى: مناهجه وأدواته، ص ص ٣٣-٣٤.

بيانات متعددة من المصادر الاولية والثانوية، ولكن كان يعتمد على طرح أسئلة وعقد مناقشات مع كبار السن والرحاله أو الأفراد، الذين يتم مقابلتهم خلال زيارته الميدانية وهذا المصدر يعتمد عليه حالياً علماء الأنثربولوجيا والرواه والمؤرخين وعلماء الاجتماع، عند سعيهم لدراسة مشكلة أو ظاهرة أومجتمع أو فئة معينة من الأفراد، ويتم ذلك عن طريق الإتصال بمن كان ولايزال له صلة مباشرة، أو غير مباشرة بموضوع البحث او الدراسة. وبالطبع يتم ذلك بصورة ميدانية واقعية يقوم بها الباحث ذاته أو من يعاونه فى إجراء البحث.

- **تحليل المصادر ونقدها:**

وعموماً، إن طبيعة البحث أو المنهج التاريخى يعتمد على مصادر متعددة سواء أكانت اولية أم ثانوية أم ميدانية، وهذا ما يجعل هذا المنهج متعدد المصارد والسعى للحصول على البيانات والمعلومات التى من الصعوبة الحصول عليها بواسطة الملاحظة الدقيقة أو التجريب المعملى. ولكن توجد بعد ذلك خطوة إجرائية ومنهجية حتمية، يجب ان يتبعها الباحث الذى يلجئ إلى إستخدام المنهج التاريخى، وهى إختيار المصادر التاريخية والمعلومات التى تم الحصول عليها[1]. ولاسيما، أن كثير من المصادر التاريخية قد تكون غير دقيقة أو أصلية أو غير كاملة أو ناقصة بصورة مقصودة أو غير مقصودة. لذا، يجب على الباحث قبل إستخدام البيانات والمعلومات أن يقوم بإختيار أو تحليل المصادر التاريخية. وفى الواقع يوجد نوعين اساسين من هذا النوع من التحليلات هما:

أولاً: التحليل الخارجى. وثانياً: التحليل الداخلى.

ويمكن الإشارة بصورة موجزة لهذين النوعين من التحليلات للمصادر التاريخية نظراً لأهميتهما فى الدراسة و إستخدام المنهج التاريخى:

---

(١) للمزيد من التفاصيل إرجع إلى:

- Mann, P, op.cit, cchap. (4)

(١) التحليل الخارجي .External Analysis

يتكون هذا التحليل من مرحلتين هما:

١- نقد المصادر أو الوثائق التاريخية: ويقصد بها التأكد من صدق ما تنطوى عليه من معلومات، ولاسيما أن هناك أسباب كثيرة لظهور أو حدوث الخطأ في الوثائق أو المصادر التاريخية فقد تكون هذه الوثائق مكتوبة بطريقة يصعب تفسيرها وتحليلها، فيجب على الباحث أن يتحرى الدقة في تحليلها ومعرفة مابها. كما تكون بعض الوثائق منسوخة من أصول لها ومحفوظة في أماكن أخرى، فلابد من عقد نوع من المقارنة بين الاصل والصورة لأسباب سياسية، ودينية، أو أيديولوجية معينة. كما قد تحرف أو تزور الوثائق وينسب إلى أفراد أو جماعات أو دول أخرى غير أصحابها الحقيقيين. فكثيراً ما تم تزوير الخرائط والوثائق التاريخية لدولة فلسطين بواسطة اليهود والصهاينة من أجل تزيف الوعى لدى اليهود الجدد، من ناحية لا وجود تاريخي، ولاحق للفلسطانيين في العيش في أرض الميعاد مرة أخرى.

٢- التحقق من شخصية صاحب الوثيقة أو المصور التاريخي: طالما أن مادة التاريخ لايمكن إخضاعها للملاحظة المباشرة، وتعتبر الوثائق أو هذه المصادر أى كان نوعها، المصدر الأول للمعرفة أو الحقائق حول الظاهرة المدروسة فيجب أن يتأكد الباحث من صاحب المصدر أو الوثيقة. وبناءاً على ذلك، شهدت الأوساط الأوروبية في بداية الثمانينات نوع من التزيف لمذكرات هتلر، وتم تداول هذه المذكرات في جميع الصحف وحدثت ضجة كبيرة، نظراً لأن هذه المذكرات لم تظهر حتى الآن. وتم نشر هذه المذكرات ونشرها بإحدى الصحف الألمانية المشهورة بملايين الدولارات، وبعد أسبوع من تاريخ النشر، تم تكوين لجنة من علماء التاريخ والآثار، للتحقق من مدى صحة هذه المذكرات، التي يمكن الاعتماد عليها. كما عبر عن ذلك أحد المؤرخين في إعادة كتابة تاريخ أوروبا خلال النصف الأول من القرن العشرين. ولكن اكتشفت اللجنة، أن المذكرات تم تزيفها بدقة متناهية، وبالفعل تم ضبط الشخص المزور، الذى إرتكب هذه الجريمة وإعترف بأنه حاول أن يزيفها لكسب الملايين من ورائها. وبالطبع، لولا التحقق من هذه المذكرات ومضاهاتها بخط هتلر الاصلى لما تم التحقق منها وإكتشاف عملية التزيف.

(٢) التحليل الداخلى Internal Analysis

ويقصد بهذا النوع من التحليل هى مجموعة العمليات التى يستخدمها الباحث فى دراسة محتوى الوثائق والمصادر التاريخية، وتعدد الظروف التى أحاطت بها وبكتابتها. كما يقصد بذلك، صدق الفعل التاريخى لا من ناحية الشكل ولكن المضمون. وعموماً للتحليل الداخلى نوعان هما:

١- التحليل الداخلى الإيجابى: ويستخدم هذا النوع من التحليل للتميز بين مكونات المصادر أو الوثائق التاريخية، وذلك من أجل فهم مكون أو عنصر على حدى، ومعرفة المعنى الحقيقى، الذى تشير إليه الرموز أو الأشكال والعبارات والنقوش. ومن ثم، فإن هذا النوع من التحليل يستهدف تحديد المعانى المختلفة من جمل وعبارات وتراكيب لغوية. وهذا ما يجعل الباحث يبحث عن معرفة اللغة المستخدمة الاصلية فى مرحلة كتابة هذه الوثائق أو النقوش أو المصادر التاريخية عموماً.

٢- عملية التحليل الداخلى السلبى: ويقصد بها محاولة التعرف على الظروف التى كان يعيشها كاتب أو صاحب الوثيقة حين سجل ملاحظته، أو شهادة الآخرين الذين رؤا الظواهر أو الأحداث التاريخية أو وضوحها من جانبهم ويكون لهم وثائق حول نفس الظاهرة. وعموماً تهدف هذه العملية إلى معرفة الأسباب الخارجية والبواعث النفسية، التى أدت ربما إلى تزيف الوثائق. وهذا ما حدث بالفعل إلى معرفة الاسباب وراء تزوير مذكرات هتلر فى اوائل الثمانينات من القرن العشرين وكان الدافع من وراء ذلك هو الحصول على المال. ولكن قد تكون هناك جماعات دينية متطرفة وراء تزيف التاريخ الفلسطينى قبل اليهود الصهاينة الذين قاموا بالفعل تزيف هذا التاريخ لخداع الرأى العام والعالمى واليهودى خاصة بأنه لاحق للفلسطينين من العودة إلى ديارهم.

بإيجاز، توجد مجموعة من الأسس النقدية التحليلية للمصادر التاريخية والوثائق التى وضعها شابين[1] Chopin ويمكن الرجوع إليها كما يلى:

١- يجب أولاً نقد الوثيقة أو المصادر التاريخية الاخرى نقداً خارجياً أو من حيث عناصرها الموضوعية مثل:

(أ) التحقق من كاتب الوثيقة.

(ب) تصنيف المصادر تصنيفاً نقدياً.

(جـ) يجب عد المغالاة فى النقد الشديد.

٢- ضرورة نقد الوثائق نقداً داخلياً أو على أساس خصائصها الذاتية ويتناول الباحث مجموعة من التساؤلات مثل:

(أ) ما الذى يعنيه الكاتب من عبارة معينة بالذات ؟

(ب) هل صدرت العبارة عن عقيدة صادقة ؟

(جـ) هل يهتم الكاتب بخداع القارئ ؟

(ء) هل كان الكاتب متأثر بإتجاه معين ؟

٣- هل العبارات صحيحة ؟

(أ) هل كان الكاتب محدود القدرات نتيجة ضعف إمكاناته ؟

(ب) هل كان الكاتب مهتماً بالاحداث تماماً ؟

(جـ) هل المؤلف أو الكاتب مجرد مشاهد للأحداث أو قام بصناعتها ؟

٤- وحينما يتضح أن الكاتب ليس هو الكاتب الاصلى، ضرورة أن يقوم الباحث بتحديد مدى دقة وصدق جميع معلوماته وذلك عن طريق:

(أ) إستخدام المقارنة لبعض الحقائق ومعرفة مدى صدقها مع غيرها من الحقائق التى تم تشكيلها عن مصادر أخرى.

---

(١)لمزيد من التفاصيل إرجع إلى:

- Chapin, Field Work and Social Research , pp. 37-38.
-Lundlerg, G. Social Research N.Y Longman, 1942, p.127.

(ب) الرجوع إلى بعض المصادر التاريخية الاخرى التى قد تناولت أو أشارت من قبل إلى نفس المواثيق أو المصدر.

٦- حدود المنهج العلمي.

حقيقة أن إستخدامات المنهج العلمى أو البحث التاريخى فى دراسة الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية، تعددت وتنوعت خلال العقود الاخيرة، نظراً لمكانة هذا المنهج وملائمتة للدراسة مثل هذه الظواهر، التى تتميز بصورة معقدة وتباينها عن طبيعة الظواهر الطبيعية. وإن كنا أكدنا مرراً قبل ذلك، أن إستخدام المنهج التاريخى لا يقتصر فقط على دراسة الظواهر الاجتماعية أو إستخدامه فى العلوم الإنسانية، بقدر ما يستخدم ايضاً فى دراسة الظواهر الطبيعية، وهذا ما اشرنا إليه، عند طرح بعض الأمثلة عن إستخدامات علماء العلوم الطبيعية، الذين يهتمون بدراسة تاريخ علومهم ذاتها وتطورها عبر العصور التاريخية، وايضاً عندما يهتمون بدراسة تاريخ نظرياتهم وتطورها وتحقيقها بصورة مستمرة. وعلى أية حال، أن لكل منهج علمى إستخدامات وفوائد متعددة، وأيضاً لابد من وجود بعض الحدود والصعوبات التى تواجه الباحثين عند إستخدامهم لهذا المنهج، وهذا ما ينطبق بالفعل على تطبيق وإستخدام المنهج التاريخى، ويمكن أن نشير إلى أهم حدوده كما يلى:

١- تحد عملية إستخدام المنهج التاريخى من حرية الباحث وإختياراته لأنواع مصادر البيانات أو الحقائق التاريخية التى يقوم بدراستها وتحليلها.

٢- صعوبة الإجابة كلية على مجموعة التساؤلات التى قد يواجهها الباحث مسبقاً حول دراسة الظاهرة أو المشكلة التى يهتم بمعالجتها.

٣- قد لا تعطى السجلات المكتوبة إجابات متصلة مباشرة بمشكلة البحث، وهذا يؤثر عموماً على إستخلاص النتائج أو البيانات من هذه السجلات[١].

٤- صعوبة تصنيف البيانات والمعلومات التاريخية وترتيبها وتصنيفها من حيث أولويتها وأهميتها للبحث، ولا سيما إذا تعددت المصادر التاريخية.

---

(١) غريب سيد أحمد، مرجع سابق، ص١١٢.

٥- عدم وجود قواعد أو أسس عامة يمكن تطبيقها بصورة شاملة عند دراسة التاريخ أو الماضي.

٦- كثرة حوادث التزييف المتعمد أو غير المتعمد، نتيجة لأسباب سياسية، دينية، مادية، عنصرية، مكانية وغيرها.

٧- صعوبة تدريب الباحثين على إجزاء الدراسات التاريخية التي تعتمد على المنهج التاريخي، نظراً لتداخل خطوات هذا المنهج بصورة يصعب فهمها بسهولة

٨- تحتاج عملية تفسير وتحليل المصادر التاريخية إلى دراية كبيرة بالتاريخ، واللغة المكتوبة، والعادات والتقاليد والثقافات القديمة وغيرها من الأشياء الأخرى.

الفصل الخامس

المنهج التجريبى

تمهيد:

١- التعريف بالتجريب والمنهج التجريبى.

٢- تطور الاهتمام بالمنهج التجريبى.

٣- الخصائص العامة للمنهج التجريبى.

٤- خطوات المنهج التجريبى.

٥- أنواع التصميمات التجريبية.

٦- حدود المنهج التجريبى.

تمهيد:

جاء ظهور المجتمع الصناعى الحديث، نتيجة لتطور العلوم الطبيعية وتقدمها فى كافة التخصصات العلمية، وإعتمادها على المنهج العلمى التجريبى، ومحاولة العلماء تطبيق نظرياتهم وفروضهم، لإختبارها والتحقق منها على أسس علمية، تقوم على إحترام التخصص وتقسيم العمل المهنى والعلمى، الذى يعتمد علي كل من الملاحظة والتجربة، كقواعد أساسية للتوصل إلى المعرفة العلمية السليمة. وبالطبع، أن جهود علماء العلوم الطبيعية، لم تظهر بصورة فجائية، ولكنها جاءت نتيجة لإرهاصات علمية طويلة، بدأت أولى مراحلها خلال عصور النهضة أو الإصلاح، الذى لم يكن عصر أهتم فيه العلماء المفكرين بقضايا سياسية ودينية فحسب، بل إنشغلوا فى البحث عن الحقيقة، ودراستها على أسس علمية. شملت أيضاً الجوانب التطبيقية للإستفادة من البيئة الخارجية التى يعيشون فيها، وكانت مجال إهتمامهم المستمر، ومحاولتهم السيطرة عليها، بعد أن تخطوا مرحلة البحث العلمى الميتافيزيقى والبحث ليس فقط فى ماهية الأشياء أو الظواهر، بقدر ما يهتمون بدراسة السبب والعلة، لظهور هذه الظواهر وتكرراها بصورة مستمرة.

وبالفعل لقد أثمرت جهود علماء العلوم الطبيعية عن طريق إستخدام الملاحظة، والتجربة وأسس المنهج التجريبى كلية، عن تطور نظرياتهم وأدوات البحث الإجرائى التى تنوعت بفضل تزايد عدد المتخصصين والعاملين فى مجالات البحث العلمى. فى نفس الوقت، جاءت عملية تطور النظام السياسى والإقتصادى والدينى لتوفر المناخ العلمى اللازم، والذى سمح بظهور مؤسسات البحث العلمى مثل الجامعات والمعاهد والمراكز البحثية المتخصصة فى العديد من الدول الأوروبية والولايات المتحدة. كما تطورت المؤسسات الصناعية والشركات الجيوش، لتكون معامل للتجريب العلمى المستمر ولتطبيق النظريات والإختراعات العلمية، وجعلها موضع التطبيق والنفع المادى والإستثمارى. كما كان الدافع أو الحافز الإنسانى وراء تطور البحث العلمى وإستثماره فى كافة المجالات الاقتصادية والثقافية المختلفة. ذلك الدافع الذى لايزال يجعل من الدول المتقدمة، تهتم بالبحث العلمى المستمر، وذلك من أجل التقدم والسيطرة، والبحث عن المعرفة العلمية التى إنشغل بها العقل الإنسانى منذ قديم الزمن.

ولكن تطور العلوم الطبيعية لم تأتى من فراغ، بقدر ما جاءت كنتيجة طبيعية لتطور العلوم الإنسانية، والتى جاءت فى علوم الاقتصاد والسياسة والفلسفة، وجملة النظريات والأفكار التى طرحها العلماء فى مجال الفكر الإنسانى المتعدد. ذلك الفكر الذى خطط لضرورة إستخدام كافة الوسائل من أجل تعزيز البحث العلمي، والسعى لمعرفة الحقيقة وإكتشاف المزيد من المعرفة البشرية أو الإنسانية. ولاسيما علم الاجتماع، وعلم النفس، والأنثربولوجيا، والتى حرصت بصورة أساسية على ضرورة إتباع المنهج القائم على الملاحظة والتجربة، لأكتشاف دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية والإنسانية التى تحتاج للمزيد من البحث العلمي، وتبنى الأساليب العلمية الحديثة، وخاصة بعد أن حققت هذه الأساليب نتائج طيبة فى مجال التخصصات العلمية. ومن ثم، فلقد حرص علماء الاجتماع، منذ أن وضع "أوجست كونت" أسس علمه الفيزياء الاجتماعية، وأطلق عليه هذا المصطلح أولاً، ثم السوسيولوجيا ثانياً، لتأكيده على أهمية كل من النظرية والمنهج العلمى، الذى يجب أن يستخدمه هذا العلم في دراسة الواقع الاجتماعى، والظواهر والمشكلات المتعددة التى نتجت بالفعل عن التطور العلمى والصناعى الشامل فى المجتمع الحديث.

ومنذ البدايات الأولى من القرن التاسع عشر، يحرص علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية، على ضرورة إستخدام المنهج العلمى الذى يطبق بالفعل فى العلوم الطبيعية. ولقد حاولنا فى الفصول السابقة، أن نعرض بصورة موجزة، لمدى تطور الإهتمام بالبحوث الاجتماعية عامة، والسوسيولوجية خاصة. ونوضح الاسباب التى أدت إلى تبنى المنهج العلمى القائم على الملاحظة العلمية، والتجربة كاساس لتطور هذا النوع من البحوث الإنسانية وهذا ما يجعلنا حالياً، أن نركز على دراسة المنهج التجريبى، محاولين أن نعطى للقارئ أو الباحث فى علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية، خلفية علمية ومنهجية عن حقيقة القضايا والموضوعات، التى لاتزال موضع إنشغال علماء المناهج والبحث السوسيولوجى والاجتماعى، والتى ترتبط بطبيعة إستخدام هذا المنهج بصورة تامة.وهذا ما نحاول أن نطرحه حالياً فى عدد من الموضوعات، التى تتمثل فى تحديد معنى التجريب، وتعريفات المنهج

التجريبى، ولاسيما حسب وجهة نظر علماء البحث الاجتماعى. وكيف تطور الإهتمام بالمنهج التجريبى فى الدراسات السوسيولوجية وخاصة إهتمامات علماء الاجتماع بهذا المنهج فى الوقت الراهن ؟. ثم نحاول، ان نطرح عدد من الخصائص أو المسلمات العامة، التى يجب إتباعها عند إستخدام المنهج التجريبى، ولاسيما فى دراسة الظواهر الاجتماعية، والتى لديها نوع من الخصائص، التى تتميز بها عن الظواهر الطبيعية الأخرى. هذا بالإضافة إلى تحليل عدد من الخطوات، التى تعتبر أسس المنهج التجريبى، وكيفية إستخدامها فى إجراء البحوث والدراسات الاجتماعية. ثم مناقشة أهم أنواع التصميمات التجريبية المختلفة التى تبنى عليها عملية إجراء البحث الاجتماعى عامة. وأخيراً، نشير بإيجاز إلى حدود إستخدام المنهج التجريبى وأهم الصعوبات التى تواجه هذا المنهج فى الدراسات الاجتماعية.

١-التعريف بالتجريب والمنهج التجريبى.

تتعدد المفاهيم المرتبطة بالتجريب والمنهج التجريبى، وجاء هذا التعدد لمحاولة البعض الإشارة إلى معنى كل منهما، سواء من الناحية الإصطلاحية اللغوية، أو من الناحية الفلسفية والمنطقية، أو من الناحية العلمية والمعرفية بصورة عامة. كما يحدث الكثير من التداخل فى إستخدام هذه المفاهيم لدى العامة، وإستخدام الفرد العادى أو العالم والباحث المتخصص، كما اصبح مفهوما (التجريب والتجربة) من المفاهيم الشائع إستخدامها فى حياتنا اليومية، وتعكس محاولة الفرد فى البحث عن حقيقة أو أسباب حدوث المشكلات أو الظواهر أو الخبرة الحياتية عامة. وهذا ما يجعلنا حالياً، نسعى لطرح عدد من المحاولات التى سعت لتحديد تعريفات مميزة حول التجريب والمنهج التجريبى، والإشارة لبعض المفاهيم المتداخلة بينهما.

أولاً : التعريف بالتجريب.

(١) المعنى الإصطلاحى أو اللغوى.

يقصد بمفهوم التجربة بأنها من المصادر المجموعة، وبوجود مفهوم مجرب بأنه الفرد الذى عرف الأمور وجربها، أو الذى جرب فى الأمور

وعرف ما عنده[1]. ويشير بالطبع، هذا التعريف الذى ورد فى لسان العرب المحيط، أن التجريب ناتج عن أحكاماً نتج عنها أفعال. وخطوات حققت أهدافها وهذا ما قد ينطبق على الإنسان العادى أو العالم والباحث المتخصص.

كما نجد أن كلا من اللغتين الإنجليزية والفرنسية، توضحان كلمة التجربة Experiment كما جاء فى اللغة الإنجليزية، أما الإصطلاح الفرنسى Exprience، ولكن نجد أن كلمة التجريب فى اللغتين بمعنى Experimentation[2] ومن ثم، يجب أن نوضح الفرق بين كلاً من الكلمتين عند تحديد التفرقة بين التجربة والتجريب كأساس لمنهج البحث.

ويرجع هذا التميز لأن العلوم الاجتماعية ومنها علم الاجتماع له منهجين للبحث أولهما: تجريبى، أى قائم على التجربة المتعددة والواقعه المتكررة تلقائياً، والأخر تجريبى، أى التجريب المدبر والمكرر بقصد مخطط بالزمان والمكان. وهذا ما يجعل نوع من الخلط فى إستخدام كلمة تجربة من الناحية اللغوية، لأنه مصدر غير مقيس وإسم يدل على ذات أو معنى - ومن الناحية الاجتماعية العملية، فيقصد بالتجربة، واقعه أومعنى إجتماعى حدث أو ذات إجتماعية وجدت، بدون قصد أو إرادة، وبدون تدبير مسبق، اى لاسيطرة مباشرة عليها من ناحية حدوثها أو إبتكارها. أما التجريب، فهو من الناحية اللغوية،[3] مصدر أيضاً، لكنه نقل من معناه اللغوى المجرد، الذى يدل على الحدث إلى معنى آخر، يدل على الأحداث المتكررة، التى هى الإختبار المقصود أو المدبر له من قبل، والذى يكرره الباحث مره تلو الاخرى على الظاهرة الاجتماعية، بعد إجراء تعديلات معينة فى فريق البحث ووسائل جمع البيانات، ثم التوصل إلى قوانين ونظريات علمية.

---

(١) لسان العرب المحيط، للعلامة أبن منظور، المجاد الأول، بيروت: دار لسان العرب، بدون تاريخ، ٤٢٩-٤٣٠.

(٢) حسن الساعاتى، تصميم البحوث الاجتماعية : دار النهضة، ١٩٨٢، ص١٤٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٤٠.

(٢) المعنى الفلسفى أو المنطقى.

يقصد بالتجريب " إختيار منظم لظاهرة أو أكثر وملاحظتها ملاحظة دقيقة للتوصل إلى نتيجة معينة، كالكشف عن معرفة أو تحقيقها "[١] ويشير هذا التعريف أو المعنى للتجريب، ضروة أن تتوافر لدى الباحث الإرادة لإختبار ظاهرة أو بعض الظواهر دون الظواهر الأخرى، وذلك من أجل خضوعها للملاحظة العلمية أو البشرية. كما يجب لأن تتوافر لدى الباحث الإمكانات والقدرات العلمية اللازمة التى تمكنه من إستخدام التجربة من ناحية ، وأن يكون مسلماً بحقائق العلم الاساسية ولقد ظهرت محاولات كثيرة لإستخدام التجريب المباشر على الظاهرة قبل دراسة الظواهر الفلكية أو رصد نشاط الخلايا والذرات ولكن نتاج التجريب لاتظهر إلا بعد إجراء عمليات إستنباطية، تطبق من أجل إختبار الفرض الصورى (المنطقى) الأصلى، وهذا ما يطلق عليه بالنتائج التى تم الحصول عليها بصورة إستدلالية.

(٣) المعنى الاجتماعى العام.

يشير هذا المعنى إلى التجريب على أنه " القدرة على توفير كافة الظروف، التى من شأنها أن تجعل ظاهرة معينة، ممكنة الحدوث فى الإطار العام الذى رسمه الباحث وحده بنفسه "[٢]. ولابد أن يبدأ التجربة بتساؤل محدد أو مجموعة من التساؤلات، مثل ما هى العلاقة بين التعليم وإرتفاع المستوى الإقتصادى للفرد، أو هل توجد علاقة بين الدين والسلوك الفردى أو النشاط الاقتصادى أو الإلتزام الأخلاقى ؟. وهل توجد علاقة بين الفقر والجريمة والإنحراف؟. وغير ذلك من تساؤلات، تتطلب من الباحث أن يتبع أسلوب علمى منظم، لجمع البيانات والشواهد العلمية للإجابة على التساؤلات المطروحة، ومعرفة مجموعة العوامل التى تؤثر على أسباب حدوث الظواهر وتشكيلها بصورة عامة.

فى نفس الوقت، قد يستخدم التجريب أو التجربة للإشارة إلى الخبرة التى يكتسبها العالم من أجل تصحيح آرائه ونظريات بصورة مستمرة، وهذا ما

---

(١) محمد محمد قاسم، المدخل إلى مناهج البحث الاجتماعى، بيروت: دار النهضة ١٩٩٩، ص١٠٨.

(٢) محمد على محمد، مرجع سابق، ص٢٠٨.

يطلق عليه المعنى الخاص التجربة. ولكن الذى يهتم به العلماء والباحثين هـــو التجريب بالمعنى العام. باعتباره جزء جوهـــرى مـــن النســـق الاستقرانى (المعرفى)، ووسيلة هامة تساعد فى التوصل إلى نتائج مرجحة لاتنكر ... [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] التعريف والمنهج التجريبى

وفى الواقع، إن تعريف هذا المنهج يعتبر قريباً جداً للتعريف التجريبى بالمعنى العام. فالتجربة عند استخدامها فى العلوم التجريبية تخضع لقواعد منهجية ... تطبق عليها قواعد المنهج العلمى التجريبى. وهذا ما يجعلنا نحدد تعريف المنهج التجريبى بأنه تعريف عام وأشمل من التجربة. لأن التجربة لاتمثل إلا خطوة منهجية وإجرائية من المنهج التجريبى ذاتـــه " فالعالم الطبيعى يسعى لدراسة العلاقة بين متغيرين أو ظاهرتين، أنه لايكتفـــى بالمشاهدات العامة حول هذه العلاقة مثل علاقـــة الـــبرق بحـــدوث الشـــرارة الكهربية. ولذا، يحتم عليه أن يستخدم المنهج التجريبـــى، وأن نخلـــق موقفـــاً تجريبيا معمليا يساعده فى التحكم فى كل المتغيرات، التى قد تؤثر على حدوث تأثير على العلاقة الناتجة بينها، وذلك مـــن أجـــل قيـــاس النتـــائج بصـــورة موضوعية، والتأكد من صحة الفرض العلمى الذى طرحه مسبقاً، وهـــذا مـــا يتبلور فى أهمية إجراء التجربة أو المعرفة التجريبية (المعملى).

حقيقة، أن إستخدام التجريب أو المنهج التجريبى فى العلوم الطبيعيـــة، يختلف كثيراً عن العلوم الاجتماعية، نظراً لطبيعـــة أنـــواع الظواهـــر التـــى يستخدامها كل من هذه العلوم التى لها خصائص ومميزاتها عـــن الأخـــرى. ولاسيما، أن الظواهر الاجتماعية، لايمكن تفسير أسباب حدوثها إلـــى ســـبب واحد فقط مثل حدوث الشرارة الكهربية نتيجة لحـــدوث الـــبرق، أو إمكانيـــة إخضاع توليد الشرارة الكهربية فى المعمل بواسطة العالم الطبيعى، وهذا ما لم يمكن تطبيقه بالنسبة للظواهر الاجتماعية. وخاصة، أن هـــذه الظواهـــر مـــن

الصعوبة إخضاعها للقياس التجريبي أو الكمي والتحكم فيها، أو إستخدام الملاحظة المباشرة أو تكرار الظواهر أو الأحداث بصورة مماثلة، دون الأخذ في الإعتبار تباين الأسباب والظروف والعوامل المُشكلة لحدوث الظاهرة الاجتماعية، ولكن هذا لاينفي على الإطلاق من إستخدام أنماط من التجريب الطبيعي، عند دراسة الظواهر الاجتماعية. ويقصد بهذا النوع من التجريب، تلك الحالات التي تتوافر فيها كافة الظروف لإستخدام الملاحظة، والقياس، والمقارنة، بين عدد من المجتمعات البشرية التي تحدث فيها نفس الظواهر، وفي مواقف إجتماعية متقاربة نسبياً.

ويعتبر "أوجست كونت" أول من ركز على أهمية تحديد المنهج التجريبي وإستخدامه في دراسة الظواهر الاجتماعية، وهذا ما جاء في تمييزه بين نوعين من التجريب العلمي الاجتماعي (الطبيعي) وليس التجريب المعملي (الاصطناعي)، وهذين النوعين يوضحان طبيعة المنهج التجريبي وإستخدامه في العلوم الاجتماعية وهما:

(١) التجريب المباشر Indivest Experiment.

هو ذلك النوع من التجريب الذي يصلح لإستخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية، نظراً لأن الظواهر لايمكن دراستها وتحليلها عن طريق محاولة عزل أي ظاهرة عن بقية الظواهر الأخرى المشتركة معها. ومن ثم، فالتجربة المباشرة، تقوم أولاً على الملاحظة التي تأخذ بأساليب متعددة تتفق مع الطبيعة المعقدة، التي تتميز بها الظواهر الاجتماعية عن الطبيعية. وثانياً، يجب وجود فكرة مسبقة عن ماهية الظواهر التي يقوم بدراستها العالم الاجتماعي، والتي يستخدم فيها العقل الإنساني خبراته ومعارفه حول موضوع الدراسة التي يقوم بها، وثالثاً، يستطيع الباحث أن يستخلص النتائج المرتبطة بالظاهرة التي يقوم بدراستها دون الظواهر الأخرى.

(٢) التجريب غير المباشر Indrect Experiment.

وهو ذلك النوع من التجريب الذي قد لايفترض وجود فروض مسبقة، وخاصة أن البحوث العلمية تتطلب جميعها فروض من هذا النوع. ولاسيما، حسب تصورات كونت، أن الفروض العلمية ماهي إلا ثمرة للنشاط العلمي ونتاجه المميز، ومن ثم، يجب أن تطرح في بعض البحوث أو عند دراسة

بعض الظواهر فروضاً معينة على دراسات سابقة أو نتائج هذه الدراسات، وهذا ما يجعل إستخدام هذه النتائج بمثابة فروض علمية تسمح بإختبار مدى صحتها وذلك من أجل التأكد منها.

يتضح لنا مما سبق، أن التمييز بين نوعين من التجريب المباشر والتجريب غير المباشر كما طرحه مسبقاً "كونت" إنما يعكس طبيعة المنهج التجريبى بصورته المباشرة وغير المباشرة، لأن هذا المنهج بصورة عامة يقوم على عدد من الشروط والقواعد الاساسية، التى تعكسه كمنهج علمى، يطبق به العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية. إذن فالمنهج التجريبى، يمكن تعريفه بأنه " الطريقة أو الأسلوب العلمي المنظم الذى يقوم على الملاحظة، والتجربة كأساس لإجراء دراسات متميزة ومتخصصة، وتطرح أولاً عدد من التصورات والقضايا النظرية ومجموعة من التساؤلات والفروض، التى يمكن التحقق منها بواسطة الملاحظة والتجريب، لإختبار هذه الفروض، ويستخدم عدد من أدوات البحث لجمع البيانات اللازمة، والقيام بتصنيفهاوتبويبها، ثم تحليل هذه البيانات وتفسيرها. كما يحاول هذا المنهج، التوصل إلى عدد من النتائج والإستخلاصات، التى يمكن صياغتها فى مجموعة من القوانين العامة، والتى يمكن أن ترقى إلى درجة التعميم والتوصل إلى نظريات علمية محددة ".

على أية حال، إن طبيعة تحديد مفهوم التجريب، والمنهج التجريبى تساعدنا فى التعرف على أهم المفاهيم والتصورات التى ترتبط بهما، وكيفية إستخدامها بواسطة الباحثين فى مجال العلوم الطبيعية والاجتماعية. وبالطبع، أن محاولة علماء الاجتماع كغيرهم من العلوم الاجتماعية الذين سعوا لتوضيح أهمية كل من التجريب والمنهج العلمي التجريبى فى دراسة الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية، التى تزداد بصورة مضطردة، وخاصة خلال العقود الأخيرة. ولكن قبل أن نشير إلى أهم خطوات المنهج التجريبى وتصميماته المختلفة، التى إستخدمت بصورة كبيرة فى البحوث الاجتماعية، يجب أن نوضح، أولاً طبيعة الإهتمام بالمنهج التجريبى من جانب علماء الاجتماع خلال القرنين الماضيين، ولاسيما، بعد الإشارة إلى محاولة تحديد هذا المنهج، من جانب مؤسس علم الإجتماع ذاته " كونت " منذ نهاية القرن التاسع عشر.

٢- تطور الإهتمام بالمنهج التجريبي.

عكست التعريفات الموجزة السابقة لكل من التجريب والمنهج التجريبي، طبيعة الإهتمام بهذا المنهج من قبل علماء الاجتماع الأوائل، وهذا ما ظهر في تصنيفات "كونت" لكل من التجريب المباشر وغير المباشر. ولكن يجب ان نوضح حقيقة هامة مؤداها: أن آراء كونت لم تأت من فراغ، بقدر ما حرص على تبني المنهج التجريبي لما حققه من تقدم ملحوظ في دراسة الظواهر الطبيعية أو العلوم الطبيعية عامة. إلا أن طبيعة الإهتمام بالمنهج التجريبي لاترتبط بنشأة وظهور المجتمع الصناعي الحديث أو تطور العلوم الطبيعية، لكن يعد هذا الاهتمام إلى المراحل الأولى التي شهدتها البشرية، ولاسيما تلك المرحلة التي كانت تتبع خطوات من التفكير العلمي والفلسفي والمنطقي، وذلك من أجل البحث عن الحقيقة والحصول علىالمعرفة الإنسانية. ومن هذا المنطلق، يجب أن نشير أولاً، إلى كيفية تطور إستخدام المنهج التجريبي في العلوم الإنسانية مثل مرحلة العصر الحديث أو إستخدامه خاصة بواسطة علماء الاجتماع أو غيرهم من العلوم الاجتماعية التي إرتبطت نشأتها بهذا العصر.

أولاً : نشأة المنهج التجريبي قبل ظهور علم الاجتماع.

(أ) أرسطو.

يعتبر أرسطو أول من إستخدم كلمة إستقراء، والذي اشار فيها يعني طبيعة البرهان الذي يمكن أن يطلقه على قضية كلية، وذلك عن طريق إستخدام امثلة جزئية تؤكد حدوث هذه القضية. أو بكلمات أخرى، يقصد بالإستقراء، الإنتقال من الحالات الفردية إلى الحالات أو القضايا الجزيئة، أو الإنتقال من حالة المجهول إلى المعلوم. ونتيجة إلى إستخدام أرسطو لتسميته للإستقراء، إهتم العلماء بنفس هذا التقسيم الذي يشمل كل من الإستقراء التام والإستقراء الحدسي.

أما الإستقراء التام، فمنذ وضعه ارسطو في صورة قياسية أو ما أطلق عليه بعد ذلك، القياس الأرسطي الذي يلزم بمجموعة من لمقدمات للتوصل إلى نتيجة معينة. ولكن الذي يعنينا هنا هو الإستقراء الذي يقوم على إستخدام البراهين ويستخدم فيها العقل والخبرة، ومعرفة الوقائع الجزئية، التي تقودنا بعد ذلك إلى الوقائع أو المعارف الكلية. ولقد إستخدم أرسطو، هذين النوعين

من الإستقراء كمهج للبحث الذى يدعو لأقامة البرهان على حقيقة معلومة يؤيدها ويتأكد منها بواسطة المشاهدة والخبرة والدافع التجريبى[1].

(٢) الحسن ابن الهيثم.

تميزت تحليلات أبن الهيثم بأنها كانت أكثر تطوراً وتقدماً من التفكير الإستقرائي عند أرسطو، ولاسيما، أنه حرص على تحديد صعوبة العلم وماهيته بأنه نوع من البحث،، والتمحيص، والنقد. وهذا ما جعله يؤكد على موقفين أساسيين يجب ان يهتم بها الباحث أو العالم وهما : أولاً يجب أن لايتقبل كل آراء السابقين عليه من العلماء دون دراستها بعناية، وثانياً، يجب على العالم أن يكون واثقاً من ذاته ونفسه. وهذا بالفعل ما يعكس إهتمامات إبن الهيثم بمنهج البحث العلمى سواء أكان هذا تجريبياً أم إستنباطياً، وحدد ذلك من خلال تأكيده على عدد من النقاط التالية:

١- يجب على الباحث ان يقوم بتحديد المشكلة المراد دراستها.
٢- يقوم بعملية جمع الشواهد والبيانات التى تتميز بدوام الحدوث (التكرار).
٣- يجب تصنيف البيانات والشواهد بعد التحقق من الفروض التى طرحت بصددها.
٤- ضرورة أن يتسم سلوك الباحث بالنزاهة والموضوعية.

فى نفس الوقتتكمن أهمية أبن الهيثم الذى توصل إلى مجموعة من الحقائق العلمية حول الضوء، بعد حدوث الكثير من الخلافات بين كل من الرياضيين والفلاسفة الذين عاصرهم. ولقد إستخدم الملاحظة الحسية أولاً، لكشف الظواهر الواقعية التى توجد فى العالم الخارجى، وذلك عن طريق إستخدام الحواس البشرية. وثانياً، إستعان بالتجربة، والتى أطلق عليها فقط (الإختبار) فى البحث العلمى ولها وظيفتان اساسيتان هما: أولاً إستقراء القوانين والأحكام العامة، وثانياً: التحقق من صدق نتائجها القياسية. وبالفعل، لقد قام أبن الهيثم بإجراء تجارب عديدة، أستطاع أن يتوصل من خلال عدد من القوانين، مثل تحديد قوانين العلاقة بين الهواء وكثافته، والعديد من القوانين المرتبطة بمجال البصريات. وكان يقوم بصنع أدوات وآلات التجارب المعملية التى كان يجربها بنفسه ويعدل من الالات العلماء السابقين عامة[2].

---

(١) محمد قاسم، مرجع سابق، ص١١٨.

(٢) لمزيد من التفاصيل إرجع إلى: توفيق الطويل، خصائص التفكير العلمي بين تراث العرب وتراث الغربين، مجلة عالم الفكر، الكويت المجلد الثالث، العدد الرابع.

(٣) فرنسيس بيكون F.Bacon.

يعتبر"بيكون" من علماء القرن السادس عشر والسابع عشر، الذين بدأوا بتأسيس أولى مراحل البحث العلمي عند طريق إسهاماتهم في مجال التجريب وإجراءته المختلفة. وهذا ما ظهر في كتابه الأرجانون الجديد، الذى حدد فيه مجموعة من الآراء التى يجب ان يلم بها الباحث، عند محاولته الكشف عن الظواهر والمشكلات، التى يقوم بدراستها وتحليلها، ويمكن تصنيف هذه الآراء بصورة موجزة كما يلي[١]:

أولاً : الجانب السلبى (الاوهام الأربعة):

أطلق بيكون هذه الاوهام، بإعتبارها تواجه الباحث وتحد من قدراته على التفسير، وحريته قي الفهم وتأويل الظواهر وأسباب حدوثها وتكرارها. ولذا، حذر الباحثين من الوقوع في مصيدة هذه الاوهام، وضرورة التخلص منها، لأنها حسب رأيه تعتبر جزء من الطبيعة البشرية. ويمكن الإشارة إلى هذه الاوهام بإيجاز كما يلي:

١- أوهام الجنس: ويعكس هذا النوع، بأن لدى الناس ميولاً لإصدار احكام سريعة وتعميمها بما يتفق مع أهواءهم. علاوة على أن الأذهان البشرية، تعودت البحث عن العلل الغائية التى توجد في العالم الطبيعى، وسبب هذا التعود يرجع إلى ذات الإنسان نفسه، ولذا يرتكب أخطاء معينة يسقط تفسيرها على الطبيعة الخارجية.

٢- أوهام الكهف: ويعكس هذا النوع عيوباً ترجع اساساً إلى الفروق الفردية، بين البشر والتى يمكن إكتسابها بصورة فطرية أو بيئية.

٣- أوهام السوق: ويشير هذا النوع من الأوهام إلى الإستخدام الخاطئ لمفردات اللغة من جمل وألفاظ لاتستخدام في مدلولها أو معانها الاصلى.

٤- أوهام المسرح: ويظهر هذا النوع نتيجة الإعتقاد المطلق في الآراء والمذاهب الفلسفية القديمة، وما تؤيدها من نظريات غير واقعية ومغالطة.

---

(١) محمد قاسم، مرجع سابق، ص ص١٢٥-١٢٦.

ثانياً: الجانب الإيجابى (تصنيف الواقع):

طرح بيكون مجموعة من القواعد أو القوائم، التى تأتى بعد الكشف عن الحقائق المرتبطة بالمشكلة أو الظاهرة، التى يتم دراستها وتحليلها ولقد أكد بيكون على اهمية هذه القوائم التى تسمح لنا بملاحظة العلاقة بين العلة والمعلول، ويمكن إيجاز هذه القوائم كما يلى:

١- قائمة الحضور: ويتم فيها تسجيل كل السجلات والشواهد التى ترتبط بالظاهرة والحرارة موضوع البحث. ولقد سجل (بيكون) قوائم لظواهر مثل أشعة الشمس والصواعق وغيرها من الظواهر مرة أخرى.

٢- قائمة الغياب: سجل فيها أمثلة مقابلة للظواهر السابقة، حيث تغيب الظاهرة موضوع البحث، ومثال على ذلك بضوء الفجر والكسوف ...... إلخ.

٣- قائمة التفاوت فى الدرجة، ووضح فيها أمثلة تتفاوت فيها ظهور درجة الحرارة مثل تفاوت حرارة الشمس خلال النهار، وتفاوت غليان السوائل.

ثالثاً: منهج الإستبعاد:

تكمن أهمية إسهامات بيكون فى المنهج التجريبى وتطور تاريخ العلم الحديث، عن طريق تأكيده على كلا من الملاحظة والتجربة، كاساس للتوصل للقوانين العلمية. ولذا طرح منهج الإستبعاد ليكون معيار معين له ركيزتان أساسيتان أساسين وهما:

(١) إستبعاد القانون العام الذى توصل إليه الباحث بعد دراسة الظاهرة وأيدته ملاحظاته السابقة.

(٢) تأييد القانون العام عن طريق إثبات أن كل القوانين والنظريات المتناقضة معه غير صحيحة، ويجب إستبعادها، لأنها اساساً تعارضت مع الملاحظات والتجارب التى أجريت على الظواهر الخاصة بها.

(٤) جون ستيوارت ميل J.S.Mill.

ظهر "ميل" مع البدايات الأولى من القرن التاسع عشر (١٨٠٦-١٨٧٣)، وكان عالماً إقتصادياً وسياسياً ومفكر وفيلسوف مشهوراً، وله العديد من النظريات ولاسيما فى مجال علم الإقتصاد السياسي وغيرها من العلوم

الاجتماعية الأخرى. ولقد تبنى (ميل) المنهج التجريبى، وطرح مجموعة من طرق هذا المنهج لاتزال تشكل جوهراً الإهتمام الاول لجميع من يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية ومحاولة تطبيق أو إستعارة المنهج التجريبى وتطبيقه فى العلوم الاجتماعية[1]. ولقد تباينت تصورات (ميل) عن المنهج التجريبى مقارنة بتحليلات (فرنسيس بيكون) السابقة، حيث طرح الأول خمسة طرق مختلفة، تعتبر أساس خطوات المنهج العلمى وتصميماته الأساسية، التى يهتم بها علماء مناهج البحث الاجتماعى. ولاتزال هذه الخطوات أو الطرق هى ذاتها حتى الوقت الحاضر ونظراً لأهمية الطرق أو الخطوات سوف نعالجها لاحقاً، بعد الإشارة إلى تطور الإهتمام بالمنهج التجريبى خلال القرنين التاسع عشر والقرن العشرين ولاسيما فى الدراسات الاجتماعية

ثانياً: تطور المنهج التجريبى بعد ظهور علم الاجتماع

١- تطبيقات المنهج التجريبى خلال القرن التاسع:

جاءت إهتمامات علماء الاجتماع منذ ظهور هذا العلم من البداية، لتوكد على اهمية تبنى المنهج التجريبى فى دارسة الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية، التى يعالجها علم الاجتماع. وهذا ما اشار إليه بوضوح "أوجست كونت" A.Comte، عندما قام بتصنيف المنهج التجريبى أو التجريب على اساس نوعين رئيسيين وهما: التجريب المباشر والتجريب غير المباشر وهذا ما حاولنا أن نوضحه خلال تعريفنا لطبيعة كل من التجريب والمنهج التجريبى خلال الصفحات الأولى من هذا الفصل وبالطبع، لقد جاءت إهتمامات كونت لتعكس مدى حرص مؤسس علم الاجتماع، على ضرورة أن يكون لدينا سوسيولوجيا أو علم الاجتماع أو فيزياء إجتماعية، كما توجد فيزياء طبيعية أو فلكية، مرتكزاً على دراسة الظواهر الاجتماعية بنفس أسلوب ومنهج الظواهر الطبيعية. وبالرغم أن كونت لم يستخدم التجربة أو المنهج العلمى بصورة واقعية، بقدر ما ركز على إستخدام الملاحظة العلمية المباشرة

---

(١) للمزيد من التحليلات حول إسهامات ميل فى مجال علم الاجتماع الاقتصادى أنظر:

-عبد الله محمد عبد الرحمن، علم الاجتماع الاقتصادى (جـ٢) ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤.

لدراسة الظواهر الاجتماعية، وهذا ما جاء من خلال معايشة عمليات التطور والتغير السريع التى صاحبت ظهور ونشاة المجتمع الصناعى الحديث.

وجاءت إهتمامات "ماكس فيبر" M. Weber، لتعكس نموذجاً سوسيولوجياً آخر لأستخدام المنهج التجريبى، بالإضافة بالطبع للمنهج التاريخى فى دراسة العديد من الظواهر والمشكلات الاجتماعية، التى أهتم بها فيبر على المستوى النظرى والإمبيريقى (الميدانى). وهذا سنركز عليه حالياً، وخاصة أن فيبر إستخدم جميع خطوات المنهج التجريبى، عندما أجرى مجموعة من الدراسات الميدانية فى المجتمع الألمانى، وذلك عندما كان عضواً بارزاً فى منظمة السياسة الاجتماعية Social Policy Organization، والتى بدأت نشاطها لأجراء البحوث الميدانية منذ عام ١٨٧٢ وكانت تجمع العديد من علماء علم الاجتماع الألمانى البارزين من أمثال "جوزيف شمولر" J.Schmoller، و" أودولف واجنر " A. Wagner، وإنضم إليها فيبر عام ١٨٩٠، ولقد أجرى الأخير مجموعة من الدراسات الميدانية التالية:[١]

(١) دراسة مشكلة العمال الصناعيين فى ألمانيا.
(٢) دراسة ظاهرة تقييد الإنتاج.
(٣) دراسة مشكلة العمل والعمال الزراعيين.
(٤) دراسة مشكلة إقتناء السلع وقت الأزمات.

ولقد حاول فيبر فى هذه الدراسات الاجتماعية المتعددة المجال، أن يطبق المنهج التجريبى فى جميع هذه الدراسات، هذا بالإضافة أيضاً كما اشرنا إلى المنهج التحليلى التاريخى المقارن، والذى حاول فيها أن يختبر صحة نظريته العامة عن التنظيم البيروقراطى. ولقد طرح فيبر فى هذه الدراسة العديد من التساؤلات والإفتراضات المسبقة، محاولاً أن يستخدم المنهج التجريبى، لإختبار صحة الفروض والتحقق منها، وذلك عن طريق الملاحظة المباشرة، والمقابلات المكثفة، والإحصاءات، وغير ذلك من وسائل متعددة لعملية جمع البيانات. كما حرص على أن يحدد الإطار المنهجى لكل بحث ميدانى أجراه بالفعل، حيث صنف البحث إلى ثلاث عناصر أو أقسام منهجية

---

(١) عبد الله محمد عبد الرحمن، علم إجتماع التنظيم، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨.

وهى: أولاً: الملامح العامة للبحث، وثانياً: المشاكل العلمية التى تواجه البحث، وثالثاً: منهج البحث العام.

ولقد حرص "فيبر" على أن يطرح بعض النماذج والتصميمات التجريبية التى تتلائم مع طبيعة الدراسة أو المشكلة أو الظاهرة التى كان يقوم بدراستها وتحليلها مستخدماً فى ذلك كافة خطوات المنهج التجريبى بدءاً بالملاحظة، حتى التوصل إلى القوانين والنتائج العامة.

- ففى دراسته الأولى، طرح عدد من المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة، وحاول أن يختبر تأثير العلاقة بين طبيعة التنظيم الإدارى فى الشركات الصناعية وتأثيرها فى مشكلات العمال والعمل بهذه الشركات.

- وفى دراسته الثانية تقييد الإنتاج، حاول فيبر أن يختبر سيكوفيزيقية العمل الصناعى The Psychophysics of Industrial، وتركيزه على إختبار عدد من المتغيرات مثل ظروف الرضا فى العمل والإشباع الوظيفى مثل الأجور، والظروف الفيزيقية مثل الضوضاء، والإضاءة وغيرها على نوعية الإنتاجية فى العمل. وما مدى تأثير سياسات العمل على الإضراب أو التباطؤ فى آداء العمال خلال ساعات العمل ذاتها.

- وفى دراسته الثالثة عن مشكلة العمل والعمال الزراعيين، أهتم فيبر بدراسة وتقييم الوضع الذى كان عليه طبيعة العلاقة بين العمال والمستأجرين الزراعيين وملاك الأراضى الزراعية. وحاول أن يختبر مدى تأثير هذه العلاقة على إنتاجية الارض أو ما يعرف بمشكلة الفدان، ومدى فاعلية سياسات وأجور العمال، وتحديد القيمة الفعلية الإيجارية، وتأثير العلاقة بين الطبقات الاجتماعية المستأجرة والمالكة.

- وفى دراسته الرابعة عن مشكلة إختفاء السلع وقت الأزمات، حرص فيبر على أن يطرح عدد من المتغيرات كمتغيرات مستقلة وأخرى تابعة، وحاول أن يختبر تأثير العلاقة بين هذه المتغيرات مثل مدى تأثير الأزمة الإقتصادية أو التجارية على عمليات إقتناء السلع وإختفائها خلال الأزمة. كما حاول أن يطرح العديد من الفروض المسبقة للتحقق منها وإختبارها بصورة واقعية، حول هذه الظاهرة وأسلوب التخطيط للمشروعات وإدارة الأزمات والتخطيط للأسعار، والتغيرات الفجائية وتأثيرها على المشروعات الإنتاجية وما إلى ذلك من إفتراضات متعددة.

(٢) تطبيقات المنهج التجريبى خلال القرن العشرين

أولاً: الدراسات التجريبية لعلماء الإدارة العلمية.

جاءت السنوات الأولى من مطلع القرن العشرين لتحمل معها العديد من التطورات الإقتصادية والاجتماعية، التى عكست مدى الإهتمام بتطوير نظم إدارة المؤسسات الإنتاجية الرأسمالية. وخاصة، بعد أن أخفقت فى تحقيق معدلات من الأرباح والإستثمار الذى كانت ولاتزال تنشد إليه الطبقة الرأسمالية دائماً. وهذا ما تبلور فى ظهور عدد من الشركات الصناعية، وأصبحت المصانع بعد ذلك معامل للتجريب والبحث العلمى الموجه بالطبع لزيادة الإنتاج وتحقيقة الارباح، وحل مشكلات العمل والعمال والإنتاج والفئات الرأسمالية أيضاً. وهذا ما تمثل فى طرح فريدريك تايلور[١] F.Tylor نظريته المعروفة عن الإدارة العلمية Scientific Mangemennt، وحاول أن يطور إنتاجية فئات المهندسين والإداريين والعمال الإنتاجية الذين يعملوا فى خطوط الإنتاج الاساسية، وطرح عدد من الإفتراضات والتساؤلات التى من شأنها أن تعزز إنتاجية هذه الفئات فى المصانع والشركات الإنتاجية الرأسمالية.

ولقد قام تايلور بإجراء العديد من التجارب المعملية فى مصنعه الخاص والذى أنشأ عام ١٨٨٩ فى الولايات المتحدة ليختبر عموماً كيفية تطوير الأساليب الفنية والإدارية. وجاءت هذه الأساليب الفنية فى تجارب مشهورة تعرف بتجارب، أو دراسات الحركة والزمن Time & Motion Studies، تلك التجارب الذى حاول فيها أن يقوم بتحقيق ثلاث عناصر واهداف رئيسية وهى:

١- دراسة الشركات والمصانع الكبرى وكيفية رفع الكفاية الإنتاجية لفئاتها العاملة.

٢- العمل على توفير نظم إدارية وعلمية جديدة تقوم بإدارة الشركات الصناعية الكبرى.

---

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر:

-عبد الله محمد عبد الرحمن، علم الإجتماع الصناعى، بيروت: درا النهضة العربية، ١٩٩٩.

٣- التخطيط العلمى لقيام وتاسيس علم الإدراة العامة، يعتمد على مجموعة من القواعد والنظريات العلمية التى تم إستخلاصها من التجاريب المعملية الواقعية.

وركز تايلور على إستخدام كل من الملاحظة، والتجربة، كأساليب منهجية للتحقق من الإفتراضات والتساؤلات التى طرحها وإختبارها والتحقق منها، وحرص على إتباع خطوات المنهج التجريبى بصورة عامة. وحاول أن يختبر العديد من العلاقات والمتغيرات التى تتكون منها الظواهر والمشكلات، التي قام بمعالجتها ومعرفة مدى تاثيرها بالمتغيرات الأخرى ولاسيما أن عملية الإنتاج، وتطوير النظم الإدارية، ومشكلة العلماء فى المصانع والشركات، تعتبر من الظواهر المعقدة والمتعددة الأسباب والعوامل والظروف التى تدخل فى تكوينها وتفسيرها ومن أهم المتغيرات المرتبطة بهذه الظواهر تقسيم العمل، وقياس العمل ومعدلات الإنتاجية، ووصف العمل، والحوافز، والدافعية والقدرة الفردية، والإدارة والنقابات وغيرها.

وجاءت بعد ذلك تجارب هنرى فايول H.Fayol على الشركات الصناعية فى قطاع التعدين في فرنسا، لتركز أيضا على إختبار نظرية هامة تعرف بنظرية التكوين الإدارى Theory of The Formaltion Administration ، حاول فيها أن يتعرف على كيفية زيادة نظم الإنتاج والعمل داخل هذه الشركات وتطور الإدارة الحديثة عن طريق تطبيق الوسائل الفنية والعلمية المتطورة، التى تم إستنتاجها من واقع الدراسات الميدانية والتجارب العملية التى قام (فايول) بالفعل بإجرائها داخل هذه الشركات لسنوات طويلة، والتى إعتمد فيها على كل من الملاحظة، والتجربة، كأساس للبحث العلمى. وإستخلاص العديد من النتائج والقوانين العامة التى تعتبر ثمرة إنتاج أو إستخدام المنهج العلمى التجريبى. وركز (فايول) على تحليل العمليات الفنية داخل الشركات الصناعية وحاول إختبارها، والتى أمكن تصنيفها لأول مرة من ناحية البحث العلمى إلى ست مجموعات رئيسية وهى: الأعمال الفنية، والتجارية، والمالية، والأمن، والمحاسبة، والأعمال الإدارية. وحاول أيضا، أن يطور من قدرات العامل وخبراته الفنية والمهنية، وذلك عن طريق إجراء العديد من التجارب والتركيز على طرح عدد من القيم الأساسية والإنتاج والإدارة.

ثانياً : الدراسات التجريبية لعلماء العلاقات الإنسانية.

(١) تجارب هاورثون:

جاءت تجارب هاورثون Hawthorn التى قام بإجرائها التون مـــايو E.Mayo وزملاؤه خلال عام ١٩٢٧، وذلك عندما دعـــت شـــركة ويســـترن الكتريك[1] مايو وزملاؤه لدراسة عدد من المتغيرات التى تؤثر على إنتاجيـــة العمال والمصانع بصورة عامة. وخاصة، بعد أن لاحظت الإدارة، وجود تباين فى العلاقات بين تأثير ظروف العمل، أو ما يعرف بالظروف الفيزيقية مثـــل الضوضاء، والإضاءة، التهوية، ووضع الآلات، وتصميمها علـــى مســـتويات الإنتاجية والأداء والفاعلية. وتم إجراء تجارب ميدانية بواسطة مايو وفريـــق بحثه الأكاديمى والمتخصص، والتي أستمرت طيلة خمس سنوات متصلـــة وإن كانت قد تمت بصورة مرحلية من حيث إجراء التجارب الميدانيـــة. ونظـــراً لأهمية هذه التجارب ومراحلها المختلفة يمكن أن نوجزها بصورة مختصـــرة لمعرفة خطواتها وإهتماماتها وأهدافها الأساسية[2].

- المرحلة الأولى:

ركزت هذه المرحلة على قياس إنتاجية خمسة عاملات اللاتى يقومـــن بإنتاج أجهزة التليفونات، وتم عزلهن فى غرفة خاصة تماثل نفس الظـــروف الفيزيقية التى كانت سائدة فى الشركة. ولقد خطط مايو وفريق البحث لإدخـــال بعض التعديلات فى ظروف العمل، وذلك فى إطار عناصر التجربة التى قـــام بها، ومحاولاً أن يختبر فروضها الأساسية، وهى مدى العلاقة بيـــن الإنتـــاج وتغيير الظروف الفيزيقية للعمل فى مرحلة العمل اليومى العادى، وتم إدخـــال بعض التغيرات على فترات الراحة، ووجبات الغذاء، ومدة ســـاعات العمـــل اليومى وغير ذلك من تغيرات متعددة وضعها مايو فى غرفة الإختبار ولكنـــه لاحظ أن الإنتاج قد زاد بالرغم من هذه المتغـــيرات نتيجـــة لزيـــادة الـــروح المعنوية واثرها على زيادة الإنتاجية.

---

(١) يتبع هذا المصنع لشركة ويسترن اليكتريك وذلك بضاحية غرب مدينة شيكاغو وأجريت التجارب على مجموعة من العاملين وكان يضم عدد من عمال الشركة آنذاك حوالى ثلاثيـن ألف عامل وعاملة ويقومون بإنتاج أجهزة التليفزيونات.

(٢) للمزيد من التفاصيل إرجع إلى :

- Mayo, G,E,Hüman problems of an Industrial Civilization. N.Y,1945.

-المرحلة الثانية:

[illegible] النتائج السابقة للمرحلة الأولى، لتعزز من افكار الباحثين نحو [illegible] العمل [illegible] العمل على [illegible] العمل [illegible] هذه النتائج [illegible] الاقتصادية، والجزاءات، [illegible] أن يدعو [illegible] فيما [illegible] بتصميم [illegible] عن طريق إجراء [illegible] ٢٠ من العاملات، وتم استخدام العديد من المجموعات التجريبية المختلفة، تطبيقيا على أفراد العينة التي خصصت للتجريب، مستخدمين المجموعات التجريبية والأخرى الضابطة وذلك للتحقق من الفروض وإختبارها، وقيام التجربة على أسس علمية.

-المرحلة الثالثة:

إهتم فريق البحث بعد ذلك، بوضع تساؤل هام بهدف الإجابة عليه خلال المرحلة الثالثة من التجارب، وكان هذا السؤال يتلخص حول، ما هى أهم أنواع الاتجاهات والمشاعر التى تؤثر عن غيرها فى العملية الانتاجية لدى العمال؟. وتم إختيار مجموعة جديدة من العمال فى مصنع التليفونات، لإجراء التجربة عليهم وذلك بعد عزلهم عن خطوط إنتاجهم العادية. وأستخدام عدد من الأساليب المنهجية والبحثية المتنوعة مثل المقابلات الشخصية، وإستمارات البحث، والملاحظة المباشرة للسلوك الفردى خلال عملية الإنتاج والعمل. ولقد توصل فريق البحث، إلى أن العاملين يقيمون نوع من من التستر لإخفاء مشاعرهم وإتجاهاتهم لتظل داخل الجماعة ونتج عن ذلك وجود تأثير للتنظيمات فى إطار سلسلة من التجارب العلمية التى تقوم على خلق الموقف التجريبى، محاولة إعادة التجربة أكثر من مرة لتحقق من إختبارها للفروض العلمية.

-المرحلة الرابعة:

ركزت تجارب هذه المرحلة على دراسة أثر التنظيم غير الرسمى فى المؤسسات الصناعية وعلاقته بزيادة الإنتاجية لجماعات العمل. حيث أهتم فريق البحث بإختبار النتائج التى قد توصلوا إليها فى المرحلة الثالثة، وجاءت

محاولتهم فى المرحلة الأخيرة، من أجل الوصول إلى عدد من القوانين والتعميمات التى ترتبط بقضية أو ظاهرة التنظيمات غير الرسمية، ومدى وجودها فى المؤسسات الصناعية، أو الوحدات الإنتاجية والأقسام الداخلية للعمل. ولقد أستخدام فريق البحث الكثير من الأساليب لجمع البيانات والمعلومات اللازمة، بالإضافة إلى إجراء المقابلات الشخصية والحرة، أو تطبيق إستمارة البحث، أو إستخدام الملاحظة المكثفة، وذلك من خلال عملية عزل مجموعة العاملات التى تجرى عليهم التجارب، وللكشف عن مدى تأثير التنظيمات غير الرسمية على الإنتاج، وذلك فى إطار إستخدام التصميمات التجريبية وتطبيقها على عينة من العاملات كمجموعات تجريبية، وأخرى مجموعات ضابطة، للتحقق من الفروض العلمة.

وفى ضوء نتائج التجربة التى خطط لها من قبل اتفقت جماعة العمل على تحديد الحد الأمثل للإنتاج (المتوسط)، أو الكمية المطلوبة من كل عاملة فى اليوم الواحد. وإعتبار أن أى زيادة للإنتاج عن هذه الكمية المحددة، يعتبر شيئاً غير مقبولاً، كما أن النزول عن الحد الأدنى يعتبر نفس الشئ، ولذا حرصت العاملات على التقيد بكمية الإنتاج وعدم الزيادة أو النقصان، وتوصل العلماء إلى نتيجة هامة وهى وجود علاقات قوية بين إرادة العمال التى تظهر بصورة غير رسمية وتؤثر على الدافعية والإنتاجية فى المصنع.

-إسهامات مايو فى تجارب هاورثون:

إستمرت تجارب هاورثون فى الفترة ما بين ١٩٣٢/٢٧، ولكن قام مايو بإجراء مجموعة من التجارب العلمية وهى بإيجاز:

-التجربة الأولى: فى مصانع الأعمال المعدنية عام ١٩٤٣، أجريت هذه التجربة على ثلاثة أقسام إنتاجية، لوحظ بها تغيب العمال بصورة ملحوظة عن بقية الأقسام الأخرى، كما لوحظ أن نسبة الغياب فى أحد هذه الأقسام الثلاث تقل عن ما هو موجود فى القسمين الأخرين. وأهتم فريق البحث بدراسة هذه المشكلة، وذلك عن طريق فحص سجلات الغياب الرسمية، وإجراء المقابلات المكثفة مع العمال، وتمكين ذلك البحث من وضع مقياس معين يحدد معدل القياس بالنسبة لكل عامل. ولقد توصل الفريق إلى تقسيم سبب إنخفاض معدلات الغياب بالنسبة لكل عامل. ولقد توصل الفريق إلى تقسيم سبب

إنخفاض معدلات الغياب في أحد الأقسام عن بقية القسمين الآخرين، وذلك نتيجة وجود روح جماعية بين العمال تحثهم على عدم الغياب، وتعتبره شيئاً غير مقبولاً بالنسبة لقواعد جماعة العمل غير الرسمية. أما بالنسبة إلى ارتفاع نسبة الغياب في القسمين الآخرين، نترجع إلى مجموعة من الأسباب من أهمها، مشكلة الوصول إلى العمل صباحاً، وإختلاف العمال مع الإدارة ومشرفيهم حول نظم العمل، ودور المشرفين بصورة عامة في عملية الإنتاج أو أساليب الإشراف عليهم.

-التجربة الثانية: أجريت هذه التجربة في أحد مصانع الطائرات بجنوب كاليفورنيا عام ١٩٤٤، للكشف عن اسباب مشكلات التغيب ونوبات العمل في المصنع، ما عدا وجود ثلاث أقسام لم تظهر فيها هذه المشكلة، كما إستخدم في هذه التجربة العديد من المجموعات التجريبية والأخرى الضابطة والعديد من التصميمات التجريبية المختلفة، وسعى فريق البحث بقيادة مايو للتوصل لعدد من النتائج منها:

١- أن جماعات العمل في الأقسام الثلاث تعتبر صغيرة جداً، مما يؤثر على تقوية أنساق الإتصال والعلاقات الاجتماعية وأصارهم عموما في وحدة الجماعة (الغير رسمية).

٢- كان يوجد من بين جماعات العمل عدد من القيادات غير الرسمية التي كانت منظمة في العمل، وكان ذلك يعتبر مثالاً للقدوة والإهتداء به من قبل بقية الاعضاء أو أفراد الجماعة.

(٢) لويد وانر ومدرسة شيكاغو:

ولكن بعد ذلك تطورت دراسات مدرسة العلاقات الإنسانية وبالتحديد خلال عام ١٩٥٤ عندما شكلت لجنة علمية أو فريق بحث أكاديمي بقيادة لويد وارنر L. Warner بجامعة شيكاغو، وضمت كل من جاردنر Gardner، ودافيز Davis، وهاربسون Harbison وهوجيز Huges، وفوت وايت W.F. whyte لتشكل هيئة متخصصة للبحوث الصناعية بالجامعة المذكورة. وبدأت هذه اللجنة تدرس العلاقات الإنسانية ليس فقط داخل المؤسسات الصناعية، كما فعلت وركزت التجارب السابقة خلال العشرينات وحتى الأربعينات من القرن الحالي، ولكن اهتمت بدراسة العلاقات الإنسانية خارج المؤسسات ذاتها

والتركيز عموماً على دراسة العلاقات الاجتماعية سواء للأفراد أو الجماعات أو أيضاً علاقة المؤسسة أو المصنع ككل بالمجتمع المحلى Local Community ومدى التأثير المتبادل بينهما. كما استعان لويد وانر وفريق بحثه بمجموعة من المفهومات السوسيولوجية المستخدمة من قبل علماء الاجتماع عند دراسة المجتمع المحلى مثل، الدور، والمكانة، والثقافة عند تحليل البناء الاجتماعى Social Structure للمصنع ككل، والاهتمام عموماً بدراسة العلاقة المتبادلة بين المصنع والبيئة الخارجية.

(٣) دراسة معهد تافستوك Tavistock بإنجلترا:

أنشئ هذا المعهد لدراسة العلاقات الإنسانية فى الشركات البريطانية وذلك تحت إشراف اليوت جاكس E.Jaques، والذى أجرى مجموعة من الدراسات الميدانية فى عدد من المصانع بمدينة لندن، لإختبار نسق العلاقات الإنسانية وأساليب الإتصال Communction بين الإدارة والعمال. كما استعان فريق البحث بالعديد من المداخل السوسيولوجية والسيكولوجية، ولا سيما، مدخل دراسة الجماعة الصغيرة وديناميانها عند (كيرت ليفن). وكون فريق البحث مجالس للمشاركة فى عمليات الإدراة وحل مشكلات العمل والإنتاج، وإضفاء جو من العلاقات الإنسانية، والتخلص من مشكلات العمل بصورة مستمرة، وذلك من أجل زيادة الإنتاج، والتعرف على الصعوبات التى تواجه الإدارة والعمال وكيفية حلها وتحقيق الأهداف العامة للشركة.

ثالثاً : دراسة الجماعة وتطور الدراسات التجريبية:

(١) وليام هويت ودراسة الجماعات الصغيرة:

جاءت إهتمامات وليام هويت كأحد رواد نظرية العلاقات الإنسانية التى شاركت فى بحوث أو سلسلة تجارب التون مايو، والتى أجريت على كثير من الشركات والمؤسسات الصناعية. ولكن مع تطور دراسات العلاقات الإنسانية والتى إستمرت بعد تجارب هاوثورن، ولاسيما فى الأربعينات، أخذت دراسات علماء نظرية العلاقات الإنسانية تجدد مجالات كثيرة أخرى يمكن تطبيقها فيها، وبعيداً عن مجال المؤسسات الصناعية والإنتاجية، ولكنها ركزت على دراسة العلاقات الإنسانية كبعد أو عامل أساسى يمكن تحليله ومعرفة إيجابياته وسلبياته على المؤسسات الإنتاجية أو الخدمات الأخرى.

وهذا ما أجراه وليم فوت هوايت على عمال المطاعم الكبرى، والتى اندرجت تحت دراسات صناعة المطاعم Restaurant Industry من ناحية، أو تطبيقيا على بناء الجماعات الاجتماعية الصغيرة ومعرفة تأثيرها على العلاقات الاجتماعية والأدوار والمراكز وأنماط القيادة والتفاعل وغيرها من المتغيرات الأخرى كمتغيرات ثابتة، لبناء الجماعة كمتغيرات مستقلة.

وفى الواقع أن تحليلات ودراسات علماء نظرية العلاقات الإنسانية عندما سعت لمناقشة وتحليل هذه العلاقات بعيدة عن مجال التنظيمات الصناعية، كانت تهدف أولا للتعرف على مدى وجود وأهمية هذه العلاقات داخل الجماعات الصغيرة Smoll Groups وتأثيرها على السلوك الفردى والجماعى فى نفس الوقت. ولقد جاء هذا الإهتمام من جانب وليم هوايت عندما درس جماعة الناصية Street Corner، وذلك فى حى كورنيل بمدينة نيويورك. وتوصل إلى نتائج هامة تتعلق بمجموعة من المتغيرات مثل : العلاقات الاجتماعية، وأنماط المكانة، والحوافز، والدافعية، والثقافة الفرعية، والقيادة، والشخصية، وتأثير المجتمع المحلى، وغير ذلك من المتغيرات التى تم إستخدامها كمتغيرات مستقلة، وأخرى متغيرات تابعة، والعديد من التصميمات التجريبية الأخرى

(٢) رنيسيس ليكريت وتجارب جامعة ميتشجن:

وجاءت جامعة مينشجن لتساهم أيضاً فى تطور الدراسات التجريبية، وذلك عن طريق إجراء البحوث الميدانية المتخصصة، والتى تركز على دراسة الجماعة داخل المؤسسات الصناعية والإنتاجية. وهذا ما يتبلور فى دراسات رنيسيس ليكريت R. Likert وزملاؤه العاملين فى معهد البحوث التابعة لنفس الجامعة. وحاول التركيز على دراسة القيادة والإشراف Leadership & Supervision ودورهما فى تنظيمات العمل وتطور الإنتاج وتحسين أحوال العلاقة بين العمال والإدارة. ولقد توصلت هذه الدراسة إلى وجود نمطين من الإشراف والقيادة داخل المؤسسات التى أجريت عليها الدراسة الميدانية بقيادة ليكرت وفريق بحثه وهما :

١- نمط الإشراف الأول، والذى يدور حول العمال، حيث يحاول المشرف أن يحيط مرؤوسيه من العمال بأنواع متعددة من الرعاية الإنسانية، وتحليل

مشكلاتهم الاجتماعية ومصالحهم الخاصة عموماً، خاصة لأنه يفترض بأن عملية الإشراف فى العمل يجب أن تكون وظيفة اجتماعية ونفسية، أكثر منها وظيفة إدارية رسمية.

٢- نمط الإشراف الثانى، وهو يدور حول الإنتاج، حيث يسعى المشرفين فى العمل إلى توجيه إهتماماتهم لتحقيق أعلى معدلات من الإنتاج، وآراء العمل المطلوب من العمال والأقسام الإنتاجية بغض النظر عن مراعاة الظروف النفسية والاجتماعية للعاملين بالمؤسسات والتنظيمات الصناعية.

عموماً، لقد خلصت دراسة ليكرت وزملاؤه إلى نتيجة عامة مؤداها، أن المشرف الذى يوجه تركيز إهتماماته نحو العمال قد حقق إنتاجية عالية، من إنتاجية المشرف الذى يوجه إهتماماته بالدرجة الأولى إلى العمل والإنتاج، بغض النظر عن الظروف النفسية والاجتماعية للعمال ككل. وهذا بالفعل ما أيدته نتائج هذه الدراسة حول جماعات العمل الصناعى والاهتمام بتفسير العلاقة بين العمال والمشرفين والإداريين، وذلك فى إطار تحليلهم لأنماط الإشراف والقيادة، والتى أخذت بعد ذلك أبعاداً هامة فى التأثير على نسق العلاقات الإنسانية وزيادة الإنتاجية.

٣- مورينو وتجارب قياس سوسيومتريه العلاقات الاجتماعية:

ومع تطور استخدام الأساليب المنهجية وطرق وأدوات البحث الاجتماعى مثل الملاحظة بأنواعها، والمقابلة، وتحليل المضمون، وإستمارة البحث وغيرها من الأدوات الأخرى، أمكن التوصل إلى معلومات كمية كبيرة ساعد فى تحليلها أيضاً، استخدام الأحصاء والتحليلات والمعاملات الكمية المتطورة، والتى تطورت بعد ظهور الحاسب الآلى (الكومبيوتر) بالطبع. ومن أهم هذه المقاييس الكمية ما يعرف بالمقياس السوسيومترى Soci-meter الذى ينسب استخداه إلى مورينو Moreno، وقيامه بقياس شبكة العلاقات الاجتماعية Social Relationship Moreno، بين أفراد الجماعة وتقدير مدى تنافر وتجاذب أو شدة وضعف أو انحلال أو تماسك هذه العلاقات، وتحديد العوامل المتداخلة في تشكيلها وبيان درجتها من حيث الترابط أو التفكك بصورة عامة.

٣- الخصائص العامة للمنهج التجريبى.

كشفت التحليلات السابقة عن مدى تطور الدراسات السوسيولوجية وإستخدامها المنهج التجريبى، التى يعتمد أساساً على الملاحظة والتجربة، وإختبار الفروض والتحقق منها، ثم التوصل إلى عدد من النتائج العامة والقوانين ذات الطابع التقييمى ومحاولة الوصول إلى نظريات علمية محددة. ومن ثم، يمكن القول بأن، المنهج التجريبى ما هو إلا محاولة لتحديد العلاقة السببية Causes Relationship ، بين متغيرات محددة Fixed Variables. وعموماً يتضمن تحقيق ذلك المنهج، مجموعة من الأسس والمبررات الأساسية لقيامه وهى بإيجاز(١):

١- توجد صعوبة فى تحديد تأثير المتغيرات، التى يحددها الباحث قبل إجراء التجارب وبعدها بصورة دقيقة، ولم يقوم الباحث بخلق الموقف التجريبى، الذى يسمح له بمعرفة التأثير الناتج للمتغيرات المستقلة على المتغيرات التابعة، والكشف عموما عن العلاقة السببية بينها.

٢- ضرورة إهتمام الباحث بكل من البيانات الاساسية أو المصادر الاولية، والبيانات الثانوية وجمع الحقائق اللازمة حول الظاهرة المدروسة، وخاصة أن البيانات الثانوية تكون دائماً عرضه للخطأ والتحيز وعدم الدقة.

٣- نظراً لصعوبة دراسة الظاهرة الاجتماعية وإخضاعها للتجربة، يجب أن يقوم الباحث بتصنيف البيانات وتحديدها بين ماهو مباشر أو أولى، وبين البيانات الغيرمباشرة. (الثانوية) ولاسيما خلال مرحلة إجراء التجربة.

٤- ينبغى أن يقوم الباحث بتحديد مجموعة الفروض مسبقاً بصورة دقيقة، والتحقق منها خلال إجراء التجربة وإستبعاد ما هو غير صحيح أو باطل، وإبقاء الفروض السليمة أو الصحيحة، ثم يحاول أن يعيد عملية التجريب مرة أخرى، للتحقق من صدق النتائج التى توصل إليها فى التجربة الأولى وملاحظتها.

---

(١) غريب سيد أحمد، مرجع سابق، ص١٢٠.

ولمزيد من التفاصيل حول هذه المبادئ يمكن الرجوع إلى المرجع التالى:

- أندروز، مناهج البحث فى علم النفس، ترجمة يوسف مراد، القاهرة، دار المعارف ١٩٥٩، ص ص١٣-١٥.

٥- ضرورة أن يقوم الباحث بكيفية استخدام المجموعة الضابطة Control Group والتي تتحصر في ملاحظة مجموعتين متقاربتين من الأفراد أثناء أدائهم تحت نفس الظروف فيما عدا ظروف واحد، ويمثل سلم الوجود الموجود أو الغياب بهذا العنصر الواحد المتغير المستقل للتجربة، أما الإختلاف في الأداء بين المجموعتين فهو (المتغير التابع) وهو أحد وظائف المتغير المستقل، بعد إستبعاد كل مصادر التأثير الأخرى.

٦- ضرورة أن يحدد الباحث طبيعة الملاحظة، التي يقوم بإستخدامها عند تطبيقه المنهج التجريبي في دراسة الظواهر الاجتماعية، وخاصة أن الملاحظة المضبوطة، تستخدم في إختبار صدق الفروض، وهي ليست ملاحظة سلبية لمعرفته ما يحدث بين كل من المجموعتين (التجريبية والضابطة)، ولكنها ملاحظة إيجابية تتركز مهمتها للتعرف على التغير الذي ينشأ بين المجموعتين، نتيجة لتلقى إحداهما تأثير عامل معين وحرمان المجموعة الأخرى من تاثير هذا العامل[1].

٧- ينبغي أن يعرف الباحث جيداً، أن المنهج التجريبي، ليس هو المنهج الوحيد المستخدم في دراسة الظواهر الاجتماعية، أو الذي يقوم بعملية التفسير والتحليل والبحث عن العلاقات السببية بين الظواهر والقضايا المطروحة للدراسة، لكن هناك العديد من المناهج البحثية الأخرى ولاسيما المنهج التاريخي.

٨- ضرورة أن يفهم الباحث أن عملية تفضيل إستخدام المنهج التجريبي في دراسة الظواهر الاجتماعية، جاءت نتيجة لسرعة الحصول على البيانات والنتائج عند تطبيق هذا المنهج في الدراسات الاجتماعية، وإمتيازه عن المناهج الأخرى، بقدر من الخصائص العامة والتي من أهمها تركيز هدفه الأساسي للكشف عن العلاقات السببية الدقيقة، التي تحدث بين عناصر الظاهرة الواحدة أو الظواهر الاجتماعية المتداخلة معها، وهذا ما يميزه عن بقية المناهج العلمية الأخرى المستخدمة في الدراسات الاجتماعية.

---

(١) للمزيد من التفاصيل إلجع إلى:

-محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعي: مبادئه ومناهجه، القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٣، ص٢٥١.

٩- يجب أن يتعرف الباحث على طبيعة التمايز والإختلاف بين خصائص الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية، ولاسيما عند تطبيقه للمنهج التجريبي خطوة تلو الأخرى. كما يجب أن يدرك تماماً، أن حدوث الظاهرة الاجتماعية، لايمكن رجوعها إلى العامل الأوحد، بقدر ما ترجع حدوثها إلى مجموعة من العوامل المتعددة وهذا ما يجعل هذه الظاهرة متميزة ومنفردة من ناحية الخصائص والسمات العامة لها، وتعقدها عموماً عند دراستها وتحليلها، ولاسيما عند إستخدام المنهج التجريبي، الذى صنع أساساً لدراسة الظواهر الطبيعية.

بإيجاز تلك أهم المبادئ والأسس العامة التى يقوم عليها المنهج التجريبى، ويجب أن يهتم بها الباحثون عند تطبيق دراسة الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية، وهذا ما سنوضحه أكثر عند تحليلنا لخطوات هذا المنهج بصورة عامة.

٤- خطوات المنهج التجريبى.

أشرنا فى الفصل السابق عن طبيعة المنهج العلمى وخطواته الأساسية والتى تم معالجتها بالتفصيل، ونجد من الأهمية الإشارة بصورة مختصرة جداً، لطبيعة خطوات المنهج التجريبى التى تماثل تقريباً نفس خطوات المنهج العلمى، ويمكن الإشارة إلى أهم خطوات المنهج التجريبى وإستخدامه فى العلوم الاجتماعية خاصة كما يلى:

(١) تحديد المشكلة وتوضيحها:

تعتبر هذه الخطوات أولى خطوات المنهج التجريبى، ولاسيما أن الباحث بعد شعوره بوجود مشكلة ما يتعين عليه تحديدها فى عدد من التساؤلات أو سؤال عام يسعى للإجابة عليه. وأن يوضح تماماً العناصر الاساسية فى المشكلة أو الظاهرة المراد بحثها ودراستها، وتحديد أبعادها التى ينبغى أن تتركز عليها محاولات الحل، وتحديد الظروف والأحوال العامة. فى نفس الوقت، يقوم الباحث بطرح عدد من الصعوبات التى تواجهه عند إجراء تحليل دقيق لأهم هذه الصعوبات من أجل حلها بصورة علمية. ومن ثم، فإن تحديد وتوضيح المشكلة، التى تواجه الباحث ويحرص عليها، يتطلب منه القيام بجمع البيانات والمعلومات التى تساعده على فهم المشكلة وكيفية تحديدها

بصورة عامة وبإيجاز، يمكن تحديد عناصر هذه الخطوة فى تحديد الهدف من البحث، وإمكانية البحث، ومجموعة العوامل والظروف التى تحيط ببحث المشكلة المراد تحليلها وتفسيرها.

(٢) صياغة الفروض العلمية.

تجئ هذه الخطوة الثانية، بعد تحديد المشكلة وتوضيحها، ويقصد بالفروض التساؤلات أو التفسيرات المؤقتة التى يطرحها الباحث لدراسة وحل المشكلة أو الظاهرة قيد البحث والدراسة. أو هى الافكار المبدئية التى تربط بين الظاهرة المدروسة وبين العوامل أو الأسباب المسببة لها. وقد يطرح الباحث فروضاً على هيئة تساؤلات بسيطة أو مركبة، وذلك بعد أن يكون قد أنتهى من مرحلة تحديد مشكلة موضوع بحثه أودراسته. ثم يحاول بعد ذلك فى مرحلة لاحقه، التحقق من صحة هذه التساؤلات (الفروض)، وذلك من أجل تحديد ماهيتها سواء أكانت صحيحة أو إيجابية أو كاذبة وسلبية. كما يستطيع الباحث أن يصيغ الفروض بأشكال متعددة يعبر فيها عن العلاقة التى تربط بين متغيرين، أو مجموعة من المتغيرات المترابطة، أو نوع العلاقات السببية. من ناحية أخرى، يجب أن يوضح مصادر الفروض أو المعلومات التى بنى عليها أفكاره والأدوات وطرق ووسائل جمعها، وذلك من أجل الكشف عن العلاقات السببية وبإيجاز، فإن الفروض يمكن تحديدها، بأنها القانون العلمى الذى يهدف إليه الباحث بعد تثبيت صحته فى نهاية البحث[١].

(٣) طرق التحقق من الفروض.

تعتبر هذه الخطوة من أهم خطوات المنهج التجريبى أو أى منهج علمى عامة، كما تتطلب خلال هذه المرحلة من الباحث أن يضع تصميماً واضحاً يحاول فيه، أن يختبر مجموعة الفروض أو التساؤلات التى وضعها مسبقاً، وذلك بصورة تجريبية. ولهذا، تعتبر التجربة هى الملاحظة العلمية الدقيقة المنظمة، التى يستطيع الباحث أن يتحكم خلالها فى مجموعة الظروف التى تحيط بالظاهرة ، وخلق نوع من الموقف التجريبى، لدراسة المتغيرات وعلاقتها ببعضها كما يستطيع بعد ذلك، أن يعدل من بعض هذه الظروف أو جميعها، وذلك من أجل إعادة التجربة مرة ثانية، ليلاحظ ويقيس مجموعة من

---

(١) أنظر ما كتبناه سابقا تحت تحليل الفروض العلمية فى الفصول السابقة (المنهج العلمى).

الملاحظات والشواهد، التى يستطيع عن طريقها بعد ذلك، تحديد أو تثبيت الفروض العلمية الصحيحة وإستبعاد غير الصحيحة منها، حتى يصل فى النهاية إلى النتائج العامة والتعميم حولها فى صيغة قانونية علمية.

ولقد تناولنا طبيعة تطور عمليات التحقق من الفروض (التجربة)، خلال هذا الفصل عندما أشرنا إلى إسهامات فرنسيس بيكون، وما يعرف بمجموعة القواعد أو القوائم، التى يمكن إستخدامها للكشف عن الحقائق المرتبطة بالظاهرة أو المشكلة. وهذا ما جاء فى أفكاره أولاً حول الأوهام الأربعة (الجانب السلبى)، وهى أوهام الجنس، والكهف، والسوق، والمسرح، وثانياً: إلى الجانب الإيجابى (تصنيف الواقع) والتى طرح فيها عدد من القوائم هى: قائمة الحضور، والغياب، والتفاوت، وثالثاً منهج أو طريقة الإستبعاد الذى يهدف إلى إستخلاص الفروض الصحيحة ومحاولة إستبعاد الفروض الباطلة. فى نفس الوقت يجب أن نوضح، أن " جون ستيوارت ميل "، قد طرح عدد من خطوات التحقق من الفروض وهى تتشابه مع أفكار "بيكون" السابقة مع إضافة بعض التعديلات الحديثة، التى لاتزال تستخدم حتى الوقت الحاضر ونظراً لأهمية تحليلات (ميل) سوف نشير إليها بصورة موجزة كما يلى:

(أ) طريقة الإتفاق Method of Agreement.

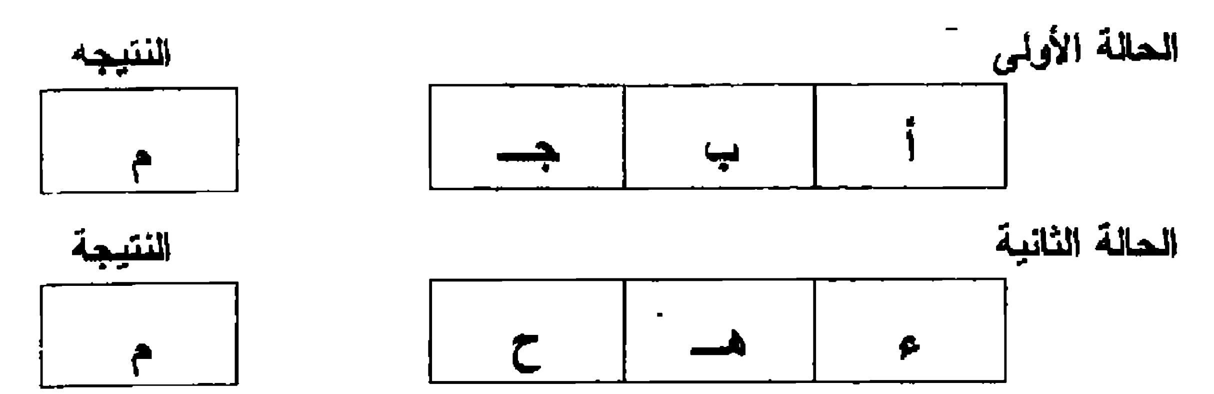
تنحصر هذه الطريقة فى المقارنة بين أكبر عدد من الظواهر أو المشاكل المراد إدارتها أو الظروف المحيطة بها، والتى تشمل بالضرورة على سبب الظاهرة الأولى. ولقد حدد (مل) هذه الطريقة كالاتى: إذا إتفقت حالتان أو أكثر من الظواهر المراد بحثها فى ظرف واحد فقط، فهذا الظرف الوحيد الذى تتفق فيه جميع هذه الحالات، هو السبب فى هذه الظاهرة أو نتيجة لها[1].

ويمكن أن نعبر عن هذه العلاقة بالصورة الرمزية التالية:

---

(١) طرحت هذه الطريقة العلمية: فى العديد من المراجع العربية والأجنبية أنظر على سبيل المثال:

- غريب سيد أحمد، مرجع سابق، ص١٢٠.
- عبد الباسط محمد حسن، مرجع سابق، ص٣٨٤.



ففى الحالة الأولى والثانية، نلاحظ أن العامل(جـ) موجود أقل حالة تحدث فيها الظاهرة (م)، إذن نستنتج أن العامل (جـ) هو سبب حدوث الظاهرة (م).

(ب) طريقة الإختلاف Method of Difference.

تحدد هذه الطريقة على أساس أن النتيجة ترتبط بالسبب وجوداً وعدماً، فإذا وجد السبب وجدت النتيجة، وإذا إختفى هذا السبب إختفت النتيجة أيضاً، ويمكن التعبير عنها بالصورة الرمزية التالية:

الحالة الأولى			النتيجة
أ	ب	جـ	م

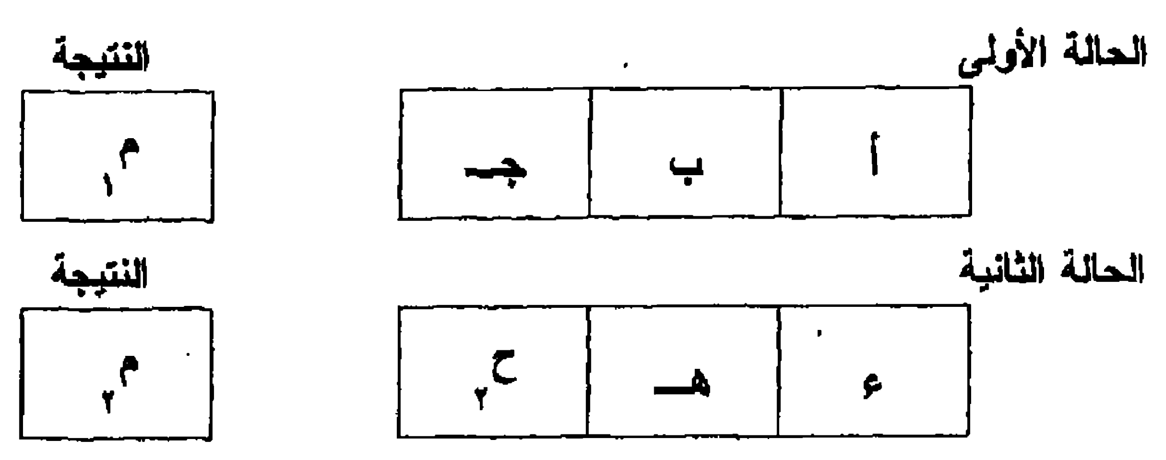
الحالة الثانية			النتيجة
ء	هـ	ح غير موجود	م غير موجود

إذن فإن العامل (حـ) هو السبب في حدوث النتيجة (م) ونستخدم هذه الطريقة كثيراً فى الدراسات الاجتماعية، حيث يطلق على المجموعة التى يبحث تأثير العامل بإسم المجموعة التجريبية Experimental Group، وعلى المجموعة الأخرى إسم المجموعة الضابطة Control Group، وبالطبع، أن إستخدام المجموعة الضابطة تعتبر عنصراً هاماً فى إجراء البحث الاجتماعى.

(جـ) طريقة التلازم فى التغير (التغير النسبى) Method of Concomitant Variation.

وتتحدد هذه الطريقة على أساس إذا وجدت مجموعتين من الظواهر فيها مقدمات ونتائج، وكان التغير فى كلا المجموعتين، ينتج تغيراً فى النتائج

فى كلاً من المجموعتين ايضاً، وبنسبة معينة فلابد أن تكون هناك علاقة سببية بين كل من المقدمات والنتائج. ويمكن صياغة هذه الطريقة بصورة جديدة كما يلى: " أن الظاهرة التى تتغير على نحو ما كلما تغيرت ظاهرة أخرى علــــى نحو خاص، تعد سبب أو نتيجة لهذه الظاهرة أو مرتبطة بها بنوع من العلاقــة السببية" ويمكن الإشارة إلى هذه الطريقة الصورة الرمزية التالية:



إذن يمكن القول بأن العامل (جــ) نتيجة (م) مرتبطان بعلاقة سببية، وكثيراً ما يستخدم هذه الطريقة فى البحوث والدراسات الاجتماعية تحت إســـم طريقــة الترابط Correlaotion، ولقياس علاقة الترابط يستخدم الباحث حساب معــامل الإرتباط، وهو يتراوح دائماً ما بين +١، -١ ففى الحالة الأولى تكون العلاقــة تامة موجبة، وفى الحالة الثانية تكون العلاقة تامة سالبة.

(ء) طريقة البواقى.

يطرح (ميل) هذه الطريقة على النحو التالى " إذا أدت مجموعة مــن المقدمات إلى مجموعة أخرى من النتائج، وأمكن أرجاع جميع النتـــائج فــى المجموعة الثانية ماعدا نتيجة واحدة إلى جميع المقدمات فى المجموعة الأولى ماعدا مقدمة واحدة. فغالباً ما تكون هناك علاقة بيـــن المقدمــة والنتيجتيــن الباقيتين"

المجموعة الأولى (المقدمات)	أ	ب	ج	ء
المجموعة الثانية (النتائج)	هــ	و	ز	م

فيمكن إستنتاج هذه الطريقة عن طريق وجود العلاقات السببية بين كــل مــن مجموعة المقدمات وبين مجموعة النتائج، وأن هناك علاقة بين (أ. هـــــ)، (ب . و) ، (جـــ . ز) فمن الغالب بالطبع وجود علاقة بين (ء . م)

وفى الحقيقة، أن (ميل) قد تحفظ على هذه الطريقة ، لأنها لا تستخدم كثيراً وبصورة مباشرة فى التحقق من الفروض، ولكنها تعتبر بمثابة أسلوب تجريبى ينتهى إلى إستخلاص وجود ظاهرة جديدة كانت مجهولة وتحتاج إلى نوع من التفسير، نظراً لوجودها وبقائها فى النهاية. على أية حال، تلك أهم الطرق العلمية للتحقق من الفروض التجريبية التى طرحها " جون ستيورات ميل" ، ولا تزال موضع إهتمام كثير من جانب علماء مناهج البحث الاجتماعى، وتطبيقها فى دراساتهم الإجتماعية وأيضاً تعتبر أهم نقاط الإهتمام المرجعى للبحث العلمى فى العلوم الطبيعية، ولاسيما أنها تستخدم المنهج التجريبى، وتسعى للتوصل إلى القوانين والنظريات العامة.

(٤) إستخلاص النتائج والتعميمات.

تكمن أهداف أى بحث علمى وإستخدم مناهج علمية كانت فى ضرورة العوامل إلى عدد من النتائج والتعميمات التى تم إستخلاصها بصورة أساسية سواء عن طريق البخوث النظرية أو الميدانية (الاميريقية). فبعد خطوة التحقق من الفروض وإثبات صحتها عن طريق التجربة أو الملاحظة العلمية، لابد أن يصل إلى مرحلته النهائية والتى تترجم فى عملية تثبيت الفروض الصحيحة فى عدد من النتائج التى تصل إلى درجة التعميم وصياغتها فى مجموعة من القوانين والنظريات العلمية التى يمكن تطبيقها بعد ذلك على نفس الظواهر التى تم التحقق منها أو مثيلتها كما يمكن إخضاع هذه النتائج والقوانين والنظريات للبحث العلمى مرة أخرى وذلك من أجل تعديلها أو التحقق منها بمرور الوقت ولاسيما أن من خصائص القوانين والنظريات العلمية أن تخضع بصورة مستمرة للتعديل والتغيير ولذا وصفت هذه النظريات بأنها نظريات ديناميكية وليست إستاتيكية.

٥- أنواع التصميمات التجريبية.

كشفت خطوات المنهج التجريبى، مدى تسلسل هذه الخطوات والتى يمكن إعتبارها الأسس الإجرائية لتطبيق هذا المنهج فى البحوث الاجتماعية، كما لاحظنا أن تطور الإهتمام بالمنهج التجريبى، لم يظهر بصورة دقيقة إلا مع البدايات الأولى لظهور المجتمع الصناعى الحديث، الذى جاء كنتيجة طبيعية لتطور التقدم العلمى والذى بدأته بالفعل عملية تطور العلوم الطبيعية.

وجاء إهتمامات علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى، للسعي جماهدة لتبنى نفس مناهج هذه العلوم، ولاسيما، ان المنهج ما هو إلا الوسيلة العلمية المنظمة التى تعتمد على الملاحظة، والتجريب كأساس للبحث العلمي ودراسة الظواهر والمشكلات والقضايا الاجتماعية الواقعية. على اية حال، إن مرحلة إختبار صحة الفروض أو التحقق منها بصورة تجريبية، نحتاج إلى بعض التعميمات التجريبية، التى تحدد بواسطتها هذه الفروض، ومعرفة الظروف والعوامل التى تحيط بالظواهر أو المشكلات المدروسة بصورة عامة.

وبالطبع، لقد إهتم علماء الاجتماع بتصنيف التجارب تبعاً لعدة معايير منها:

أولاً: تحديد عامل الزمن أو الوقت الذى يتم فيه إجراء التجربة، وايضا مدى أو طول هذا الوقت أو ما هى القوى الزمنية التى يحتاج الباحث لإجراء بحثه، حتى يتحقق من صحة الفروض التى طرحها مسبقاً فقد لاتحتاج دراسة الظاهرة أكثر من ساعات قليلة، أو قد تحتاج إلى عدة سنوات طويلة مثال على ذلك تجارب هاورثون التى أجراها التون مايو فى الفترة ٢٧/ ١٩٣٢، والتى إستغرقت خمس سنوات، ثم أستؤنفت بمجموعة ثانية من التجارب فى الفترة ما بين ٤١/١٩٤٤.

ثانياً: يمكن تصنيف التجارب وتميزها من حيث العينة، فقد يستخدم الباحث مجموعة من الأفراد فى التجربة، يقيس مثلاً إتجاهاتهم وميولهم، حسب موضوع أو قضية معينة، ثم يحاول أن يدخل (متغير تجريبى)، وذلك من أجل معرفة أثر هذا المتغير. ويحاول بعد ذلك قياس إتجاهات المجموعة مرة ثانية وبالطبع أن التغير الناتج عن رأى المجموعة الأخير، ورأيها الاول يكون ناتجاً عن تاثير المتغير التجريبى.

على أية حال، هناك العديد من التصنيفات وأنماط النماذج التجريبية. ونحاول حاليا، أن نطرح عدد من أهم هذه التصنيفات وهما[١]:

---

(١) توجد تصنيفات متعددة فى العديد من المراجع المرتبطة بالمنهج التجريبى، ولكننا رجعنا إلى المرجع التالى لسهولة معرفته. خاصة بالنسبة للطالب المبتدئ فى علم الاجتماع:

– ليلى دواز، البحث فى العلوم النفسية والاجتماعية،دمشق، مطبعة عابدين، ١٩٨٩، ص ص ٧٨-٧٩.

أولاً: المجموعة الواحدة والقياس القبلي-البعدي:

ويتضح من تسمية هذا التصميم، أن الباحث يستخدم مجموعة واحدة من الأفراد، وتكون كمجموعة ضابطة ومجموعة تجريبية في نفس الوقت ويظهر ذلك من خلال طرحنا للمثال التالي، إذا أردنا أن ندرس أثر الحافز المادي في زيادة إنتاجية أحد المصانع فيقوم الباحث بإختيار عينة من عمال المصنع ذاته ويقيس إنتاجية هؤلاء العمال أولاً، وبعد ذلك يدخل الحافز بإعتباره (المتغير التجريبي). ثم يقيس مرة ثانية إنتاجية نفس العمال. فالفرق الناتج في زيادة الإنتاج يرجع إلى الحاضر (المادي) (كمتغير تجريبي)، وهذا ما يظهر في النموذج التالي:

المجموعة التجريبية   قبل المتغير بعد إدخال المتغير   ص١-ص=الفرق

ويستخدم هذا التصميم بصورة خاصة في البحوث والدراسات الاجتماعية البسيطة، والتي تجرب على وحدات إنتاجية أو خدمية مثل المصانع والشركات، والمستشفيات ولكن قد يواجه هذا التصميم صعوبات متعددة منها: أن طبيعة البحوث أو الدراسات الاجتماعية التي تجري على ظواهر أو مشكلات إجتماعية، من الصعوبة تحديد تاثيرها بعامل واحد فقط وهو (المتغير التجريبي) في حالة الحافز المادي، الذي إستخدم في المثال السابق، فكثيراً ما تؤكد عوامل أخرى تشارك هذا المتغير مثل عامل التدريب، وطبيعة الإدارة، والظروف الفيزيقية، وغيرها التي تلعب دوراً أساسياً في زيادة إنتاجية العمال.

ثانياً : المجموعات المتكافئة.

ويشمل هذا من التصنيفات التجريبية إستخدامه أكثر من مجموعة، يفترض مسبقاً أو م بدائياً أن يتحقق بين هذه المجموعات نوع من التكافؤ، وعموما يتضمن هذا التصنيف أكثر من طريقة وهي[1]:

١- طريقة المجموعة التجريبية الواحدة والمجموعة الضابطة الواحدة.

٢- طريقة المجموعة التجريبية على أكثر من مجموعة ضابطة.

---

(١) المرجع السابق، ص٨٠، أنظر أيضاً، عبد الباسط حسن، ص٤٠٠، غريب سيد أحمد، ص٢٨٨.

٣- أكثر من مجموعة تجريبية على مجموعة ضابطة.

ويمكن عرض كل طريقه من هذه التصميمات بصورة موجزة كما يلي:

١- طريقة المجموعة التجريبية الواحدة والمجموعة الضابطة الواحدة.

(أ) القياس القبلى للمجموعة الضابطة. والبعدى للمجموعة التجريبية.

يقوم الباحث بإختيار هذا الأسلوب لقياس عينتين متكافئتين من مجتمع أصلى واحد، ويقيس (المتغير التابع) فى إحدى المجموعتين فقط، ثـــم يقــوم بعرض المجموعة الثانية (للمتغير التجريبى)، بالطريقة التى يقوم بتحديدهـــا، ويقيس المتغير التابع بعد أن يعرضها أيضا للمتغير التجريبى.

ويستطيع الباحث أن يميز الفرق بين القياس، الذى تم تطبيقـــه علـــى المجموعة الضابطة، والقياس الذى أجراه على المجموعة التجريبية، فالنـــاتج بالطبع نتيجة إدخال المتغير التجريبى، يعتبر ناتجاً عن تأثير هـــذا المتغـــير. ولكن هناك مجموعة من الصعوبات التى تواجه -منها صعوبة إيجاد مجموعتين متكافئتين بصورة دقيقة، (٢) قد لايعود الفرق الناتج من قيـــاس المجموعتيـــن نتيجة للمتغير التجريبى بإعتباره عامل واحد، لكن هناك العديد مـــن العوامـــل التى تتداخل مع هذا المتغير وتؤثر فى النتيجة النهائية للبحث.

(ب) القياس البعدى فى كل من المجموعتين: التجريبية والضابطة.

ويقوم هذا الأسلوب على إختيار الباحث عينتين متكافئتين، من أصول الظاهرة أو المجتمع الذى يقوم بدراسته وتحليله. ثم يبدأ أولاً بإدخال (المتغـــير التجريبى) على المجوعة التجريبية فقط، وبعد الإنتهاء من التجربة يقوم ثانيـــا بقياس (المتغير التابع) فى المجوعتين، ثم يقوم بمقارنة الفرق بينهما، والـــذى ينتج بالطبع نتيجة لإدخال المتغير التجريبى.

ولكن توجد صعوبات تعيب إستخدام هذا الأسلوب أو القياس، ومنـــها: ان الإكتفاء بقياس المتغير التابع، عند المجموعتين بعد إنتهاء التجربة، لايعكس تماماً طبيعة ما كان عليه أفراد المجموعة مثل إجراء العينة، لوجود إحتمـــالات أكثر تفسر هذا الإختلاف أو الفرق مثل ثبوت الفروق بين الأفراد بعد إنتـــهاء التجربة وقبلها، وقد يعود التغيير راجع إلى عوامـــل أخـــرى تمـــيز العـــامل التجريبى ذاته.

(جـ) القياس القبلي والبعدي للمجموعتين الضابطة والتجريبية.

يستخدم هذا القياس ويطبق على عينتين متكافئتين. يقاس أولاً (المتغير التابع) عند المجموعتين قبل البدء بالتجربة، ثم بعد ذلك تعرض المجموعة التجريبية فقط، إلى تأثير (المتغير التجريبي). وثانياً، يقاس (المتغير التابع) بعد إنتهاء التجربة للمجموعتين. وأخيرا، يمكن إعتبار الناتج بين نتائج القياس، يرجع إلى تأثير (المتغير التجريبي).

يواجه هذا الأسلوب تقريبا نفس صعوبات القياس السابقة، نظرا لصعوبة التأكد من صحة درجة التكافؤ بين المجموعتين، كما أن الفرق الناتج عن القياس ليس بالضرورة ناتج عن تأثير المتغير التجريبي بمفرده.

٢- طريقة المجموعة التجريبية مع أكثر من مجموعة ضابطة: القياس القبلي -البعدي.

يطبق هذا التصميم على أكثر من مجموعة ضابطة، يطبق نفس الإجراءات التي تتم في القياس (القبلي- البعدي) على المجموعتين. مع إضافة مجموعة ضابطة (ثانية) وهي مجموعة مكافئة للمجموعتين. وثانيا، يقوم الباحث بتعريض المجموعة الأخيرة لتأثير (المتغير التجريبي)، ويقوم بعد ذلك بقياس الأثر الناتج عن إدخال هذا التغير.

ونظرا لأن المجموعات الثلاث تعتبر مجموعات متكافئة، لذا يفترض أيضا أن نتائج القياس القبلي للمجموعتين الضابطة الأولى، والتجريبية يمكن أن يعطي صورة صادقة بالنسبة للمجموعة الثالثة. وعن طريقة إستخدام المقارنه بين نتائج المجموعة الأخيرة (الثالثة)، في القياس البعدي وبين متوسط نتائج القياس القبلي للمجموعتين، يمكن التوصل إلى أن الفارق الحاصل جاء نتيجة عن تأثير (المتغير التجريبي).

وعموماً يمكن تمثيل هذا التصميم بالصورة التالية:

مجموعة تجريبية	مجموعة ضابطة (٢)	مجموعةضابطة(١)
قياس قبلي	بدون قياس	قياس قبلي
تعرض للمتغير التجريبي	تعرض للمتغير التجريبي	ـــــــ
قياس بعدي	قياس بعدي	قياس بعدي

(٣) طريقة القياس لأكثر من مجموعة تجريبية مع مجموعة ضابطة:

فى الدراسات الاجتماعية يلجأ الباحث إلى إستخدام المقارنة بين تأثير أكثر من متغير تجريبى فى متغير تابع واحد. ولذا، يستعمل فى هذه الحالة مجموعتان تجريبيتان. يقوم أولا بتعرض المجموعة الأولى للمتغير التجريبى (الأول)، بينما تعرض الثانية (المتغير التجريبى الثانى). وتكون إحدى المجموعتين بالنسبة للأخرى، بمثابة مجموعة ضابطة مستقلة. مثال ذلك، عند مقارنة الباحث مثلاً بين تأثير نوعين من الحوافز– حوافز المادية – حوافز معنوية على زيادة إنتاج عمال إحدى الشركات، وذلك من أجل المفاضلة بين نوعين من الحوافز السابقة. فيكون النوع الأول من الحوافز (المتغير التجريبى الأول)، والنوع الثانى من الحوافز ، (المتغير التجريبى الثانى). وعموما يمكن فى هذا التصميم إستعمال اساليب القياس التالية كدراسة مجموعتين تجريبيتين ومجموعة ضابطة:

١- القياس القبلى للمجموعة الضابطة والقياس البعدى للمجموعتين التجريبيتين

٢- القياس البعدى فى كل من المجموعة الضابطة فى المجموعتين التجريبيتين.

٣- القياس القبلى- البعدى للمجموعات كافة.

ثالثاً : طرق تدوير المجموعات (الطرق التبادلية).

يعكس هذا النوع الثالث من التصميمات التجريبية، أسلوبا مغايرا للتصميمات السابقة، وذلك من أجل التحقق من صعوبات إستخدام هذه المقاييس، ودقة النتائج التى يمكن التوصل إليها خاصة بعد إدخال المتغير التجريبى أو أكثر من متغير تجريبى. ولذا، يطلق على عملية تدوير المجموعات (كنظام إجرائى) يتلافى بقدر الأحكام عوامل الخطأ وعدم واقعية المقاييس، وتحديد تأثير المتغير التجريبى. وطبقاً لهذا النوع من التصميمات التجريبية، يقوم الباحث بتطبيق المتغيرات التجريبية ذاتها على المجموعتين فى دقيقتين مختلفتين خلال قيام التجربة، أو على المجموعة الواحدة خلال التجربة ذاتها.

ومن ثم، يتطلب هذا النوع من التصميمات، إذا طبقت على مجموعة واحدة تتغير وقت تتابع الوحدات الضابطة والتجريبية وهذا ما يظهر في الشكل التالي:

- الدورة الأولى: البدء بالطريقة التجريبية ثم إتباعها بالطريقة الضابطة.

-الدورة الثانية: البدء بالطريقة الضابطة ثم إتباعها بالطريقة التجريبية.

وعند التطبيق على مجموعتين متكافئتين تكون التجربة كما يلي:

الدورة الأولى :	المجموعة أ	طريقة تجريبية.
	المجموعة ب	طريقة ضابطة.
الدورة الثانية:	المجموعة أ	طريقة ضابطة
	المجموعة ب	طريقة تجريبية.

ومثال ذلك، إذا أراد أحد الباحثين أن يفاضل بين نوعين من الحوافز، بمعرفة أثرهما على زيادة الإنتاج، فعليه أن يختار مجموعتين من العمال في المصنع الذى تجرى عليه الدراسة، ويقوم بتعريض المجموعتين لنوع الحوافز ذاتها في دقيقتين مختلفتين خلال البحث. كما يقوم بتحديد الإنتاج سواء من الناحية الكمية والنوعية طبقاً لقياس تأثير أنواع هذه الحوافز، وقياس مدى تاثيرها على الإنتاج عموماً مدى المجموعتين من العمال.

٦- حدود المنهج التجريبي .

تعكس التحليلات السابقة حول طبيعة المنهج التجريبي وتعريفاته المختلفة، ونوعية التطور التاريخي لأهتمام علماء العلوم الاجتماعية عامة، وعلم الاجتماع خاصة، عن مدى حرص هؤلاء العلماء على ضرورة تبنى هذا المنهج في دراسة الظواهر الاجتماعية، ولاسيما بعد أن حققت منهجية البحث التجريبي في العلوم الطبيعية، تقدماً كبيراً في دراسة الظواهر الطبيعية. ولكن إستخدام المنهج التجريبي في العلوم الاجتماعية، لـه العديد من المبادئ والمسلمات العامة، التي ينبغي أن يهتم بها الباحث في مجال العلوم الاجتماعية ومنها علم الاجتماع. وخاصة عندما يستخدم خطوات المنهج التجريبي وطرقه المختلفة. وهذا ما طرحناه بالفعل في عدد من أنواع التصميمات التجريبية،

التي يمكن الإستعانة بها في إجراء البحث التجريبي، الذي يخضع لقواعد المنهج العلمي، التي تم التعرف عليها خلال هذا الفصل والفصول السابقة.

ولكن هذا الإهتمام العام بالمنهج التجريبي والدعوة إلى إستخدامه في الدراسات الاجتماعية، لايزال يواجه مجموعة من الصعوبات التي تظهر أمام الباحثين عن إجراء بحوثهم، والتي تتمثل في حدود إستخدامات المنهج التجريبي من الناحية العلمية. وخاصة هناك الكثير من علماء المناهج وطرق البحث الاجتماعي لديهم عدد من التحفظات، على إستخدامات هذا المنهج، نظراً لأنه صمم أساساً للدراسات والبحوث الطبيعية. وعلى أية حال، يجب من الناحية الموضوعية أن نشير بإيجاز شديد إلى بعض هذه الصعوبات، التي تواجه إستخدام المنهج التجريبي في الدراسات الاجتماعية بصورة عامة:

(١) تواجه الباحثين الذين يستخدمون المنهج التجريبي صعوبات نظرية لتوجيه هذا المنهج في الدراسات والبحوث الاجتماعية، أو ما يعرف بالتوجيه النظري للبحوث التجريبية، ولاسيما أن هذا التوجيه يجب ان يرتبط بالمنهج التجريبي، وتطبيقه ميدانياً بصورة دائمة، وهذا ما يصعب تحقيقه في البحوث الاجتماعية.

(٢) يعتبر البعض من أمثال (هربرت ماركيوز)[١]، أن منهجية وأدوات جمع البيانات في البحوث التجريبية (الإمبريقية)، تستند كثيراً إلى التزييف، لأنها تقوم بعزل الظواهر وتفتيتها، دون الأخذ في الإعتبار طبيعة الظواهر الاجتماعية وخصائصها العامة.

(٣) إن الإعتماد على المنهج التجريبي، يجعل الباحثين يهتمون بالإمور السطحية وغير المتعمقة، عند دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية. وهذا ما يظهر من خلال إستخدامهم لطرق وأدوات جمع البيانات مثل المقابلات السريعة أو تحليل آراء الصحبة المستخدمة في البحث دون التعمق في جوهر وطبيعة المشكلات أو السلوك الواقعي لأفراد العينة.

(٤) توجد صعوبة علمية هامة تواجه الباحثين عند إستخدامهم للمنهج التجريبي ويتمثل ذلك في تحديد مفردات العينة، ونوعية طرق وأدوات جمع

---

(١) هربرت ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابلس: بيروت، دار الأدب، ١٩٦٩، ص١٤٥.

البيانات الملائمة لدراستها وتحليلها، وهذا ما يتطلب إنماط من الباحثين ذو قدرات تاهيلية وتدريبية عالية، وهذا ما لم يتوفر فى معظم البحوث التجريبية.

(٥) صعوبة تحقيق(الضبط التجريبى)، عند دراسة المواقف الاجتماعية، نظواً لطبيعة السلوك الإنساني والظواهر الاجتماعية المعقدة، وقدرة الفرد على تقيد سلوكه في مواقف تجريبية مخططة.

(٦) عند إستخدام تصميمات تجريبية معينة، أو تحديد المجموعات التجريبية أو الضابطة، من الصعب تحديد هذه المجموعات بدقة. وهذا ما يظهر على سبيل المثال، عند تحديد المجموعات المتكافئة، من أفراد العينة الواحدة، ونظراً لوجود فروق فردية بين أفراد هذه المجموعات وتؤدى إلى نتائج عكسية وغير دقيقة.

(٧) أن إستخدام المتغير التجريبى وإدخاله على المجموعات التجرية لمعرفة أثر أو تأثير هذا المتغير وقياس بعد ذلك بعداً أمراً مشكوك فيه، لأن دراسة الظاهرة الاجتماعية لايمكن تحديد سببها فى إطار تاثير العامل الأوحد، نظراً لوجود عوامل متعددة تتداخل فى تشكيل الظاهرة وتفسيرها بصورة عامة.

(٨) إن عملية إخضاع ظواهر إجتماعية معقدة مثل الأسرة، والطبقة، والثورة، والمكانة، والوضع الاقتصادى، والثقافى، أمراً يعد بالغ الصعوبة، عند إستخدام المنهج التجريبى، ومن الصعوبة عادة إخضاعها للتجربة، أو الموقف التجريبى، وتعزر إخضاعها للقياس الكمى[١].

(٩) تستلزم عملية تحقيق إختبار الفروض بصورة علمية. الإلتزام بالموضوعية والحياد العلمي والأخلاقى، قبل إجراء التجارب فى العلوم الطبيعية، التى تحد عموماً من تدخل الباحث فى مجريات البحث التجريبى، وهذا ما يتعزر تحقيق كثيراً عند إجراء البحوث الاجتماعية والإنسانية.

(١٠) كثيراً ما تتأثر نتائج البحوث الاجتماعية التجريبية وعمليات أجرائها بالعديد من العوامل الخارجية الأخرى، والتى تتمثل فى أيديولوجيات

---

(١) أنظر محمد على محمد، مرجع سابق، ص٢٢٥.

الباحثين، والهيئات والحكومات الممولة للبحوث والباحثين في نفس الوقت. علاوة على العديد من أخلاقيات البحث الاجتماعي الأخرى، التي تؤثر بصورة مباشرة وغير مباشرة، عن نتائج البحث العلمي عامة وخاصة في الدول النامية.

في النهاية، يجب أن لا نأخذ طبعا متشائما بصورة عامة عند إستخدام المنهج التجريبي أو غيره من المناهج العلمية الأخرى عند إجراء البحوث الاجتماعية، كما أن الصعوبات السابقة، لايمكن أن تقف حاجزا عاما عند تطبيق هذه المناهج ومنها المنهج التجريبي. لأن ثمرة البحث العلمي ونتائجه لايمكن أن تتحقق إلا من خلال التغلب على صعوبات جمة، وهذا ما يظهر دائما عند إجراء البحوث الاجتماعية وخاصة في الدول النامية. علاوة على ذلك، أن لكل بحث علمي وإجتماعي صعوباته الخاصة سواء من الناحية الإجرائية أو البحثية التطبيقية. ولكن من مهام الباحث العلمي المدرب أن يتغلب على هذه الصعوبات، ويسعى دائما لتحقيق أهدافه. والتي تمثل في أهداف البحث العلمي، الذي يهدف للتوصل إلى المعرفة العلمية المستمرة، وتحقيق الدافع الإنساني، لدى الباحثين وطموحهم لزيادة خبراتهم ومعارفهم، عن طريق ما يتوصلون إليه من نتائج بحوثهم و دراساتهم النظرية والإمبريقية (الميدانية). وهذا بالفعل ما عزز مكانة الباحثين وبحوثهم ومؤسساتهم العلمية في المجتمعات المتقدمة، وخاصة، أن عملية التقدم التي توصلت إليها هذه المجتمعات، قد تحققت بفضل نتائج البحث العلمي سواء في مجال العلوم التطبيقية الطبيعية أو الاجتماعية والإنسانية في نفس الوقت.

الفصل السادس

المســـح الاجتمـــاعى

تمهيد:

١ـ تعريف المسح الاجتماعـى وخصائصه.

٢ـ مجـــالات المســـح الاجتماعى.

٣ـ المبادئ العـامة للمســح الاجتماعى.

٤ـ خطـــوات المســـح الاجتمـاعى.

٥ـ تصـــنيف المســوح الاجتماعية.

٦ـ أدوات البحث فى المســوح الاجتماعية.

٧ـ تقييـــم المســـح الاجتمـــاعى.

تمهيد:

لقد أدى الاهتمام فى النصف الثانى من القــــرن العشــرين بــالبحث الاجتماعى كخطوة ضرورية للتخطيط لعمليات التنمية الاجتماعية والاقتصادية الى تزايد الاهتمام بالمسوح الاجتماعية والاعتماد على نتائجها فى التخطيـــط القومى فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية. ويعتـــبر المســح الاجتمــاعى Social Survey من أقدم طرق البحث الاجتماعى فكان يســتخدم منـذ عــهد الفراعنه فى حصر الظواهر الاجتماعية. بإســلوب كمــى كتعـداد الســكان والمواليد والوفيات وحالات الزواج والطلاق والدخل والانفاق وأعداد الأسـلحة وحجم القوات الحربية...ألخ[1].

والمسح الاجتماعى كأحد أساليب البحوث الوصفيــة يتيـح للبـاحث الحصول على قدر واف من البيانات والمعلومات والاحصـاءات الاجتماعيـة والسلوكية عن الظواهر الاجتماعية موضوع الدراسة. وقد يجرى المسح علـى مستوى المجتمع ككل لأو فى قريو أو مدينة معينـــة، وهنـاك العديـد مـن الدراسات على المستوى المحلى والقومى والعالمى التى أسـتخدمت المسـح الاجتماعى كأسلوب أساسى فى بحث ظواهر اجتماعية محددة. فعلـى سـبيل المثال المسح الذى أجراه "ليند" Lynd وزملاؤه والمعروف بمسح "ميدلتـــون" Middleton وأيضاً المسح الذى أجراة "وارنر" Warner والمسح الذى أجـراه المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية عن البغاء فــى القــاهرة. الا ان أول محاولة علمية جادة لاستخدام المسح الاجتماعى قام بها "جون صـــوارد" Join Howard فى عام ١٧٧٤ فى دراسة للسجون فى انجلترا وكان يـسهدف من هذه الدراسة الى الكشف عن حالـــة السـجون والظـروف الاجتماعيـة والصحية التى يعيشها المسجونين[2].

---

(١) زيدان عبد الباقى، قواعد البحث الاجتماعى، مطبعة الســعادة، القـاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٥٧.

(٢) غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٤، ص ١٩٥.

وسوف نتناول تعريف المسح الاجتماعي وأهدافه وموضوعاته الأساسية، والأسس العامة التى يستند اليها، وتصنيفات المسوح الاجتماعية، وخطةاتها والأدوات التي تعتمد عليها في البحث وأهم الايجابيات والسلبيات كواحد من أهم طرق البحث فى العلوم الاجتماعية بصفه عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة.

١ـ تعريف المسح الاجتماعي وخصائصه:

اختلفت الآراء حول تعريف المسح الاجتماعى، ولم يكن هذا الاختلاف حول طبيعة المفهوم . ولكن أيضاً حول استخدامه فى عملية البحث الاجتماعى، فكثير من الباحثين الأجانب والعرب ينظر إلى المسح باعتباره منهج قائم بذاته، والبعض الآخر ينظر اليه باعتباره أسلوب أو طريقه فى البحث. وقد يرجع هذا الخلط فى الكتابات العربية الى ترجمة مصطلح Method فأحياناً يترجم على أنه طريقة أو أسلوب. عموماً لقد تعارف لدى غالبية علماء الاجتماع على تعريف المسح الاجتماعى باعتباره طريقة أو أسلوب فى البحث.

ولقد عرف "هوايتنى" Whitney المسح الاجتماعى بأنه "محاولة منظمة لتحليل وتفسير وتسجيل الوضع الراهن لنظام اجتماعى، او لجماعة أو لبيئة اجتماعية، ويهتم المسح الاجتماعى بدراسة قطاع كبير من الواقع الاجتماعى. بهدف الحصول على بيانات يمكن تصنيفها وتفسيرها وتعميمها من اجل الاستفادة منها فى التخطيط المستقبلى". بينما يعرف "بيرجس" Burgess المسح الاجتماعى فإن" الدراسة العلمية لظروف المجتمع وحاجاته، بهدف تقديم برنامج إنشائى للاصلاح الاجتماعى". وتعرف "بولين يونج" P.Young المسح الاجتماعي باعتبارة اسلوب لدراسة الجوانب الباثولوجية (المرضية) للأوضاع الاجتماعية الموجودة فى منطقة جغرافية محددة وهذه الأوضاع لها دلالة اجتماعية يمكن قياسها. ومقارنتها بأوضاع اجتماعية أخرى، بهدف تقديم برامج إنشائية للاصلاح الاجتماعى[١].

---

(١) زيدان عبدالباقى، قواعد البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٢٦٠.

وهذه التعريفات السابقة يجمعها قاسم مشترك وهو أن البحث الاجتماعي اسلوب لتقرير أو بحث وضع اجتماعي، حاضر في أقليم محدد، بهدف الحصول على بيانات معينة، ومقارنتها ببيانات أخرى من نفس النوع، بهدف الاستفادة من هذه البيانات بعد تحليلها وتفسيرها في عمليات التخطيط الاجتماعي على المستوى المحلي أو القومي.

ويذهب "مورس" Morss في تعريفه للمسح الاجتماعي على أنه "منهج لتحليل ودراسة أي موقف أو مشكلة اجتماعية، أو جمهور ما، وذلك بإتباع طريقة علمية منظمة، لتحقيق أغراض محددة". ويرى 'كامبل" Compbelle "كاتونا" Katona أن المسح الاجتماعي هو "محاولة لجمع بيانات بطريقة منظمة سواء من جمهوز معين أو عينة منه، وذلك عن طريق استخدام المقابلات أو أي أداة أخرى من أدوات البحث".

ويؤكد "أرمان كوفيلين" Armand Cuvillier أن المسح الاجتماعي عبارة عن طريقة أكثر تعمقاً من البحث الاجتماعي، تهدف الى الوقوف على الجوانب المختلفة لظروف الحياة في مجتمع معين، او في وسط اجتماعي معين، وعلى الأخص البيئات الاجتماعية التي تتسم بالكثافة السكانية العالية، والمستوى الاجتماعي المتدني[١]. ويعرف الدكتور "ابراهيم ابوالغد" والدكتور "لويس كامل مليكة" المسح الاجتماعي بأنه "عملية جمع الحقائق عن جماعة من الناس في بيئة معينة، فمن حيث ظروفهم المعيشية، ومناشطهم، وتكوينهم الاجتماعي، وذلك بصورة موضوعية قدر الامكان"[٢].

ومن الملاحظ على تعريفات "مورس" Morss، و"كامبل" Compelle، و"كاتونا"، و"كوفيلين" Cuvillier و"ابراهيم أبولغد" و"لويس مليكة" أنها تركز على أن المسح الاجتماعي منهج أو طريقة علمية تستخدم لدراسة مشكلة اجتماعية محدده في منطقة معينة في الوقت الحاضر، لتحقيق أهداف محدده، من خلال مقابلات مع جمهور البحث للوقوف على طبيعة مشكلتهم والتعرف على

---

(١) محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعي: مبادئه ومناهجه، مطبعة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٣٥.

(٢) ابراهيم أبولغد ولويس كامل مليكة، البحث الاجتماعي: مناهجة وأدواته، سرس الليسان: مركز التربية الأساسية في العالم العربي، ١٩٥٩، ص ٥٩.

الجوانب المختلفة لحياتهم الاجتماعية. وجمع أكبر قدر من المعلومات وتصنيفها والاستفاده منها في المستقبل فى عمليات التخطيط الاجتماعى المختلفة.

عموما أن المسح الاجتماعى كأسلوب متميز للبحث الاجتماعى أصبح يستخدم وبكثافة فى الدراسات الكشفية (الاستطلاعية) والوصفية فى علم الاجتماعى من خلال مقابلات مفتوحة ومقننه وباستخدام دليل المقابلة أو دليل الملاحظة أو استمارة البحث كأدوات أساسية فى البحث الاجتماعى بغرض الحصول على معلومات من أعداد كبيرة من المبحوثين فى مجتمع معين. ويسمى المسح الاجتماعى لمعرفة الخصائص الاجتماعية للمبحوثين كالنوع، والسن، والمهنة، والحالة الزواجية، ونوع المسكن، وارتباط هذه المعلومات الأولية بإتجاهات المبحوثين وأرائهم نحو موضوعات وقضايا متعددة لقراءة الصحف اليومية أو مشاهدة التليفزيون أو الذهاب الى السينما أو الاتجاهات نحو التعليم الجامعى أو أنماط معينة من الاستهلاك ..ألخ.

وبإمعان النظر فى التعريفات السابقة يمكن استخلاص بعض الخصائص العامة للمسح الاجتماعى كطريقة فى البحث الاجتماعى على النحو التالى:

١ـ المسح الاجتماعى عبارة عن دراسة علمية للظواهر الاجتماعية غير الموجودة لدى جماعة معينة وفى مجتمع معين، وأنه ينصب على الوقت الحاضر، حيث يهتم بدراسة الأشياء الموجودة بالفعل وقت اجراء المسح، محاولا الكشف عن الأوضاع الاجتماعية القائمة وتحليلها وتفسيرها، ووضع خطة أو برنامج للأصلاح الاجتماعى.

٢ـ تفيد المسوح الاجتماعية فى عمليات التخطيط القومى التى تستهدف التنمية الشاملة لأفراد المجتمع اقتصاديا واجتماعياً وثقافيا سعيا لتحقيق الرفاهية لكل أفراد المجتمع فى فترة زمنية محددة. فمن المعروف أن التخطيط القومى يحتاج الى قاعدة معلومات أساسية تتصل بإحتياجات أفراد المجتمع، ومشكلاتهم الأساسية، ورغباتهم، وميولهم، وإتجاهاتهم، وإمكاناتهم، ومن ثم يتحتم القيام بمسح اجتماعى شامل لتوفير هذه المعلومات للقائمين بعلميات التخطيط.

٣ـ يعتبر المسح الاجتماعى من أهم طرق البحث الاجتماعى فى دراسة بعض الظواهر الاجتماعية المرضية كالجريمة أو الانحراف أو الفساد أو الانتحار...الخ.

٤ــ أن المسح الاجتماعي ليس مجرد وصف أو حصر ما هو قـائم بـالفعل ولكنة يتخطى ذلك الى عمليات أخرى كالتحليل والتفسير، والمقارنة لمـا هـو موجود فى الوضع الراهن ببعض المستويات الأخرى، واسـتخلاص النتـائج وتقديم التوصيات التى تفيد فى عمليات التخطيط والاصلاح الاجتماعى.

٥ــ يستخدم المسح الاجتماعى فى عمليات قياس الرأى العام الجماهيرى نحـو قضايا وموضوعات متعددة كالانتخابات السياسية أو منتجات صناعية معينة أو الاتجاه نحو برامج إذاعية أو تليفزيونية، او الاتجـاه نحـو سياسـات معينـة كسياسـات التعليـم أو الصحـة أو النقـل والمواصـلات أو دعـم السـلع الاستهلاكية..الخ.

٢ــ مجالات المسح الاجتماعى:

يتضح من تعريفات المسح الاجتماعى السابقة تنوع موضوعـات أو مجالات المسح الاجتماعى، وبإمكاننا أن نلقى الضوء على أهم المجالات التـى يستخدم فيها المسح الاجتماعى:

*** مجال مسوح المشكلات الاجتماعية:**

يعتبر مجال المشكلات الاجتماعية من أخصـب مجـالات المسـوح الاجتماعية، ويمكن القول أن المسوح التى أجريت فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت معظمها موجهة نحو دراسة العديد من المشـكلات الاجتماعية، وكانت هذه المسوح مصممة أساسا نحو جمع مزيد من المعلومات حول هذه المشكلات. فكانت مهمة الباحث تنحصر فى دراسة مشكلة اجتماعية تفرض نفسها على حياة المجتمع أو المجتمع المحلى Community أو حيـاة فئة محددة من سكان المجتمع كالعمال أو الطلاب، أو الحرفين ..ألخ. وتحـاول الدراسة، الكشف عن أبعاد هذه المشكلة من حيث الأسباب والمظاهر ودرجـة تأثيرها على الأفراد الذين يعانون منها.

ولقد تنوعت مجالات المشكلات الاجتماعية التـى اسـتخدم المسـح الاجتماعي فى دراستها كمشكلات الجريمة، والبطالة، والاسـكان، والعمالـة، والاستهلاك المتزايد، ونقص الدخل، ومشكلات الانتـاج، وحـوادث العمـل، والصحة العامة، والهجرة، وإنحـراف الأحـداث، والمخـدرات، والأميـة، والطلاق، والنمو السكانى المتزايد وغيرها، ووضع نتائج هذه البحـوث أمـا المسئولين عن التخطيط في الحكومة لتحديد السياسات الملائمة لمواجهة هـذه

المشكلات. ولايقتصر الأمر عند هذا الحد، فغالباً ما كانت تجرى دراسة مسحية تتبعية Follw-up-Surveys تستهدف تقييم برامج الاصلاح الاجتماعى فى مجال المشكلات الاجتماعية وتقييم السياسات التى تم إتخاذها تجاه هذه المشكلات من قبل المسئولين فى الحكومة.

(*)مجال مسوح السياسات التعليمية:

استخدم المسح الاجتماعي في دراسة العديد من المشكلات التعليمية كمشكلة محو الأمية، والتسرب من التعليم، والغياب عن المدرسة، والتخلف الدراسي، ومشكلات المقررات الدراسية، وإتجاهات أفراد المجتمع نحو التعليم الجامعي، والتعليم الفني، او السياسة التعليمية بصفة عامة، والاصلاح التعليمي، ومدى مواكبة السياسة التعليمية لحاجة المجتمع وتحقيق أهداف التنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. هذا فضلاً عن استخدام المسح الاجتماعي في دراسة مشكلات تعليمية فرعية كمشكلة التعليم الطبى أو التعليم الصناعى أو التعليم الأساسى وغيرها.

(*)مجال مسوح السوق Market Survey:

تسهم المسوح فيما يعرف بمسوح السوق، وهو مجال خصب للدراسات الاقتصادية والاجتماعية، كدراسة إتجاهات الجمهور أو المستهلكين نحو سلعة معينة، والتعرف علي مشاعر وإتجاهات ومعتقدات وأفكار المستهلكين وأسباب أحجام المستهلكين أو إقبالهم على سلع معينة. فلا شك في هذه المعلومات تفيد أصحاب الصناعات بشكل مباشر، ولقد تخطى نطاق البحث في هذه القضايا السوق المحلية نحو السوق العالمية، وأوضح التوزيع على نطاق السوق العالمية لمنتجات معينة كالسلع الغذائية أو حتى انتاج السيارات يتطلب دراسات مستفيضة عن أذواق المستهلكين وطبيعة ثقافتهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم..ألخ من هذه القضايا التى تسهم فى قبول أو رفض سلع إنتاجية معينة دون أخرى.

(*)مجال مسوح الرأى العام Public Opinion:

استخدمت المسوح الاجتماعية فى نهاية القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين بشكل فعال في مجال بحوث الرأى العام. فإستطلاع اتجاهات الرأى العام خاصة فى المسائل السياسية والسلوك الانتخابى كان يعتمد إلى حد كبير على نتائج المسوح الاجتماعية التى تضم من أجل هذا الهدف، سواء

بالتطبيق على عينات ممثلة لمجتمعات البحث أو الدراسات المسحية الشاملة للمجتمع. وتعتمد كافة دراسات قياس الرأى العام التى تقوم بها مراكز بحثية متخصصة فى دراساتها على المسح، وتستخدم نتائج هذه الدراسات بشكل فعال فى عمليات تشكيل الرأى العام وتوجيهه نحو قضايا معينة. وتقوم كثير من الحكومات فى المجتمعات المتقدمة والنامية على حد سواء باستطلاع آراء أفراد المجتمع حول قضايا وموضوعات سياسية واقتصادية وقانونية محددة من خلال المسوح الاجتماعية المتخصصة، وتؤخذ نتائج هذه المسوح فى الاعتبار عند تحديد سياسات معينة أو رسم خطط مستقبلية على المستوى القومى.

* مجال المسوح النفسيه:

واكب الاهتمام بالمسح الاجتماعى خلال القرن العشرين اهتمام المتخصصين فى مجال الدراسات النفسيه، حيث استخدم المسح فى العديد من البحوث الخاصة بقياس الذكاء والاتجاهات النفسية، ومختلف أنواع الاستعدادات والقدرات الخاصة عند الأفراد. وأيضاً تم الاستعانة بالمسح الاجتماعى فى بناء المقاييس النفسية وبصفة خاصة المسائل المتعلقة بثبات هذه المقاييس وصدقها، وكذلك العلاقة بين المفاهيم والمتغيرات وبين المؤشرات المستخدمة، فى هذه المقاييس. ولقد أهتم المتخصصون فى الدراسات النفسية ـ خاصة القياس النفسى ـ بالدراسات المسحية لتطوير أساليب جديدة فى القياس مثل المقاييس المتدرجة، والتحليل العاملى، واستخدام الرياضيات والاحصاء فى تحليل البيانات التى تم جمعها من خلال المسوح المتخصصة والمقننة فى نفس الوقت، ويتمثل هذا التقنين فى اختيار عينة منتظمة من أفراد المجتمع، واخضاعهم للقياس من خلال توجية قائمة محددة من الأسئلة المعدة بشكل مسبق ودقيق حول موضوعات محددة، وتضيف استجابات المبحوثين حول هذه الأسئلة وإجراء المقارنات الكمية، واستخلاص المؤشرات العامة التى تفيد فى بناء المقاييس[١].

---

(١) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي: دراسة فى طرائق البحث وأساليبه، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٦، ص ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

* مجال مسوح المجتمعات المحلية Communitius:

تعتبر المجتمعات المحلية ــ الحضرية والريفية والبدوية ــ أحد المجالات الهامة والخصبة للمسوح الاجتماعية، فهناك كم هائل من المسوح الاجتماعية التي تم اجراؤها على المجتمعات المحلية الريفية على المستوى القومي والمستوى العالمي. ولقد أسهمت هذه المسوح ليس فقط في فهم طبيعة الحياة الاجتماعية والمشكلات الخاصة بالبيئة الريفية ولكن أيضاً في تطوير علم الاجتماع الريفي، فعلى سبيل المثال يعتبر تقرير "ثيودور روزفيلت" Theodore Rossevelt في عام ١٩٠٧ عن الحياة الريفية في المجتمع الأمريكي والذي اعتمد فيه على المسح الاجتماعي من الأعمال الأولى التي أسهمت في نشأة علم الاجتماع الريفي، كذلك الدراسة التي قام بها "دين بايلي" Dean Bailey عن الحياة الريفية التي أستخدم فيها المسح الاجتماعي مستعيناً باستمارة الاستبيان، والتي قدم من خلالها تحليلاً دقيقاً عن المجتمع المحلي الريفي، ومشكلات الحياة الريفية وغيرها من الموضوعات الخاصة بالمجتمعات الريفية والتي أفادت دراستها على المستوى العلمي في تطور علم الاجتماع الريفي وعلى المستوى الواقعي في فهم طبيعة هذه المجتمعات وطبيعة المشكلات الاجتماعية التي تعاني منها[١].

ولقد تنوعت مجالات مسوح القرية حيث تتطلب عمليات التخطيط للتنمية الريفية الرجوع إلى احصاءات متنوعة خاصة بالسكان، والمواليد والوفيات، والقوة العاملة، والتعليم، والصحة، والاسكان، والخدمات الاجتماعية[٢]. وجدير بالذكر أن الاحصاءات الرسمية في كثير من المجتمعات النامية غالباً ما يشوبها كثير من الأخطاء والمغالطات، ومن ثم كان من الضروري القيام بمسوح اجتماعية لتوفير الاحصاءات والمعلومات اللازمة. هذا فضلاً عن دراسة قضايا متنوعة لدراسة البناء الاجتماعي للقرية وما ينطوي علية من أنساق مختلفة كالنسق الاقتصادي، والديني، والسياسي، والتربوي، والعائلي والتعرف على أراء أفراد المجتمع وإتجاهاتهم، والاهتمام

---

(١) غريب سيد أحمد، علم الاجتماع الريفي، المكتب العلمي للنشر والتوزيع، الاسكندرية، ١٩٩٩، ص ٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٩٣ ــ ٩٨.

بالقيم والعادات والتقاليد التى يعتنقونها، لأن اغفال مثل هذه القضايا يقف عائقاً أمام نجاح المشروعات التنموية. ولقد أستخدمت المسوح الاجتماعية أيضاً فى دراسة وسائل أحداث التغيير فى المجتمع الريفى، والاستفادة بما تسفر عنه البحوث من نتائج فى احداث التغيير المطلوب على المستوى المحلى، ودراسة قياس الاحتياجات المطلوبة فى المجتمعات الريفية لتحديد الحاجات الضرورية وترتيبها حسب أولويتها واهميتها، ودراسة قياس الخدمات لتحديد نوع الخدمات المطلوبة، وتحديد المشروعات التنموية المطلوبة وفقاً لأولوية هذه الخدمات، والقيام بمسوح المتابعة والمسوح التقيمية لمتابعة سير العمل فى المشروعات التنموية ومعدلات الأداء وضمان تنفيذ هذه المشروعات وفقا للخطة الموضوعة، وكذلك تقييم المشروعات التى تم إنجازها ومقارنة النتائج التى حققها المشروع بما كان مستهدف من قبل.

إذا كانت غالبية البحوث الاجتماعية التى تجرى على المجتمعات الريفية تستعين بالمسح الاجتماعى ــ الشامل أو بالعينة ــ فإن جانبا كبيرا من البحوث الاجتماعية التى تجرى فى المدينة كمجتمع محلى تستخدم أيضا المسوح الاجتماعية، حيث تعتبر المدينة مجالا خصبا للدراسات الحضرية، فلقد استخدم المسح الاجتماعى فى دراسة أنماط الهجرة الريفية الحضرية ومشكلات المهاجر بين داخل المدينة، ودراسة أنماط الجريمة، خاصة فى الأحياء المتخلفة أو الفقيرة، ودراسة البناء الطبقى، ومعدلات الحراك الاجتماعى، والمشكلات الاجتماعية فى المناطق العشوائية ومناطق الأطراف والضواحى، هذا فضلا عن مشكلات التصنيع، والتلوث، والاسكان، والنقل والمواصلات، وإتجاهات الأفراد وآدائهم المختلفة حول العديد من القضايا الاجتماعية والسياسية ..ألخ. وتعتبر مدينة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية معملا لدراسات علم الاجتماع الحضرى، فلقد نمت مدرسة شيكاغو فى علم الاجتماع الحضرى من خلال المسوح الاجتماعية المتنوعة التى أجريت على هذه المدينة.

ويستخدم المسح الاجتماعى أيضا فى دراسة المجتمعات البدوية، فلقد استخدم لدى علماء الأنثربولوجيا والاجتماع فى الدراسات الشاملة التى أجريت على هذه المجتمعات بهدف التعرف على طبيعة البناء الاجتماعى، والتخطيط اجتماعيا واقتصاديا.

* مجال المسموح الأدبية Literarily Survey

لايختلف استخدام المسح الاجتماعي في دراسة الظواهر الاجتماعية عن استخدامه للأدب كظاهرة اجتماعية من حيث الشكل والاجراءات وإن كان هناك ثمة خلاف من حيث المضمون، فإذا كان المسح الاجتماعي Social Survey يعني البحث المتعمق لظاهرة اجتماعية أو موقف اجتماعي ما، وفقاً لما يوجد عليه في وقت معين، وفي مجتمع محلي محدد، بهدف تحقيق منفعة علمية وعملية في آن واحد، فالمسح الأدبي Literarily Survey يعني البحث المتعمق المنظم لتحليل وتفسير ظاهرة أدبية ما، وفقاً لما توجد عليه هذه الظاهرة في فترة زمنية محددة، ولدى فئة من الأدباء ينتمون إلى مجتمع واحد. والظاهرة الأدبية قد تكون رواية تاريخية أو رواية واقعية أو قصة، أو مسرحية، وقد تكون مجموعة من الأعمال الأدبية التي تعالج قضية محددة، وقد تكون مجموعة أعمال أحد الكتاب في فترة زمنية معينة..الخ[1].

ويسير المسح الأدبي كأي طريقة من طرق البحث الاجتماعي وفق خطوات منطقية متتابعة تتمثل الخطوة الأولى في تحديد مشكلة البحث والتي تتحدد في ضوء ثلاثة أبعاد أساسية وهي: علاقة الكاتب بعملة الفني وعلاقته بالعالم الخارجي، وأخيراً علاقته بالجمهور. والثانية في تحديد عينة البحث، وتتمثل عينة المسح الأدبي في مجموعة الأعمال الأدبية التي يقوم الباحث باختيارها وتحديدها بدقة وإخضاعها للدراسة، فإذا كنا مثلاً بصدد إجراء دراسة عن أدب "نجيب محفوظ" فإنه من الصعب –بل من المستحيل– تحليل كافة أعماله في دراسة واحدة، نظراً لتعددها وتنوعها، فالباحث هنا يقوم بتصنيف هذه الأعمال وفقاً لمعايير محددة، ثم يختار من بين هذه الأعمال أكثرها تمثيلاً لبقية الأعمال الأخرى، وما ينطبق على هذه الأعمال المختارة من نتائج يمكن تعميمها على بقية الأعمال الأخرى.

أما إذا كنا بصدد دراسة جيل معين من الأجيال الأدبية –كجيل الشباب مثلاً– فالمشكلة هنا تزداد تعقيداً لصعوبة تحديد مفهوم "الجيل" تحديداً

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر:

محمد على البدوي، الاتجاه الواقعي في الدراسة السوسيولوجية للأدب، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة الاسكندرية، ١٩٩٠، الفصل الثالث.

دقيقاً، فبالرغم من أن فكرة الجيل تبدو جذابة لأول وهلة لأنها توحي بإمكانية القيام ببحوث متعددة على أساسها، إلا أن بعض الباحثين يرى أنها ليست واضحة تماماً. فأول تساؤل يواجه الباحث يتعلق بالشخص الذى يمكن اعتباره أديباً من جيل معين، أو بعبارة أخرى ماهى الشروط ينبغى أن تتوافر فى مثل هذا الشخص كى يصنف وفقاً لجيل معين؟.. ولاشك أن هذه الشروط سوف تختلف من شخص لآخر بحسب طبيعة البحث نفسه وأهدافه. فإذا كنا نريد أن نبحث "جيل الأدباء الشباب" فلابد لنا أن نحدد من يعتبر أديباً شاباً. وفقاً لعدة معايير كمعيار السن مثلاً فنقول من ولد عام ١٩٥٠، أو معيار تاريخ النشر فنقول من بدأ منذ بداية الستينيات..الخ. ولكن هذه المعايير ليست كافية لتحديد من يمكن اعتباره أديباً شاباً، وفى هذه الحالة ينبغى على الباحث أن يضع تعريفاً إجرائياً للأديب الشاب، ويحدد فى هذا التعريف السمات المميزة لهذا الأديب مثل:.

أ- ألا يزيد سنه عن ٣٠سنة.

ب- أن يكون -إذا كان قاصاً- قد نشر له عشر قصص على الأقل -وإذا كان روائياً يكون قد نشر رواية على الأقل. -وإذا كان شاعراً أن يكون قد نشر عشر قصائد على الأقل- وإذا كان ناقداً أن يكون قد نشر عشر دراسات نقدية على الأقل.- وإذا كان كاتباً مسرحياً أن يكون قد نشر أو مثلت له مسرحية على الأقل....وهكذا[1].

أما الخطوة الثالثة من خطوات المسح فى الدراسات الأدبية فهى تصميم أداة المسح، فبعد أن يفرغ الباحث من تحديد مشكلة البحث، وتحديد العينة التى سوف تجرى عليها الدراسة، يقوم بتصميم أنسب أو أكفأ أداة لموضوع بحثه. وتتنوع أدوات المسح الأدبى بتنوع الموضوعات المدروسة ذاتها فقد تكون الأداة العمل الأدبى ذاته موضوع التحليل (كالرواية - القصة - المسرحية - ديوان الشعر..الخ)، وقد تكون أحدى الأدوات المتعارف عليها فى علم الاجتماع (كالمقابلة - الملاحظة- استمارة البحث). وأياً كانت الاداة ينبغى على الباحث إتباع الإجراءات المنهجية فى تصميمها وإعدادها للبحث، واجراء اختبار صدقها وثباتها فيما تجمعه من بيانات.

---

(١) المرجع السابق، الفصل الثالث.

ثالثاً: المبادئ العامة للمسح الاجتماعي:

يهتم المسح الاجتماعي في المقام الأول بجمع البيانات والمعلومات بشكل منتظم من مجموعة من الأفراد داخل جماعة أو مجتمع معين في مكان محدد وفي فترة زمنية محددة من خلال الاحتكاك المباشر بهؤلاء الأفراد، ويأتي الانتظام في جمع البيانات عن طريق استخدام نفس الأداة وتوجية نفس الأسئلة لكل فرد من أفراد مجتمع المسح، وإذا كان مجتمع المسح عينة من المجتمع الأصلي، فلابد من تمثيل هذه العينة تمثيلاً دقيقاً للمجتمع الذي سحبت منه حتى يمكن تعميم النتائج التي يتوصل إليها بحث هذه العينه على كافة أفراد المجتمع الأصلي. وأياً كان نوع المسح الاجتماعي، فإن الهدف منه هو الحصول على بيانات أو معلومات دقيقة وموضوعية وصادقة تصور الواقع المدروس وتفيد في عمليات التخطيط الاجتماعي من أجل اصلاح وتنمية هذا الواقع في المستقبل، ولكي يحقق المسح الاجتماعي هذه الأهداف لابد أن يراعى في التخطيط له وفي تنفيذه عدة مبادئ أهمها:ـ

١ـ التخلي عن كافة الأفكار والمعلومات السابقة قبل البدء في المسح، حتى يمكن النظر الى مجتمع البحث بطريقة موضوعية دون تحيز لأراء أو أفكار مسبقة.

٢ـ تحديد أكفأ الأدوات وأكثرها ثباتاً وصدقاً في جمع البيانات المطلوبة وتسجيل المعلومات أو البيانات وتصنيفها بدقة دون تحيز ما.

٣ـ ضرورة توجية المسح بحيث يكشف عن الجوانب التي لايعرفها الباحث، لابقصد إثبات المعلومات التي يعرفها لكي تكون هناك استفادة موضوعية من المعلومات التي يكشف عنها البحث.

٤ـ الابتعاد عن توقع ما سوف يتوصل اليه المسح من نتائج قبل القيام بإجراء المسح، فمن المعروف أن هدف المسح هو الكشف عن ظاهرة اجتماعية أو مشكلة معينة، فإذا كانت نتائج مسح هذه الظاهرة أو المشكلة متوقعة أو معروفة مسبقاً قبل القيام بالمسح فليس هناك ما يدعو الى القيام بالمسح.

٥ـ تحديد مراحل المسح بدقة، ومراعاة الدقة وتجنب الوقوع في الخطأ أو القصور في جمع مراحل المسح، وعلى الباحث تسجيل كل نواحي الضعف أو القصور التي لم يستطع التغلب عليها أثناء قيامه بالعمل الميداني، حتى تكون النتائج قيمتها الموضوعية.

٦ــ مراعاة الدقه في تحديد مجتمع البحث سواء كان المسح شاملا او بالعينـه، وفى حالة سحب عينة من المجتمع الأصلي ينبغي سحب هذه العينة بـــالطرق العلمية المتعارف عليها فى البحث الاجتماعى، وأن تكون هذه العينـــة ممثلـــة تمثيلا صادقا للمجتمع الذى سحبت منه. هذا فضلاً عن مراعاة الدقة في تحديد حجم العينة حتى يمكن تعميم النتائج التى توصل اليها المسح بالنسبة لهذه العينة على مستوى المجتمع الاصلى. وينصح كثير من المشتغلين بالبحث الاجتماعى أن يتراوح حجم العينه بين ـ٨–١٢%) من حجم مجتمع البحـــث، وبصفـــة عامة يتوقف حجم العينة على مدى تجانس أو لا تجانس مجتمع البحث.

٧ــ تحليل النتائج التى يتوصل اليها المسح تحليلاً دقيقا واختبار مدى صدقـها، وتمثيلها لمجتمع المسح، سواء كانت هـــذه النتـــائج بالنســـبة للبـــاحث تؤكـــد افتراضاته الأساسية أو تخالف ما أفترضه من افتراضات مسبقة.

٨ــ مراعاة البساطة والوضوح فى كل خطوات المسح، والبعد عـــن الطـــرق المعقدة والأساليب غير القابلة للتفسير، فكلما كانت اجراءات المســـح بســـيطة كلما أمكن التوصل إلى طبيعة المشكلة المدروسة بشكل أفضل.

رابعاً: خطوات المسح الاجتماعي:

يسير المسح الاجتماعى كطريقة من طرق البحث الاجتمـــاعى فـــى خطوات متعاقبة الواحدة تلو الأخرى، يمكن الاشارة اليها على النحو التالي:ــ

الخطوة الأولى: التخطيط للمسح:

يعتبر التخطيط للمسح الخطوة الأولى فى عملية المســـح الاجتمـــاعى وتشتمل هذه الخطوة على:

(١) تحديد الهدف من المسح.

(٢) تحديد النقاط الرئيسية والفرعية التى يشتمل عليها.

(٣) تحديد الميدان أو المجال الأساسى الذى سيقوم الباحث بمسحه، والنواحـــى او الجوانب الفرعية التى يشملها هذا المجال. ومن المعروف أن مجـــالات المســـح الأساسية تنحصر فى ثلاثة مجالات وهى المجال البشرى، والمجـــال المكـــانى، والمجال الزمانى، ومن ثم ينبغى على الباحث تحديد هذه المجالات بدقة.

(٤) تحديد نوع المسح الذى سوف يقوم به الباحث حسب الأهداف المرســـومة، من حيث كونه مسحاً عاماً أو مسحاً متخصصاً، أو مسحاً شـــاملاً أو مســـحا

بالعينة، أو مسحاً استطلاعياً كشفيا أو وصفياً تحليلياً يـــهتم بوصــف الواقــع وتحليله، أو مسحاً تفسيرا يتخطى مجال الوصف الخارجى للواقع المبحوث إلى محاولة تفسيره بحثاً عن الأسباب المؤثرة فية والعلاقات الموجودة فيه، فمـــن المعروف أن المسح التفسيرى هو مسح للأسباب المؤدية إلى وجـــود ظـــاهرة معنية والنتائج المترتبة عليها.

(٥) وبعد أن يفرغ الباحث من تحديد الهدف من المســح ومجالاتـــه الثــلاث ونوعه، يقوم بتحديد العينة التى سوف يجرى عليها المسح فـــى حالــة تعــذر اجراء المسح على كل مفردات مجتمع البحث. وهناك اعتبارات كثيرة يفضـــل منها اجراء المسح بالعينة مثل كبر حجم المجتمع، وتجانس مفرداته، والرغبـــه فى الاقتصاد فى الوقت والجهد المبذول والنفقـــات، وفـــى الحصـــول علـــى معلومات أدق وأعمق وأياً كانت الدوافع لاختيار المسح بالعينة ينبغـــى علـــى الباحث إتخاذ كافة الاجراءات اللازمة لاختيارها حتى يصل فى النهايـــة الـــى عينة ممثلة للمجتمع الأصلى يستطيع تعميم النتائج التى يحصل عليها من خلال دراسته لها على المجتمع الأصلى ككل. وأن أى خطأ فى سحب العينة يجعـــل نتائج المسح مضللة أو غير صحيحة.

وهناك عدة اجراءات يجب على الباحث اتباعها عند سحب عينة البحث :ـــ

(أ) تحديد المجتمع الأصلى للبحث تحديداً دقيقاً، والتعرف على مفرداتـــه مـــن حيث الحجم والخصائص والقطاعات أو الفئات المختلفة..الخ. فإذا كنـــا مثـــلاً بصدد إجراء مسح على اتجاهات الشباب الجامعى نحو المشاركة السياســـية فلابد من تحديد من هو الطالب الجامعى، وما هى الصفات التـــى ينبغـــى أن تتوافر فيه، ولابد أيضاً معرفة توريع الطلاب على كليات الجامعة المختلفـــة، وعلى السنوات الدراسية، ومعرفة أعداد هؤلاء الطلاب من خلال قوائم حديثـــة بالكليات والفرق الدراسية..الخ.

(ب) تحديد عينة البحث: بعد ان يفرغ الباحث من تحديد المجتمـــع الأصلـــى وتحديد خصائصه بدقة يبدأ فى تحديد حجم العينة، وكما أشرت مـــن قبـــل أن الحجم الأمثل للعينة يقع بين (٨ –١٢%) من حجم المجتمع الأصلى، ثم يقـــوم بسحب هذه العينة بطريقة ممثلة لباقى مفردات المجتمع، وهناك أساليب مختلفة لسحب العينة كالأسلوب العشوائى، والاسلوب العشوائى المنتظم، والأســـلوب العمدى (المقصود)..الخ. ويعتبر "الأسلوب العشوائى المنتظـــم مـــن أفضـــل

أساليب سحب العينة، فإذا كان ممثلا حجم المجتمع الاصلى ١٠٠ مفردة. وأردنا سحب عينة مقدارها ١٠% من حجم هذا المجتمع، فنقوم بإعداد قائمة تضم أفراد هذا المجتمع بشكل متسلسل من ١-١٠٠، ثم نختار رقما عشوائيا من ١-١٠ وليكن رقم (٥) بحيث يكون هذا الرقم أول مفردة تسجب عشوائيا من عينة البحث، ثم نقوم بتكرار هذا الرقم (٥)بشكل منتظم بعد ذلك فتصبح العينة المطلوبة ٥،١٥،٢٥،...وهكذا. وجدير بالذكر أن طبيعة المجتمع الأصلى للبحث هى التى تفرض على الباحث اختيار أسلوب سحب العينة، فإذا كان مجتمع البحث يتكون من عدة فئات أو طبقات فالأسلوب الأمثل هنا هو العينة الطبقية، أو عينة الفئات.

فإذا كنا بصدد بحث مشكلة الطلاق فى الريف المصرى، فأنسب أسلوب لسحب عينة المسح هو أسلوب العينة متعددة المراحل، فالمرحلة الأولى اختيار ثلاث محافظات واحدة فى شمال مصر، والثانية فى وسط الدلتا والثالثة فى الجنوب، والمرحلة الثانية اختيار قرية من كل محافظة. والمرحلة الثالثة إختيار عينة من كل قرية.

(٦) يعتبر اختيار الأدوات الأزمة لجمع البيانات من العمليات الأساسية فى المسح الاجتماعى التى تشملها مرحلة التخطيط للمسح، وأيا كانت الوسيلة أستبيانا أو إستمارة بحث أو المقابلة الشخصية أو الملاحظة، فإنه يجب أن تكون أسئلتها أو بنودها واضحة ومحددة بدقة ومناسبة للمستوى التعليمى أو الثقافى لمجتمع البحث.

(٧) اعداد الميزانية وتحديد البرنامج الزمنى للمسح: من الخطوات الأساسية التى ينبغى على الباحث التخطيط لها قبل القيام بالمسح تحديد ميزانية البحث وتوزيع هذه الميزانيه على بنود الانفاق المختلفه كمرتبات للباحثين وجامعى البيانات، ونفقات طباعة استمارة البحث، وكتابة تقرير البحث ..الـح. ويعد التخطيط لميزانية المسح من الأمور الهامة حتى لايتوقف المسح عند مرحلة من المراحل بسبب العجز فى الميزانية. اما فيما يتصل بالبرنامج الزمنى للمسح فعلى الباحث أن يحدد بدقة موعد بدأ المسح ومواعيد المراحل المختلفة للمسح وموعد الانتهاء من المسح، خاصة أن هناك بعض المسوح تكون مرتبطة بمناقشة نتائجها فى مؤتمرات محددة بفترات زمنية ولاجدوى من الانتهاء من المسوح بعد انعقاد هذه المؤتمرات.

(٨) تدريب الباحثين الميدانيين على جمع البيانات: تعتبر خطوة تدريب الباحثين الميدانيين على أداة جمع البيانات، وتفهمهم بنود الأداة بدقة ومحتوى الأسئلة التى تشتمل عليها من الأمور الضرورية فى عملية الدقة فى جمع بيانات المسح من الميدان. وينبغى تعريف الباحثين بأهداف المسح وبطبيعة مجتمع المسح ومستوى أفراده الثقافى والاقتصادى والاجتماعى، وعاداتهم وتقاليدهم، والقيم والاتجاهات السائدة فى هذا المجتمع، حتى لايثير الباحثون غضب أو عدم تجاوب جمهور المسح عند جهل بتصرفات أو سلوك غير مقصود من قبل الباحثين. فإذا كان جمهور المسح من الأناث مثلاً:
وطبيعة مجتمع المسح وضع قيود على الإناث من التحدث الى الذكور من خارج نطاق الأسرة، فينبغى هنا أن يكون الباحثون من الأناث حتى يتثنى لفريق المسح الحصول على المعلومات المطلوبة بدقة وبدون إثارة حرج مجتمع البحث. كما ينبغى أن يكون هناك دليل للعمل، وتعليمات محددة يلتزم بها القائمون على المسح حتى يسير المسح وفقاً للبرنامج المحدد له.
(٩) اعداد المجتمع للمسح: المقصود بإعداد المجتمع للمسح هو تحديد مجتمع المسح بدقة، فإذا كان المسح سوف يجرى على أحد أحياء المدينة ينبغى تحديد الاتجاهات الأربع لهذا الحى وتحديد الشوارع الفاصلة بينه وبين الأحياء الأخرى، ثم القيام بإعلام مجتمع المسح بمواعيد جمع البيانات وطبيعة المسح وأهدافه، وحثهم على التعاون مع الباحثين، وأن كل ما يدلون به من معلومات أو بيانات مكفول سريته.

الخطوة الثانية: جمع البيانات:

بعد أن ينتهى الباحث من المرحلة الأولى وهى مرحلة التخطيط للمسح يبدأ فى الخطوة التالية، وهى مرحلة جمع البيانات، حيث يقوم بجمع البيانات مستخدما كافة الوسائل الممكنه فى ذلك، والحصول على هذه البيانات من مصادرها المختلفة، وهناك ثلاثة مصادر أساسية يمكن أن يستقى منها الباحث بيانات المسح وهى[1]:

---

(١) عمر الشيبانى، مناهج البحث الاجتماعى، دار الثقافة، بيروت، غير مبين سنة النشر، ص ١٣٥.

المصدر الأول: يتمثل هذا المصدر في خبرة الباحث التي يكون قد اكتسبها من خلال معايشته لفترة طويلة لمجتمع المسح، ومعرفته الدقيقة لعادات وتقاليد وقيم وآراء وإتجاهات جمهور المسح، فهذه الخبرة لاشك تساعد الباحث على فهم مظاهر الحياة الاجتماعية وتفسير جانب كبير من سلوك أفراد المجتمع. ولكن ينبغي أن لاتكون هذه الخبرة على حساب الموضوعية أو على حساب دراسة موضوعات معروف نتائجها مسبقاً، فهذا يتعارض مع طبيعة البحث العلمي والذي يتسم في بعض خصائصه بالحيادية والتراكمية.

المصدر الثاني: يتمثل هذا المصدر فيما يعرف بالبيانات الجاهزة، وهي البيانات التي تم جمعها من قبل من خلال هيئات أو مؤسسات مختلفة أو من خلال باحثين سابقين، وهذا المصدر يشتمل على الوثائق وبيانات السجلات الحكومية المختلفة، والتقارير الادارية والعلمية والاحصائية المتنوعة، وأيضاً الكتب والرسائل العلمية التي تحتوى على بيانات مستقاة من الوثائق والسجلات أو من خلال البحث الميداني.

المصدر الثالث: ويتمثل هذا المصدر في المعلومات المباشرة التي يتم جمعها من مجتمع المسح، والتي يستخدم في جمعها العديد من أدوات جمع البيانات كالملاحظة او المقابلة أو إستمارة البحث أو الأستبيان، وهناك عدة فئات رئيسية للبيانات التي ينبغي أن يشملها المسح الاجتماعي أهمها[1]:ـ

١ـ بيانات أولية: وتشمل هذه البيانات الأسئلة التي تدور حول النوع (ذكر ـ أنثى)، والسن، والمستوى التعليمي، والحالة الاجتماعية (الزواجية)، والديانة، والموطن الأصلي (قرية ـ مدينة)، أو أي بيانات أخرى توضح الصفات الشخصية للمبحوثين.

٢ـ بيانات عن البيئة المحيطة: سواء كانت البيئة الفيزيقية والمتمثلة في مستوى السكن، وطبيعة منطقة الجوار، والمستوى الاقتصادى للمنطقة، والمستوى الاجتماعي والثقافي والصحي لأفراد المجتمع.

٣ـ بيانات عن اتجاهات وأراء ودوافع المبحوثين: وتشتمل هذه البيانات على أسئلة تتناول قيم وإتجاهات وأراء أفراد مجتمع المسح نحو بعض الأمور

---

(١) جمال ذكي والسيد يسن، أسس البحث الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٢، ص ١٠٥.

والقضايا، وعلى الدوافع والقوى التي تدفعهم نحو سلوك معين، وعلى توقعاتهم في المستقبل نحو بعض الأوضاع أو المشكلات الاجتماعية.

٤ـ بيانات عن أسلوب الحياة اليومية: وهي بيانات متعلقة بسلوك أفراد المجتمع من المبحوثين لمشاهدة برامج التليفزيون أو الاستماع الى الأذاعة أو قراءة الصحف اليومية، او التزاور بين الأقارب والجيران أو الأقبال على استهلاك سلع غذائية معينة، او الاتجاه نحو الادخار وطرق أو أساليب هذا الادخار، هذا فضلاً عن سلوك مجتمع المسح في مواقف اجتماعية متباينة كالزواج أو الانجاب، أو الأعياد، أو المرض..ألخ.

٥ـ بيانات خاصة بمشكلة المسح: إذا كان المسح يدور حول مشكلة معينة، فينبغي أن تشمل بيانات المسح على أسئلة تدور حول نشأة هذه المشكلة وحجمها وأبعادها المختلفه، والأسباب الحقيقية التي أدت إليها، ومدى احساس جمهور المسح بهذه المشكلة، وتصوّراتهم المختلفة نحو سبل العلاج..الخ.

على أية حال، ليست هذه البيانات شاملة لكافة موضوعات المسح الاجتماعي والتي تتسم بالتنوع الشديد، فلكل مسح طبيعة معينة وتركيز على بيانات تخدم الهدف العام من المسح، ولكن أياً كانت البيانات التي يتضمنها المسح فإنه يتحتم على الباحث أن يبذل قصارى جهده حتى يحصل على بيانات دقيقة وصحيحة، وأن يخطط للتغلب على كافة العقبات التي من شأنها أن تحول بينه وبين الحصول على المعلومات والبيانات الصحيحة والدقيقة. ومن ابرز الصعوبات التي تواجه الباحث في الميدان عدم تعاون المسئولين أوقادة المجتمع المحلي هذا من ناحية، وتحفظ المبحوثين وترددهم وتخوفهم من إعطاء بيانات صحيحة عن أنفسهم أو أوضاعهم الاقتصادية أو أدائهم وإتجاهاتهم نحو قضايا معينة كالمشاركة السياسية أو الانتخابات أو رأيهم في الحكومة..ألخ من ناحية أخرى. ففي الغالب لا يفصح ذوي الدخول المرتفعة عن دخولهم بدقة ومصادر هذه الدخول تخوفاً من أن تستخدم هذه البيانات في غير صالحهم وفي المجتمعات النامية بصفة عامة يحجم قطاع كبير من فئات المجتمع عن الحديث أو إبداء الرأي في قضايا كثيرة خاصة في القضايا المتصلة بالسياسة أو الحكومة بصفة عامة أما خوفاً من عواقب ابداء الرأي بصراحة أو جهلاً بحقيقة هذه القضايا.

عموماً هناك بعض الاجراءات التي ينبغي علـــى الباحث اتخاذهـــا لضمان الحصول على معلومات وبيانات صحيحة ودقيقة أهمها(1):

١ــ ضرورة التعرف على قيم وعادات وتقاليد مجتمع المسح، وأن يقوم بجمع كل ما كتب عن مجتمع المسح من قبل ــ في حالة وجود هذه الكتابات ــ حتى يكون على دراية كافية بطبيعة هذا المجتمع.

٢ــ التعرف على القادة والمسئولين بالمنطقة، وشرح أهداف الدراســـة لـــهم، وأهميتها العلمية والعملية، وأن يوضح الباحث لهم أهمية مساعداتهم وتعاونـــهم في نجاح البحث.

٣ــ ضرورة إقامة علاقات طيبة مع المبحوثين، وأن يتحلى الباحث بـــالأخلاق الحميدة، وأن يكون لبقاً وفطناً في عرض أسئلته بشكل لايثير قلق أو خوف أو تحيز البمحوثين وأن يحافظ على جدار الثقة بينه وبيـــن المبحوثيـــن لضمـــان الحصول على معلومات صادقة ودقيقة، وان يتجنب القاء الأســـئلة المحرجـــة بشكل مباشر، وان يستبدل هذه الأسئلة ــ إن كان من الضـــــروري معرفـــة الاجابة عليها ــ بأسئلة أخرى غير مباشرة

٤ــ أن يكون الباحث فطناً لأنسب الأوقات وأنسب الأماكن التي يمكـــن مقابلـــة المبحوثين فيهما، فإذا كان المسح يجرى على طلاب الجامعة فإن أفضل مكـــان للقاء الطلاب يكون داخل حرم الجامعة، وأن يكون أفضل وقت هو وقت الفـــراغ بين المحاضرات. وجدير بالذكر ينبغي على الباحث أن يكون فطناً فـــي تخـــير الأوقات المناسبة للمسوح التي تستهدف التعرف على آراء واتجاهـــات مجتمـــع المسح نحو قضايا محددة، فعلى سبيل المثال، اذا كان المسح يستهدف معرفـــة اتجاهات وآراء طلاب الجامعة نحو سياسة الدولة الخارجية مثلاً، فـــلا يجـــوز تخير وقت يكون فيه الطلاب في حالة تظاهر أو إضراب أو اعتصام داخل حرم الجامعة ويقوم بسؤالهم عن آرائهم واتجاهاتهم، فسوف تكون الاجابة متحـــيزه بالطبع اتجاه اليسار حول هذا الموضوع. كما ان ليس من الصواب اجراء مسح حول سياسات الأجور بشركة ما في أعقاب زيادة في الأجور والمرتبات في هذه الشركة، فإن إتجاهات العمال سوف تكون تجاه اليميـــن(2). واذا كـــان مجتمـــع

---

(1) محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعي: مبادئه ومناهجة، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

(2) زيدان عبدالباقي، قواعد البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٠٢.

المسح يتكون من أرباب الأسر، فينبغي على القائمين بالمسح تخيير الأوقات المناسبة التي يكون فيها الزوجين متواجدين بالمنزل، "وان يقوم باحث وباحثه بزيارة الأسرة، فإذا كان رب الاسرة رجلاً تولى الباحث مهمة الحديث معه، وإذا كان رب السرة سيدة امكن للباحثة أن تتفاهم معها بسهولة"(١). عموما أن تخيير الوقت المناسب والمكان المناسب والباحث المناسب (نوع الباحث) يعد من الأمور الهامة التي ينبغي أخذها في الاعتبار من أجل الحصول على بيانات ومعلومات صادقة ودقيقة من مجتمع المسح.

٥- كلما كانت الفترة الزمنية للمسح قصيرة كلما أمكن الحصول على معلومات صادقة ومعبرة عن واقع جمهور المسح في هذه الفترة الزمنية، وكلما أمكن تقليل الأخطاء التي تنتج عن تغير الأراء والاتجاهات بتغير الظروف والأوضاع الاجتماعية التي قد يتعرض لها مجتمع المسح.

الخطوة الثالثة: مراجعة بيانات المسح وتفريغها وجدولتها:

بعد أن يفرغ الباحث من جمع بيانات المسح من الميدان يقوم بمراجعة هذه البيانات مرتين، الأولى في الميدان للتأكد من أنه قد حصل على إجابات وافية لكافة أسئلة المسح، وإذا كان هناك نقص في بعض الاجابات عليه باستيفائها قبل مغادرة مجتمع المسح. والثانية في المكتب، ويسمى بالمراجعة المكتبية، والهدف منها معرفة مدى إتساق البيانات ومدى تكاملها واستبعاد ما هو متناقض منها، والتأكد من أن ماتم جمعه من بيانات سوف يفي بأغراض المسح. وترجع أهمية المراجعة المكتبية للتأكد من أن البيانات قد جمعت من مصادرها الأساسية، وأن الاجابات أو البيانات الواردة بالاستمارة واضحة تماماً، وغير متناقضة، ولايوجد نقص في جانب من هذه الاجابات، ومن ثم إذا كان هناك تناقض في اجابات بعض الاستمارات فإنه يتعين على الباحث استبعادها، وإذا كان هناك نقص في إجابات استمارات أخرى فإنه ينبغي الرجوع الى المبحوثين لاستيفائها مرة ثانية.

---

(١) عمر الشيباني، مناهج البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ١٤٠.

وبعد الانتهاء من عملية جمع البيانات، تبدأ عملية تصنيف هذه البيانات الى مجموعات أو فئات محددة، وهناك أربعة شروط للتصنيف الجيد أشار اليها الدكتور/ جمال ذكى والسيد يسن وهى[1]:ـ

١ـ التفصيل: بمعنى أن يكون التصنيف مفصلاً يبدأ من الأكبر الى الصغر أو من العام الى الخاص.

٢ـ الصحة المنطقية: بمعنى أن تكون فئات التصنيف مانعة جامعة، بحيث لايندرج متغير واحد فى أكثر من فئة من فئات التصنيف.

٣ـ ملائمة التصنيف مع طبيعة الموقف: بمعنى أن يخدم التصنيف بشكل مباشر أهداف المسح، وأن يشتمل على كافة العناصر الأساسية لموضوع المسح.

٤ـ ملاءمة التصنيف مع اطار الدلالة للمفحوصين: بمعنى أن يأخذ هذا التصنيف فى اعتباره ما يسوق المبحوثين من أراء وأفكار واتجاهات وتعريفات لموضوع المسح.

وبعد أن يفرغ الباحث من عملية تصنيف بيانات المسح ويبدأ فى عملية تفريغ البيانات فى كشوف مُعدة لتلك العلمية وحسب الفئات والمتغيرات والتصنيفات التى حددها من قبل، وهناك طريقتان لعلمية التفريغ لكل منهما إيجابياته وسلبياته، الطريقة الأولى وهى تفريغ البيانات يدوياً، حيث يقوم الباحث بإعداد كشوف التفريغ بنفسه، وهى فى الغالب تكون على ورق مربعات لكى تسهل عملية التفريغ، ويقوم الباحث بتقسيم كشف التفريغ الى محور رأسى يسجل علية أرقام استمارات البحث بالترتيب، ومحور افقى يسجل علية أسئلة الاستمارة، وما يحتويه كل سؤال من متغيرات* . ويقوم الباحث بتفريغ بيانات كل استمارة وفقاً للفئات المخصصة بكل سؤال على حدة، وبعد الانتهاء من عملية التفريغ يقوم بجمع التكرارات لكل متغير من متغيرات الأسئلة، ثم يقوم الباحث بعد ذلك بإعداد جداول (بسيطة أو مركبة)* وتفريغ بيانات كل سؤال على حدة فى جدول واحد بسيط وإستخراج النسب

---

(١) جمال ذكى والسيد يسن، أسس البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٤١٥.

* انظر نموذج من كشف التفريغ بالملاحق.

* انظر نماذج من الجداول البسيطة والجداول المركبة بالملاحق.

المئوية أو تفريغ بيانات سؤالين في جدول واحد مركب اذا كان بصدد اجـراء بعض المعالجات الاحصائية لايجاد الارتباط بين البيانات الأساسية مثلاً وإتجاه جمهور البحث نحو قضايا محددة كالمشاركة السياسية أو الوعى الدينى..ألخ.

أما الطريقة الثانية وهى تفريغ البيانات آلياً، كانت هذه الطريقة فـي بدايتها تحتاج الى عدة خطوات كالترميز والتبويب وعرض الاستمارة علـى احصائى لوضع كل سؤال رقم معين وكل متغير رقم آخر..وهكذا، ولكن مـع التطور العلمى السريع فى مجال الحاسب الآلى (الكمبيوتر) أصبحت عمليـة التبويب والتصنيف والتفريغ واستخراج الجداول البسيطة والمركبه واستخراج العلاقة بين متغيرات معينة وحساب درجات الارتباط والوصف الأحصائى أو كافة المعالجات الأحصائية من الأمور البسيطة جداً والتى يمكـن الحصـول عليها من خلال برامج معده مسبقاً، بحيث لا يحتاج الأمر سوى ادخال البيانات عبر الحاسب الآلى وفقاً لبرنامج معين واستخراج البيانات بالأسـلوب الـذى يحدده الباحث.

الخطوة الرابعة: تحليل البيانات وتفسيرها:

تعتبر مرحلة تحليل البيانات وتفسيرها مـن أهـم خطـوات المسـح الاجتماعى، وينقسم التحليل الى نوعين:ـــ

١ــ التحليل الكمى: وهو ما يعرف بالتحليل الاحصائى ويتمثل فـى عمليـات متعددة لعملية الوصف الأحصائى التى تحتوى على اسـتخراج المتوسـطات، والنسب المئوية، ومعاملات الارتباط، ومقاييس التشـتت، والرسـوم البيانيـة كالمدرج والمضلع والمنحنى التكرارى، والدوائر..الخ. كما يفيد التحليل الكمى فى عملية تفسير العلاقات متعددة الأبعاد، هذا فضلاً عن استنتاج بعض الدلائل والتفسيرات التى تتطلبها عمليات التحليل والتفسير، ووصف الاختلافات بيـن جماعات المسح عن طريق استخدام الأساليب الاحصائية الملائمة.

٢ــ التحليل الكيفى: هو اعطاء مغزى منطقـى للأرقـام والنسـب المئويـة والارتباطات التى أسفر عنها التحليل الاحصائى، وعموماً أن ثنائية التحليـل ــ الكمى والكيفى ــ ثنائية زائفه، فكلا النوعين من التحليـل يكمـل بعضـهما البعض، وعلى الرغم من أهمية التحليل الكمى لما له من دقـة فـى التعبـير واختصار للجهد المبذول الا أن هناك بعض الموضوعات قد لايصلـح معـها التحليل الكمى كموضوعات التفاعل، أو التحليل التاريخى، كما ينبغى أن ندرك

أن عمليات التنبؤ بمسائل معينة على افتراض أن العلاقات بين المتغيرات المختلفة علاقات ثابته ودائمة ويمكن التعبير عنها بأرقام أو نسب منوية، افتراض خاطئ؛ لأن الواقع الاجتماعي وما يشتمل عليه من ظواهر اجتماعية وأبعاد مختلفة واقع دينامي ومتغير، ومن ثم ينبغي أن لانبالغ في استخدام الكم على حساب الكيف في التحليلات السوسيولوجية[1].

أما تفسير البيانات، يعني ربط الحقائق التي تم جمعها خلال عملية المسح بعضها ببعض، وتحري الأسباب التي تكمن خلف هذه الحقائق، والكشف عن العلاقات الكامنه فيها، والآثار المترتبه عليها، وللتفسير نماذج وأنماط مختلفة، فقد يكون التفسير على أساس الدوافع أو على أساس الحاجات الأساسية التي يهدف الفرد الى إشباعها، او على أساس الأسباب التي تكمن وراء الظواهر أو الأوضاع الاجتماعية، أو على أساس الوظيفة[2]، وذلك على اعتبار أن البناء الاجتماعي مقسم الى عدة أنساق ولكل نسق وظيفة أو عدة وظائف مختلفة والتفسير الوظيفي هنا يعتبر تفسير سببي، فسبب وجود العين مثلا في جسم الانسان هو القيام بوظيفة البصر، وسبب وجود الاذن فهو حفظ توازن الجسم والقيام بوظيفة السمع..الخ.

الخطوة الخامسة: كتابة تقرير المسح:

بعد ان ينتهي الباحث من تحليل بيانات المسح وتفسيرها واستخلاص النتائج والتوصيات علية بكتابة تقرير المسح باعتبار هذه الخطوة المرحلة النهائية من مراحل المسح الاجتماعي، ويشتمل تقرير المسح على عرض وافي لموضوع المسح من حيث الأهمية وأسباب الاختيار أو الهدف من بحثة وعرض للخطوات التي اتخذها الباحث في عملية المسح، والصعوبات التي واجهته أثناء عملية جمع البيانات وكيفية التغلب عليها، كذلك عرض للاستراتيجية المنهجية التي استخدمها الباحث والتي تشتمل على منهج الدراسة وطرق وأدوات جمع البيانات ومبررات إختيار هذه الاستراتيجية، وأسلوب سحب عينة المسح – إذا كان المسح قد اعتمد عليها – وخصائص هذه العينة،

---

(١) عبدالباسط محمد عبدالمعطي، البحث الاجتماعي: محاولة نحو رؤية نقدية لمنهجه وابعاده، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٥، ص ٤٢٣.

(٢) جمال ذكي والسيد يسن، أسس البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٤٥٤.

كذلك عرض للنتائج التى توصل اليها، ومناقشة هذه النتائج فى ضـوء نتـائج مسوح أخرى مشابهه، ثم يقوم بعرض لتوصيات المسح والتى تعتـبر مجـالا لمسوح أخرى مستقبلية، وأخيراً المصادر التى اعتمد عليها الباحث.

خامساً: تصنيف المسوح الاجتماعية:

هناك تصنيفات مختلفة للمسح الاجتماعي، ويرجع هذا الاختلاف والى أساس التصنيف، فإذا نظرنا الى مجال المسح سوف نجد أن هنـاك مسـوحاً عامة وأخرى متخصصة، وإذا نظرنا الى هدف البحث فهناك مسوح وصفيـة وأخرى تفسيرية، وإذا نظرنا الى حجم الجمهور فهناك مسوح شاملة وأخـرى بالعينة. ويمكن الاشارة الى أهم تصنيفات المسح الاجتماعى على النحو التالى:

١ـ تصنيف المسوح وفقاً لمجال الدراسة:

تنقسم المسوح على أساس مجالها الى نوعين:

أ ـ المسوح العامة General Surveys: وهى تلك المسوح التى تتناول عدة مجتمعات متجاورة أو مجتمعا بأكملة، أو مدينة او قرية وتتناول أيضـاً عـدة جوانب من الحياة الاجتماعية فى آن واحد كالتعليم والصحة والأسرة والجريمة والمشاركة السياسية والقيم الاجتماعية، والأحوال المعيشية ومستوى السـكن، والمشكلات الاجتماعية السائدة، وأوجه البنـاء الطبقـى وأنـواع العلاقـات الاجتماعية والأنشطة الترويحية والرياضيـة، وأحـوال العمـال وظـروف العمل..ألخ، وهذه المسوح تسمى أحياناً بالمسوح ذات الاتجاة الأفقى.

ب ـ المسوح الخاصة: وهى المسوح التى تركز دراساتها على جوانب محددة من الحياة الاجتماعية لمجتمع أو جماعة ما، حيث تهتم هذه المسـوح بجـانب واحد فقط كالتعليم أو الصحة أو الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو البطالـة أو أنماط الجريمة، ويعرف هذا النوع من المسوح بالمسوح الرأسية، حيث أنـها تهتم بالدراسة المتعمقة لمشكلة ما بحثاً عن الجذور التاريخية لنشأة هذه المشكلة وأسباب نشأتها وعوامل تطورها، أيضاً يهتم هذا النوع من المسوح بإستشراف المستقبل من خلال الفهم المتعمق للماضى والحاضر.

٢ـ تصنيف المسوح وفقاً للمجال البشرى:

تصنف البحوث وفقاً للجمهور الذى تشمله الى نوعين:

أ ـ المسوح الشاملة **Total Survey**: وهذا النوع من المسوح يقوم على دراسة كافة مفردات أو وحدات مجتمع البحث او كافة الوحدات التى يتألف منها جمهور البحث. ويفضل إستخدام هذا النوع من المسوح فى حالة إذا كان حجم جمهور البحث صغير نسبيا، كأن يجرى مسحاً على أحد الأحياء الفقيرة فى مدينة ما، أو إدمان المخدرات لدى طلاب المدارس الثانوية أو فى عمليات التعداد[١] التى تجريها الدولة على فترات زمنية محددة، فينبغى أن يشمل التعداد كل أفراد المجتمع إذا كنا بصدد الحصول على معلومات وبيانات دقيقة.

وعلى الرغم من مميزات هذا الأسلوب فى المسح الا أنه يشوبه أوجه نقص كثيرة يمكن الإشارة اليها على النحو التالى:

١ ـ بهاظة التكاليف، فالحصر الشامل يتطلب نفقات مالية كثيرة خاصة إذا كان مجتمع المسح كبير. فلا يستطيع باحث أو هيئة بحثية تنفيذه الا إذا كان ممولاً من قبل الحكومة.

٢ـ يحتاج المسح الشامل وقتاً طويلاً لتنفيذه، فقد يستغرق عدة سنوات، فعلى سبيل المثال يحتاج التعدادات التى تنفذ على مستوى الدولة الى فترة اعداد قد تستغرق أكثر من عام أو فترة مماثلة لجمع البيانات، واخرى لتصنيف هذه البيانات وتفريغها وجدولتها واستخراج النسب المئوية وتحليل هذه البيانات وكتابة تقرير البحث.

٣ـ يحتاج المسح الشامل إلى جهاز إدارى وفنى قد لايتوافر فى كثير من المسوح القومية.

٤ـ قد يكون من المستحيل القيام بحصر شامل لتعذر تدريب العدد الكافى من العدادين أو جامعي البيانات أو الباحثين الميدانيين تدريباً مناسباً يؤهلهم بالقيام بهذه المهمة بكفاءة.

---

(١) محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعى: مبادئه ومناهجه، مرجع سابق، ص ٩٢.

٥ــ من عيوب المسح الشامل أيضاً أن النتائج التى يتوصل اليها لايمكن تطبيقـها على مجتمعات أخرى غير المجتمع الذى أجرى عليه المسح، ومن ثـم فعمليـة التعميم من خلال المسح الشامل عملية غير دقيقة وينبغى التعامل معها بحذر[١].

ب ــ المسوح بالعينة **Sample Survey**: وهى تلك المسوح التى يكتفى فيـها الباحثون بدراسة جزء من المجتمع الأصلى للمسح توفيراً للنفقـات والجـهد والوقت، وهذا النوع من المسوح هو الغالب فـى البحـوث السوسـيولوجية، ويستخدم عادة عندما تتشابه خصائص مفردات المجتمع أو عندما يكون هنـاك قدراً من التجانس بين مفرداته. ويتطلب هذا النوع من البحوث معرفة شـاملة لطبيعة مجتمع البحث وخصائصه وبنائه الداخلى حتى يتثنى سحب عينة ممثلة للمجتمع الأصلى، وكلما كانت العينة تمثل بدقة خصائص مجتمع المسح كلمـا أمكن تعميم النتائج المستمدة منها وتطبيقها على المجتمع المسحوبه منه ككـل بشكل علمى دقيق. وجدير بالذكر أن هناك نماذج مختلفة للعينـات[٢] كالعينـة العشوائية، والعينة العشوائية المنتظمة، والعينة العمدية أو القصديـة، والعينـة الطبقية أو العينة بالحصة أو العينة متعددة المراحل ..ألـخ، وهنـاك شـروط وخطوات لتصميم العينة الممثلة، وهناك تقديرات ومعالجات احصائية لتحديـد الحجم الأمثل لهذه العينه ينبغى على الباحث أن يكون ملماً بها.

٣ ــ تصنيف البحوث وفقاً للهدف من الدراسة:

تصنيف المسوح وفقاً للهدف من الدراسة إلى نوعين:ــ

أ ــ المسح الوصفى **Descriptive Survey** :

تستهدف المسوح الوصفية "وصف الظواهر الاجتماعية فى صـورة كمية"، للكشف عن مدى قوة أو ضعف أى من هذه الظواهر فى قطـاع مـن قطاعات البناء الاجتماعى، أو فى مختلف أرجاء المجتمع[٣] ويهتم قطاع كبـير

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٣.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: غريب سيد احمد، تصميم وتنفيذ البحـث الاجتمـاعى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٤، الفصل الحادى عشر (طريقـة العينـات)، ص ص ٢١١ ــ ٢٣٤.

(٣) زيدان عبدالباقى، قواعد البحث الاجتماعى، مطبعة السـعادة، القـاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٦٥.

من هذه المسوح بدراسة المجتمعات المحلية من حيث العادات والتقاليد والأعراف والقيم التقليديه والقيم المتغيرة وعوامل تغيرها، هذا فضلاً عن وصف السكان من حيث تكوينهم النوعي والعمري والسلالي والمهني والتعليمي وظروفهم الصحية، وحركتهم (الهجرة)، هذا فضلاً عن دراسة المشكلات الاجتماعية المتعددة، وجدير بالذكر أن المسوح الوصفية لاتقف فقط عند حد الوصف أو تقرير ما هو واقع، ولكنها تبحث أيضاً عن أسباب وجود الظاهره موضوع الدراسة على هذا النحو وعوامل تطورها، بل يتعدى عملية الوصف في كثير من الأحيان إلى عملية التنبؤ بما سوف تكون عليه الظاهرة في المستقبل. فعلى سبيل المثال قام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة بإجراء العديد من المسوح الوصفية، ومن اهمها المسح الذي أجرى عن ظاهرة "البغاء في القاهرة" والذي أجرى في الفترة من ١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٧ حتى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٥٨ وكان الهدف الأساسي ليس فقط وصف ظاهرة البغاء كما تمارس في مدينة القاهرة ولكن كان يهدف أيضاً إلى الوقوف على طبيعة هذه المشكلة من حيث الأسباب أو الدوافع والنتائج وكيفية مكافحة هذه الظاهرة أو الوقاية منها حتى لا يستفحل امرها في المستقبل وتشكل تهديداً للبناء القيمي والأخلاقي في مدينة القاهرة[1].

وباعتبار أن هذا المسح يندرج تحت المسوح الوصفية فقد اهتم بالتعرف على خصائص جمهور المسح من البغايا كالسن، والجنسية، والديانة. والموطن الأصلي، ومناطق الاقامة، التي يقمن فيها بمدينة القاهرة، والحالة التعليمية والمهنية ومدى إرتباط مهن معينة بممارسة البغاء، وأوضح جانب من المسح وصف عملية الممارسة ذاتها من حيث بدايتها، وطريقتها، والعملاء الذين يتعاملون مع هؤلاء البغايا، وأوقات الممارسة، وهل هناك أيام أو شهور أو فصول تكثر فيها الطلب عليهن أكثر من غيرها، كذلك تضمن المسح وصف الحالة الاجتماعية والاقتصادية لهؤلاء البغايا ودخلهن من المهن الأصلية التي يعملن بها ودخلهن من ممارسة البغاء، وتناول المسح أيضاً علاقة البغايا بأسرهن وهل هذه الأسر على علم بممارسة البغاء وموقفها من

---

(١) المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، البغاء في القاهرة: مسح اجتماعي ودراسة اكلينيكية، دار مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦١.

ذلك، ومدى إنخراط هؤلاء البغايا في ممارسات أخرى كتعاطي المخدرات أو المسكرات ...ألخ[1]. ولقد شمل المسح الاناث اللاتي يمارسن البغاء أو يحرض عليه أو يسهلن فعلة أو يقمن بإستغلال البغايا، ولقد تم تحديد عينة المسح من الاناث التي تم القبض عليهن عن طريق شرطة حماية الآداب بالقاهرة والجيزة لاتهامهن في أحدى الجرائم التي يحددها القانون ٦٨ لسنة ١٩٥١ بمكافحة الدعارة، وهذه الجرائم هي:

١ـ التحريض على البغايا أو المساعدة أو التسهيل.

٢ـ الاستخدام أو الاستدراج أو الأغواء.

٣ـ معاونة أنثى على الدعارة.

٤ـ استغلال البغايا.

٥ـ فتح أو ادارة محل للدعارة.

٦ـ الاعتياد على ممارسة الدعارة.

لقد اشتمل فريق المسح على أعضاء من تخصصات مختلفة، كأعضاء اللجنة التنفيذية، والدراسة الإكلينيكية، وفريق البحث االاجتماعى، وفريق الفحص العضوى، وفريق الفحص النفسى، وفريق الفحص الطبنفسى، وفريق السكرتارية، وبلغ عدد البغايا اللائى شملهن المسح ١٠٥٥ مفردة، تم ضبطهن جميعاً من خلال شرطة حماية الآداب في فترة المسح، وأشتمل التقرير النهائي للمسح على وصف شامل للبغايا وأبعاد عملية الممارسة، وخلصت الدراسة الى عدة نتائج أهمها أن معظم هؤلاء البغايا نشأ في أسر فقيرة وعانين من الحرمان المبكر للحاجات المادية الأساسية مما دفعهن إلى احتراف البغاء كوسيلة لإشباع الحاجات المادية الملحة، وأن معظم البغايا من الأميات، وكانت تعملنّ في مهن غير فعليه ذات دخل منخفض، وأن الأمراض التناسلية كانت منتشرة بينهن، وأن عملية الاستمتاع بالجنس أو الاستجابة الجنسية كانت شبه منعدمة، وان غالبية هؤلاء البغايا كانت تعاني من أمراض نفسية (سيكوباتية، وضعف عقلي، وهيستيريا، وإكتئاب)[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٢-٣.

(٢) المرجع السابق، ص ص ١٣٠ – ١٣٥.

ب ـ المسح التفسيري:

وهذا النوع من المسوح لايقف عند حد الوصف وانما يتخطى ذلك الى مرحلة متقدمة وهى عملية التحليل والتفسير،بحثاً وراء الأسباب التى أدت الى حدوث الظاهرة والنتائج المترتبة عليها، ومن ثم فالهدف المباشر من وراء هذه المسوح هو معرفة أثر عامل أو مجموعة عوامل على احداث ظاهرة معينة، ولذلك تسمى أحياناً ببحوث أو مسوح الأثر أو المسوح التجريبية أو المسوح التى تختبر فروضاً سببية. ولاشك أن هذه المسوح تنحو نحو إستخدام اسلوب التجربة، ولكن ليس التجربة بمفهومها المعملى الذى يقوم الباحث بإصطناع العوامل أو المتغيرات المستقلة والتحكم فيها لمعرفة آثارها، وإنما يتلمس الباحث هذه العوامل من خلال سير الظاهرة موضوع المسح بشكلها الطبيعي دون أن يتدخل فى خلق العوامل المستقلة. فعلى سبيل المثال لو كان الباحث بصدد القيام بمسح تفسيرى عن "أثر الطلاق على تفكك الأسرة وإنحراف الأحداث"، واستخدام منطق التجربة المعملية فإنه يتحتم علية تكوين مجموعتين من الأسر لهما نفس الخصائص، احدهما تقوم بدور المجموعة التجريبية والثانية تقوم بدور المجموعة الضابطة، ثم يقوم بالتدخل الفعلى وأحداث طلاق حقيقى لأسر المجموعة التجريبية لكى يقيس بعد ذلك أثر هذا الطلاق على تفكك هذه الأسر وإنحراف الأطفال، ولكن هذا منطق غير معقول وغير مقبول على الاطلاق، ومن ثم لايصلح منطق التجربة المعملية فى دراسة الظواهر الاجتماعية بشكل فعال، ولكن الباحث الاجتماعى يستطيع أن يقوم بمثل هذه التجارب وبشكل دقيق باستخدام أساليب أخرى، ففى المثال السابق مثلاً علية ان يقوم ببحث حالات الطلاق التى وقعت بالفعل وقياس أثر هذا الطلاق على تفكك هذه الأسر وإنحراف الأحداث، أو ينتظر وقوع حالات مماثلة فى المستقبل ـ دون تدخل منه ـ وقياس أثر الطلاق على الأسر المطلقة. وبصفة عامة أن المسوح التفسيرية على مختلف مسمياتها فهى تشترك فى اطار منهجى واحد وهو التحرى عن طبيعة العلاقة بين ظاهرة وأخرى أو بين سبب أو مجموعة أسباب ونتيجة أو مجموعة نتائج محددة.

سادساً: أدوات البحث فى المسوح الاجتماعية:

تعتمد المسوح الاجتماعية على كافة أدوات البحث الاجتماعى فى عملية جمع البيانات، وتختلف أدوات البحث من مسح إلى آخر باختلاف طبيعة المسح ونوعية جمهور المسح، فعلى سبيل المثال لايفيد "الاستبيان البريدى" Muiled Questionaire فى الحصول على بيانات من جمهور لايعرف القراءة والكتابة، كذلك لايصلح الاستبيان التليفونى الا مع عينة لدى كل مفرداتها أجهزة تليفونات لكى يمكن الاتصال بها. وعادة ما تستخدم المسوح الاجتماعية أكثر من أداة لجمع البيانات بطريقة مباشرة، وأهم هذه الأدوات[1]:ـ

١ــ استخدام السجلات والوثائق المتاحة:

تستخدم السجلات الاحصائية الرسمية والوثائق بشكل فعال فى مرحلة التخطيط للمسح الاجتماعى، فغالباً ما يلجأ الباحثون الى معرفة خصائص السكان من خلال التعدادات الرسمية هذا فضلاً عن الرجوع الى السجلات الخاصة بالمواليد والوفيات وحالات الزواج والطلاق والهجرة لمعرفة المزيد من الخصائص السكانية لمنطقة المسح، "وأحياناً يقتضى المسح الرجوع الى بيانات أكثر دقة وتفصيلاً عن الحالات المدروسة Case - Records كما هو الأمر فى المسوح التى تجرى على الأحداث الجانحين أو التى تتناول دراسة جرائم أخرى توجد بيانات تسجيلية عنها"[2]. ولاشك أن هذه البيانات الوثائقية تعطى عمقاً أكثر للحالات المدروسة وتفيد بشكل كبير فى عمليات تحليل وتفسير بيانات المسح.

٢ ــ المقابلة Interview:

تعتبر المقابلة من أكثر أدوات البحث شيوعاً ليس فقط فى العلوم الاجتماعية ولكن أيضاً فى كثير من مجالات الحياة، فكل من الطبيب ورجال الأعمال، ورجل الدين، ورجل البوليس، والقاضى، والصحفى، والمدرس، والمحامى، والأخصائى النفسى، والأخصائى الاجتماعى، ورجل الاعلام..ألخ. كل هؤلاء يستخدمون المقابلة لتحقيق أهداف متنوعة قد تكون للحصول على

---

(١) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ص ٣٨٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٨٥.

معلومات أو للتوجية أو التشخيص والعلاج[1]. والمقابلة هي حوار لفظي بين باحث ومبحوث ــ في حالة المقابلة الفردية ــ في موقف مواجهة لتحقيق هدف محدد وليس لمجرد الحوار فى حد ذاته, وللمقابلة عدة أنواع فمن حيث الغرض تنقسم الى مقابلة لجمع البيانات، ومقابلة تشخيصية، ومقابلة علاجية، ومن حيث درجة التقنين، فهناك المقابلة المقننة والمقابلة غير المقننة، ومن حيث العدد، فهناك المقابلة الفردية والمقابلة الجمعية.

وتستخدم المقابلة بشكل مكثف كأداة أساسية أو أداة مساعدة لجمع البيانات فى المسوح الاجتماعية، فقد يكون الاعتماد عليها بشكل أساسى فى جمع البيانات من جمهور المسح، وقد تكون اداة مساعدة لإستمارة البحث كأداة أساسية للحصول على بيانات من جمهور المسح فى مواقف مقابلة.

٣ــ الملاحظة Observation:

تفيد الملاحظة كأداة أساسية من أدوات البحث العلمى فى الحصول على معلومات صادقة ودقيقة، وكما هو معروف أن الملاحظة هى الأداة الأساسية للحصول على معلومات فى العلوم الطبيعية المعملية. وتستخدم الملاحظة أيضاً فى المسوح الاجتماعية خاصة المسوح التى تجرى من خلال علماء الأنثربولوجيا حيث يقيمون فترات كافية فى مجتمعات الدراسة وهى مجتمعات فى الغالب محلية صغيرة ــ ويلاحظون كافة الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية والعائلية وأنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية ويسجلون ما يحدث فى هذه الأنشطة كما هى موجودة فى الواقع بشكل دقيق. وتستخدم أيضاً الملاحظة فى بعض المسوح السوسيولوجية خاصة المسوح التى تجرى على نظم اجتماعية معينة أو مجتمعات محلية محدودة، او لوكان جمهور المسح من الأطفال أو الجماعات الصغيرة. وتفيد الملاحظة فى جمع بيانات تتعلق بسلوك جمهور المسح الفعلى فى بعض المواقف الواقعية فى الحياة، كما تفيد أيضاً فى الحصول على بيانات أو معلومات فى المواقف التى يظهر فيها المبحوثون شكلاً من المقاومة أو الخوف أو التردد للإجابة على اسئلة الباحث، كما تفيد أيضاً فى المسوح الكشفية والوصفية والتفسيرية. وللملاحظة كأداة من أدوات المسح الاجتماعى أشكال متنوعة كالملاحظة

---

(١) عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٤٤٦.

البسيطة، والملاحظة المنظمة، والملاحظة بالمشاركة، والملاحظة بدون المشاركة. وهي كسائر أدوات البحث الاجتماعي لها مميزات وعيوب وقد تفيد الملاحظة في مسوح معينة ويستحيل استخدامها في مسوح أخرى.

٤ـ استمارات البحث Questionaire:

يستطيع المتتبع لمسيرة المسح الاجتماعي في العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة أن يلحظ بوضوح أن استمارات البحث تعتبر من أكثر أدوات البحث شيوعا في المسوح الاجتماعية نظرا لسهولة تعميماتها ولسهولة تطبيقاتها على جمهور المبحوثين. وهناك نوعين من استمارات البحث الأول يسمى بالاستبيان وله أشكال متعددة كالأستبيان البريدي Mailed Questionair والاستبيان التليفوني، والاستبيان الذي ينشر على صفحات المجلات أو الصحف اليومية أو شاشة التليفزيون، أو عن طريق الاذاعة أو من خلال شبكات الأنترنت. والنوع الثاني هو ما يسمى باستمارة البحث، وهناك بعض الاختلافات البسيطة بين الاستبيان بأشكاله المختلفة وبين استمارة البحث، ومن أبرز هذه الأختلافات أن الباحث لايكون متواجدا عند الاجابة على أسئلة الاستبيان فالمبحوث يقوم بالاجابة على الأسئلة بنفسه وارسال الاستبيان الى الهيئة المشرفة على البحث، ومن ثم ينبغي أن تكون أسئلة الاستبيان واضحة وبسيطة ولاتحمل أكثر من معنى وعددها قليل حتى لايمل المبحوث من الأجابة عليها ومكتوبة باللغة أو اللهجة التي يفهمها جمهور البحث جيدا. بينما الأمر يختلف في استمارة البحث فوجود الباحث أو من ينوب عنه من جامعي البيانات أمر ضروري، فالباحث يقوم بالقاء الأسئلة على المبحوث في موقف مقابلة يجمعهما معا ويدون الاجابات كما يقولها المبحوث في استمارة البحث. وجدير بالذكر تمر عملية بناء استمارات البحث بمراحل عديدة قبل تطبيقها على جمهور المسح، ولكل من استمارة البحث والأستبيان بأشكالة المختلفة مزاياه وعيوبه.

سابعا: تقييم المسح الاجتماعي:

لاجدال في أن المسح الاجتماعي يعتبر من أقدم طرق البحث في العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة، فلقد أستخدم المسح الأجتماعي لدى رواد البحث الاجتماعي الأوائل أمثال "جون هوارد"

John Howard (١٧٢٦ ــ ١٧٩٠) [١]، رائد حركة الاصلاح الاجتماعي فـي انجلترا. حيث قام "هوارد" بدراسة شهيرة عن حالة السجون في انجلترا معتمداً في ذلك على الملاحظة بالمشاركة والمقابلة الشخصية. ولقـد قـام "هـوارد" بإحصاء عدد السجون في انجلترا، وعدد نزلائها، وتواريخ دخولهم السـجن، والأمراض التي يعاني منها المسجونون، وأحصى عدد العـاملين بالسـجون، ومصادر دخولهم. ولقد وجد "هوارد" أن عدداً كبيراً من المسجونين وضعـوا في السجن ظلماً، ولم يستطيعوا حتى بعد أثبات براءتهم مغادرة السجن لعـدم تمكنهم من دفع الرسوم المطلوبة، كما وجد أيضاً أن أغلب العاملين بالسـجون لا يتقاضون مرتبات أو اجور نظير عملهم. وإنما كان يعتمدون على ما يدفعـه المسجونون من رسوم". وجدير بالذكر أن نتائج مثل هذه المسوح التي كـانت تجرى في القرن الثامن عشر كانت تؤخذ موضع التنفيذ من قبـل السياسـات المسئولة عن التخطيط في المجتمع، فلقد قدم "هوارد" نتائج بحثـه فـي سـنة ١٧٧٤ الى أحدى لجان مجلس العموم البريطاني مطالباً بالاصلاح الاجتمـاعي للسجون، وايده اعضاء اللجنة، وأصدر أعضاء البرلمان قانوناً بـالعفو عـن المسجونين الذين ثبتت براءتهم، وقانون آخر يقضي بمنح العاملين في السجون مرتبات ثابتة، وقانون ثالث يقضي بتنظيم عملية اصلاح السجون من الداخـل كالتنظيف والتهوية، والرعاية الطبية للمسجونين..الخ[٢].

ومنذ أن أوضح "جون هوارد" أهمية المسح الاجتمـاعي ودوره فـي عمليات التخطيط والاصلاح الاجتماعي في النصف الثاني من القرن الثـامن عشر حتى يومنا هذا والمسوح الاجتماعية في تزايـد مسـتمر علـى كافـة المستويات المحلية والقومية بل العالمية، وإذا كانت المسوح الكلاسيكية كـانت تهتم بدراسة مشكلات اجتماعية أو جوانب معينـة مـن البنـاء الاجتمـاعي، أصبحت اليوم تهتم بكافة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والعائلية أي بكافة أنساق البناء الاجتماعي. وأصبحت تسهم كثير مـن هـذه المسوح في عمليـات التنميـة الشـاملة Comprehensive Development والتخطيط الاجتماعي أو السياسات الاجتماعية بصفة عامـة حيـث تنوعـت

---

(١) عبدالباسط محمد حسن، اصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٨.

مجالات هذه المسوح كمجـال المشـكلات الاجتماعيـة، ومجـال المسـوح الديموجرافية، ومسوح المجتمعات المحلية على مختلـف اشـكالها ومسـوح الاسكان والتخطيط القومى ومسوح قياس الرأى العام والاتجاهات السياسـية، ومسوح العلاقات الصناعية السـوق Market Survey والمسـوح النفسـية، ومجال المسوح الأدبية Literarily Survey..ألخ من هذه المجالات المختلفة.

على أية حال، سوف أشير الـى أهـم مميزات وعيـوب المسـح الاجتماعى كأسلوب فى البحث الاجتماعى على النحو التالى:

أ ــ مميزات المسح الاجتماعى:

١ــ يساعد المسح الاجتماعى ــ خاصة المسح الشامل ــ على جمع معلومات وبيانات أكثر دقة وصدقاً وأكثر تمثيلاً للواقع المدروس لما يوفره مـن مادة علمية خصبة عن كافة جوانب الظاهرة المدروسة.

٢ــ يتميز المسح الشامل بالعمومية، ومن ثم يجنب الباحث أخطـاء التحـيز وأخطاء استخدام العينات خاصة خطأ التعميم.

٣ــ يفيد المسح الاجتماعى فى عمليات التخطيط الشامل للسياسات الاجتماعية المختلفة، ايضاً يفيـد فـى عمليـات التخطيـط للتنميـة الاجتماعيـة والاقتصادية على مستوى المجتمعات والمجتمع القومى.

٤ــ يستخدم المسح الاجتماعى بصفة أساسية المنهج الاحصائى كأداة تحليلية كمية، وجدير بالذكر أن المنهج الاحصائى يتيح للباحث فرصة أفضل فى تحديد الحجم الأمثل للعينة، وتصنيف البيانات وتحليلها، والحصول على معرفة علمية أكثر تفصيلاً من خلال عمليات الوصف الاحصـائى للبيانات. وإيجاد معاملات الارتباط والتوافق والاقتران بيـن معطيـات الدراسة الميدانية.

٥ــ يفيد المسح الاجتماعى فى الدراسات الوصفية والتفسيرية لدراسة ظواهر اجتماعية متنوعه فى مجال الهجرة والسلوك السياسى، ومجال الأسـرة ومشكلات التفكك وانحراف الأحداث، وفى مجال الجريمة، وفى مجـال السوق والدعاية والاعلان، وفى مجال الرأى العام وقياسـة وعمليـات توجيهية، فهو لايتوقف عند حد الوصف والتحليل والتفسير فقط وإنمـا يتخطى ذلك لاستشراف المستقبل من خلال دراسة الماضى والحـاضر للظواهر موضوع الدراسة.

٦ـ يتسم المسح الاجتماعى بالمرونة فهو يتيح للباحث فرصة الجمع بين أكثر من أداة كالمقابلة والملاحظة واستمارة البحث واستخدام الوثائق والسجلات، وأيضاً دراسة بعض الحالات المثيرة للاستبصار بشكل مكثف، هذا فضلاً عن استخدام أكثر من منهج كالمنهج التجريبي والمنهج التاريخي، والمنهج الاحصائى، طالما كانت هذه المرونه سوف تفيد فى اثراء عملية المسح.

٧ـ يعتبر المسح الاجتماعى من الأساليب الهامة فى الحصول على بيانات وسلوكيات خاصة بجمهور كبير من المجتمع، وهذه الخاصية لا تتوافر لوسائل أخرى.

٨ـ قد يكون المسح الاجتماعى هو الأسلوب الوحيد لجمع بيانات عامة قيم وعادات وتقاليد ودوافع ومعتقدات واتجاهات جمهور المسح، تلك الدوافع والاتجاهات والمعتقدات التى قد لاتظهر بشكل واضح فى السلوك الظاهرى لجمهور المسح.

٩ ـ يفيد المسح الاجتماعى فى عمليات التخطيط الاقتصادى خاصة فى دراسات الجدوى الاقتصادية للمشروعات، كما يفيد أيضاً فى البحوث التتبعية للمشروعات الاقتصادية والاجتماعية المختلفة.

ب ـ عيوب المسح الاجتماعى:

على الرغم من المميزات العديدة للمسح الاجتماعى كطريقة متميزة فى البحث، إلا أنه يعانى من أوجة قصور متنوعة أيضاً يمكن الإشارة على النحو التالى التالى:ـ

١ـ غالباً ما تكون بيانات المسح الاجتماعى ذات طابع عام وتفتقد الى العمق، ويمكن للباحث التغلب على هذه المشكلة بإجراء مقابلات متعمقة مع بعض مفردات جمهور البحث قبل النزول الى الميدان واستخدام البيانات التى يحصل عليها كمرشد عند تصميم استمارة البحث الميدانى[1]، أيضاً يمكن عمل دراسات حالة متعمقة لبعض الحالات المثيرة للاستبصار لتعميق بيانات المسح.

---

(١) محمد الجوهرى، علم الاجتماع: النظرية، الموضوع، المنهج، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٧، ص ٢٦٠.

٢ــ يتطلب المسح الاجتماعى للمجتمعات المحلية أو الجماعات الصغيرة طرح عدد كبير من الأسئلة لمعرفة الجوانب المختلفة لطبيعة مشكلة ما أو ظاهرة اجتماعية محددة، وهذه الأسئلة قد تؤدى ضيق جمهور المسح وعدم تعاونهم مع المبحوثين. ومن ثم ينبغى على الباحث أن يكون فطناً الى ذلك وأن يحاول التركيز فى أسئلته على موضوع المسح، وان يختار الأوقات المناسبة التى لايمل فيها المبحوثون بسرعة.

٣ــ يعاب على المسح الشامل كثرة التكاليف، واحتياجة الى وقت طويل لتنفيذه قد يستغرق عدة سنوات، وإلى جهاز إدارى وفنى من الصعب توافره، هذا فضلاً على أن النتائج التى يتوصل اليها من الصعب تعميمها على مجتمعات أخرى غير المجتمع الذى أجرى علية المسح.

٤ــ يحتاج المسح الاجتماعى الى باحثين مدربين على درجة عالية لتفادى عمليات التحيز فى جمع بيانات المسح أو الايحاء للمبحوثين بإجابات معينة.

٥ــ كثيراً ما يتعرض المسخ الاجتماعى لأخطاء جمع البيانات، بسبب الاعتماد على عدد كبير من جامعى البيانات، فتلعب الفروق فى الخبرة ومستوى التدريب دوراً فى ابتعاد البيانات عن الموضوعية والانساق[1].

٦ــ غالباً ما يواجه الباحثون بمصاعب فى عملية سحب، عينة ممثلة لجمهور المسح، ومن أبرز هذه المصاعب عدم توافر بيانات كاملة عن المجتمع الذى تسحب منه عينة المسح، فمثلاً لو أردنا دراسة ظاهرة "أدمان المخدرات" فى المجتمع المصرى لاستحال علينا الحصول على عينة ممثلة نظراً لعدم توافر بيانات كاملة عن المدنيين وتصنيفاتهم وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وأماكن اقامتهم، ومن ثم يضطر الباحث الى أخذ عينة وفقاً لما هو متاح لديه من احصائيات، وهذه العينة تكون بالطبع غير ممثلة لمجتمع الدراسة، ومن ثم فالنتائج التى يمكن التوصل اليها من هذه العينة لا يمكن تعميمها بشكل علمى دقيق على كافة المدمنين فى المجتمع المصرى.

٧ــ تتعرض عمليه جمع بيانات المسح الى بعض الصعوبات، أهمها امتناع بعض أفراد عينة البحث عن التعاون فى اجراء المقابلة من الأساس أو امتناع بعضهم عن الاجابة على بعض أسئلة المسح.

---

(١) عبدالباسط عبدالمعطى، البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٣١٦.

٨ـ لاتخضع عمليات جمع البيانات الى مراقبة علمية دقيقة، فالباحث هو الجهة الوحيدة المتحكمة فى الحقائق التى تم جمعها، ولارقيب على الباحث سوى ضميرة العلمى، ومن ثم فإحتمال التزوير المتعمد للبيانات والجداول لكى تثبت صحة فروض معينة تخدم الاطار النظرى للمسح قائم لـــدى قلــة ولــو ضئيلة جداً من بعض الباحثين[1]. ومن ثم فهناك ضرورة لدراسة الموضـــوع الواحد من أكثر من باحث علمى لتقليل الضرر الناتج عن المسوح التى لايلتزم فيها الباحثون بالدقة والموضوعية وعدم التحيز لفروض المسح.

---

(١) باسم سرحان، "مشكلات منهج المسح الاجتماعى"، فى جابر أحمد عصفــور، منــاهج البحث فى العلوم الاجتماعيةوالانسانية، مكتبة دار العروبــة للنشــرو التوزيــع، الكويــت، ١٩٨٨، ص ٢١٨.

الفصل السابع

دراسة حالة

تمهيد:

١- تعريف دراسة الحالة وخصائصها.

٢- مجالات دراسة الحالة.

٣- أساليب دراسة الحالة:

أ- تاريخ الحالة

ب- التاريخ الشخصي للحياة

٤- خطوات دراسة الحالة.

٥- أدوات البحث في دراسة الحالة.

٦- تقييم دراسة الحالة:

أ- إيجابيات دراسة الحالة

ب- سلبيات دراسة الحالة

تمهيد

استخدمت دراسة الحالة منذ العصور القديمة في إلقاء الضوء على أفراد أو جماعات بعينها من قبل بعض المؤرخين[١]. ولكن هذا الاستخدام لم يكن بالشكل العلمي المتعارف عليه الآن، وكان الهدف منه هو خدمة الطبقة الحاكمة، لأن الشخصيات أو الجماعات التي كانت تشملهم هذه الدراسات غالباً من صفوة القوة السياسية أو الدينية في المجتمع. كما استخدمت دراسة الحالة في الدراسات الأدبية مثل دراسة القصص والروايات والأساطير والأحلام..إلخ.

أما الاستخدام العلمي لدراسة الحالة في البحث الاجتماعي يعود إلى "فردريك لوبلاي Fredric Le Play" في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حينما أسس عام ١٨٥٦ "الجمعية العالمية للدراسات العلمية في الاقتصاد الاجتماعي"[٢]، وبدأت باكورة دراساته في هذه الجمعية عن اقتصاديات الأسرة. ولقد واجهته مشكلتان منذ البداية الأولى: تحديد وحدة اجتماعية يمكن اعتبارها أساساً للدراسة، والثانية: إيجاد الطريقة التي يقيس بها عناصر تلك الوحدات قياسا كميا[٣]. فالمشكلة الأولى تغلب عليها باختيار الأسرة كوحدة أو "حالة" أساسية للدراسة، وتغلب على المشكلة الثانية باختيار ميزانية الأسرة كأسلوب كمي يقيس من خلاله مصادر الإنفاق ونظام المعيشة. وجدير بالذكر أن "لوبلاي" قد قام بدراسة عن أسر العمال الأوربيين استغرقت عشرين عاماً جمع فيها بيانات ومعلومات إحصائية متنوعة، ثم قام بعمل "دراسات حالة" متعمقة لبعض هذه الأسر توصل من خلالها لعدد من النتائج قام بتعميمها على باقي الأسر المتشابهة[٤].

كما استخدمت دراسة الحالة أيضاً في البحث الاجتماعي في القرن التاسع عشر في إنجلترا عن طريق "أندرو أور Androw Ure" في دراسته

---

(1) زيدان عبد الباقي، قواعد البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٢٩.

(2) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٠٩.

(3) المرجع السابق، ص ٣١٠.

(4) المرجع السابق، ص ٣١٠

للحالة وطريقة علاجها أو التعامل مع ما تعاني منه من مشكلات هذا فضلاً عن إمكانية التنبؤ بما سوف تكون عليه الحالة في المستقبل فعملية استرجاع الماضي يفيد في إلقاء الضوء على ما هو موجود في الحاضر ويساعد على التنبؤ بما سوف يمكن حدوثه في المستقبل.

ويمكن الإشارة إلى أهم خصائص "دراسة الحالة" كأسلوب في البحث الاجتماعية على النحو التالي:

١- تفيد دراسة الحالة في الحصول على معلومات شاملة عن الحالات موضوع الدراسة.

٢- تهتم هذه الطريقة في البحث بالموقف الكلي ومختلف العوامل المؤثرة فيه، وإلقاء مزيداً من وضوح الرؤية على الوحدة التي تبحث كحالة.

٣- لا تقتصر دراسة الحالة على تقرير ما هو واقع أو دراسة الحالة الراهنة ولكنها تعتمد أساساً على استرجاع Flash Back تاريخ الحالة وفقاً لمراحل تتبعية مختلفة.

٤- توافر للباحث مزيداً من الرؤية الكلية، ومزيداً من العمق والتفصيلات، التي لا تساعده فقط في فهم الحالة المدروسة بطريقة شاملة، ولكن أيضاً تفيد هذه الطريقة في اختيار الفروض والقوانين والنظريات العلمية و تطويرها[١].

٥- إنها طريقة للتحليل الكيفي للظواهر الاجتماعية والحالات المختلفة[٢].

٦- تتنوع وحدات دراسة الحالة، فليس من الضروري أن تكون الحالة شخصاً، فكما أشرت من قبل قد تكون الحالة جماعة أو مجتمعاً محلياً أو نظاماً اجتماعياً أو مؤسسة..إلخ.

٧- أنها أسلوب بحثي أكثر مرونة في اعتمادها على أدوات بحث متنوعة كالمقابلة والملاحظة والوثائق والسجلات والمذكرات الشخصية واستمارة البحث...إلخ.

---

(1) عبد الباسط عبد المعطي، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣١٧.

(2) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص ٣٩٣.

٨- تهدف هذه الطريقة إلى الكشف عن الجوانب الثابتة والجوانب المتغيرة سواء كانت إيجابية أم سلبية في الحالات المدروسة للنهوض بها.

٢- مجالات دراسة الحالة:

تتنوع مجالات دراسة الحالة من حيث كون الحالة شخصاً أو جماعة أو مجتمع محلي أو نظام اجتماعي أو مجتمع بأكمله، ولكن على الرغم من هذا التنوع في مجالات الدراسة إلا أنه ينبغي على الباحث أن يكون هناك معايير واضحة لاختياره للحالات المدروسة، فليست كل الحالات الموجودة في الواقع تصلح لأن تكون موضوعاً "لدراسة الحالة". ومن ثم ينبغي على الباحث أن يدقق في اختياره للحالات، وأن يكون موضوعياً في اختيار حالات نموذجية أو ممثلة Representative تفيد في عملية التعميم على باقي الحالات المشابهة[١]. ويتطلب ذلك من الباحث بطبيعة الحال القيام بدراسة كشفية (استطلاعية) للحالات قبل اختيارها موضوعاً للدراسة، وتحديد خصائصها بدقة، وعلى أي مدى يمكن الاعتماد على هذه الحالات في التعميم على حالات أخرى تحمل نفس الخصائص.

وجدير بالذكر أن "دراسة الحالة" تستخدم في ميادين متنوعة كعلم الاجتماع، والأنثربولوجيا، وعلم النفس بفروعه المختلفة، والصحافة، والطب الأكلينيكي، والجغرافيا، وعلم الآثار..إلخ من هذه الميادين إلا أن استخدامها يختلف باختلاف هذه الميادين، فعلى سبيل المثال أن استخدام دراسة الحالة في مجال الطب النفسي والطب الأكلينيكي والخدمة الاجتماعية يعتمد على الفهم الكامل للحالة - الشخص - وللمشكلة التي تعاني منها بهدف مساعدة هذه الحالة على تفهم وضعها والأسباب التي أدت إلى تفاقم هذه المشكلة، ووضع أسلوب العلاج الذي يختلف بالطبع من حالة إلى أخرى، بينما يهدف استخدام "دراسة الحالة" في البحوث الاجتماعية الوصول إلى استنتاجات علمية يمكن تعميمها على الوحدات المشابهة للوحدة المدروسة.

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٩٦.

وبصفة عامة يمكن تحديد مجالات دراسة الحالة على النحو التالي:

١- مجال الأشخاص:

يعتبر مجال الفرد "الشخص" من أكثر مجالات دارسة الحالة انتشاراً، فمحور الدراسة هنا ينصب على الشخص ذاته سواء كان هذا الشخص يشغل وظيفة جماهيرية مثل العمدة، أو مأمور القسم في المجتمعات البسيطة، وقد يكون الشخص كاتباً أو روائياً مشهوراً أو شخصية تاريخية، وقد يكون الشخص "فرد" عادي من أفراد المجتمع ولكنه يعاني من مشكلة نفسية أو "مدمن" أو "مجرم" ...إلخ. وهناك دراسات متنوعة استخدمت فيها دراسة الحالة وكانت وحدات الدراسة "أشخاص" مثل بحث "البغاء في القاهرة"، فكانت وحدة الدراسة هي "البغي" اتي تم ضبطها عن طريق مكاتب حماية الآداب. هذا فضلاً عن الدراسات التي أجريت على الإدمان بين شباب الجامعة، والتسرب الدراسي، وأطفال الشوارع...إلخ.

٢- مجال الجماعة:

قد تكون الجماعة أسرة نواة، أو أسرة ممتدة، أو عائلة، أو جماعة الجوار، أو جماعة النادي أو جماعة اللعب، أو جماعة العمل..إلخ، ويحفل التراث السوسيولوجي بكم هائل من الدراسات التي أجريت على مثل هذه الجماعات واستخدمت أسلوب "دراسة الحالة" في إلقاء الضوء على هذه الجماعات من حيث النشأة والتطور والمشكلات وأسبابها، وطرق التصدي لها.. إلخ، وكما أشرت من قبل أن البدايات الأولى في استخدام دراسة الحالة كانت على يد "لوبلاي" في دراسته عن "اقتصاديات الأسرة".

٣- مجال النظم الاجتماعية:

هناك العديد من النظم الاجتماعية مثل نظم الزواج، ونظام التعليم، والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي، والنظام الديني، والنظام الإعلامي...إلخ. ولقد استخدمت "بدراسة الحالة" في بحث مثل هذه النظم الاجتماعية في مجتمعات متنوعة.

٤ – مجال المجتمعات المحلية:

لاقت دراسة الحالة قبولاً كبيراً لدى الباحثين السوسيولوجين والأنثربولوجيين في دراساتهم عن المجتمعات المحلية سواء كانت هذه المجتمعات ريفية أو حضرية أو بدوية أو بدائية، أو أحد الأحياء في مدينة معينة أو ضاحية من ضواحي المدن...إلخ. ومن أشهر الدراسات التي استخدمت دراسة الحالة في بحث المجتمعات الريفية، الدراسة التي قام بها "حامد عمار" عن قرية "سلوا" بمحافظة أسوان عام ١٩٥٠ لدراسة أساليب التنشئة الاجتماعية وارتباطها بعادات وتقاليد المجتمع القروي في صعيد مصر، وأيضاً الدراسة التي قام بها "عاطف غيث" عن قرية "القيطون" عام ١٩٦٠ بمحافظة الدقهلية لبحث التغير الاجتماعي في القرية المصرية، حيث ركز في دراسته على التغير الاجتماعي في القرية المصرية، حيث ركز في دراسته على التغيرات التي حدثت في نسق العائلة، والنسق الاقتصادي، ونسق الثقافة المادية.

هذا فضلاً عن الدراسات الأنثربولوجية التي أجريت على "بدو" محافظة مطروح والقبائل البدوية في محافظتي شمال وجنوب سيناء. والباحث حينما يستخدم أسلوب دراسة الحالة في بحث المجتمعات المحلية قد يكتفي بدراسة نسق واحد من أنساق هذا المجتمع أو عدة أنساق أو البناء الاجتماعي ككل، ويقوم بجمع معطيات بحثه من عدت مصادر متنوعة كالوثائق والسجلات الخاصة بالمواليد والوفيات، والزواج، والطلاق، والهجرة، وتعداد السكان، والكتب والأبحاث السابقة – إن وجدت – والقصص، والروايات، والأساطير، هذا فضلاً عن الرجوع إلى كبار السن (الإخباريون) في إلقاء مزيد من الضوء عند رصد الظواهر أو عادات معينة. وعلى الرغم مما قد يحسه القارئ العادي من سهولة في إجراء دراسات من هذا النوع على المجتمعات المحلية التقليدية كالقرية أو البادية، إلا أن الأمر في غاية الصعوبة نظراً لصعوبة توافر المادة العلمية المكتوبة عن هذه المجتمعات، وندرة الإحصاءات الدقيقة والوثائق والسجلات الرسمية المتصلة بحركة السكان، ومن ثم يلجأ كثير من الباحثين إلى الاستعانه بكبار السن وهذا الإجراء ينطوي

على مخاطرة علمية كبيرة لما قد يشوب تلك المعلومات التي تعتمد على ذاكرة كبار السن كثير من المغالطات والمبالغات غير المحسوبة.

ولقد استخدم "روبرت ليند R. Lynd" و"هلين ليند H. Lynd" أسلوب "دراسة الحالة" في دراسة المجتمع المحلي لمدينة "مديلتاون Middletown" بولاية "إنديانا" بالولايات المتحدة الأمريكية، وكان الهدف من هذه الدراسة هو رصد حركة التغير الاجتماعي في أنماط السلوك خلال خمسة وثلاثون عاما (١٨٨٠-١٩٢٥) [١].

٥- مجال الأعمال الأدبية:

استخدمت طريقة دراسة الحالة في العديد من المجالات الأدبية كالأساطير والقصص والروايات منذ زمن بعيد - على حد قول بيرجس Burgess والذي ينظر إلى العمل الأدبي كالرواية أو القصة باعتبارها حالة ممثلة للعديد من الحالات المشابهة[٢]. ولا شك أن دراسة الحالة تعتبر من الطرق الهامة التي استخدمت في دراسة الأعمال الأدبية حيث تتمثل وحدة الدراسة في العمل الأدبي زائد كالرواية أو القصيدة الشعرية.

ولقد استخدمت "جانيت وولف Janet Wolff" أسلوب دراسة الحالة في تفسير العلاقة بين الأدب والمجتمع The Interpretation of Literature in Society والتي استعانت فيها ببعض الأعمال الأدبية لـ "أميليبتسا Emilio Betti" و"ريتشارد بالمر R. Plamer" و"دالتي Dilthey" وغيرهم، واعتبرت كل عمل من الأعمال الأدبية التي وقعت عليها الدراسة بمثابة "حالة" مثلة لباقي أعمال الكتب، وراعت أن يكون هذا العمل المختار ممثلاً أيضاً لحقبة زمنية، وقامت "وولف" بتطبيق إجراءات دراسة الحالة على هذه الأعمال الأدبية، ثم تعميم النتائج التي توصلت إليها على باقي الحالات "الأعمال الأدبية" المشابهة، ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها أن الأدب مرآة صادقة في التعبير عن واقع الحياة الاجتماعية بكافة أبعادها، على الرغم

---

(1) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٥٥.

(2) W. Gee. Social Science Reseaarch Methods, N.Y., Harcourt, 1950, P. 228.

من اختلاف وجهات النظر بين الأدباء في تصوير أبعاد هذا الواقع، فكل عمل أدبي من الأعمال التي درستها كان يمثل اتجاهاً محدداً في النظر إلى الحياة الواقعية[1]. أيضاً استعان "لويس كوزر" Lewis Coser بأسلوب دراسة الحالة في العديد من الأعمال الأدبية مثل رواية "كيف تصبح ديكتاتوراً How to Becom a Dictator لـ Ignazio Siloo، ورواية "انتظار على المحطة" Waiting at The Station "لوليام ساكراري". William Thackerary، وروانة "أسرة سعيدة" Happy Family "لتولستوي" Leve Tolstoi، وغيرها من الأعمال الأدبية[2].

٣ - أساليب دراسة الحالة:

تعتمد "دراسة الحالة" على أسلوبين متميزين في البحث، الأول يسمى أسلوب تاريخ الحالة" Case History، والثاني أسلوب "التاريخ الشخصي للحياة" Life History، وسوف أشير إلى كل منهما بالتفصيل على النحو التالي:

أ - أسلوب تاريخ الحالة Case History:

يتفق المشتغلون بالبحث الاجتماعي أن أسلوب "تاريخ الحالة" يدرس دراسة كل ما يتعلق بالحالة منذ نشأتها حتى الوضع الحالي لها، سواء كانت هذه الحالة فرد أو جماعة أو نظام اجتماعي أو مجتمع محلي. فإذا كانت الحالة "شخصاً" فمن الضروري دراسة نمو هذا الشخص الجسدي والعقلي، وبداية استجاباته الاجتماعية مع البيئة المحيطة، والأساليب التي إتباعها الوالدين في التدريب على النوم والأكل وضبط (التبول والتبرز)، وكيفية استجابة الطفل لذلك الأساليب. أيضاً دراسة العلاقات الاجتماعية المبكرة مع أفراد الأسرة والأقارب والمحيطين، والتكيف المدرسي مع زملائه، ومدرسيه، والنظام المدرسي، واستجاباته للتفوق. أيضاً ينبغي دراسة مستوى قدراته العقلية (الذكاء)، واهتماماته وانفعالاته من حيث النوع والتكرار والحالة المزاجية.

---

(1) Janet Wolff, The Interpretation of Literature in Society: The Hermanautic Appreach. In: Jane Routh and Jant Wolff., Op. cit., PP. 19-20

(2) Lewis. A. Coser, Sociology Through Literature, Op. cit., P. 212.

هذا فضلاً عن دراسة المشكلة التي يعاني منها وبداية حدوثها، وتطورها، وأثرها على اتجاهاته الانفعالية والسلوكية، والوسائل التي اتبعت لمعالجتها، ومدى استجابة الشخص لهذه الوسائل، كذلك دراسة تاريخ الأسرة من حيث المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، والعلاقات القائمة بين أفراد الأسرة.

ولا يقتصر أسلوب "تاريخ الحالة" الأبعاد السابقة فحسب وإنما يتعدى ذلك فيشمل الوثائق الرسمية التي تتناول الشخص موضوع الحالة لتقارير المدرسة أو المستشفى أو السجن، والاختبارات التي تجرى عليه، والمراسلات التي يقوم بها...إلخ[1].

وبصفة عامة، يهتم أسلوب "تاريخ الحالة" بالتطور التاريخي الذي مرت به الحالة منذ بداية نشأتها في محيط اجتماعي وثقافي معين، ومراحل التطور المختلفة التي مرت بها الحالة، والعوامل والمؤثرات التي أثرت في مقومات شخصيتها المختلفة سواء كانت جسمية أو ذهنية أو نفسية أو انفعالية والخبرات التي اكتسبتها الحالة والمشكلات التي تعرضت لها...إلخ.

أما إذا كانت "الحالة" مجتمعاً محلياً أو نظاماً اجتماعياً فبلا شك سوف تختلف إجراءات "تاريخ الحالة" في هذه الدراسة عن أسلوب "تاريخ الحالة" عندما تكون شخصاً ما. فدراسة الحالة عندما تستخدم في دراسة مجتمع محلي فهي تهدف إلى جمع بيانات كافية عن هذا المجتمع تساعد على تكوين صورة واضحة عن الحياة ككل داخل هذا المجتمع، أو على الأقل داخل نسق اجتماعي أو نظام محدد من أنظمة المجتمع. ويحدد الدكتور عبد الباسط حسن عدة خطوات ينبغي على الباحث اتباعها عند استخدامه "دراسة الحالة" في بحث المجتمعات المحلية على النحو التالي[2]:

١- يتعين على الباحث بأن يركز جهده على دراسة جانب واحد أو على دراسة جوانب محدودة للحياة الاجتماعية، فكلما كان الموضوع محدداً

---

(1) حسن الساعاتي، تصميم البحوث الاجتماعية، مرجع سابق، ص ١٧١.

(2) عبد الباسط حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص٣٥٥.

سهل على الباحث أن يدرسه دراسة مستفيضة متعمقة، وأن يصل إلى نتائج لها دلالتها العلمية.

٢- ينبغي أن يحدد الباحث مشكلة الدراسة تحديداً دقيقاً وأن يجعلها على درجة كبيرة من الوضوح، وأن يحدد فروض محددة للدراسة حتى لا تتشتت جهوده دون غرض محدد.

٣- من أهم شروط دراسة المجتمعات المحلية التحديد الواضح للمجتمع، ومن ثم ينبغي على الباحث أن يحدد ما إذا كان يرغب في دراسة مجتمع صغير قائم بذاته، أو في دراسة مجتمعات تعتبر أجزاء من مجتمعات أكبر.

٤- ينبغي على الباحث أن يقرر اختياره النهائي لمجتمع ما أن يكون متأكداً من توافر الإحصاءات والبيانات والمصادر التاريخية التي تعطي صورة واضحة عن المجتمع وخصائصه وتطوره، وأن يتعرف على الصعوبات التي قد تواجه سير البحث وأن يفكر في طرق مواجهتها.

٥- ينصح بعض المشتغلين بمناهج البحث بعدم دراسة المجتمعات المحلية في حالة التغير لقلة المصادر التاريخية عن تلك المجتمعات ولكثرة الصعوبات التي تعترض الباحث في الدراسة.

٦- ينبغي تحديد الطريقة التي تجمع بواسطتها البيانات، فإذا كان الباحث يهدف إلى دراسة المجتمع ككل، فيمكن الاستفادة بالخرائط والرسوم المختلفة، وإذا كان يهدف في دراسة الجماعات والأنظمة القائمة بالمجتمع فيمكنه الاستفادة بالوثائق التي تلقي الضوء على حقيقة الجماعات المكونة للمجتمع.

٧- يفضل أن يكون جامعوا البيانات أشخاص غرباء عن المجتمع لأن نظراتهم سوف تكون أكثر موضوعية وواقعية، ولأن الناس تشعر بحرج من التحدث عن مشكلاتهم أمام أشخاص يعرفونهم، ومن ثم يفضلون الشخص الغريب عن المجتمع عند إعطاء البيانات.

٨- ينبغي إعداد المجتمع لعملية البحث قبل البدء فيه حتى يضمن الباحث المساعدة الكافية من جانب المبحوثين.

٩- ينبغي أن يتجه الباحث بعد جمع البيانات وتصنيفها وتحليلها إلى تعميم النتائج التي توصل إليها على المجتمعات المتشابهة لأن الوصول إلى التعميم هو الهدف من الدراسات العلمية[١]

ب- أسلوب التاريخ الشخصي للحياة Life History:

إذا كان أسلوب "تاريخ الحالة" يهتم بدراسة الحالة من خلال المحيط الاجتماعي لها من منظور تاريخي وفقاً لمراحل تطورية متتابعة، فأسلوب "التاريخ الشخصي للحياة" يهتم بدراسة الحالة من وجهة نظر الحالة نفسها، فالمعلومات وفقاً لهذا الأسلوب يتم جمعها من الفرد ذاته (الحالة) ومن وثائقه الشخصية كالسيرة الذاتية، والمذكرات اليومية، والرسائل، والاعترافات. ولا شك تعتبر هذه الوثائق الشخصية مصادر هامة تكشف عن اتجاهات الأفراد وقيمهم، وميولهم، وعلاقاتهم الاجتماعية، وخبراتهم المتنوعة، وفلسفتهم في الحياة.

وفي هذا الأسلوب يحاول الباحث الحصول على معلومات من "الحالة" وفقاً لتسلسلها الزمني، وذلك من خلال سؤال الشخص مباشرة لكي يستعرض أمام الباحث حياته من الماضي إلى الحاضر، أو العكس من الحاضر إلى الماضي، وهذا الأسلوب الأخير يعرف بالعرض الاسترجاعي وفي هذا الأسلوب يبدأ "المبحوث" عادة بوصف جوانب طفولته خاصة المواقف التي أثرت في سلوكه فيما بعد، فيشير إلى علاقاته مع والديه ومع أخواته وأقاربه، وعند تقدمه أو فشله في الدراسة، وعن ممارسته الدينية في حياته الأولى، وعن وضع الأسرة الاقتصادي والاجتماعي، ومدى إشباع حاجاته الأساسية والعاطفية. ومن المفيد أن يعرض المبحوث للأحداث الدرامية التي مر بها والتي كان لها تأثير في مجرى حياته بعد ذلك، كقصة حب فاشلة، أو عقوبة ظالمة وقعت عليه بسبب الكذب أو السرقة دون أن يكون قد اقترف شيئاً في الحقيقة[٢]، أو رسوبه في إحدى سنوات الدراسة على الرغم من اجتهاده في مذاكرة دروسه..إلخ.

---

(1) المرجع السابق، ص ٣٥٨.

(2) محمد الجوهري وعبد الله الخريجي، طرق البحث الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥، ص ٢٤٨.

ومن الممكن أن يكتب الشخص موضوع "الحالة" تاريخ حياته ويعطيه للباحث، أو يملي هذا التاريخ على الباحث، ثم يقوم الباحث بعد ذلك بتنظيم البيانات التي حصل عليها لكي يسهل عليه بعد ذلك تحليلها واستخلاص النتائج الخاصة بها.

وبصفة عامة، يمكن التفرقة بين أسلوب تاريخ الحالة Case History وأسلوب التاريخ الشخصي للحياة Life History على النحو التالي:

١- في تاريخ الحالة لا يكتفي الباحث في الحصول على البيانات من المبحوث بينما يستعين بمصادر أخرى متنوعة لحصول على بيانات عن الحالة كالأسرة والأقارب والمدرسة والأصدقاء، والعمل، والسجلات الرسمية الصادرة عن المستشفى أو السجن إذا كان المبحوث قد تعرض للعلاج أو الحبس...إلخ، بينما في التاريخ الشخصي للحياة يكتفي الباحث بالبيانات التي يدلي بها المبحوث عن حياته والمؤثرات التي تعرض لها وأثرت في سلوكه.

٢- لا يصلح أسلوب التاريخ الشخصي للحياة إلا إذا كانت الحالة موضوع الدراسة "شخصاً" عاملاً يستطيع أن يعبر عن نفسه، بينما يفيد أسلوب تاريخ الحالة في دراسة الحالة بصفة عامة سواء كانت شخصاً أو مؤسسة أو جماعة أو مجتمع محلي.

٣- من الصعب التأكد من صحة ما يقوله الشخص عن ذاته في أسلوب التاريخ الشخصي للحياة، ومن ثم ينبغي أن يتعامل الباحث مع البيانات التي يحصل عليها بشئ من الحذر خشية تحيز المبحوث أو استخدام خياله فيما يسرد من وقائع أو تحريف البيانات، بينما في أسلوب تاريخ الحالة من السهل أن يتأكد الباحث من صحة ما جمعه من بيانات عن طريق مقارنة ما يحصل عليه من أكثر من مصدر.

٤- خطوات دراسة الحالة:

لا تختلف خطوات دراسة الحالة عن خطوات البحث العلمي الاجتماعي، وأن كان لكل موضوع بحث خصوصيته التي تفرض على

الباحث أعطاء إجراءات معينة أولوية والتأكيد عليها دون غيرها. وبصفة عامة يمكن تحديد خطوات "دراسة الحالة" الفردية على النحو التالي:

١- تحديد "الحالة" المراد دراستها أو الظاهرة أو نوع السلوك تحديدا دقيقاً، والهدف من البحث، والفروض التي ينبغي التحقق منها أو صياغتها، ويطلق على هذه الخطوة تحديد مشكلة البحث، فإذا كانت الحالة موضوع المشكلة "شخصاً" ينبغي تحديد "ملف" يشتمل على بيانات أساسية تتضمن اسم المبحوث، والوثائق الخاصة به وأسماء الأشخاص التي يمكن الرجوع إليهم لاستيفاء بعض المعلومات عن تاريخ الحالة. أما إذا كانت الحالة ظاهرة معينة كظاهرة الإدمان أو الغياب عن المدرسة، أو الانحراف، فينبغي على الباحث تحديد هذه الظاهرة بدقة وتحديد أبعادها، والجوانب المطلوبة دراستها، وإذا كان موضوع الحالة ظاهرة جديدة فمن المفروض القيام بدراسة استكشافية للتعرف على أبعاد هذه الظاهرة وتحديد الجوانب التي ينبغي أن يركز عليها الباحث في دراسته[1].

٢- تحديد الوسائل أو الأدوات التي سوف يستعين بها الباحث في عمليات جمع البيانات عن الحالة المدروسة، وهي في الغالب تنحصر في المقابلة، والملاحظة، والوثائق الشخصية.

٣- تحديد عينة البحث من الحالات الفردية المراد دراستها وفقاً للأساليب العلمية في اختيار العينة.

٤- اختيار الباحثين الميدانيين وتدريبهم على عملية جمع البيانات وفق لهذا الأسلوب.

٥- النزول إلى الميدان ومقابلة الحالات وجمع البيانات، ومراجعتها للتأكد من مدى كفايتها لإلقاء الضوء على الجانب الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والصحية والنفسية للحالة.

٦- تصنيف هذه البيانات وتفريغها في جداول لكي يسهل على الباحث تحليلها وتفسيرها، وإجراء المعالجات الإحصائية عليها.

---

(1) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٤٤.

٧- استخلاص النتائج وتعميمها على الحالات المتشابهة مع الحالة المدروسة في نفس الخصائص.

٨- كتابة تقرير البحث والذي يشتمل على الهدف من البحث ووصف دقيق للحالات المدروسة، والإجراءات التي أتبعت في الدراسة، وأهم الصعوبات التي واجهت الباحث في عمليات جمع البيانات، وكيف تغلب عليها، وأهم النتائج التي توصل إليها، ومدى إمكانية تعميمها على الحالات المشابهة، وأخيرا التوصيات التي يوصي بها الباحث بخصوص الدراسات المستقبلية في هذا المجال.

أما إذا كان الحالة نظاماً اجتماعياً أو مؤسسة أو مجتمع محلي فهناك عدة خطوات ينبغي على الباحث أن يأخذها في اعتباره وهي:

١- تحديد مشكلة البحث تحديداً دقيقاً لمختلف أبعادها وتحديد الفروض التي يرغب اختبارها.

٢- تحديد المجتمع موضوع الحالة، وتحديد الجانب أو الجوانب الاجتماعية التي يهدف إلى دراستها، وكلما كان موضوع الدراسة محدداً في جوانب بعينها كلما أمكن للباحث دراسته بشكل دقيق، أن الدراسات الشاملة لكافة جوانب المجتمع غالباً ما تتسم بالسطحية والعمومية. كما ينبغي على الباحث أن يكون متأكداً من توافر البيانات والإحصاءات والمصادر التاريخية التي تعطي له صوراً واقعية دقيقة عن "الحالة" موضوع الدراسة.

٣- إذا كان يهدف من وراء بحثه إلى إجراء تعميمات على "حالة" المجتمعات المتشابهة، فينبغي عليه اختيار أكثر المجتمعات تمثيلاً، وأن يحدد بدقة مدى التشابه بين موضوع الدراسة والمجتمعات الأخرى – موضوع التعميم – كخصائص التركيب السكاني والمستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، أيضاً تحديد أوجه الاختلاف بين هذا المجتمع وغيره من المجتمعات حتى يكون التعميم على أسس علمية وفي نطاق ما هو متشابه فقط بين "حالة" موضع الدراسة و"حالة" المجتمعات الأخرى.

٤- تحديد إمكانيات البحث:

أ- المادية (ميزانية البحث) وبنود هذه الميزانية ومدى كفايتها لإنجاز البحث.

ب- العلمية (الهيئة المشرفة على البحث) من باحثين رئيسيين، وجامعي بيانات وتدريبهم على عملية جمع البيانات.

ج- المكانية، وهو مكان إجراء الدراسة سواء كان قرية أو مدينة أو "حي" في مدينة...إلخ.

د- البشرية، والمقصود بالإمكانيات البشرية هو عينة الدراسة وخصائصها، وحجمها، وأسلوب سحبها، ومدى تمثيلها للمجتمع الأصلي.

هـ- الزمنية، والمقصود بها توقيت بدء الدراسة وتوقيت كل مرحلة من مراحلها، ميعاد الانتهاء منها.

٥- تحديد أدوات جمع البيانات، والنزول إلى الميدان لجمع البيانات اللازمة ومراجعتها ميدانياً ومكتبياً للتأكد من اكتمالها.

٦- تفريغ البيانات، وجدولتها، وإرجاء التحليل الكمي والكيفي لها، واستخلاص النتائج، والتعميمات.

٧- كتابة تقرير البحث، وبصفة عامة - كما أشرت سابقاً - أن خطوات دراسة الحالة - خاصة إذا كانت الحالة مجتمعاً - لا تختلف مطلقا عن خطوات البحث العلمي المتعارف عليها.

٥- أدوات البحث في دراسة الحالة:

ليست هناك أداة محددة من أدوات البحث الاجتماعي تستخدم مع أسلوب دراسة الحالة، بل يمكن القول أن معظم أ>وات البحث الاجتماعي يمكن استخدامها مع هذا الأسلوب[١]. فالبحث الذي يستعين بطريقة دراسة الحالة يمكن استخدام الملاحظة والمقابلة واستمارة البحث أو الاستبيان والوثائق والسجلات والسير الذاتية والخطابات والوثائق الشخصية، وغيرها من الوسائل التي تتناسب وطبيعة الهدف من الدراسة وطبيعة الحالة ونوعية

---

(1) عبد الباسط عبد المعطي، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣١٨.

البيانات المطلوبة..إلخ.وبصفة عامة يمكن الإشارة إلى أهم أدوات البحث المستخدمة مع طريقة دراسة الحالة على النحو التالي:

١- الملاحظة Observation:

تستخدم الملاحظة بشكل كبير في بحوث "دراسة الحالة"، خاصة في حالة دراسة المجتمعات المحلية، وتعتبر أحد الأدوات الأساسية الهامة في الدراسات الأنثربولوجية، حيث يقيم الباحث فترة طويلة في مجتمع ليحث ومن خلال دوره كملاحظ مشارك يستطيع أن يثير أغوار الواقع الاجتماعي في المجتمع المدروس ويتعرف على النظم والعلاقات الاجتماعية وأنماط التفاعل ومظاهر السلوك المختلفة. وتستخدم أيضاً الملاحظة بدون المشاركة في ملاحظة سلوك الأطفال والمعوقين ذهنياً، والمدمنين... إلخ.

٢- المقابلة Interview:

تعتبر المقابلة من أكثر الأدوات شيوعاً في بحوث دراسة الحالة، خاصة إذا كانت الحالة "شخصاً" وهي وسيلة سهلة تمكن الباحث من الحصول على المعلومات بطريقة مباشرة من الحالات المدروسة. وبالطبع تختلف الظروف التي تستخدم فيها المقابلة باختلاف الموضوع والحالات المدروسة. وتتميز المقابلة كأداة أساسية في دراسة الحالة بأنها أقل رسمية، حيث تسمح للمبحوث أن يعبر عن ذاته وأرائه واتجاهاته بشكل تلقائي، وتتيح الفرصة للباحث أيضاً للحصول على ما يريده من معلومات، إلا أنه يؤخذ عليها حاجاتها إلى وقت أطول، فقد يحتاج الباحث إلى إجراء عدد من المقابلات مع نفس الحالة للحصول على المعلومات التي يحتاج إليها في التحليل[١].

وجدير بالذكر أن الباحث الذي يستخدم أداة المقابلة في بحوث "الحالة" ينبغي عليه استخدام "دليل المقابلة" خاصة إذا كانت هذه المقابلة مقننة تهدف للحصول على بيانات محددة من الحالات التي سوف يقوم بدراستها، ولكي تكون الإجابات التي سوف يحصل عليها الباحث مصنفة ومحددة بشكل يساعده في عمليات التحليل والتفسير واستخلاص نتائج الباحث لابد من أن تسير المقابلات مع كافة "حالات" الدراسة وفقاً لإطار أو "دليل" موحد. فعلى

(١) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص ٢٩٤.

سبيل المثال استخدام القائمون على بحث البغاء في القاهرة إطارا للمقابلة تسير من خلاله عملية جمع البيانات، وينقسم هذا الإطار إلى[1]:

١- مقدمة الإطار:

وتدور هذه المقدمة حول وصف الحالة موضوع الدراسة (البغي) ومدى استجاباتها للمقابلات واتجاهاتها نحو المشكلة وعلاقتها مع غيرها من المسجونين ومع العاملين بالسجن.

٢- العائلة:

تكوين العائلة وتاريخ حياة كل أفرادها "بإيجاز" مع التركيز على التاريخ التعليمي، التاريخ المهني، التاريخ الإجرامي، ومدى مساهمة كل من الأفراد في حياة العائلة.

٣- الحياة العائلية:

أ- نوع الرابطة بين الأبوين.

ب- الحياة الاقتصادية وإمكانات المنزل.

ج- أي الأبوين تمركزت في يديه السلطة وكيفية إدارة شئون المنزل.

٤- التاريخ التطوري للحالة:

أ- الحمل والولادة.

ب- الطفولة المبكرة.

ج- النمو العضوي والتاريخ المرضي.

٥- رعاية الأبوية للحالة:

أ- علاقة الحالة بالأبوين وبالأخوة.

ب- الأزمات العائلية التي أثرت على الحالة.

٦- التاريخ الراسي

٧- حياة البغي في المجتمع:

أ- نوع صلتها بالمجتمع.

ب- نوع الرفاق.

ج- أوقات الفراغ وطريقة شغلها.

---

(١) المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، البغاء في القاهرة، مرجع سابق.

٨- **التربية الجنسية للبغي:**

أ- في مرحلة الطفولة.

ب- في مرحلة البلوغ (المراهقة)

٩- **انفصال البغي عن العائلة:**

١٠- **هجرة البغي للعائلة (في حالة وجود عائلة):**

أ- ظروف الهجرة.

ب- أسباب الهجرة من وجهة نظر البغي ومن وجهة نظر الأهل.

ج- علاقات البغي بالأهل بعد انفصالها عنهم.

د- كيف تحصل على ما يغطي احتياجاتها المعيشية وما يتصل بها.

هـ- إقامة البغي بعد الهجرة (في حي آخر أو مدينة أخرى).

و- علاقاتها الجديدة بعد الهجرة ومع من؟

١١- **العمل:**

أ- طبيعة الحرفة ومتطلباتها من الخبرة.

ب- درجة تكيف البغي مع الحرفة.

ج- مدى تأثر علاقاتها مع عائلتها بعد هذا.

١٢- **الزواج:**

أ- الظروف التي عقد فيها.

ب- مقومات شخصية الزوج ومستواه الاجتماعي والاقتصادي.

ج- طبيعة العلاقات بين البغي والزوج.

د- موقف البغي من الزوج والزواج.

هـ- الأطفال الذين أنجبت الحياة الزوجية أو حالات الإجهاض وموقف كل من الزوجين من ذلك.

و- مرات الزواج التالية.

١٣- **التاريخ الإجرامي للبغي:**

أ- أول اتهام للحالة في غير البغاء.

ب- الحكم في أول اتهام ومصيره.

ج- رأي البغي فيه وتأثرها به.

د- الاتهامات التالية.

١٤- العلاقات الجنسية الأولى غير المشرعة للبغي:

أ- الظروف التى تمت فيها ومع من؟

ب- الآثار التي ترتبت عليها ومصدرها.

١٥- أول ممارسة للبغاء مع البغي:

أ- الظروف التي تمت فيها.

ب- قيمة الدخل منها.

ج- الآثار التي ترتبت عليه.

١٦- أول اتهام للبغي بالبغاء:

أ- نوع الاتهام وظروفه.

ب- الحكم فيه ومصيره.

ج- الآثار التي ترتب عليه.

١٧- علاقات البغي في الممارسة:

أ- علاقتها بالعملاء.

ب- علاقتها بالمستغلين.

ج- علاقتها بزميلاتها في الممارسة.

د- دخلها من الممارسة واحتياجاتها من الدخل.

١٨- الظروف العامة للبغي حالياً وتأثرها بالممارسة:

أ- محل إقامتها.

ب- علاقتها بعائلتها.

ج- علاقتها بأهلها.

د- علاقاتها بالمجتمع المحلي.

هـ- اتجاهاتها نحو وضعها الحالي.

و- اتجاهاتها نحو مستقبلها.

ولا شك أن هذا "الدليل" أو "الإطار" كما أطلق عليه هيئة البحث لا يصلح إلا لدراسة "الحالات" الفردية، ولا يصلح أيضاً إلا لدراسة مثل هذه الظاهرة، لأن كل مقابلة – كما أشرت – لها خصوصيتها وطابعها المميز وفقاً لطبيعة الحالة موضوع الدراسة.

٣- استمارة البحث Questionnaire:

تعتبر استمارة البحث من الأدوات الهامة التي تستخدم في دراسة الحالة خاصة ع ندما تكون الحالة مؤسسة اجتماعية أو مجتمعاً محلياً. ويفضل كثير من المشتغلين بالبحث الاجتماعي هذه الأداة لما تتميز به من سهولة في عمليات جمع البيانات وتفريغها وجدولتها ومعالجتها إحصائياً واستخلاص النتائج. ولكن هذه المميزات الظاهرة تخفي ورائها كثير من الصعوبات المتعلقة بصياغة أسئلة الاستمارة ومدى ملائمة هذه الصيغة لمجتمع البحث موضوع "الحالة" ولتحقيق أهداف البحث...إلخ، أما فيما يتعلق ببناء الاستمارة وأنواعها وأساليب تطبيقها سوف نتناوله بالتفصيل في فصل لاحق.

٤- الوثائق والسجلات:

لا شكل أن الوثائق والسجلات الرسمية وغير الرسمية (الشخصية) تعتب رمن الأدوات الهامة في الحصول على بيانات عن الحالات المدروسة. وغالباً ما يلجأ الباحثون الاجتماعيون في دراستهم عن المجتمعات المحلية إلى الاستعانة بالوثائق والسجلات الرسمية الخاصة بتعداد السكان وتركيبهم وهجرتهم وأعداد المواليد والوفيات والزواج والطلاق..إلخ. كما يعتمد الباحثون في دراستهم للحالات "الفردية" على السير الذاتية، والخطابات الشخصية، والتقارير الصحية والمدرسية.. وغيرها من الوثائق الخاصة بالحالات المدروسة لإضفاء مزيداً من العمق على الدراسة والتحليل.

ولقد استخدمت المذكرات الخاصة، والخطابات كأدوات أساسية في دراسات الحالة فعلى سبيل المثال استخدم الدكتور "عبد المنعم المليجي" المذكرات والسير الخاصة للمراهقين في دراسة تطور الشعور الديني عندهم. واستخدم "توماس" و"زنانيك" و"الخطابات" في الكشف عن الحقائق الداخلية للأشخاص. ففي دراستهما عن "الفلاح البولندي" في أوروبا وأمريكا قاما بتحليل (١٥,٠٠٠) خطاب، ولقد ساعدت هذه الخطابات على معرفة تكوين الأسرة البولندية، والروابط التي تربط بين أفرادها، والنظم الاجتماعية في

الريف البولندي، ومراحل انفصال المهاجرين عن تقاليدهم القديمة، وتكيفهم مع البيئة الجديدة في الولايات المتحدة[1].

٥- الأخباريون:

يعتبر "الأخباريون" أحد الوسائل الهامة في الحصول على البيانات ع ند دراسة المجتمعات التقليدية (القروية - البدوية)، ولقد زاع استخدام هذه الوسيلة لدى علماء الأنثربولوجيا والاجتماع خاصة عندما لا تتوافر البيانات الإحصائية عن المجتمع في تفسير الواقع الحاضر لجماعة أو مجتمع محلي معين، فلا مفر من الاعتماد على كبار السن في هذه المجتمعات في الحصول على المعلومات المطلوبة.

٦- الاختبارات النفسية:

أسلوب شائع لدى علماء النفس والقياس النفسي، حيث يلجأ هؤلاء الباحثين إلى استخدام المقاييس النفسية كمقاييس الذكاء والاكتئاب والانبساط للحصول على بعض المعلومات النفسية عن الحالات المدروسة. وهناك العديد من المقاييس التي تطبق على فئات محددة من الأفراد كتلاميذ المرحلة الابتدائية أو الثانوية أو المراهقين أو كبار السن...إلخ.

٧- مقاييس القيم والاتجاهات:

تستخدم هذه المقاييس لدى علماء الاجتماع وعلماء النفس أيضاً لدراسة قيم واتجاهات "الحالات المدروسة" أو أفراد المجتمع "موضوع الحالة" نحو قضايا أو مواقف أو ظواهر معينة، وتفيد هذه المقاييس في معرفة الموجهات الداخلية التي تعكس سلوك ومواقف "الحالات" موضوع الدراسة.

وبصفة عامة يمكن القول أن أسلوب دراسة الحالة من الأساليب التي تتسم بالمرونة المنهجية في اعتمادها على أكثر من منهج وأكثر من أداة في الدراسة وفقاً لما تقتضيه ظروف الحالات المدروسة ونوعيتها، وطبيعة موضوع البحث ذاته.

---

(١) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٥٣.

سادساً: تقييم دراسة الحالة:

لا جدال في أن أسلوب "دراسة الحالة" كأحد الأساليب المتميزة في البحث في العلوم الاجتماعي ينطوي على جوانب إيجابية وأخرى سلبية مثله في ذلك مثل كافة أساليب البحث الاجتماعي. وسوف أشير إلى أهم إيجابيات وسلبيات هذا الأسلوب على النحو التالي:

أ- إيجابيات دراسة الحالة:

١- يتميز أسلوب دراسة الحالة بالعمق في الدراسة، سواء كانت الحالة "شخصاً" أو "جماعة" أو "نظاماً اجتماعياً" أو "مجتمعاً محلياً". كما يفيد بشكل فعال في الدراسات النفسية الإكلينيكية وفي دراسات خدمة الفرد لما تحتاجه هذه الدراسات من التركيز المباشر على الحالات المدروسة.

٢- يتميز أسلوب "دراسة الحالة" بالمرونة والمنهجية من حيث اعتماده على أكثر من منهج في الدراسة، كذلك اعتماده على مصادر ووسائل متنوعة في الحصول على بيانات البحث من الحالات المدروسة كالملاحظة المتعمقة والملاحظة بالمشاركة، والمقابلات بأنواعها، واستثمارات البحث بأشكالها المختلفة، والوثائق والسجلات سواء كانت هذه الوثائق "رسمية" أو شخصية كالسير الذاتية والخطابات والمذكرات اليومية، هذا فضلاً على استخدام بعض الوسائل الأخرى كالأخباريين، والاختبارات النفسية، ومقاييس القيم والاتجاهات...إلخ.

٣- تفيد دراسة الحالة في دراسات الوعي والتغير الاجتماعي وديناميانه، والدراسات الشخصية، والدراسات الخاصة بالعمل الاجتماعي والرعاية الاجتماعية الفردية والجماعية[1].

٤- تفيد دراسة الحالة في الدراسات الاستطلاعية (الكشفية) والتي يجهل فيها الباحث أبعاد الظاهرة موضوع الدراسة.

٥- تسعى طريقة "دراسة الحالة" إلى إيجاد نوع من التكامل المعرفي بين الاتجاهين الكمي والكيفي في البحث الاجتماعي[2].

---

(1) عبد الباسط عبد المعطي، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٢٢.

(2) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص ٣٩٧.

٦- تمتاز هذه الطريقة بدراسة الخبرات والمواقف الاجتماعية داخل السياق الذي لا تنفصل عنه هذه الخبرات، والمواقف والذي يشكل مكونات وجودها الدقيقي، فهي ترتبط في الدراسة بين الماضي والحاضر، ومن ثم فهي تسعى إلى معرفة الأسباب الحقيقية للظواهر الاجتماعية[1].

ب- سلبيات دراسة الحالة:

على الرغم من الإيجابيات السابقة التي تتميز بها طريقة دراسة الحالة، إلا أن هناك بعض الباحثين الذين يتشككون في أهمية هذه الطريقة ومدى الاعتماد عليها في البحث الاجتماعي لعدة أسباب أهمها:

١- يعتمد أسلوب دراسة الحالة على حالات شخصية لها خصائصها الفريدة، ومن ثم يصعب تعميم النتائج التي نتوصل إليها من خلال دراسة حالة معينة على بقية الحالات الأخرى.

٢- تحتاج دراسة الحالة إلى مزيد من الجهد والمال والوقت، وقد لا يتوفر ذلك لكثير من الباحثين.

٣- يعتمد أسلوب "التاريخ الشخصي للحياة" – أحد الأساليب الأساسية لدراسة الحالة – على البيانات الاسترجاعية Flash back التي يدلي بها المبحوث للباحث، ومن ثم. فهناك احتمال كبير أن ينسى المبحوث بعض التفاصيل أو يتناسى حقائق معينة أو يقوم بتشويه هذه الحقائق بوعي أو بدون وعي.

٤- أن الاعتماد على الوثائق الشخصية كالخطابات والسير الذاتية أو المذكرات اليومية منه مخاطرة كبيرة، "فهناك احتمال قوي أن تؤدي هذه الوثائق الشخصية إلى تشويه الواقع – خاصة الوثائق المتعلقة بفترات معينة من تاريخ الحالة كفترة المراهقة التي تتغلب فيها آراء واتجاهات ومشاعر المراهقة أكثر من مرة.

٥- أن احتمالات التحيز في هذه الطريقة واردة بشكل كبير خاصة التحيز من قبل الباحث للحالة موضوع الدراسة، فمن السهل أن ينقاد الباحث

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٩٧.

تحت تأثير عواطفه وانفعالاته ومعتقداته ويرى ما يريد أن يـراه فـي الحالة وليس ما هو واقع بالفعل.

٦- يرى "ريدبين" Reed Bain عدم صدق البيانات التي يجمعها الباحـث باستخدام أسلوب الحالة للأسباب الآتية[١].

أ- قد يسجل المبحوث الأقوال التي تتفق مع ما يريـده الباحـث أو يعتقد المبحوث أن الباحث يريده، وفي ذلك تحريف للحقائق عـن موضعها.

ب- كثيراً ما يبتعد المبحوث عن ذكر الحقائق كما حدثت، فيحاول أن يكتبها من وجهة نظره مبرراً تصرفاته.

ج- قد يحاول المبحوث تضخيم الحوادث، وإضافة حوادث جديدة من نسيج خياله فيصعب على الباحث تحديد ما حدث منها ومـا لـم يحدث.

د- قد يتجه الباحث إلى الحقائق التي يريدها والتي تؤيد وجهة نظـره مغفلاً الجوانب السلبية التي تناقض آراءه.

هـ- أغلب الحالات التي يقدم وثائق عن حياتها ليست إلا حالات شاذة، ولذا فإن تعميم النتائج من هذه الحالات لا يصـدق علـى جميـع الحالات القائمة في المجتمع.

و- كثيراً ما يحاول الباحث مساعدة الحالة، وفي هذا الموقف يصـبح للجانب الذاتي تأثيراً كبيراً فيما يستخلصه الباحث من نتائج[٢].

وبصفة عامة أن معظم الانتقادات التي وجهت إلى أسـلوب دراسـة الحالة انصبت على جانب واحد فقط من الحالات التي يدرسها هذا الأسـلوب وهو "الحالة الشخصية" أو الفردية التي تخضع للدراسة فـي مجـال العلـوم الاجتماعية بهدف تعميم ما يتوصل إليه الباحث من نتائج من خـلال دراسـته لتلك الحالة على باقي الحالات المشابهة. وجدير بالذكر أن هذه الانتقادات قـد تصدق إلى حد كبير على هذا الجانب من الدراسة. بينما الباحثون في مجـال

---

(1) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٦١.

(2) المرجع السابق، ص ٣٦٢.

الطب أو الهندسة أو الطب النفسي الذين يستخدمون هذا الأسلوب في دراسة حالات مفردة قد لا تصدق عليهم هذه الانتقادات إلى حد كبير. هذا فضلاً على أن أسلوب دراسة الحالة لا يقتصر فقط على كونه الحالة "شخصاً"، فقد تكون الحالة جماعة أو نظاماً اجتماعياً أو مجتمعاً محلياً أو مجتمعاً بأكمله، وإمكانية التعميم على الحالات المشابهة في الخصائص مع حالة المجتمع المحلي موضوع الدراسة القائمة، فعلى سبيل المثال قد أشار "عاطف غيث" في مقدمة دراسته لقرية "القيطون" أن هذه القرية نموذج يتشابه مع أعداد كبيرة من القرى لها نفس الخصائص ليس في المجتمع المصري فحسب بل في مجتمعات متعددة من العالم. ومن ثم فعلى الرغم من الانتقادات السابقة إلا أن أسلوب دراسة الحالة يعتبر من الأساليب المتميزة في البحث العلمي بصفة عامة.

الفصل الثامن

تحليل المضمون

تمهيد

١ـ تعريف تحليل المضمون وخصائصه.

٢ـ المجالات الأساسية لتحليل المضمون.

٣ـ أسس استخدام تحليل المضمون.

٤ـ فئات تحليل المضمون.

٥ـ وحدات تحليل المضمون.

٦ـ أمثلة واقعية لدراسات تحليل المضمون.

٧ـ تقييم تحليل المضمون:

أ ـ إيجابيات تحليل المضمون.

ب ـ سلبيات تحليل المضمون.

تمهيد:

بدأ العلم مسيرته بدراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية بالاسلوب المباشر عن طريق الملاحظة القائمة أساساً على استخدام الحواس الانسانية ثم التجربة، ولم يكن مقبولاً حتى بداية العصر الحديث الاعتراف بغير الاسلوب المباشر فى تكوين جسم المعرفة العلمية فى كافة ميادين المعرفة.

ومع تطور الحياة الاجتماعية وتشابكها وتعقدها، أصبح هناك جانباً كبيراً من سلوك الأفراد لا يمكن ملاحظته بطريقه مباشرة، خاصة الظواهر الاجتماعية الماضية، ومن ثم ظهرت طريقة "تحليل المضمون" Content Analysis وأصبحت أسلوباً مقبولاً من أساليب البحث العلمى، ليس هذا وحسب بل الوسيلة الأساسية لدراسة عملية الاتصال فى معناها، والأسس التى تقوم عليها، وديناميتها، كما تتجسد فى أحاديث الناس، وفى كتاباتهم، وفى نسق المعانى المتبادلة بينهم. ولقد ظهر استخدام طريقة تحليل المضمون لأول مرة فى مجال الصحافة، ثم استخدم بعد ذلك فى مجال الدراسات الاجتماعية بصفة عامة، وعلم الاجتماع بصفة خاصة، ثم ذاع صيته أثناء الحرب العالمية الثانية فى مجالات وميادين بحثية متنوعة.

أولاً: تعريف تحليل المضمون وخصائصه:

لاشك يعتبر اسلوب تحليل المضمون من الأساليب المقبولة فى البحث العلمى، فلقد حظى بالاهتمام مع بداية القرن العشرين، وأصبح أسلوباً متميزاً فى البحث الاجتماعى يساعد فى وصف وتفسير الظاهرة موضوع الدراسة، ويعرف "بيرلسون" Perelson تحليل المضمون بأنه "الاسلوب الذى يهدف إلى الوصف الموضوعى المنظم الكمى للمحتوى الظاهر للاتصال"[١]. ويعنى "بيرلسون" بمفهوم الاتصال كل الأفكار أو المعانى التى يمكن التعبير عنها ونقلها إلى الآخرين سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة (رمزية)، والهدف المباشر للإتصال هو إنتقال المعانى أو المعلومات والاتجاهات من شخص أو جماعة ما إلى شخص أو جماعة أخرى.

---

(١) B.Berelson, Content Analysis in Communication Research, Free Press, 1965, pp. 12-13.

وجدير بالذكر أن تعريف "بيرلسون" قد شاع استخدامه في الكثير من المراجع العربية[١]. إلا أنه يأخذ على هذا التعريف تركيز "بيرلسون" على عملية الوصف الكمي للظاهرة موضوع الدراسة، فتحليل المضمون لا ينبغي أن يكون تحليلاً كمياً فقط، فهو أقرب إلي الوصف الكيفي عنه من الوصف الكمي. فتحليل المضمون يختلف عن أساليب التحليل والطرق الأخرى التى تعتمد على التحليل الكمى، فالبيانات Data التى يعتمد عليها هى الألفاظ أو الرموز الأخرى التى يتألف منها مضمون الاتصال، وذلك على العكس من التقارير الأثنوجرافية أو البيانات الرقمية والاحصاءات الأخرى[٢]. فتحليل المضمون تتمثل مادته الأساسية فى الخطابات والرسائل والكتب والمحادثات، وبرامج الإذاعة والتليفزيون، والعروض المسرحية، والقصص والروايات، والحكايات والأمثال الشعبية والرسم والنحت..الخ، وكل هذه المجالات أقرب بكثير إلى التحليل الكيفى وليس الكمى.

فالتحليل الكمى قد يكون مفيداً لو كنا بصدد تحليل مضمون فكرة محددة، أو قيمة معينة كالعدالة أو المساواة أو الديموقراطية..الخ فى عمل ما، أما إذا كان العمل موضع التحليل يمثل قطاعاً عريضاً من الحياة الاجتماعية– كالرواية مثلاً– فإنه من الصعب الاعتماد على التحليل الكمى نظراً لتعدد المتغيرات والأفكار وتشعبها وتداخلها هذا فضلاً عن تعدد القيم الاجتماعية المختلفة فى العمل الأدبى الواحد، ومن ثم لجأ العديد من الباحثين إلى استخدام اسلوب التحليل الكيفى وبصفة خاصة فى تحليل الأعمال الأدبية، ومن الأمثلة على هذه الدراسات:

(١) علم الاجتماع من خلال الأدب Sociology Through Literature والتى اتبع فيها "لويس كوزر" Lewis Coser اسلوب التحليل

---

(١) انظر على سبيل المثال لا الحصر:

ـ محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى: دراسة فى طرائق البحث وأساليبه، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٤، ص ٧٣٦.

ـ غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٩، ص ١٤٨.

ـ عبدالباسط عبدالمعطى، البحث الاجتماعى، محاولة نحو رؤية نقدية لمنهجه وأبعاده، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٢، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

ـ زيدان عبدالباقى، قواعد البحث الاجتماعى، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٣٦٢.

(٢) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ٧٣٧.

الكيفى لعدد من الروايات والقصص القصيرة والمسرحيات، وأكد على أهمية استعانة عالم الاجتماع بالأدب كأحد مصادر المعرفة الأساسية(١).

(٢) الماركسية والأدب Marxism and Literature والتى اعتمد فيها "بريتشال" Jan H. Birchall على التحليل الكيفى لعدد من الروايات والقصص القصيرة موضحاً دور الأدب كأحد وسائل الضبط فى المجتمع(٢).

(٣) دراسة "جورج لوكاش" Georg Lukacs عن "تولستوى" ونمو الواقعية Tolstoy and Development of Realism فقد حلل "لوكاتش" بعض أعمال "تولستوى" الروائية تحليلاً كيفياً موضحاً دور "تولستوى" فى نمو وتطور الاتجاه الواقعى فى الأدب(٣).

(٤) دراسة "ميشيل زراف" Michel Zeraffa عن الرواية كشكل أدبى وكمؤسسة اجتماعية The Novel as Literary Form and as a Social Institution وهذه الدراسة اهتمت بتحليل بعض الأعمال الروائية فى العالم الغربى Western World من منظور علم الاجتماع، وأوضح "زراف" Zeraffa أن الظاهرة الأدبية مرتبطة أشد الارتباط بباقى الظواهر الاجتماعية الأخرى، فالأديب فرد من أفراد المجتمع، يستمد مادته الروائية من المجتمع ويصوغها في قالب فنى ليقرأها ويتأثر بها باقى أفراد المجتمع(٤).

(٥) دراسة "البرشيت" M.C.Alberchit عن العلاقة بين الأدب والمجتمع، والتى تتبع فيها جذور هذه العلاقة، واوضح أن الأدب يعتبر إنعكاساً للحياة الاجتماعية(٥).

---

(١) Lewis Cosern, Sociology Through Literature, op. cit. p. 34 .

(٢) Jan H Birchall, "Marxism and Literature", In, Jane Routh and Janet Wolfe, The Sociology of Literature: Theoretical Approaches, op. cit., pp. 90-108

(٣) George Lukace, Tolstoy and The Development of Realism, in. David Craig, Marxists on Literature: Anthology, Penguin Books, 1977,pp. 282-346.

(٤) Michel Zeraffa, The Novel as Literary From and as Social Institution, Presses University of Erance, Translated by petra Morrison and Tom Burns, In: Elizabth Tom Burns, Sociology, Literature and Drama, op.cit., pp. 35-55

(٥) M.C.Alberchet, "The Relationship of Literature and Society", American Journal. of Sociology, vol. 29, No.5, March, 1954, pp.36-69

(٦) دراسة "ديانا ليورنسون" Diana Laurenson و"الآن سيونجود" Alan Swingewood عن علم اجتماع الأدب والتى حللا فيها مضمون العديد من الأعمال تحليلاً كيفياً، خاصة الجزء الذى قام بإعداده "سيونجود" والمعنون "نحو علم اجتماع الأدب" Towards The Sociology of Literature والذى عرض فيه تحليلاً كيفياً لبعض الروايات الاشتراكية والتى تعكس حالة الإغتراب Alienation التى يمر بها أفراد المجتمع الرأسمالى[١].

ولاشك يعتبر تحليل المضمون سواء كان كيفياً أو كمياً وسيلة أساسية لدراسة عملية الاتصال فى جوهرها والأسس التى تقوم عليها وديناميااتها كما تتجسد فى أحاديث الناس وكتاباتهم، وفى نسق المعانى والأفكار المتبادلة بينهم، ويمكن الإشارة إلى الخصائص الأساسية لتحليل المضمون على النحو التالى:

١- يستخدم اسلوب تحليل المضمون فى وصف محتوى مادة الاتصال سواء كانت مكتوبة أو مسموعة أو مرئية- ولقد اقتصر هذا الأسلوب فى بداية الأمر على الأبحاث الصحفية، ثم أتسع مجال استخدامه مع بداية الثلاثينات من القرن العشرين ليشمل الكتب والرسائل والخطب والمحادثات والصور والأفلام السينمائية وبرامج الإذاعة والتليفزيون..الخ.

٢- يهتم هذا الإسلوب بدراسة محتوى مادة الإتصال، وليس من الضرورى أن يشغل الباحث نفسه بمحاولة التعرف على نوايا ومقاصد الكاتب أو المتحدث، وإن كان من الممكن تبين دوافع الكاتب أو المتحدث من خلال تحليل كتاباته أو أحاديثه[٢].

٣- يجب على الباحث عند تحليل مادة الإتصال أن يراعى الموضوعية التامة وأن يكون بعيداً من أهوائه الشخصية ودوافعه الخاصة التى قد تؤثر فى دقة التحليل.

٤- ينبغى أن يتم تحليل مادة الاتصال بطريقة منظمة ومصنفة وفقاً لمعايير منطقية يحددها الباحث قبل بداية التحليل.

---

(١) D.Laurenson and A.Swingewood, "The Sociology of Literature", op. cit., pp. 169-256.

(٢) عبدالباسط محمد حسن، اصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٥٤١.

٥- ضرورة التأكد من أن المعانى التى اشتقها الباحث من مادة الاتصال تتفق مع مايقصده الكاتب أو المتحدث ومع ما يفهمه القراء والمستمعون[١].

ثانياً: المجالات الأساسية لتحليل المضمون:

بدأت الاستخدامات الأولى لتحليل المضمون فى مجالات الصحافة والأدب. فمع بداية العقد الثالث من القرن العشرين أيقن بعض الباحثين فى مجال العلم الاجتماعى إلى إمكانية الإفادة من تحليل المضمون فى دراساتهم ويعتبر "بيترم سوروكين" P.Sorokin من أبرز الباحثين الذين استخدموا تحليل المضمون وذلك فى دراسته الشهيرة حول "الديناميات الاجتماعية والثقافية" حيث قام بتحليل بعض الأعمال الأدبية والفنية والفلسفية لتوضيح معانيها ودلالاتها الثقافية، ويدين تحليل المضمون لكل من "هارولد لازويل" H. Lossewell و"برنارد بيرلسون" Bereleson لجهود هما فى توضيح معالمه، ففى عام ١٩٣٠ بذل "لازويل" جهداً واضحاً لإبراز أهمية تحليل المضمون وذلك من خلال الدراسات التى أجراها مع زملاء له، مما أدى بدوره إلى توسيع دائرة استخدامه فى دراسة الرأى العام والدعاية[٢].

وفى عام ١٩٥٢ قام "بيرلسون" Berelson بدراسة مسحية نقدية لبعض تطبيقات تحليل المضمون، واشار إلى أن هناك بعض الكتب والمقالات التى قدمت استخدامات مختلفة لبعض الإجراءات الفنية فى تحليل المضمون خاصة تلك الإجراءات التى استخدمت فى دراسة وتحليل مضمون عينات من الصحف، ولعل أهم اسهام "لبيرسون" هو تقديمه تعريف لتحليل المضمون يعتمد على التحليل الكمى للمحتوى الظاهر لمادة الاتصال -وان كنت لا أتفق معه فى هذا التعريف- وفقاً للمبررات التى ذكرتها من قبل. ويمكن حصر المجالات المختلفة التى يستخدم فيها تحليل المضمون على النحو التالى:

١ـ مجالات الاتصال والاعلام:

يعد مجال الاتصال والاعلام من أهم مجالات تحليل المضمون. فلقد استخدم هذا الاسلوب فى تحديد ماهية الاتصال، بمعنى وصف الخصائص والاتجاهات الأساسية فى محتوى الاتصال سواء على المستوى الشخصى أو

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٤٣.

(٢) عبدالباسط عبد المعطى، البحث الاجتماعى: محاولة نحورؤية نقدية، مرجع سابق، ص ٢٤١.

الجمعي، وما ينطوى عليه تفاعل اجتماعى سواء كان إيجابياً أم سلبياً. ولقد استخدم أيضاً اسلوب تحليل المضمون فى تحليل إدارة الاتصال ذاتها سواء كانت هذه الوسيلة مسموعة أو مرئية أو مقروءة أو رمزية وتحليل الهدف من الوسيلة ذاتها، وجدير بالذكر أن الوسيلة الاعلامية لكى تحقق الهدف التى تسعى اليه ينبغى أولاً أن تحدد سمات القائم بالاتصال وسمات متلقى الرسالة، وأن تراعى الأبعاد النفسية والاجتماعية لجمهور المستقبلين حتى تضمن وصول الرسالة الى المتلقى بالأسلوب الذى يحدث فية الأثر المطلوب.

وهناك العديد من الدراسات التى أستخدمت اسلوب تحليل المضمون فى قياس آثار وسائل الاعلام، ومدى قدرة وسيلة اعلامية ما على تغيير اتجاهات وآراء وقيم وأنماط سلوك جمهور المتعاملين مع هذه الوسيلة الاعلامية. ومن أحدث الدراسات فى هذا المجال دراسة "البعد القومى فى قناة الجزيرة: دراسة حالة برنامج الاتجاه المعاكس"[١].

ولقد استخدم الباحث فى هذه الدراسة اسلوب التحليل الكيفى للمحتوى Qualitative Content Analysis للإجابة على عدة تساؤلات أساسية هى[٢]:

١ــ هل قناة الجزيرة الفضائية من خلال برنامج الاتجاه المعاكس تشكل مدرسة جديدة فى الطرح القومى العربى الوحدوى؟

٢ــ هل تتبع الاسلوب الديموقراطى فى الطرح من خلال مقدمة البرنامج؟ أى أن يكون هناك مساواة فى طريقة طرح القضية سلباً وإيجاباً؟

٣ــ هلى الطرح القومى يصطدم بحواجز أو قوى كبرى أم أن يتعداه ويطل على ما ورائها؟

٤ــ ما مدى جرأة الطرح فى كل حلقة من حلقات البرنامج؟

أما عن عينة الدراسة، فقد حدد الباحث ثمانى حلقات متتابعة ابتداءً من حلقة ١٩٩٩/٣/١٦ وإنتهاءً بحلقة ١٩٩٩/٥/٤. وحدد وحدة التحليل فى الفكرة الأساسية للحلقة لكى تتماشى مع طبيعة التحليل الكيفى الذى حددة من

---

(١) أعد هذه الدراسة الدكتور سليمان جازع الشمرى الأستاذ المساعد بقسم الاعلام ــ جامعة الملك سعود. وقناة الجزيرة قناة تليفزيونية فضائية تبث من دولة قطر، وعلى الرغم من حداثة هذه القناة حيث لا يتجاوز عمرها خمس سنوات إلا أنها استطاعت أن تجتذب جمهور المشاهدين ــ خاصة المثقفين ــ فى العالم العربى. أنظر سليمان جازع الشمرى، البعد القومى فى قناة الجزيرة: دراسة حالة برنامج الاتجاة المعاكس، مطبعة دار الشروق، الدوحة، ١٩٩٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٩.

قبل، والتعبير عن هذا التحليل برموز لفظية. أما عن فئات التحليل فقد حددها الباحث فى البعد السياسى والذى أشتمل على ثلاثة قضايا أساسية:

١ـ قضايا ذات بُعد قومى عربى.

٢ـ قضايا ذات بُعد دولى مرتبطة أو متورطة مع قضايا عربية.

٣ـ قضايا ذات بُعد ديموقراطى (انتخابات، معارضة، تصويت).

ويُعد تحليل المضمون من أهم طرق دراسة وسائل الاتصال الجمعى بقصد الوقوف على مضمونها وما تحويه، ولقد لاقى هذا الموضوع اهتماماً متزايداً من قِبل كثير من المتخصصين فى علم الاجتماع والمشتغلين بالرأى العام ووسائل الاتصال الجمعى، ومن الأمثلة على هذه الدراسات، دراسة عالم الاجتماع الأمريكى "أليكس انكلس" A.Inkles والتى حلل فيها ردود الأفعال السوفيتية نحو إذاعة "صوت أمريكا" وكانت وحدة الزمن هى الوحدة الأساسية للتحليل فى هذه الدراسة[١]. ولقد حظيت دراسة "ج ماير" J.Meyer عن علم اجتماع الفيلم Sociology of Film بأهمية خاصة فى هذا المجال، فقد قام بتحليل ١٥٠٠ فيلم من سنة ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٣٠ منها ٥٠٠ فيلم ظهرت عام ١٩٢٠ و ٥٠٠ فيلم ظهرت عام ١٩٢٥، و٥٠٠ سنة ١٩٣٠، وصنف "ماير" Meyer هذه الأفلام وفقاً للموضوعات التى تعالجها. وهذا فضلاً عن تركيزه على ١١٥ فيلم قام بتحليلهم تحليلاً مركزاً، وجدير بالذكر كانت وحدة التحليل فى هذه الأفعال هى الشخصية الأساسية "البطل"، وما يصدر عنه من سلوك وأفعال[٢]. ولقد إتبع المستشرق الفرنسى "الأب جاك جومييه" Jac ques Jomier نفس هذه الطريقة فى تحليله لثلاثية "نجيب محفوظ" حيث ركز فى تحليله للثلاثية على الشخصية المحورية من حيث النشأة والتطور، وأشار إلى أن كل شخصية تمثل قطاعاً عريضاً من المجتمع المصرى[٣].

٢ـ مجال التغير الاجتماعى:

يُعد مجال التغير الاجتماعى من المجالات الخصبه لتحليل المضمون، وبدأ استخدام هذا الاسلوب فى البحث الاجتماعى عام ١٩٣٠ عندما قام "بيترم

---

(١) عبدالباسط عبدالمعطى، البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

(٢) J.Meyer, Sociology of Film: Studies and Ducuments, Faber, London, 1942, pp. 169 - 178.

(٣) الأب جومييه، ثلاثية نجيب محفوظ، ترجمة نظمى لوقا، دار مصر للطباعة، القاهرة، غير مبين سنة النشر.

سوروكين" P.Sorokin بدراسة التغيّرات الثقافية والاجتماعية في أوربا الغربية على طول تاريخها[1]. واعتمد في هذه الدراسة على تحليل مضمون الأعمال الأدبية، والفنية، والموسيقى، والفلسفة في ضوء ما تنطوى عليه هذه الأعمال من مضمون ومعاني مختلفة، واستطاع أن يرصد حركة التغير الاجتماعى بشكل دقيق خاصة في المجالات السابقة. وكانت هذه الدراسة بمثابة نقطة الانطلاق الأولى للعديد من الدراسات فى مجال التغير الاجتماعى بشتى أنواعه.

٣ــ مجال الدراسات النفسية:

من الأعمال المبكرة لاستخدام تحليل المضمون في الدراسات النفسية دراسة "لازويل" Lasswell عن استجابات المرضى النفسيين، حيث قام في عام ١٩٣٨ بتطوير إطاراً لتصنيف استجابات المرضى فى المقابلات النفسية يشتمل على ثلاثة فئات هى:

١ــ الاتجاه نحو الذات Pro - Self.

٢ــ العداء للذات Anti - Self.

٣ــ الاتجاه نحو الآخر Pro.

واستخدم أيضاً "لازويل" وزملاؤه اسلوب تحليل المضمون في دراسة الرأى العام والدعاية استجابة للظروف التى عاشتها الولايات المتحدة الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية. ولقد أمكن استخدام تحليل المضمون في دراسة الحالة السيكولوجية للقائمين بعملية الاتصال، وذلك من خلال تحليل أنواع الاتصال التى يقوم بها الأفراد كالخطابات، وسير الحياة، وبرامج الاذاعة والتليفزيون..الخ. بإعتبارها مؤشراً لدوافعهم وبواعثهم ومن أبرز الدراسات فى هذا المجال دراسة "شارل أوسجود" C.Osgood و "ايفلن والكر" E.Walker فى سنة ١٩٥٩ حيث قاما بتحليل مضمون بعض خطابات الانتحار ومقارنتها بخطابات الاشخاص العاديين، ولقد استخدم نفس الأسلوب الباحث العربى المصرى "مكرم سمعان" فى تحليلة لبعض الوثائق الشخصية للمنتحرين والشارعين فى الانتحار بهدف معرفة الأسباب الحقيقية للإنتحار وتوصيات المنتحرين[2].

---

(١) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ص ٤٤٠.

(٢) عبدالباسط عبدالمعطى، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

٤ـ مجال الدراسات العلاجية:

استخدم تحليل المضمون فى كثير من الدراسات العلاجية سواء فى مجال الخدمة الاجتماعية أو الطب النفسى. حيث يقوم الباحثون بتحليل مضمون التفاعل بين القائم بالعلاج والعميل بعد تسجيل عملية المقابلة بينهما بهدف الوقوف على طبيعة موقف المقابلة ومدى استجابة العميل للعلاج ونوعية هذه الاستجابة (توتر ـ ألم ـ إشباع ـ راحة ـ معارضة ..الخ)(١).

٥ـ مجال الثقافة والمجتمع:

من أبرز استخدامات تحليل المضمون استخدامة بشكل مباشر فى دراسة القيم الاجتماعية والثقافية، خاصة تلك القيم التى كانت سائدة فى حقب تاريخية، بهدف القاء الضوء على بعض الخصائص الثقافية المميزة لمجتمع ما، ومن الأمثلة على هذه الدراسات دراسة عالم النفس "رالف وايت" R.White والتى قام فيها بتحليل مضمون كتاب "الولد الأسود" Black Boy "لريتشارد رايت" R.Wright بهدف تأكيد إمكانية دراسة القيم علمياً وتوضيح طبيعة ومدى تحليل المضمون كأسلوب فى البحث العلمى يتميز بدرجة واضحة من الثبات والشمول وهناك دراسات أخرى على المستوى العالمى والقومى أتبعت طريقة تحليل المضمون فى دراسة الخصائص الثقافية المميزة لمجتمع من المجتمعات، ومن الأمثلة على هذه الدراسات دراسة "لويس كوزر" Lewis Coser التى قام فيها بتحليل الخصائص الثقافية المميزة لقطاعات محددة من المجتمع الأمريكى من خلال تحليله لبعض الأعمال الأدبية مثل رواية "جزر السعادة" Blissful Isles "لدنيس دويدرت"(٢). Denis Diderot التى تلقى الضوء على جوانب محددة من الثقافات الفرعية فى المجتمع الأمريكى، ولقد أوضح "كوزر" من خلال تحليله لهذه الرواية أن عالم الاجتماع ينبغى أن يعتمد فى تحليلاته السوسيولوجية على أكثر من مصدر من مصادر المعرفة لكى تكتمل الصورة الحقيقية لموضوع الدراسة، والأدب يعتبر أحد مصادر هذه المعرفة الهامة(٣).

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٣.

(٢) Lewis A. Cosser. Sociology Throught Literature. op.cit.. pp 8-10.

(٣) Ibid. p. 9.

٦- سوسيولوجيا الأدب:

حظيت دراسة الظاهرة الأدبية من الناحية السوسيولوجية باهتمام متزايد خلال العقود الثلاثية الماضية، الأمر الذى أدى إلى ظهور العديد من النظريات والآراء التى توضح طبيعة العلاقة بين الأدب والمجتمع، ولاشك يعتبر ميدان سوسيولوجيا الأدب من الميادين الخصبة لتحليل المضمون، وهناك العديد من الدراسات على الصعيد العالمى والمحلى فى هذا المجال، ومن الأمثلة على هذه الدراسات دراسة "لويس كوزر" Lewis Coser والتى قام فيها بتحليل العديد من الأعمال الأدبية -كالرواية والقصة القصيرة- وأكد "كوزر" فى دراسته على ثراء الأدب بالمعلومات التى تفيد فى إلقاء الضوء على العديد من جوانب الحياة الاجتماعية. ومن ثم قام بتحليل ٩٠ رواية وقصة قصيرة معظمها من الأدب الإنجليزى والأمريكى، هذا فضلاً عن بعض الروايات من الأدب الفرنسى والروسى والصينى. ولقد صنف "كوزر" المعرفة التى يمكن ان نستمدها من هذه الأعمال الأدبية وفقاً للميادين الأساسية لعلم الاجتماع على النحو التالى:

١- الثقافة: Culture أشار "كوزر" إلى أن رواية "جزر السعادة" Blissful Isels "ادنيس ديدروت" Denis Diderot تعد بمثابة بحثــاً فى علم لجتماع الثقافة[١].

٢- الضبط الاجتماعى: Social Control تمثل رواية "عالم العمال المهاجرين" The World of Migratory "لجون استينبك" John Steinbeck ورواية "مدينة الشمس" The city of the sun "لتوماس كامبنيلا" Campanella أداة من أدوات الضبط الاجتماعى لما تحويه هذه الروايات من تأكيدات على القيم الاجتماعية الأساسية فى المجتمع الأمريكى[٢].

٣- التنشئة الاجتماعية: Socialization، من أهم الأعمال الأدبية التى أكد عليها "كوزر" ونظر إليها باعتبارها وسيلة أساسية للتنشئة الاجتماعية رواية "الأب الفاشيستى" an Autharitarian Father "لسمويل بتلر" S.Butler،

---

(١) Lewis, A. Coser. Sociology Through Literature. op. cit.. pp.8-10.

(٢) Ibid., p. 34-40.

ورواية "أريد أن أعرف لماذا؟ Iwant to Know why "لتشارود أندرسون"[١] .Cherwood Anderson.

٤- الدور والمكانة: Role and Status، أكد "لويس كوزر" على الفائدة التى تعود على عالم الاجتماع الذى يهتم بدراسة الدور والمكانة حين رجوعه إلى بعض الأعمال الأدبية مثل رواية "الحرباء" Achameleon "لأنتون شيكوف" Anten Chekhov، ورواية "العالم كمسرح" The World as a Stage "لوليام شكسبير"[٢] .W.Shakespear

٥- التدرج الطبقى: Stratification تمثل رواية "انتظار على المحطة" Waiting at the Station "لوليام تاكرى" William Thackeray، "ورواية" ماذا يصنع الأمير What Makes a Peer "لدانيل ديفو" Daniel Defoe بعض الأعمال الأدبية الهامة التى جسدت حقيقة التدرج الطبقى فى المجتمع ففى هاتين الروايتين أوضح "لويس كوزر" أن "تاكرى"و"ديفو" قد قاما بتشريح كل من المجتمع الأمريكى والمجتمع الإنجليزى وبيان الفواصل الطبقية أو التدرج الطبقى والسمات المميزة لكل طبقة اجتماعية فى هذين المجتمعين[٣].

٦- القوة والسلطة: Power and Authority، يشير "كوزر" إلى أن رواية القوة وحدودها Power and Its Limits "لنورمان مايلر" Norman Mailer ورواية "فقر القوة" The Poverty of Power "لليفى تولستوى" Lev Tolstoi يمكن الإفاده منهما فى إلقاء الضوء على بناء القوة فى المجتمع[٤].

٧- البيروقراطية: Bureaucracy، يشير "كوزر" إلى أن رواية "حيرة البيروقراطية" Marze of Bureaucracy "لفرانك كافكا" F.Kafka ورواية "التعقيد المكتبى" The Circumlocution Office "لتشارلز ديكنز" Charles Dickens تمثل بحثاً فى البيروقراطية بمشاكلها وتعقيداتها[٥].

---

(١) Ibid., pp. 58-60.

(٢) Ibid., pp. 63-67.

(٣) Ibid., pp. 130-137.

(٤) Ibid., pp. 150-155.

(٥) Ibid., pp. 178-191.

٨- علم الاجتماع السياسي: The Sociology of Politics تفيد رواية "كيف تصبح ديكتاتورا How To Become a Dictator "لسيلون" Ignazio Silone ورواية "صوت الزعيم الفوضوى The Voice of Demagogue "اروبرت ورن" Robert Warren فى إثراء المعرفة السوسيولوجية خاصة في مجال علم الاجتماع السياسى[١].

٩- علم الاجتماع الحضرى: Urban Sociology، تعد رواية "المدينة ككابوس" The city as Nightmare "لجيمس توسون" James Thomson ورواية القوة والتوازن فى لندن The Power and Rhythms of London لتوماس دى كونسى Thomas de Quincey ورواية الهيكل العظمى لباريس The Anatomy of Paris "لبلزاك" Balzac، من الأعمال الهامة التى تلقى الضوء على طبيعة الحياة الحضرية وقيمها المتميزة ومشاكلها المتفاقمة[٢].

١٠- الأسرة: The Family يشير "كوزر" أن من أبرز الأعمال الأدبية التى تنتمى إلى ميدان علم اجتماع الأسرة، رواية "عندما يكون الواجب أقوى من الحب" When is Duty is Stronger Than Love لـ Takizawa Bakin، والرواية الهندية "أهمية إنجاب إبن" The Importance of having a son (لكاتب هندى غير معروف) ولقد أكد "كوزر" أن هذه الرواية تعد بحثاً سوسيولوجياً للأسرة الهندية والقيم الاجتماعية الموجهة لها، فهى تجسيد لقيم الأسرة بكافة معانيها، خاصة قيمة إنجاب طفل ذكر[٣]، ولذلك تعتبر رواية "أسرة سعيدة" A Happy Family "لليف تولستوى" Lev Tolstoi تجسيداً حقيقياً للقيم الأسرية، هذا فضلا عن عرضه لنماذج مختلفة للقيم الأسرية التى تحظى بالقبول لدى قطاعات عريضة من المجتمع[٤].

١١- العلاقات العرقية: Race Relations، تمثل رواية "تعلم الخضوع" Learning Submission لبتر ابرهام Peter Abrahams، ورواية "لكى تكون زنجيا To Be Negr لـجيمس جونسون James Johnson من أبرز الأعمال

---

(١) Ibid., pp. 205-212.

(٢) Ibid., pp. 233-240.

(٣) Ibid., pp. 265-270.

(٤) Ibid., pp. 270-283.

الأدبية التى عرضت لطبيعة العلاقات السلالية خاصة فى المجتمع الأمريكى[١].

١٢- السلوك المنحرف: Deviant Behavior، أشار "كوزر" إلى أن رواية "الفيلسوف" The Philosopher "للشيرود أندرسون" Sherwood Anderson، ورواية الانتحار Suicide "لفولتير" Voltaire، ورواية "القرد فى التقهقر" The Monkey on the Back "لنيلسون الجرين" Nelson Algren من الأعمال الأدبية التى عالجت موضوع إنحراف السلوك الاجتماعى[٢].

١٣- الأنومى: Anomie تعتبر رواية "الإنسان اللامعيارى An Anomic Man ، لدنيس ديدورت Denis Diderot ورواية "صوت من تحت الأرض" A voice From Underground لدستوفسكى F.Dostoevski ورواية "القادم الثانى" The Second Coming "لوليام بتلر" William Butler، من أبرز الأعمال الأدبية التى تعكس صورة الإنسان المغترب Alienated Man، هذا فضلاً عن التغيرات المتلاحقة التى تحل بأنساق القيم الاجتماعية والمادية والتى تحول دون التكيف السريع لبعض أفراد المجتمع، مما تجعلهم فى النهاية عرضة للإنسحاب من المجتمع والعيش على هامش الحياة الاجتماعية[٣].

ومن هنا تتضح أهمية تحليل المضمون كأسلوب متميز فى تحليل الأعمال الأدبية وإثراء ميدان علم لجتماع الأدب، ليس هذا فحسب بل كافة ميادين المعرفة السوسيولوجية على النحو الذى أوضحة "لويس كوزر"، فتحليل المضمون يفيد فى التعرف على المغزى الحقيقى للأعمال الأدبية ومدى إرتباطها بالواقع أو تعبيرها عنه. ومن ثم يعد -بلاشك- دعامة أساسية للتحليل فى ميدان سوسيولوجيا الأدب.

ثالثاً: أسس استخدام تحليل المضمون:

يستند استخدام تحليل المضمون على ثلاثة فروض أساسية وهى:

١- الهدف الذى يرمى إليه الكاتب أو المتحدث فى محتوى كتاباته، أو أحاديثه ومعرفة تأثير محتوى مادة الاتصال على أفكار الناس.

---

(١) Ibid., pp. 313.

(٢) Ibid., pp. 363-373.

(٣) Ibid., pp. 387-389.

٢- هل المعانى التى أشتقها الباحث من مادة الاتصال تتفق بعد تحليلها مع ما يقصده الكاتب أو المتحدث، ومع ما يفهمه القراء والمستمعون. أو بمعنى آخر هل يلتقى المتحدث أو الكاتب مع القارئ أو السامع وكذلك الباحث عند نقطة واحدة، وهل هذه النقطة هى بالفعل المعانى والأفكار التى يهدف إليها الكاتب أو المتحدث(١).

٣- الوصف الكمى والكيفى لمحتوى مادة الاتصال.

أما عن أسس استخدام تحليل المضمون فى الأعمال الأدبية فقد أستمد من الفكرة التى مؤداها أن الأدب يعكس Reflect الحياة الاجتماعية، ويصور واقع المجتمع الذى صدر عنه، وهذه الفكرة ليست فكرة جديدة، ولكنها سبقت فكرة تحليل المضمون بقرون عديدة، اذ ترجع إلى مفهوم أفلاطون عن المحاكاة Imtation إلا أن استخدام تحليل المضمون فى الدراسات الأدبية – وخاصة علم اجتماع الأدب- لم يخرج إلى حيز الوجود إلا منذ عدة عقود قليلة ماضية.. عموماً لقد أرتبط تحليل المضمون بالأعمال الأدبية للإجابة على ثلاثة فروض أساسية وهى:

أ- هل الأدب يعكس المجتمع والثقافة السائدة فيه؟

ب- هل الأدب يعد وسيلة أساسية من وسائل الضبط الاجتماعى فى المجتمع.

جـ- هل الأدب كوسيلة إعلامية يرتبط بالرأى العام ويؤثر فى الإتجاهات الاجتماعية والقيم وفى سلوك الأفراد والجماعات(٢).

وأياً كانت هذه الفروض فهى تشكل فكرة أساسية مؤداها أن للأدب وظيفة اجتماعية فى المجتمع، وهذه الوظيفة ذات زوايا مختلفة وأبعاد متعددة، ويمكن القول أن أغلب الدراسات التى أستخدمت تحليل مضمون الأعمال الأدبية اعتمدت على نظرية الإنعكاس Reflection Theory والتى توضح أبعاد التغير الذى طرأ على الحياة الاجتماعية بكافة جوانبها، ومن ثم تتضح أهمية الوظيفة الاجتماعية الأساسية لهذه النظرية فى علم الاجتماع بصفة عامة وسوسيولوجيا الأدب بصفة خاصة، ومن ثم أصبحت نظرية الانعكاس بمثابة

---

(١) عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٥٤١-٥٤٤.

(٢) غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الإجتماعى، دار المعرفة الجامعية،ص ١٦٢.

اتجاه عريض لدى العديد من القائمين بالأعمال الفنية والأدبية، وهذا يؤكد على أهمية تحليل المضمون كأسلوب أساسى لتأكيد دور الأديب فى تصوير الحياة الاجتماعية.

رابعاً: فئات تحليل المضمون:

ويمكن تحديد فئات تحليل المضمون فى فئتين أساسيتين، يتفرع من كل منها عدة عناصر أساسية، وهذه الفئات هى:

١- فئات ماذا كتب أو قيل؟

٢- فئات كيف كتب أو قيل؟

أـ فئات ماذا كتب أو قيل:

تتنوع هذه الفئات وتتعدد، ويمكن الإشارة إلى اهمها على النحو التالى:

١- فئة موضوع الاتصال: وتبحث هذه الفئة عن الموضوعات التى تدور حولها مادة الاتصال، فعلى سبيل المثال كانت مواد الاتصال بعد حرب أكتوبر ٧٣ تدور حول تحرير الأرض المحتلة، اعادة فتح قناة السويس، اعادة بناء وتعمير مدن القناة، استئناف العمل بخطط التنمية..الخ[١].

٢- فئة اتجاه محتوى الاتصال: وتدور هذه الفئة حول آراء المتلقين لمادة الاتصال، ومدى استجابتهم لهذه المادة.

٣- فئة المعايير التى تطبق على محتوى الاتصال: والمقصود بهذه الفئة تلك المعايير التى من خلالها يتم تحليل محتوى مادة الاتصال.

٤- فئة القيم Values وتحدد هذه القيم من خلال الأهداف Gools والحاجات Wants التى تحتاج إلى إشباع، ومن الأمثلة على هذه القيم، بعض القيم الاجتماعية مثل حب الأسرة، والتواضع، والكرم، والمروءة، والتسامح، والتعاطف..الخ[٢].

٥- فئة إشباع الحاجات. وهذه الحاجات قد تكون فردية وقد تكون جماعية، وقد يكون الاشباع سلبياً أى مخالفاً لما تعارف عليه المجتمع، وقد يكون إيجابياً متفقاً مع قيم ومعايير المجتمع.

---

(١) زيدان عبد الباقى، قواعد البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٤.

٦- فئة السمات Raits والسمات قد تكون فرد أو جماعة، أو مجتمع محلى، أو نظام..الخ، فسمات الفرد أو الجماعة قد تكون السن، أو النوع، أو المستوى التعليمى، أو المهنى أو الحالة الانفعالية أو الاستعدادات الأخرى..الخ. وتختلف هذه السمات من فرد إلى آخر[١].

٧- فئة الفاعل Actor والتركيز فى هذه الفئة يكون على الدور الذى يقوم به الفرد "الفاعل" داخل الجماعة التى ينتمى إليها.

٨- فئة المرجع أو المصدر: والمرجع قد يكون شخصاً أو جماعة، أو هيئة أو مؤسسة أو حكومة..الخ.

٩- فئة المكان الذى تصدر عنه مادة الاتصال: ولاشك تعتبر هذه الفئة من أهم الفئات عند تحليل مادة الاتصال، فمن المعروف أن للمكان (البيئة) تأثيراً واضحاً على الأفراد المنتمين الى هذا المكان.

١٠- فئة المخاطبين: والمخاطبون يمكن تصنيفهم إلى جماعات متعددة مثل فئة الشباب، والسيدات، والعمال، والفلاحون..الخ[٢].

ب ـ فئات كيف كتب أو قيل:

يتخذ موضوع الاتصال عدة أشكال أو فئات مختلفة أهمها:

١- فئة شكل أو نموذج الاتصال: فقد يكون موضوع الاتصال رواية أو قصيدة شعر، أو برنامج إذاعى..الخ

٢- فئة الاطار الذى يتخذه الموضوع Form of Stetment، والاطار المطلوب هنا هو الكشف عن مدى تعبير هذا الإطار عن واقع ملموس من عدمه.

٣- فئة شدة التعبير Intensity والمقصود بها الدرجة الانفعالية لموضوع الاتصال، وعما إذا كان الإنفعال بها إيجابياً أو سلبياً أو يتخذ شكلاً وسطاً.

٤- فئة الاداة: والمقصود بها الوسيلة التى يستخدمها الباحث فى إعداد مادته الاتصالية[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٧٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٨٠.

خامساً: وحدات تحليل المضمون:

هناك العديد من وحدات تحليل المضمون، ويمكن الإشارة إلى أهم هذه الوحدات علىالنحو التالى:

١- وحدات التحليل المبدئى:

أ- وحدات التسجيل ووحدة السياق: ويمكن أن تكون هذه الوحدة كلمة مفردة أو مصطلحاً، أوجملة أو فقرة..الخ.

ب- وحدة التصنيف ووحدة العدد: وعن طريق هذه الوحدة يتم تصنيف مادة الاتصال إلى وحدات متجانسة لكى يسهل تحليلها.

٢- وحدات التحليل النهائى:

أ- الكلمة Word: وتستخدم الكلمة فى تحديد الألفاظ التى يستخدمها الأدباء فى مجتمع ما، وفى هذه الحالة يقوم الباحث باستخدام الكلمة كوحدة أساسية للتحليل وعد التكرارات المختلفة لها فى موضوع التحليل.

ب- الموضوع Theme: يعتبر الموضوع من أهم وحدات تحليل المضمون لأنه يكشف عن الآراء والاتجاهات الأساسية لمادة الاتصال.

جـ- الشخصية Character: تستخدم الشخصية فى تحليل القصص والدراما وتواريخ الحياة، فتحلل الشخصيات لمعرفة عما إذا كانت شخصيات خيالية أو تاريخية أو شخصيات ذات مغزى اجتماعى معين(١).

د- المفردة Item: تختلف المفردة باختلاف وسيلة الاتصال فقد تكون كتاباً أو مثالاً، أو قصة أو حديثاً، او خطاب أو برنامجاً إذاعياً..الخ.

هـ- مقاييس المساحة والزمن Space and Time Measures: وتستخدم هذه الوحدة عن طريق حساب عدد السطور أو عدد الأعمدة أو الصفحات أو الزمن الذى استغرقته أحاديث إذاعية من نوع معين، أو وحدات الطول فى الأفلام السينمائية(٢).

سادساً: أمثلة واقعية لدراسات تحليل المضمون:

هناك العديد من الدراسات الواقعية التى أعتمدت أساساً على تحليل المضمون سواء كانت هذه الدراسات على المستوى المحلى أو العالمى، ويمكن

---

(١) عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٥٠.

الاشارة إلى نموذجين من هذه الدراسات أحدهما على المستوى المحلي والثانية على المستوى العالمي على النحو التالي:

الدراسة الأولى: "ظاهرة لوسائل الإمام الشافعي": تكشف هذه الدراسة عن جانب هام من جوانب ثقافة المجتمع المصرى فمن المعروف أن هناك عادات شائعة بين أفراد المجتمع تتمثل في التردد على أضرحة المشايخ وأولياء الله الصالحين، ونذر النذور لهم والاستعانة بهم على حل مشاكلهم وعرض شكاواهم، ليس هذا فحسب فقد وصل الأمر ببعض الناس إلى كتابة عرائض يضمنونها مشاكلهم ومطالبهم، هذا فضلاً عن أن هناك من يرسل إلى هؤلاء الأولياء رسائل بالبريد يطلبون فيها حل مشاكلهم.

وقام الدكتور "سيد عويس" بحصر الرسائل التى وردت إلى ضريح الإمام الشافعي فى الفترة من ١٩٥٢ حتى ١٩٥٨، و بتحليل ١٦٢خطاباً من بين هذه الخطابات مستعيناً بإسلوب تحليل المضمون. وجدير بالذكر أن الباحث قد استند فى تحليله على الاسلوب الكمى كشكل أساسى، وإن كان قد استخدم الأسلوب الكيفى فى أضيق الحدود، وإنتهى الباحث إلى تفسير الظاهرة واضعا فى الإعتبار مقومات الثقافة المصرية والعوامل التى أثرت فيها منذ عصر الفراعنة حتى عصرنا الحالى[1].

الدراسة الثانية: "هل يعكس الأدب القيم العامة": قام بهذه الدراسة "ملتون البرشيت" M.Albercht بهدف توضيح العلاقة بين الأدب والمجتمع، ومدى تصوير الأدب للواقع الاجتماعى، ولقد اعتمد "البرشيت" في هذه الدراسة على اسلوب تحليل المضمون، مستعيناً فى ذلك بنظرية الإنعكاس، Reflection Theory التى فسر على أساسها الإمكانية التى يعكس بها الأدب جوانب محددة من الواقع الاجتماعى كالقيم والمعايير الاجتماعية. ولقد اعتمد "البرشيت" أيضا على نظرية الضبط الاجتماعى Theory of Social Control وذلك على اعتبار أن الأدب يعد وسيلة أساسية من بين وسائل الضبط الاجتماعى المتعددة التى تؤثر فى سلوك الجماعات والأفراد وقيمهم

(١) سيد عويس، ملامح المجتمع المصرى المعاصر، ظاهرة رسائل الإمام الشافعى، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، ١٩٦٥.

وإتجاهاتهم المختلفة، وجدير بالذكر أن هذه النظرية الأخيرة قد حظيت بإهتمام العلماء الاجتماعيين الماركسيين عند دراساتهم للأعمال الأدبية(١).

ولقد حدد "للبرشيت" مجال دراسته على الأسرة الأمريكية كما تعكسها بعض القصص الصغيرة Short Story لبيان مدى تمثيل الأدب للقيم السائدة فى الأسرة الأمريكية، ومن ثم قام الباحث باختيار عينه عشوائية من القصص المنشورة فى عام ١٩٥٠، واعتمد فى استخراج القيم الأسرية والتى حددها فى عشرة فئات أساسية على تحليل المضمون بإعتبار الفقرة هى وحدة التحليل، كما أعتمد على تحليل المواقف الاجتماعية وديناميات العلاقات الأسرية داخل القصص موضوع التحليل، وقام برصد القيم التى استخرجها من دراسته فى إستمارة خاصة تتضمن القيم السابق الإشارة إليها. ولقد خلص الباحث من دراسته إلى أن عينة القصص التى درسها تعكس إلى حد كبير قيم الأسرة الأمريكية(٢).

وخلاصة القول لقد حظى تحليل المضمون بأهمية خاصة فى ميدان سوسيولوجيا الأدب بإعتباره أحدى الوسائل الأساسية والهامة التى يستعين بها الباحث فى هذا الميدان لتوضيح الصلات الحقيقية بين مختلف الأعمال الأدبية والواقع الاجتماعى الذى تصوره.

سابعاً: تقييم تحليل المضمون:

لقد ثار كثير من الجدل والنقاش بين الباحثين فى العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلماء الاجتماع بصفة خاصة حول طبيعة "تحليل المضمون" من حيث كونه "منهجاً" أم "أسلوباً" أو طريقة فى البحث أم أداة لجمع البيانات، ليس هذا فحسب، فهل تحليل المضمون يقتصر فقط على الوصف الكمي لمحتوى مادة الاتصال أم فى وصف وتحليل وتفسير هذه المادة، أو بمعنى آخر هل تحليل المضمون قاصراً فقط على تقرير ما هو موجود فى المحتوى الظاهر، لمادة الاتصال، أم أن يسبر أغوار هذا المحتوى ليقرر ما هو أبعد من الموجود.

---

(١) Viktor Shklovsky, on The Development of Literary Criticism and Poetry, on Andrew Field, The Complection of Russian Literature, Penguing Books, Ltd., Harm and Sworth, England, pp. 199-201.

(٢) غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ١٦٥.

على أية حال، لقد تعارف لدى غالبية علماء الاجتماع أن تحليل المضمون أسلوباً متميزا فى البحث الاجتماعي يعتمد على التحليل الكمى والكيفى في وصف وتحليل وتفسير مادة الاتصال. ولهذه الطريقة فى البحث مزاياها وعيوبها.

أ ــ إيجابيات تحليل المضمون:

١ــ يعد تحليل المضمون أحد الأساليب الهامة التى يمكن من خلالها الحصول على معلومات من ثنايا التراث الانسانى سواء كان مقروءاً أو مرسوماً مباشراً أو رمزياً، وفى حقبات تاريخية تضرب بجذورها فى أعماق الماضى حيث لا تتوافر معلومات مباشرة عن طبيعة الحياة الاجتماعية فى هذه الحقب التاريخية.

٢ــ ينفرد تحليل المضمون عن باقى طرق البحث الاجتماعى بتمكين الباحثين من الحصول على المعلومات بطرق غير مباشرة دون الرجوع الى المبحوثين، ومن ثم يعطى احساس للباحثين بعدم التطفل والفضولية، فالباحث يستطيع أن يلاحظ دون أن يلاحظه أحد[١].

٣ــ يعطى مزيداً من الحرية للباحثين للحصول على المعلومات دون التقييد بالزمان والمكان.

٤ــ يعطى تحليل المضمون الفرصة لتحليل مادة الاتصال أكثر من مرة عن طريق باحثين أخرين للتأكد من صدق ودقة التحليل طالما أن مادة الاتصال يمكن الرجوع إليها فى أى وقت.

ب ــ سلبيات تحليل المضمون:

كأى طريقه من طرق البحث يكتنف تحليل المضمون بعض العيوب أهمها:

١ــ يعتمد تحليل المضمون على الوثائق (بأنواعها المختلفة) أو السجلات أو الآثار التى نحصل عليها من حقب تاريخية سالفة. ولانستطيع أن نجذم أن هذه المادة معبرة عن طبيعة الواقع الاجتماعى التى صدرت عنه، فغالبا كان يهتم المؤرخين القدماء بتسجيل أشياء بعينها تمثل أهمية خاصة بهم، فهم لا يسجلون كل الأحداث، ومن ثم فالمعلومات التى نحصل عليها يشوبها النقص، وقد تكون عرضه للتحيز من قبل المصدر (المُرسل) أو المؤرخ.

---

(١) محمد الجوهرى، علم الاجتماع: النظرية المنهج الموضوع، مرجع سابق، ص ٣٣١.

٢ـ هناك احتمال أن تكون مادة الاتصال موضوع التحليل ذات طبيعة مثالية، فجدير بالذكر أن قدراً لايستهان به من مواد الاتصال التى تقدمها وسائل الاتصال المختلفة فى المجتمعات ولاتعكس الواقع الحقيقى.

٣ـ يهتم كثير من الباحثين فى تحليل المضمون بقضية الكم أكثر من الكيف وذلك وفقاً لتعريف "بيرلسون" الذى يصف تحليل المضمون بأنه الوصف الكمى الموضوعى المنظم لأية سلوك رمزى (أو لمادة الاتصال). فلقد أوقع هذا التعريف كثير من الباحثين فى مغالطة كبيرة من حيث تأكيده على ظاهر مادة الاتصال الكمى دون الانشغال بعمقها وجوهرها الكيفى. فالوصف الكمى للمحتوى الظاهر لمادة الاتصال ليعبر تعبيراً صادقاً عن الجوهر الحقيقى لهذه المادة، ومن ثم لابد أن يتزامن الوصف الكمى والكيفى معاً فى وصف وتحليل مادة الاتصال.

٤ـ لايجب النظر إلى مادة الاتصال كما هى بالشكل التى تظهر علية فى الواقع، دون الأخذ فى الاعتبار طرفى هذه المادة (المرسل والمستقبل) "فالمرسل" أو (منتج) هذه المادة فرد من أفراد مجتمع ما له خلفيته الأيديولوجية وإنتماءاته الطبقية ومصالحه التى يريد أن يعبر عنها من خلال هذه المادة، وحالته النفسية والاجتماعية التى تشكل تأثيراً على بعض متغيرات المادة وقيمة ومعاييره المستمده من واقعة الاجتماعىالتى تحكم أبعاد فكره ومضمون رسالته. أما الطرف الثانى وهو "المستقبل" فهو أيضاً له خلفيته الثقافية والاجتماعية التى تؤثر وتتأثر بمضمون الرسالة (مادة الاتصال). فكل هذه الأبعاد ينبغى على القائم بتحليل المضمون أن يأخذها فى الاعتبار.

٥ـ ان احتمال تحيز الباحث فى تحليل المضمون كبير، وذلك لأن رؤية الباحث لمادة الاتصال لا يمكن أن نفصلها بسهولة عن أيديولوجيته ووعيه الاجتماعى وتنشئته العلمية. تأثير ذلك كله على فهمه لمادة الاتصال. ومن ثم قد يختلف أكثر من باحث فى فهم وتحليل مادة محدده من مواد الاتصال.

الفصل التاسع

القياس الاجتماعى (السوسيومترى)

تمهيد:

١ـ تعريف القياس الاجتماعى (السوسيومترى).

٢ـ المجالات الأساسية للقياس الاجتماعى.

٣ـ أسس استخدام القياس الاجتماعى.

٤ـ أدوات البحث فى القياس الاجتماعى.

أ ـ الاختبار السوسيومترى.

ب ـ السوسيوجرام.

جـ ـ المصفوفة السوسيومترية.

٥ـ ثبات وصدق المقاييس السوسيومترية.

٦ ـ تقييم القياس الاجتماعى.

أ ـ إيجابيات السوسيومترى.

ب ـ سلبيات السوسيومترى.

تمهيد:

اختلف بعض الباحثين في علم الاجتماع حول طبيعة القياس الاجتماعي Sociometry من حيث كونه منهجاً في البحث أم اسلوب في جمع البيانات، ولكل وجاهة رأيه في ذلك الا أنه بات واضحاً لدى غالبية المشتغلين بالبحث الاجتماعي التأكيد على أن القياس الاجتماعي أسلوب متميز في بحث العلاقات والاتجاهات والقيم الاجتماعية لدى جماعات محدده من المجتمع.

ولقد ارتبط القياس الاجتماعي بإسم مؤسس هذه الطريقة "جاكوب مورينو" J.L.Moreno حينما قام في عام ١٩٣٤ بتحليل العلاقات الشخصية المتبادلة بين أفراد الجماعات الصغيرة في كتابه "لمن البقاء" Who Shall Survive[(١)] والقياس الاجتماعي اسلوب في البحث يعتمد على قائمة مقننة من الأسئلة تدور حول طبيعة العلاقات الاجتماعية القائمة بين أعضاء جماعة ما، ويطلب من جميع أعضاء هذه الجماعه الاجابة عليها بشكل مستقل. وتدور هذه الأسئلة حول علاقات التجاذب والتنافر بين أعضاء الجماعة، واستطاع "مورينو" وزملاؤه تطوير طريقة القياس الاجتماعي في بحوثهم الخاصة بالعلاقات الاجتماعية وبناء الجماعة، وعوامل تماسكها وتفككها، واستمراريتها..ألخ. ويدور هذا الفصل حول التعريف بالقياس الاجتماعي وخصائصه، ومجالاته الأساسية، وأسس استخدامه، وأدوات البحث التي يستخدمها، وثبات وصدق الاختبارات السوسيومترية، واخيراً تقييم طريقة القياس الاجتماعي في البحث السوسيولوجي.

١ــ تعريف القياس الاجتماعي وخصائصة:

القياس الاجتماعي أو (السوسيومترى) Sociometry مصطلح ــ من الناحية اللغوية ــ يتكون من شقين الأول Socio ويعنى "اجتماعى"، والثاني Metry ويعنى قياس. ومن ثم "فالسوسيومترية" هى قياس للعلاقات الاجتماعية داخل الجماعة على حد تعبير "مورينو". والقياس الاجتماعي من الأساليب الحديثة في البحث الاجتماعي بصفة عامة والبحث السوسيولوجى بصفة خاصة، فلم تكن العلوم الاجتماعية حتى الربع الأول من القرن العشرين تعرف

---

(١) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ص ٤٠١.

سوى المقاييس الديموجرافية[1]، وأصبح مع أسلوب القياس الاجتماعى هناك امكانية لقياس العلاقات الاجتماعية بشكل علمي دقيق، وأصبحت السوسيومترية تمثل حركة علمية وطريقة للبحث لها تأثيرها الفعال فى البحث السوسيولوجى التجريبى.

ولقد عرف "جاكوب مورينو" السوسيومترية بأنها "طريقة للتعرف على درجة الانجذاب والتنافر التى يظهرها الأفراد تجاه بعضهم البعض[2]. وقد تكشف هذه الطريقة ما يحدث داخل الجماعة من تجاذب وتنافر وتفكك وتماسك، كما تكشف عن التنظيم غير الرسمى داخل الجماعة وكذلك المكانات والأدوار والمراكز الاجتماعية للأفراد من خلال تفاعلهم الاجتماعى مع بعضهم الأخر. وجدير بالذكر أن السوسيومترية لاتسعى لقياس الظواهر الاجتماعية بصفة عامه، وإنما تسعى فقط لقياس العلاقات الاجتماعية السائدة بين أفراد الجماعة الاجتماعية، والتى تقوم على علاقات التجاذب والتنافر.

ولقد استخدم "مورينو" والسوسيومتريون من بعده بعض المفاهيم فى دراستهم أهمها[3]:ـ

١ـ **النجم: Star**: وهو الشخص التى تتركز حوله معظم اختيارات افراد الجماعة، وهو فى الغالب يكون قائد الجماعة الرسمى أو غير الرسمى وهو الشخص المفضل الذى يحصل على معظم اختيارات الجماعة.

٢ ـ **المعزول: Isolateal**، وهو الشخص الذى لايحظى بقبول أعضاء الجماعة ولم يتلق أية اختيارات فى الاختبار السوسيومترى، وقد تكون العزلة بسيطة حينما لايكون الفرد موضع اختيار أو نبذ من قبل افراد جماعة. وقد يختار الفرد من أفراد خارج جماعته، ولايختاره أحد من داخل جماعته.

٣ـ **المهمل: Neglected**، وهو الشخص الذى يحصل على بعض الاختيارات من أفراد جماعته، ولكنه لا يحظى بإختيارات غالبية الأعضاء.

٤ـ **المرفوض أو المنبوذ: Rejected** وهو الشخص الذى يحصل على اختيارات عكسية (سالبة) من قبل أفراد جماعته، فعلى سبيل المثال اذا كانت

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٠٢.

(٢) محمد الجوهرى، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٣٣٩.

(٣) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ص ٤٠٧.

اجابات أفراد الجماعة عن السؤال: من الذى لاتحب أن يكون عضوا فى الجماعة؟ متجه صوب شخص ما، فهذا الشخص يُعد منبوذاً.

٥ــ **الاختيار المتبادل: Mutual Choice**، ويعرف بالاختيار الثنائى أو الاختيار الزوجى، حيث يختار عضوين فى الجماعة كل منهما الآخر[1].

٦ــ **النبذ المتبادل:** وهى علاقة الرفض بين شخصين حيث يرفض كل منهما الآخر.

٢ــ المجالات الأساسية للقياس الاجتماعى:

على الرغم من حداثة اسلوب السوسيومترى أو "القياس الاجتماعى" بالصورة التى حددها "مورينو" فى النصف الأول من القرن العشرين، إلا أن موضوع القياس خاصة قياس القيم والاتجاهات والرأى العام تعتبر من الموضوعات التقليدية فى العلوم الاجتماعية كعلم الاجتماع والأنثربولوجيا وعلم النفس الاجتماعى. فلقد استخدمت العديد من الأدوات والأساليب فى قياس القيم الاجتماعية فى البحوث الاجتماعية كاستمارة البحث أو الأستبيان Questionnaire والاستبار أو المقابلة Interviewing، وتحليل المضمون Content Analysis، والاختبارات النفسية المتنوعة كالاختبارات الاسقاطية، واختبار "ريكرت"، واختبار الرورشاخ، واختبار تفهم الموضوع..ألخ.

أما الأسلوب السوسيومترى فعادة ما يستخدم فى دراسة بناء الجماعات الاجتماعية، ونسق العلاقات الشخصية المتبادلة بين أعضاء هذه الجماعات، هذا فضلاً عن العديد من المجالات الصناعية والتربوية، والعسكرية، والترويحية، وغيرها. وبصفة عامة يمكن الاشارة الى أهم مجالات استخدام السوسيومترى فيما يلى:ــ

١ــ دراسة البناء الاجتماعى للجماعة:

يستخدم القياس الاجتماعى فى دراسة العلاقات الاجتماعية داخل الجماعات الصغيرة، فلقد استخدمه علماء الاجتماع والأنثربولوجيا وعلماء النفس الاجتماعى فى دراسة بناء وديناميات الجماعة من خلال تحديد الأدوار والمراكز وعلاقات الجذب والتنافر داخل الجماعة، هذا فضلاً عن دراسة

---

(١) غريب سيد أحمد، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

عوامل تماسك الجماعة أو تفككها وتغيرها. ولقد دعى "مورينو" الى ضرورة توافر عدة شروط لدراسة بناء الجماعة من خلال السوسيومترى أهمها[1]:-

أ - أن تكون الجماعة محددة المعالم، واضحة الحدود والأبعاد.

ب - أن يسمح للأشخاص بإختيار أو نبذ أى عدد من الأشخاص دون تحديد.

جـ - أن يحدد نوع النشاط الذى يسمح للفرد أن يشارك فيه، بمعنى أن يحدد مجالات الاختيار أو النبذ.

د - أن يعرف أعضاء الجماعة أن نتائج الاختبار سوف تستخدم فى اعادة بناء الجماعة، فاختياراتهم سواء بالايجاب أو السلب سوف تحدد الأشخاص الذين يشاركون المراكز المؤثرة فى بناء الجماعة فى المستقبل.

هـ - أن تتوافر السرية التامة فى الاختبار بحيث تتاح لكل فرد الحرية التامة فى الاختيارات التى يراها.

و - أن تكون الأسئلة المستخدمة فى عملية القياس مناسبة للمستوى الفكرى أو الثقافى لأعضاء الجماعة، فأسلوب السؤال الذى يوجه الى الكبار بالتأكيد سوف يختلف عن اسلوب السؤال الذى يوجه الى الأطفال، وكذلك الحال بالنسبة للمتعلمين وغير المتعلمين.

ز - توافر شرط التفاعل الاجتماعى بين الأفراد لفترة كافية من الزمن لكى تتاح فرصة كافية لأعضاء الجماعة لتكون علاقات فعالة سواء كانت علاقات جذب أو تنافر.

٢- مجال التنظيمات الصناعية:

استخدم القياس الاجتماعى بنجاح فى مجال التنظيمات الصناعية خاصة دراسة العلاقة بين التنظيم الاجتماعى الرسمى وغير الرسمى لدى جماعات العمال فى التنظيمات الصناعية. كما أستخدم أيضاً فى دراسة أثر القيادة فى عملية الانتاج، وعلاقتها بتماسك جماعات العمل وأدواتها، كما استخدم أيضاً فى قياس وتشخيص الروح المعنوية للعمال الصناعية وأثرها على عمليات الانتاج المختلفة.

---

(١) عبدالباسط محمد حسن، اصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٥٠١.

٣ــ مجال التنظيمات العسكرية:

من المجالات الهامة التى استخدم فيها الاختبار السوسيومترى المجال العسكرى خاصة فى تكوين الجماعات العسكرية والاتجاهات نحو القادة، ودراسة الروح المعنوية للقادة والجنود قبل العمليات العسكرية وأثنائها وفى أعقابها. كذلك استخدم فى قياس اتجاهات أفراد الجماعة العسكرية نحو الأعداء والقضايا المتصارع عليها ومدى إيمانهم بالعمليات العسكرية وأثر ذلك على بناء الجماعة ووحدتها ومن ثم النتيجة النهائية للعمليات العسكرية.

٤ــ المجال التربوى:

استخدم القياس السوسيومترى بنجاح فى مجال التعليم بالمدارس للتعرف على طبيعة العلاقة بين التلاميذ بعضهم البعض، وبين التلاميذ وأعضاء الهيئة التعليمية، كما أستخدم هذا القياس فى اعادة بناء الجماعات الدراسية، ومساعدة المعزولين من التلاميذ فى الاندماج فى الجماعة وممارسة أنشطتها[١]، والتقليل من عمليات التسرب الدراسى والغياب والمساعدة فى عمليات التكيف الدراسى.

٥ــ مجال العلاج النفسى والاجتماعى:

يُعد مجال العلاج النفسى والاجتماعى من أبرز المجالات التى أستخدم فيها القياس الاجتماعى، فلقد حظى القياس النفسى باهتمام العديد من علماء النفس الاجتماعى، وهناك مقاييس نفسية متنوعة طبقت فى مجالات شتى لمجال المدارس، والجيوش، والمصانع، وجماعات النوادى، وفى مجال العلاج النفسى. ولقد استخدم أيضاً هذا الاسلوب فى مجال الخدمة الاجتماعية للتعرف على الأفراد الذين يعانون من سوء التكيف والتوافق الاجتماعى مع باقى أعضاء الجماعات التى ينتمون اليها، بهدف علاج هذه الحالات المرضية والعمل على اعادة توافقها مع بناء الجماعة.

٦ــ مجال القيم والاتجاهات:

لاجدال فى أن مجال القيم والاتجاهات يعد من المجالات الخصبة التى يستخدم فيها القياس الاجتماعى، فلقد استخدم هذا المقياس فى دراسة "القيم" فى العلوم الاجتماعية كعلم الاجتماع ــ الأنثربولوجيا وعلم النفس ــ وعلى الرغم

---

(١) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ص ٤١٧.

من غموض مفهوم "القيم" وعدم الاتفاق على تعريف محدد لها بين كافة الباحثين في ميدان التخصص الواحد إلا أنه أمكن تحديد بعض الخصائص العامة "للقيم" من منظور كل ميدان وقياس "القيم" وفقاً لهذه الخصائص العامة. فالقيم من وجهة نظر علماء النفس الاجتماعى هى عبارة عن "تنظيمات معقدة لأحكام عقلية وانفعالية نحو الأشخاص أو الأشياء والمعانى"، أو هى "مقياس أو مستوى أو معيار نستهدفه في سلوكنا ونسلم بأنه مرغوب فيه أو مرغوب عنه"، أو هى "المسئولة عن الأحكام التي يصدرها الأنسان على أى موضوع أو موقف ويرى فيها الانسان شيئاً من الحق أو الخير والجمال"[1].

أما القيمة من وجهة النظر السوسيولوجية فقد أرتبطت عند بعض الباحثين بالمثل المجردة، والبعض الآخر بالرغبة والاتجاه، وهناك من عرفها في ضوء الحاجات الانسانية، أو من خلال الفعل الاجتماعى، أو المعايير التي تحكم سلوك الأفراد في المجتمع...ألخ.

ولقد تنوعت مقاييس القيم في العلوم الاجتماعية بتنوع الأدوات والأساليب التي استخدمت في قياسها، كالمقابلة المقننة، واستمارة البحث أو الاستبيان، وتحليل المضمون أو المحتوى، والاختبارات النفسية المتعددة كالاختبارات الاسقاطية (اختبار تفهم الموضوع T.A.T والرورشاخ) هذا فضلاً عن المقاييس التي صممت خصيصاً لقياس القيم في مجال علم النفس الاجتماعى كإختبار "فرنون وألبورت" الذى نشر عام ١٩٣١، ومقياس "القيم الفارق" الذى أعده "برنس" Prince عام ١٩٥٧[2]. ومن الدراسات السوسيولوجية التي استخدمت المقابلة كوسيلة لجمع بيانات عن القيم الاجتماعية دراسة "روبرت بل" R.Bell عن "الصراع الجيلى" Generational Conflict بين الأبناء والأباء من خلال بعض القيم. ومن الدراسات التي أستخدمت استمارة البحث في دراسة نفس الموضوع دراسة (الدكتور السيد عبدالعاطى) عن صراع الأجيال في المجتمع المصرى.

أما فيما يتصل بقياس الاتجاهات كأحد المجالات الهامة التي يستخدم فيها السوسيومترى، فلقد تنوعت هذه المقاييس بتنوع موضوعات الدراسة من

---

(١) عبدالباسط عبدالمعطى: البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٢٥٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٠.

ناحية وتنوع الباحثين فى ميدان علم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع من ناحية أخرى. وتنقسم أساليب قياس الاتجاهات الى قسمين **الأول: يُعرف بالمقاييس اللفظية**: ويتكون المقياس اللفظى من عدد من العبارات تختلف من حيث شدتها ومداها مثال: (موافق جداً ــ موافق ــ محايد ــ أرفض ــ أرفض بشدة) ويطلب من المبحوث تحديد موقفة من بعض العبارات وفقاً للمتغيرات السابقة. **والثانى: يعرف بالمقاييس الاسقاطية** والتى تعتمد على أساليب متنوعة كاختبار "بقع الحبر"، أو اختبار "تفهم الموضوع" أو اختبار "التداعى" الذى يستخدم العبارات الناقصة ويطلب للمبحوث تكملتها وغيرها. والهدف الأساسى من هذه الأساليب هو تهيئة الجو المناسب للفرد ليعبر عما يدور فى نفسه من أفكار واتجاهات دون أن يتبين حقيقة المقصود أو الدلاله الحقيقية لاستجابته للمثير، ومن ثم تستخدم الأساليب للتعرف على ما فى نفس الفرد من أمور استخدمت فى قياس الاتجاهات*.

أ ــ مقياس البعد الاجتماعى:

استخدم هذا المقياس "بوجاردس" Bogardus سنة ١٩٢٥ لقياس اتجاهات الأمريكيين نحو أفراد الشعوب الأجنبية، ولايزال هذا المقياس يستخدم حتى اليوم للتعرف على اتجاهات الأفراد تجاة الأجناس الأجنبية والعنصرية المختلفة. ويشتمل هذا المقياس على سبع عبارات تعبر كل منها عن موقف محدد من مواقف الحياة الاجتماعية، وتقيس البعد الاجتماعى الذى يحسه المبحوث تجاه الأجناس أو الشعوب الأخرى. ويبدأ هذا المقياس بأقصى درجات التقبل وينتهى بأقصى درجات النفور، وهذه العبارات هى:ــ

١ــ أقبل الدخول معهم فى علاقة زواج.

٢ــ أقبلهم فى النادى الذى انتمى اليه كأصدقاء.

٣ــ أقبل أن يقيموا فى نفس الشارع الذى أعيش فيه كجيران.

٤ــ أقبلهم كموظفين فى نفس عملى فى نفس البلد.

٥ــ أقبلهم كمواطنين فى بلدى.

---

* لمزيد من التفصيل عن هذه المقاييس راجع:ــ

ــ د. عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق.

ــ د. عبدالرحمن العيسوى، علم النفس الاجتماعى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٥.

ــ د. مصطفى سويف، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ١٩٧٠.

٦ــ أقبلهم كزائرين فقط لبلدى.

٧ــ أوافق على استبعادهم نهائياً من بلدى.

ولقد قام "بوجاردس" بتطبيق هذا المقياس على الأمريكيين تجاه أربعة شعوب أخرى وهم الكوريون والانجليز والبولنديون والسويديون، فوجد أن الأمريكيين يتقبلون هذه الشعوب بالترتيب التالى: الانجليز ــ السويديون ــ البولانديون ــ الكوريون.

ويلاحظ على مقياس "بوجاردس" للاتجاهات أن الشخص الذى سوف يوافق على العبارة الأولى فهو بالتالى سوف يقبل العبارة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة، فالذى يوافق على الارتباط بعلاقة زواج من فتاة من شعب معين لايمانع من قبول افراد هذا الشعب فى النادى الذى ينتمى اليه أو كجيران فى الشارع الذى يسكن فيه أو كمواطنين فى بلده. أما الشخص الذى يوافق على العبارة السادسة أو السابعة سوف يرفض الخمس عبارات الأولى[1].

ب ــ مقياس ليكرت: Likert

يعتمد هذا المقياس على اختيار وحدات للقياس تمثل درجات مختلفة من الاتجاه بصورة يمكن معها تحديد قيمة دقيقة لكل وحدة. فكل عبارة يمكن تحديد اتجاه الفرد منها بشكل رقمى دقيق، فعلى سبيل المثال أن لكل عبارة خمسة متغيرات (موافق جداً ــ موافق ــ محايد ــ أرفض ــ أرفض بشدة)، وبإمكان الباحث أن يعطى لكل متغير وزن معين حسب طبيعة الموضوع المراد قياسة، فإذا أعطينا للمتغير الأول (موافق جداً) (٥) درجات نعطى (الموافق) (٤) درجات و(المحايد) (٣) درجات و(أرفض) (٢) درجتان، و(أرفض بشدة) (١) درجة واحدة ويتميز هذا المقياس بالبساطة وسهولة تطبيقه على عينات متنوعة من أفراد المجتمع، الا أنه يتطلب من الباحث جهداً كبير فى تحديد العبارات التى تصلح لقياس اتجاهات جماعة ما نحو موضوع محدد.

جـ ــ مقياس المقارنة الزوجية: Paired Comparison

استخدم هذا المقياس لأول مرة فى قياس الاتجاهات لدى "ثرستون" Thurstone ويعتمد هذا المقياس فى جوهرة على المقارنة بين موضوعين بهدف تفضيل أحدهما على الأخر. فإذا أردنا مثلاً قياس اتجاهات الطلاب نحو المواد التى يقومون بدراستها، وكانت هذه المواد خمس مواد وهى مثلاً

---

(١) عبدالباسط محمد حسن، اصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٥٢٠.

(السياسة ــ والاجتماع ــ والأسرة ــ والاحصاء ــ والفلسفة). فإننا سوف نحصل على عشر مقارنات وهي:ــ

١ــ السياسة والاجتماع.	٢ــ السياسة والأسرة.
٣ــ السياسة والاحصاء.	٤ــ السياسة والفلسفة.
٥ــ الاجتماع والأسرة.	٦ــ الاجتماع والاحصاء.
٧ــ الاجتماع والفلسفة.	٨ــ الأسرة والاحصاء.
٩ــ الأسرة والفلسفة.	١٠ــ الاحصاء والفلسفة.

ويمكن حساب عدد المقارنات وفقاً للقانون التالي

$$\text{عدد المقارنات الزوجية الممكنة} = \frac{ن(ن-١)}{٢}$$

ن = عدد الوحدات المراد المقارنة بينها. وبالتطبيق على المثال السابق = ٥

$$\text{عدد المقارنات الزوجية الممكنة} = \frac{٥(٥-١)}{٢} = \frac{٥ \times ٤}{٢} = \frac{٢٠}{٢} = ١٠$$

ويتميز هذا المقياس بالسيولة والبساطة فى التطبيق الا انه يعاب علية حاجته الى عدد كبير من المقارنات الزوجية كلما زاد عدد الموضوعات التى يسعى الباحث الى قياس الاتجاهات نحوها.

٤ ــ مقياس "ثرستون" Thurstone :

طبق "ثرستون" هذا المقياس في قياس الاتجاه العقلي نحو الكنيسة. ويعتمد هذا الأسلوب على اختيار وحدات للقياس تمثل درجات مختلفة من الاتجاه بصورة يمكن معها تحديد قيم دقيقة لكل منها، وبحيث تكون متساوية الأبعاد[1].

وتتحدد خطوات هذا المقياس على النحو التالى:ــ

١ــ يقوم الباحث بجمع أكبر قدر من العبارات التى تمثل الاتجاه نحو الموضوع المراد قياسة بحيث تمثل درجات مختلفة من التأييد والمعارضة.

٢ــ تفحص هذه العبارات للتأكد من أنها ذات أطوال معقولة وأنها بسيطة وواضحة وتشير الى الموضوع بشكل مباشر.

---

(١) عبدالباسط محمد حسن، مرجع سابق، ص ٥٢٠.

٣ــ تكتب كل عبارة على بطاقة منفصلة، ثم توزع على عدد كبير من المحكمين الذين لهم صلة بموضوع القياس ويطلب منهم تصنيفها كل على حده حسب ما تتضمن من التأييد والمعارضة فى ١١ فئه، يرمز لكل فئة بحرف من حروف الهجاء، وتعطى كل فئة درجة، فالفئة الأولى تعطى الرقم (١)، والوسطى (٦) والأخيرة (١١).

٤ــ يقوم الباحث بعد ذلك بإختيار الجمل التى يتكون منها المقياس والتى أجمع المحكمين عليها، وحذف باقى الجمل التى يختلف المحكمين فى تقديرها.

ومن عيوب هذا المقياس اعتماده على عدد كبير من المحكمين فى اختيار وتصنيف بنود المقياس، هذا فضلاً عن صعوبة تطبيقه بالمقارنة بمقياس "ليكرت".

هــ ــ مقياس "جتمان": Guttman

ويعرف هذا المقياس بالأسلوب أحادى البعد أو طريقة التدرج المتجمع، حيث أنها تستهدف عمل مقياس يتزايد تجمعه كلما أقتربت العبارات من نهاية المقياس. فالشخص الذى يوافق على عبارة معينة لابد أن يكون قد وافق على جميع العبارات الأدنى منها. فإذا سألنا فرداً عن دخله ووجهنا اليه الأسئلة التالية:ــ

	نعم	لا
١ــ هل دخلك يزيد عن ١٠٠٠ جنية	( )	( )
٢ــ هل دخلك يزيد عن ٧٥٠ جنية	( )	( )
٣ ــ هل دخلك يزيد عن ٥٠٠ جنية	( )	( )
٤ــ هل دخلك يزيد عن ٢٥٠ جنية	( )	( )
٥ــ هل دخلك يزيد عن ١٥٠ جنية	( )	( )
٦ــ هل دخلك يزيد عن ١٠٠ جنية	( )	( )

فإذا أجاب الفرد بالايجاب على السؤال الأول فلابد وان يجيب بالايجاب على بقية الأسئلة. وإذا أجاب بالنفى على السؤال الرابع فسوف يجيب بالنفى أيضاً على الأسئلة الأول والثانى والثالث وهكذا.

أما فيما يتصل بالمقاييس الاسقاطية التى تستخدم فى قياس الاتجاهات الاجتماعية، فهناك العديد من هذه المقاييس المصورة، حيث يعرض على الفرد صورة مثلاً لإجتماع نقابة من النقابات، او صورة لقائد يعطى أوامره، أو

رئيس، أو صورة لتلاميذ فى المدرسة أو الجامعة او صورة لطلاب يؤدون الامتحانات...ألخ، ويترك للفرد حرية التعبير عن اتجاهاه نحو هذه الصور.

٣ــ أسس استخدام القياس الاجتماعي:

تستند طريقة القياس الاجتماعي على بعض الأسس النظرية التى حددها "جاكوب مورينو" مؤسس هذه الطريقة يمكن الاشارة اليها على النحو التالى[1]:ــ

١ــ التلقائية والابتكار: Spontaneity - Creativity

المقصود **بالتلقائية** هو ترك الفرد بحريته فى الاستجابة لمختلف المواقف الاجتماعية المراد قياس اتجاهه نحوها، وهى خاصية أساسية للقياس. اما **الأبتكار** فالمقصود به الفعل المبدع ذاته، وليس هناك علاقة تماثل بين التلقائية والابتكار، فقد يكون الفرد تلقائياً بشكل واضح ولكنه ليس بالضرورة قادراً على الابتكار. وهناك أساليب مختلفة يمكن من خلالها قياس طبيعة التلقائية والابتكار.

٢ــ الذرة الاجتماعية: Social Atom

تقوم السوسيومترية على تصور أساسي يعرف بالذرة الاجتماعية أ، "النواة" التى يلتف حولها الأفراد حين يدخلون فى علاقات شخصية متبادلة، سواء كانت هذه العلاقات عاطفية أم ثقافية أم اجتماعية أم تجارية...ألخ. ومن ثم تصبح الذرة الاجتماعية هى المحور الأساسى لعلاقات التجاذب أو التنافر بين أفراد الجماعات الاجتماعية المختلفة.

٣ــ الدور: Role

من المعروف أن لكل فرد شبكة من العلاقات، فهو بمثابة "بؤرة" للعديد من انماط الجذب والنفور، وتظهر هذه "البؤرة" بوضوح كلما تعدد الأدوار التي يقوم بها الفرد، وقد يكون بعض هذه الأدوار متألف، وقد يكون البعض الأخر متصارع. وقام "مورينو" بتحليل مفهوم الدور الذى يمثل من وجهة نظره تكاملاً لعدد من العناصر الخاصة والجمعية، والأدوار لا تصدر عن الذات، وإنما تتشكل الذات نتيجة للقيام بأدوار مختلفة. ويمكن تصنيف الأدوار وفقاً لثلاث فئات ، **الأولي**: الأدوار السيكوماتية Psychosomatic Role وتتمثل فى الأكل والمشي والنوم. **والثانية**: الأدوار السيكودرامية

---

(١) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص٥٠٤.

Psychodramatic Role مثل دور الأم والأب والمدرس، والثالثة: الأدوار الاجتماعية Social Roles كدور الزوج والزوجة والابن والأبنة..ألخ[1].

٣ـ شبكة العلاقات الشخصية المتبادلة: Interpersonal Networks

والمقصود بهذه الشبكة هو عمليات التفاعل التلقائى بين الأفراد، وهذا التفاعل هو أساس تكوين الجماعات الاجتماعية المختلفة، وقد تتخذ العلاقات الشخصية المتبادلة بين الأفراد شكل التجاذب Atraction من خلال عمليات الاختيار المتبادل بين الأشخاص، وقد تتخذ هذه العلاقات الشخصية شكل النفور Repulaion وهى العلاقات السلبية التى لايختار الأشخاص فيها بعضهم البعض بشكل إيجابى بل قد يتخذ هذا الاختيار شكلاً عدائياً، وقد تتخذ العلاقات شكل اللامبالاة أو الحيادية عندما يحجم شخص ما عن الاختيار السلبى أو الايجابى للأشخاص الذين يختارونه أو يرفضونه.

٤ ــ أدوات البحث فى القياس الاجتماعى:ــ

لاشك أن القياس الاجتماعى أو "السوسيومترى" كأى طريقة من طرق البحث الاجتماعى له بعض الأدوات التى يستخدمها فى عملية جمع البيانات. ولقد استخدم الباحثون الذين اعتمدوا على هذه الطريقة فى بحوثهم بعض أدوات البحث التقليدية كالمقابلة البؤرية Focnseed Interview أو المقابلة المقننة Standardized Interview، واستمارة البحث Questionnaire ولايختلف استخدام هذه الأدوات مع الأسلوب السوسيومترى عن بقية اساليب البحث الأخرى. وهناك بعض الأدوات الأخرى التى ظهرت لأول مرة مع بداية استخدام السوسيومترى، كالاختبار السوسيومترى Sociometric Test، والسوميوجرام Sociogram، والمصفوفة السوسيومترية Sociometric Matrix.*

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٠٦.

* لمزيد من التفصيل راجع:

ـ محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق.

ـ غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعى، مرجع سابق.

ـ عبدالباسط عبدالمعطى، البحث الاجتماعى، مرجع سابق.

ـ زيدان عبدالباقى، قواعد البحث الاجتماعى، مرجع سابق.

ـ محمد الجوهرى، علم الاجتماع، مرجع سابق.

أ- الاختبار السوسيومترى : Sociomatic Test

يعد الاختبار السوسيومترى أحد الوسائل الهامة المستخدمة فى قياس العلاقات الاجتماعية بين أعضاء الجماعات الصغيرة لمعرفة طبيعة هذه العلاقات، وما تتسم به من تجاذب أو تنافر أو تجاهل أو لامبالاة بين الأعضاء المكونين للجماعة. ويختلف الاختبار السوسيومترى من حيث الشكل والمضمون. بإختلاف موضوع الاختبار.

ويتكون الاختبار السوسيومترى من قائمة من الأسئلة التى تدور حول موضوعات محددة، وروعى فى صياغتها بعض الشروط كالبساطة، والسهولة، والوضوح، وتناسب مستواها اللغوى مع المستوى الثقافى للمبحوثين. ولكى يحقق الاختبار السوسيومترى الهدف الذى يسعى اليه ينبغى: تحديد الجماعة موضع الاختبار تحديداً دقيقاً، تحديد معيار الاختبار (التفضيل) أو النبذ بين أعضاء الجماعة، تحقيق السرية التامة فى الاختبار لتكون هناك حرية كاملة فى التعبير عن الرأى، وتوافر شروط التفاعل الاجتماعى بين أعضاء الجماعة.

والهدف الأساسى من الاختبارات السوسيومترية هو ترتيب بناء الجماعة بشكل أكثر تنظيماً وإتاحة الفرصة لجميع الأعضاء فى المشاركة فى أنشطة الجماعة المختلفة، ومن ثم فالاختبار السوسيومترى يكشف عن مدى تماسك الجماعة، وما بها من تصدعات أو تكتلات، ويعطى صورة واضحة عن طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة بين أعضاء الجماعة، هذا فضلاً على ما يتيحه هذا الاختبار من حرية كاملة لأعضاء الجماعة للتعبير عن أنفسهم دون ضغوط فى اختيارتهم المختلفة للأعضاء الأخرين.

ولقد وضع "مورينو" عدداً من الاختبارات السوسيومترية المختلفة، مثل اختبارات التلقائية، واختبارات تمثيل الأدوار، واختبارات الهيئة الاجتماعية، واختبار السوسيودراما، واختبار السيكودراما، واختبارات المواقف.. ألخ[1].

---

(١) لويس كامل مليكة، سيكولوجية الجماعات والقيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٧١٤.

ب ــ السوسيوجرام: Sociogram

يُعد السوسيوجرام أحد الأدوات الأساسية فى القياس الاجتماعى، والمقصود بالسوسيوجرام "خريطة العلاقات الاجتماعية" أو "المخططة الاجتماعية"، ويستخدم السوسيوجرام فى قياس العلاقات الاجتماعية بين أفراد الجماعة. ولتكوين السوسيوجرام يمكن أن نرمز لكل عضو من أعضاء الجماعة برمز معين أو رقم ونضعة داخل دائرة صغيرة يخرج منها سهم معين الى الدوائر الأُخرى حسب اختيارات كل فرد. وجدير بالذكر ليست هناك طريقة محددة لرسم السوسيوجرام، فيمكن استخدام مثلثات أو مربعات بدلاً من الدوائر لنرمز بها لكل فرد فى الجماعة، وقد يكتب اسم العضو داخل الدائرة وقد يرمز له بحرف أو رقم معين. ويرمز للإختيار بخط يصل بين الدائرتين، ويرمز لإتجاه الاختيار بسهم فى نهاية كل خط، امام الاختيار المتبادل فيرمز له بسهم ذى رأسين. ولكى نوضح كيفية رسم خريطة العلاقات الاجتماعية "السوسيوجرام" نأخذ المثال التالى:ــ

"طلب من احدى عشر فرداً فى جماعة صغيرة أن يختاروا الذين يفضلون الخروج معهم فى رحلة ترفيهية. بحيث يختار كل فرد عضو واحد فقط. وتم تفريغ نتيجة الاختيار كما هو موضح فى الشكل التالى:ــ

ويمكن تحديد أنواع العلاقات الاجتماعية التى كشف عنها السوسيوجرام فيما يلى:ـ

١ـ علاقات مركزية: وتبدو فى إختيار بعض أفراد الجماعة "لسيف" فكان موضع اختيار كل من (محمد) و (عمرو) و (ايهاب) و(مصطفى)، ومن ثم فسيف يعتبر "نجم" هذه الجماعة لأنه حصل على أكبر عدد من الاختيارات.

٢ـ علاقات تتابعيه: والمقصود بها تتابع العلاقة من فرد الى آخر فى عمليات الاختيار، كما هو الحال فى علاقة "محمد" "بسيف"، و"سيف" "بخالد"، و"خالد" "بعمرو"، و"عمرو" و"سيف" وتفيد تتابع هذه العلاقة على انتشار المعلومات او الشائعات وسرعة انتقالها لأن "محمد" سوف ينتقل الى "سيف" و"سيف" الى "خالد"، و"خالد" الى "عمرو"...وهكذا.

٣ـ علاقة متبادلة: وتظهر هذه العلاقة فى تبادل الاختيار بين عضوين من أعضاء الجماعة، كما هو الحال فى علاقة "هشام" "بأحمد" فكل منهما قد اختار الآخر، وهذا النوع من العلاقات يضعف من بناء الجماعة ويؤدى الى عدم تماسكها الداخلي، ويقلل من التعاون العام بين أعضائها.

٤ـ علاقة دائرية: وهى العلاقة التى تبدأ بعضو معين داخل الجماعة وتمر ببعض الأعضاء الأخرين ثم تعود الى نفس العضو. كما هو الحال فى العلاقة بين "سيف" و"خالد" و"عمرو". حيث اختار "سيف" "خالد". واختار "خالد" "عمرو" واختار "عمرو" "سيف". ومثل هذه العلاقات على العكس من العلاقات المتبادلة، فهى تقوى من بناء الجماعة وتعمل على تماسكها، وتزيد من عملية التعاون بين أعضائها.

٥ـ علاقات منفردة: وهى علاقة من طرف واحد، وتظهر حينما يفشل الفرد فى اجتذاب أى عضو من الأعضاء الأخرين نحوه، فهو يختار أفراد من جماعته، فى نفس الوقت الذى يتجاهله كل الأعضاء. وتظهر هذه العلاقة فى حالة كل من "إيهاب" و"مصطفى" و"عاطف" و"أشرف" و"ابراهيم".

ويفضل بعض الباحثين رسم خريطة العلاقات الاجتماعية "السوسيوجرام" بكل اختيار على حدة، اى للاجابة على سؤال واحد فقط، بينما يفضل البعض الآخر رسم أكثر من علاقة على نفس الخريطة بحيث يرمز لأسهم العلاقات الموجبه باللون الأحمر مثلاً، والعلاقات السالبه باللون الأسود، أو استخدام الأسهم العادية للاشاره الى العلاقات الموجبة، والأسهم المتقطعة للعلاقات السالبة. كما هو موضح فى الرسم التالى:

ومن مزايا "السوسيوجرام" سهولة فهمه وبساطته هذا من ناحية، وتلقائية التعبير عن العلاقات الاجتماعية بين أفراد الجماعة من ناحية أخرى. ومن ثم يفيد استخدامه في المراحل الأولى لدراسة المجتمع المحلي[1]، لما يقدمة للباحث من صورة أوليه عن طبيعة هذا المجتمع وأنماط التفاعل السائدة فيه، وسرعة التعرف على القادة والأفراد الأكثر مشاركة في حياة الجماعة، والأفراد الأقل مشاركة، والأفراد المعزولين اجتماعياً. ويفيد "السوسيوجرام" أيضاً في التعرف على "الزمر" أو الشلل" الصغيرة داخل بناء الجماعة. ومن عيوب هذه الطريقة عدم التأكد من أن أفراد الجماعة على درجة من الوعي والأمانة في الافصاح عن مشاعرهم بصدق تجاه الأخرين[2]، وقد يتلافى الباحث هذا العيب بتأكيد سرية الاختيارات لدى كافة أعضاء الجماعة. وثمة عيب آخر هو صعوبة رسم خريطة العلاقات الاجتماعية للجماعة موضوع الدراسة في حالة تعدد الاختيارات، هذا فضلاً عن أن السوسيوجرام يقيس فقط شكل العلاقة الاجتماعية أو اتجاهها ولايفسر لنا كيف نشأت هذه العلاقة وكيف تطورت واسباب وجودها..ألخ.

٣- المصفوفة السوسيومترية: Sociometric Matrix

تعد المصفوفة السوسيومترية احدى الأدوات الهامة في القياس الاجتماعي. وتستخدم في قياس العلاقات الاجتماعية في جماعة ما، سواء كانت هذه العلاقة إيجابية

---

(١) محمد الجوهري، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٣٤٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤٤.

ويرمز لها (+١)، أو سلبية ويرمز لها (-١)، أو محايدة، ويرمز لها (صفر). فإذا كان لدينا مكونه من ثمانية أعضاء، وطلب اليهم تحديد لإختياراتهم الايجابية أو السلبية أو المحايدة بالنسبة لكل عضو، او بمعنى آخر أن يحدد كل عضو موقفة من الأعضاء الآخرين، فإننا سوف نحصل على المصفوفة السوسيومترية التالية:ـــ

أعضاء الجماعة	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	المجموع
١		-١	+١	-١	+١	-١	+١	+١	+١
٢	+١		-١	-١	+١	-١	-١	+١	-١
٣	+١	-١		+١	+١	-١	+١	-١	+١
٤	+١	+١	-١		+١	+١	صفر	+١	+٤
٥	-١	+١	+١	+١		+١	صفر	-١	+٢
٦	صفر	+١	+١	+١	صفر		-١	+١	+٣
٧	-١	-١	صفر	+١	-١	+١		+١	صفر
٨	صفر	صفر	+١	-١	+١	+١	صفر		+٢
المجموع	+١	صفر	+٢	+١	+٤	+١	صفر	+٣	١٢

"المصفوفة السوسيومترية"

تشير السطور الراسية الى اختيارات الفرد الواحد لباقى أفراد جماعته، أو بمعنى آخر وجهة نظر الفرد لعلاقته بباقى أفراد الجماعة سواء بالايجاب أو السلب أو المحايدة (التجاهل). فعلى سبيل المثال أن الفرد رقم (٢) والفرد رقم (٧) تتساوى مجموع اختياراتهم الايجابية مع مجموع اختياراتهم السلبية، بينما يحظى الفرد رقم (٥) على أكبر نسبة من الاختيارات أو العلاقات الايجابية مع أربعة من أعضاء الجماعة قام باختيارهم هو نفسه.

بينما تشير السطور الأفقية الى مجموع الاختيارات التى تلقاها الفرد من باقى أعضاء جماعة سواء بالايجاب أو السلب أو المحايدة. ونلاحظ أن الفرد رقم (٤) قد حصل على مجموع (+٤) اختيارات إيجابية، فهو بمثابة "النجم" بالنسبة لباقى أعضاء جماعته، بينما حصل الفرد رقم (٢) على مجموع (-١)، وعلى الرغم من ثلاثة من أعضاء الجماعة قد أختاروه بشكل إيجابى الا أنه تلقى أربعة اختيارات سلبية من باقى أعضاء الجماعة، فهو فى النهاية (منبوذ) من غالبية أعضاء الجماعة، اما الفرد رقم (٧) فقد تلقى ثلاثة اختيارات بالايجاب وثلاثة اختيارات بالسلب وتجاهل من قبل العضو رقم (٣)

وكانت حصيلة اختياراته من قبل أعضاء جماعته (صفر)، وجدير بالذكر أن هذه النتيجة هى نفس نتيجة اختيار هذا العضو لباقى أعضاء جماعته.

٥ــ ثبات وصدق المقاييس السوسيومترية:

تختلف الاختبارات أو المقاييس بإختلاف الصفات أو الخصائص التى يسعى لقياسها، فكل صفة أو مجموعة من الصفات المتجانسة مقياس يصلح أكثر من غيره لقياسها، فالمقياس الذى يصلح لقياس التفاعل الاجتماعى بين جماعات اللعب لايصلح مثلاً لقياس بناء السلطة فى الوحدات العسكرية، والمقياس الذى يصلح لقياس القدرة على السمع لا يصلح لقياس الوزن أو الطول او الذكاء ..ألخ. ومن ثم أكد المشتغلون بالبحث الاجتماعى على أهمية ثبات وصدق المقاييس أو الاختبارات المستخدمة فى إجراء البحوث الاجتماعية لضمان الوصول الى نتائج تعبر بشكل دقيق عن الواقع المدروس.

أ ــ ثبات المقاييس السوسيومترية:

المقصود بثبات المقياس هو المطابقة التامة بين نتائج المقياس فى المرات المتعددة التى يطبق فيها على نفس الأفراد. ويمكن تحديد أهم الأساليب الإحصائية كقياس الثبات على النحو التالى[١]:ــ

١ــ طريقة اعادة الاختبار: Test Retest

تتسم هذه الطريقة بالبساطة والسهولة حيث تقوم على فكرة اعادة نفس الاختبار على نفس عينة البحث مرة أخرى بعد فترة زمنية يحددها الباحث. ويحسب معامل إرتباط درجات المرة الأولى، ومعامل ارتباط درجات المرة الثانية والمقارنة بينهما للحصول على معامل ثبات الاختبار. ويعترض بعض الباحثين على مدى جدوى هذه الطريقة فى التأكد من ثبات الاختبار لتأثرها بالفاصل الزمنى بين اجراء الاختبار الأول والثانى، فقد تختلف ظروف اجراء الاختبار فى الموقفين مما يؤثر حتماً على تباين النتائج.

٢ــ طريقة التجزئة النصفية: Split - Half

فى هذه الطريقة يقوم الباحث بتقسيم الاختبار (المقياس) بعد تطبيقه الى نصفين وحساب معامل ارتباط كل نصف على حدة ثم الحصول بعد ذلك على معامل ثبات الاختبار ككل من خلال المعادلات الاحصائية المناسبة لذلك.

---

(١) فؤاد البهى السيد، علم النفس الاحصائى، دار الفكر العربى، غير مبين سنة النشر، ص ٤٢٤.

فعلى سبيل المثال إذا كان الاختبار مكون من عشر أسئلة فيمكن اعتبار النصف الأول من الاختبار الأسئلة من رقم (١) الى (٥)، والنصف الثانى الأسئلة من رقم (٦) الى (١٠). وهناك أسلوب آخر لقسمة الاختبار بحيث يتكون النصف الأول من الأسئلة ذات الأرقام الفردية (١،٣،٥،٧،٩) والنصف الثانى الأسئلة الزوجية (١٠،٨،٦،٤،٢).

٣ـ طريقة الاختبارات المتكافئة: Equal Tests

تعتمد هذه الطريقة على تكوين صورتين متكافئتين ومتماثلتين تماماً للاختبار، وتطبيقهما فى نفس الوقت على نفس الأفراد، ثم حساب معامل ارتباط الصورة الأولى من الاختبار ومقارنتها بمعامل ارتباط الصورة الثانية، ويدل معامل ثبات الصورتين المتماثلتين على معامل ثبات الاختبار.

ولقد أكد كثير من المشتغلين بالبحث الاجتماعى على عدم أهمية ثبات الاختبار السوسيومترى، فمن المفترض أن الاختبار السوسيومترى يعكس التغير الذى يحدث فى بناء الجماعة، وايضاً فى شبكة العلاقات بين أفرادها بعد فترة من الزمن، ومن ثم فإذا أعطى الاختبار السوسيومترى نفس النتائج بعد فترة من الزمن، فإن ذلك سوف يثير الشك فى الاختبار ولا يعتبر دليلاً على ثباته[1]. ولذلك فهناك صعوبة للتأكد من ثبات الاختبار السوسيومترى، هذا فضلاً عن اختلاف صور الثبات، فالتغير فى بناء الجماعة أو طبيعة العلاقات بين أعضائها سوف يزيد من صعوبة التأكد من ثبات الاختبار.

ب ـ صدق الاختبار السوسيومترى:

إذا كان المقصود بالثبات هو ثبات المعلومات أو البيانات أو الآراء أو المواقف والاتجاهات التى يظهرها المبحوثين تجاه الأخرين، فالصدق يعنى صدق الاختبار فيما وضع لقياسه، أو بمعنى أخر أن الصدق يعنى صدق أسئلة الاختبار من حيث صياغتها ومحتواها وطريقة تطبيقها على المبحوثين لتحقيق الهدف من الاختبار. ويرى كثير من الباحثين أن صدق نتائج الاختبار تعتمد فى جزء كبير منها على الصيغة التى يصاغ بها الاختبار وعلى الطريقة التى ينفذ بها..ألخ[2].

---

(١) زيدان عبدالباقى، قواعد البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٤٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٩٩.

ومن الضروري عند اعداد المقياس السوسيومترى التأكد من صدقه وصحته، وأن المقياس سوف يحقق الهدف الذى وضع من احله أى قياس ما يجب قياسه. فعلى سبيل المثال إذا كنا بصدد قياس أطوال معينة فإنه يتعين علينا قياس هذه الأطوال بأطوال أخرى متعارف عليها "كالمتر"، أما إذا استخدمنا "الكيلو جرام" فى قياس الأطوال فسوف نكون غير صادقين فيما نقيس.

ولقد حدد "جيننجز" بعض الشروط التى ينبغى على أخصائى الاختبار السوسيومترى مراعاتها لضمان صدق بيانات الاختبار وهى[1]:ـ

١ـ صياغة كلمات وعبارات الأسئلة بدقة وسهولة بحيث تتاح للمبحوثين الفرصة لفهم الاختبار.

٢ـ اتاحة الوقت الكافى للإجابة على الاختبار.

٣ـ تحديد مسار السؤال للمبحوثين لكى يحدد المبحوث موقفه مقدماً للاتجاه الذى يسير فيه الاختبار.

٤ـ تقديم الموقف الذى يدور حوله الاختبار بشئ من الاهتمام والحماس.

٥ـ ضرورة استيعاب الباحث الذى يستخدم الاختبارات السوسيومترية لجميع اجراءات الاختبارات لمواجهة المفاجآت بأسرع ما يمكن.

وبصفة عامة أن مراعاة الباحثين لهذه الشروط عند تصميم الاختبارات السوسيومترية سوف يساعدهم على الوصول الى اختبارات على درجة عالية من الصدق وتحقيق الهدف الذى وضعت من أجله أى قياس ما يجب قياسه.

٦ ـ تقييم القياس الاجتماعي:

لاجدال فى أن الأساليب السوسيومترية المختلفة تعد احدى الطرق الهامة فى دراسة العلاقات الاجتماعية (الشخصية) بين أفراد الجماعات المختلفة، معتمدة فى ذلك على التفاعل التلقائى بين أفراد الجماعة. ويمكن الاشارة باقتضاب الى أهم مميزات وعيوب السوسيومترية على النحو التالى:ـ

أ ـ إيجابيات السوسيومترى:

١ـ سهولة فهم الاختبارات السوسيومترية، وسهولة تطبيقها وتحليل بياناتها، فهى لا تحتاج الى معرفة أكاديمية متخصصة من قبل القائمين على تطبيقها.

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٠٠.

٢ـ تستخدم الأساليب السوسيومترية فى قياس العلاقات الاجتماعية الشخصية بين أفراد الجماعة بشكل تلقائى واقعى، ومن ثم فهذه الأساليب تفيد فى اعطاء صورة واضحة عن نمط التفاعل الاجتماعى بين أعضاء الجماعة.

٣ـ يفيد السوسيوجرام في بعض المسائل التى تتعلق ببناء الجماعة واستمراريتها كالتعرف على طبيعة القيادة داخل الجماعة، والروح المعنوية، والكشف عن الزمر أو "الشلل" أو التكتلات داخل بناء الجماعة، هذا فضلاً عن تحديد الأفراد الذين يحظون بمكانة اجتماعية مرتفعة، والأفراد المشاركين اجتماعياً، والأفراد غير المشاركين..ألخ.

ب ـ سلبيات السوسيومترى:

١ـ تعتمد الأساليب السوسيومترية على مبدأ تلقائية العلاقات الاجتماعية وفى هذه النظرة تبسيط متزايد فى تصور العوامل المؤثرة فى السلوك الاجتماعى، فالسلوك الاجتماعى بلا شك يتاثر بعدد كبير من العوامل المتداخله مع بعضها البعض، وليست التلقائية سوى عامل واحد فقط.

٢ـ لاتخلو السوسيومترية كنسق من الأفكار تأثيرها الواضح بالأيديولوجية الأمريكية، ليس ذلك وحسب، فلقد قرر "مورينو" الى انها تتناسب تماماً مع طبيعة المجتمع الأمريكى الذى يتيح الحرية والتلقائية. فى تكوين الجماعات المختلفة.

٣ـ ان احتمالات التحيز فى الأساليب السوسيومترية من القضايا التى يصعب تحديدها بدقة، ومن ثم يواجه الباحثون بصعوبة عدم التأكد من أن المبحوثين على درجة من الوعى والأمانه فى الاعلان عن اختياراتهم بصدق تجاه أعضاء الجماعة الأخرين.

الفصل العاشر

إستمـــارة البحث

تمهيد:

١- تعريف الاستمارة وأهميتها:

٢- أنــــــواع الإستمـــارات:

أ- استمارة البحث

ب- الإســـــتبيان

٣- مجــــــــالات استخدام الاستمارة.

٤- الإجراءات المنهجية لبناء الاستمارة.

٥- ثبـــــات وصــــــدق الاستمارة.

٦- تقــــــــــييم الإستمــــــارة:

أ- مزايا الإستمـــارة.

ب- عيوب الاستمارة.

تمهيد:

لاشك تُعد إستمارات البحث بأنواعها المختلفة من أهم أدوات البحث فى العلوم الاجتماعية وأكثرها ريوعاً وإنتشاراً، لما تمتاز به هذه الأدوات عن غيرها من الأدوات الأخرى من جمع البيانات تتسم بالشمول والإتساع، فى مقابل إختصار الجهد والتكلفة وسهولة المعالجة الكمية وإستخدام الاساليب الإحصائية المختلفة.

ويستطيع المتفحص لما كتب عن إستمارات البحث فى كثير من المؤلفات العربية والأجنبية أن يلحظ بعض الخلط فى تحديد أنواع الإستمارت، كإستمارة البحث ، أو الإستبيان، أو دايل الملاحظة، أو دليل المقابلة. ويمكن القول أن القاسم المشترك من هذه الأنواع المختلفة هو وجود " الإستمارة " تحتوى على مجموعة من الأسئلة التى تدور حول موضوع معين. إلا أن قد تعارف لدى الكثيرين من المشتغلين بمناهج البحث التفرقة بين نوعين من الإستمارات الأولى: إستمارة البحث من خلال المقابلة، Interviwing Schedule، تلك الإستمارة التى يقوم الباحث بتوجيه اسئلتها للمبحوثين فى موقف مقابلة. أما الإستبيان Questionnaire فهو تلك الإستمارة التى ترسل إلى المبحوث بطريقة أو بأخرى ويقوم بإستيفائها بنفسه وإرسالها إلى هيئة البحث " كالإستبيان البريدى" و"الإستبيان" هو وجود الباحث أو عدم وجوده فى موقف مواجهه مع المبحوث. أما فيما يختص بدليل المقابلة Interviw Guide أو " دليل الملاحظة " Observation فهما عبارة أيضاً عن إستمارات تشتمل على أسئلة أو نقاط معينة ينبغى على القائم بالمقابلة أو الملاحظة أن يغطيها مع المبحوث خلال موقف المقابلة، أو موقف الملاحظة.

وبصفة عامة إن عملية إعداد إستمارات البحث فى العلوم الاجتماعية تخضع لعدة إجراءات منهجية متتابعة بدء من التفكير فى أسئلة البحث ومضومونها وصياغتها وإختبارها والتحقق من صلاحيتها. وسوف أتناول فى هذا الفصل تعريف الإستمارة وأنواعها المختلفة، ومجالات إستخدامها، والإجراءات المنهجية المتبعة فى بنائها، وكيفية التحقق من معامل الثبات والصدق، وأخيراً المزايا والعيوب.

أولاً: تعريف الإستمارة وخصائصها:

ليس هناك خلاف حول تعريف إستمارات البحث Questionnaires فهى من وجهة نظرنا عبارة عن " وعاء يضم مجموعة من الأسئلة بهدف الحصول على معلومات تدور حول موضوع أو موقف أو مشكلة معينة "

أما إذا شئنا التخصيص، فيمكن تعريف "إستمارة البحث " عن طريق المقابلة الشخصية Interviwing Shedule بأنها " وعاء يضم مجموعة من الأسئلة الموجهة إلى أفراد بهدف الحصول على معلومات حول موضوع أو موقف أو مشكلة معينة من خلال موقف مواجهة يجمع بين باحث ومبحوث فى آن واحد "

أما الإستبيان Questionnaire فهو عبارة عن " نموذج يضم مجموعة من الأسئلة التى تدور حول موضوع ما يتم إرساله إلى المبحوثين بطريقة أو بأخرى ليجيبوا على هذه الاسئلة ثم إعادته ثانياً إلى الهيئة المشرفة على البحث، ويتم ذلك دون مساعدة الباحث للمبحوثين فى فهم الأسئلة أو تدوين الإجابة عليها[١]. وهناك تعريف أخر للإستبيان فهو " عدد من الأسئلة المحددة يرسل عادة بالبريد إلى عينة من الأفراد ويطلب منهم الإجابة عنها كتابة، فلا يتطلب الأمر شرحاً شفهياً مباشراً أو تفسيراً من الباحث " [٢]. وهناك تعريف ثالث للإستبيان بأنه " وسيلة من وسائل جمع البيانات، وتعتمد أساساً على إستمارة تتكون من مجموعة من الاسئلة ترسل بواسطة البريد أو تسلم إلى الأشخاص الذين تم إختيارهم لموضوع الدراسة ليقوموا بتسجيل إجاباتهم على الأسئلة الواردة به وإعادته ثانية، ويتم ذلك بدون مساعدة الباحث للأفراد سواء فى فهم الأسئلة أو تسجيل الإجابات عليها "[٣].

ويفرق "جود" W.Good و" هات" P.Hatt بين ثلاثة نماذج من الإستمارات وهى[٤]:

١- "الإستبيان" Questionnaire، وهو عبارة عن أداة تحتوى على مجموعة

---

(١) جمال زكى والسيد يس، أسس البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص٢٠٥.

(٢) إبراهيم أبو لغد ولويس كامل مليكة، البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص٨٨.

(٣) جمال زكى والسيد يس، أسس البحث الاجتماعى، مرجع سابق، صص ٢٠٤- ٢٠٥.

(1) Willan j. G ood & Paul K. Hatt, Methods in Social Resrarch, New York : Mc Graw- Hill Book co. Inc., 1952, p.133.

من الأسئلة بهدف الحصول على أجوبة لها يقوم المبحوث بالإجابة عليها بنفسه دون مساعدة الباحث.

٢- " إستمارة البحث" Schedule، فهى عبارة عن مجموعة من الاسئلة التى توجه إلى المبحوثين فى موقف مقابلة شخصية مباشرة مع القائم بالمقابلة.

٣- "دليل المقابلة" Interview Guied، فهو عبارة عن مجموعة من النقاط أو الموضوعات التى يجب على القائم بالمقابلة أن يحصل على إجابة عليها من خلال مقابلته للمبوحث، ويعد " دليل المقابلة" من الناحية المنهجية أكثر مرونة من الشكلين السابقين من حيث الاسلوب وترتيب الأسئلة واللهجة التى يمكن للمقابل أن يوجه بها اسئلته للمبحوثين اثناء موقف المقابلة ".

وبصفة عامة، أن هذه التعريفات ليس بينها خلاف كبير حول طبيعة " الإستمارات " سواء كانت إستمارة البحث التى يتطلب ملؤها من خلال الباحث نفسه، أو الإستبيان الذى يقوم المبحوث نفسه بالإجابة على أسئلته وإرسالها للباحث، أو دليل المقابلة الذى يوجه الباحث نحو الموضوعات التى تفيد البحث اثناء المقابلة.

أما فيما يختص بأهمية "إستمارة البحث" و"الإستبيان"، فهما وسيلتان لا غنى عنهما فى البحث الاجتماعى خاصة فى دراسة بعض الموضوعات التى لا يمكن دراستها من خلال بعض الوسائل الأخرى كالملاحظة مثلاً فهى قاصره عن إعطائنا معلومات تتصل بمدى إدراك الأفراد للمواقف التى يتعرضون لها، أو إتجاهاتهم وعقائدهم وآرائهم نحو موضوعات معينة، أو مشاعرهم أو دوافعهم نحو سلوك معين، بينما تفيد إستمارة البحث أو الإستبيان فى الحصول على مثل هذه المعلومات.

ثانياً: أنواع الإستمارات:

لاجدل فى أن مصطلح " الإستمارة" مصطلح عام يستخدم للإشارة إلى " الإستبيان " فنقول " إستمارة إستبيان " Questionnaire، ويستخدم للإشارة إلى كشف البحث فنقول " إستمارة البحث " Schedule ويستخدم أيضاً للإشارة " دليل المقابلة " فنقول مقابلة أو " دليل مقابلة "Interview Guied .

ومن وجهة نظرنا يمكن التمييز بين نوعين أساسيين من الإستمارات الأول يعرف بإسم " إستمارة البحث ".والثانى يعرف بإسم " الإستبيان ".

(أ) إستمارة البحث Schedule.

تعد إستمارة البحث أكثر أدوات جمع البيانات شهرة وإنتشاراً فى العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة. وتفيد " إستمارة البحث " تقريباً فى كافة البحوث الاجتماعية، فهى تستخدم فى البحوث الكشفية لجمع أكبر قدر من المعلومات عن الظاهرة موضوع الدراسة، وتستخدم أيضاً بكفاءة أكثر فى البحوث الوصفية لتقرير ما توجد عليه الظاهرة فى الواقع، كما تستخدم أيضاً فى البحوث التجريبية أو البحوث التى تختبر فروضاً سببية والبحوث التقويمية وبحوث المشروعات وغيرها. ويمكن القول أن إستمارة البحث تستخدم عادة فى البحوث التى تتطلب جمع بيانات كثيرة عن الظاهرة أو المشكلة موضوع البحث. وسوف أتناول الإجراءات المنهجية لبناء الإستمارة وإعدادها للبحث فى مكان لاحق من هذا الفصل.

(ب) الإستبيان Questionnaire.

كما هو معروف أن " الإستبيان " ترجمة للكلمة الإنجليزية Questionnaire ، ولهذه الكلمة نظائرها فى اللغة العربية فهى تترجم احياناً " إستقصاء " واحياناً أخرى " إستفتاء "، وهذه المعانى تشير إلى وسيلة واحدة لجمع البيانات تعتمد على على عدد من الاسئلة المعدة بشكل مبسط ومتسلسل ترسل للمبحوثين أما عن طريق البريد أو تسلم باليد، أو تنشر على صفحات الجرائد، والمجلات، أو على شاشة التلفزيون أو عن طريق الإذاعة، أو التليفون، ليجيب عليها المبحوثين ويقوموا بإرسالها إلى الباحث أو الهيئة المشرفة على البحث[1]. ويتخذ الإستبيان عدة أنواع وهى:

١ - الإستبيان البريدى: Mailed Questionnaire.

وهو ذلك النوع من إستمارات البحث التى ترسل للمبحوثين عن طريق البريد ثم يقوموا بالإجابة عليها وإرسالها ثانية إلى الباحث أو الهيئة المشرفة على البحث. ويراعى فى هذا النوع من الإستبيان أن تكون أسئلته واضحة وبسيطة ولا تعنى أكثر من معنى واحد محدد، وبلغة المبحوث التى يفهمها جيداً، وألا تكون كثيرة العدد حتى لا تسبب ملل للمبحوث.

وينبغى على الباحث الذى يستخدم الإستبيان البريدى أن يضاعف

(١) عبد الباسط حسن، أصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص٤٤١.

حجم عينة البحث، لأن من المعروف أن نسبة الفاقد من هذا الإستبيان قد تصل إلى أكثر من ٥٠% . كما ينبغى أن يرفق مع الإستبيان مظروف مكتوب عليه عنوان الباحث أو الهيئة المشرفة على البحث وملصق عليه طابع البريد حتى ييسر على االمبحوثين إرسال الإستبيان. ويطلق على الإستبيان الذى ينشر على صفحات الجرائد أو المجلات وشاشات التلفزيون ايضاً إسم الإستبيان البريدى.

٢- الإستبيان غير البريدى: Non Mailed Questionnaire.

الإستبيان غبر البريدى هو ذلك الإستبيان الذى يقوم الباحث أو أحد معاونية بتوزيعه على المبحوثين ثم جمعه منهم بعد إستيفائه. و يتفق الإستبيان البريدى وغير البريدى فى خاصية واحدة وهى أن المبحوث نفسه هو الذى يقوم بالإجابة على أسئلته دون مساعدة من الباحث. ويستخدم هذا النوع من الإستبيان فى الحالات التى يمكن جمع المبحوثين فى مكان واحد كالطلبة فى المدارس والجامعات والعمال فى المصانع والموظفين فى المكاتب أو أى جماعة من الأفراد مجتمعين فى مكان معين لغرض من الأغراض.

٣- الإستبيان التليفزيونى:

وهو الإستبيان الذى تتم الإجابة على أسئلته من خلال الحديث التليفزيونى بين الباحث والمبحوث. وعلى الرغم من سهولة هذا النوع من الإستبيان وقلة تكاليفه، إلا أنه لايصلح للتطبيق إلا للفئات التى يتوفر لديها هذه الوسيلة فى الإتصال.

وهناك تصنيفات أخرى للإستبيان ولكنها أقل عمومية، وتتداخل مع التصنيف السابق، فعلى سبيل[1]:

١- يصنف الإستبيان من حيث درجة التقنين إلى:

أ- إستبيان مقنن Standardized وهو التى تعرض أسئلته على المبحوثين بنفس الصياغة ونفس الترتيب.

ب- إستبيان أقل تقنينا Less Standardized وهو التى تترك الحرية للمبحوث لكى يجيب بعبارات ومفردات لغته.

٢- ويصنف الإستبيان من حيث طريقة التطبيق إلى:

أ- الإستبيان المدار ذاتياً من قبل المبحوث، كالإستببيان البريدى.

---

(١) عبد الباسط عبد المعطى، البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص٣٧٣.

ب- الإستبيان المدار ذاتياً من قبل الباحث، وهو ذلك الإستبيان الذى يطبق خلال موقف مقابلة شخصية بين الباحث والمبحوث.

٣- ويصنف الإستبيان من حيث عدد المبحوثين إلى:

أ- الإستبيان الفردى وهو الذى يعطى للمبحوثين للإجابة عليه بمفرده.

ب- الإستبيان الجماعى وهو الإستبيان الذى يعطى للأفراد مجتمعين.

على أية حال هذه التصنيفات التى أشرنا إليها جميعاً ليست مستقلة بعضها عن البعض الأخر، ولكن بينها تداخل وتشابك كبير.

ثالثاً: مجالات إستخدام الإستمارة:

كما أشرنا من قبل أن " الإستمارة يمكن إستخدامها تقريباً فى كافة البحوث الاجتماعية، ومن ثم فهناك تعدد واضح فى مجالات إستخدامها، وسوف أشير إلى أبرز هذه المجالات على النحو التالى:

١- مجال المسوح الاجتماعية العامة Public Social Survey.

وهى تلك المسوح التى تتناول جوانب عديدة من الحياة الاجتماعية فى مواقف إجتماعية مختلفة، سواء كانت هذه المسوح على مستوى المجتمع المحلى (قرية أو مدينة) أو على مستوى المجتمع المحلى ككل. فعلى سبيل المثال قد يشمل المسح العام على مستوى مدينة ما النشاط التعليمى، والخدمات الصحية، والظروف المعيشية، والأحوال السكنية، وأنماط الجرائم، والمشكلات الاجتماعية، ومظاهر الصراع الطبقى أو العنصرى أو الطائفى، وأنواع العلاقات الاجتماعية السائدة، والنشاط السياسى والدينى والثقافى والترويحى والرياضى، ومستوى الخدمات العامة، وأحوال العمال وظروفهم الإقتصادية والاجتماعية ...... إلخ. ولاشك أن " إستمارة البحث " تعد أفضل وسيلة يمكن إستخدامها للحصول على بيانات عن الجوانب الاجتماعية السابقة ذكرها.

٢- المسوح الاجتماعية المتخصصة Specialized Social Survey.

وهذه المسوح هى التى تهتم بدراسة جانب أو قطاع واحد من الحياة الاجتماعية فى مجتمع معين، مثل قطاع التعليم أو الصحة أو العمل أو البطالة، أو الجريمة أو غير ذلك. وتفيد إستمارة البحث كأداة أساسية فى دراسة مثل هذه الموضوعات.

٣- بحوث الرأى العام Public Opinion.

تعد الإستمارة من أهم الأدوات التى تستخدم فى قياس الرأى العام

نحو موضوعات محددة، وتستخدم ايضاً فى بحوث الإتجاهات وذلك لسهولة إستخدامها على قطاعاً كبيراً من أفراد المجتمع.

رابعاً: الإجراءات المنهجية لبناء الإستمارة:

لاشك أن الإجراءات المنهجية التى ينبغى إتباعها فى بناء الإستمارة لا تختلف كثيراً عن الإجراءات المنهجية المتبعه فى أدوات البحث الإجتماعى بصفة عامة من حيث تحديد المشكلة والهدف من بحثها، وتحديد نوعية البيانات المطلوبة، وتحديد مجتمع أو عينة الدراسة وغيرها. إلا أن محتوى الأداة سوف تختلف بالطبع من أداة إلى أخرى. وبصفة عامة هناك عدة خطوات ينبغى إتباعها عند تصميم الإستمارة لضمان فاعليتها فى تحقيق الهدف الذى صممت من أجله وهى:

١- تحديد مشكلة البحث:

قبل البدء فى الصياغة المبدئية للاستمارة، ينبغى أولاً تحديد مشكلة البحث تحديداً دقيقاً، وتقسيم هذه المشكلة إلى موضوعات فرعية، وتقسيم كل موضوع إلى عدة نقاط لكى يسهل بعد ذلك صياغة اسئلة تغطى كل هذه النقاط الفرعية.

٢- تحديد نوعية المعلومات المطلوبة:

ينبغى على الباحث تحديد نوعية المعلومات اللازمة لكى يستطيع تحديد الاسئلة التى سوف تتضمن الإجابة عليها هده المعلومات، فهناك معلومات تتصل بالقيم والإتجاهات، وأخرى تتصل بأنماط السلوك والعلاقات المتبادلة، وكل نمط من هذه المعلومات يتطلب أسئلة من نوع معين.

٣- تحديد نوعية الأسئلة التى تشملها الإستمارة:

تتطلب عملية بناء الإستمارة تحديد نوعية الأسئلة من حيث درجة التعيين، فهناك أسئلة مقننة وأخرى أقل تقنيناً، وهناك الأسئلة المباشرة، والاسئلة الإسقاطية، والأسئلة المفتوحة والأسئلة المغلقة...... إلخ. ولاشك أن كل شكل من هذه الأشكال السابقة يفيد دون غيره بشكل أفضل فى الحصول على بيانات معينة. والباحث المتخصص هو الذى يستطيع أن يحدد شكل الأسئلة المطلوبة لموضوع بحثه، فهناك بحوث كثيرة يفضل فيها إستخدام الاسئلة المفتوحة التى يتاح فيها الفرصة للمبحوثين الحرية الكاملة للإجابة على هذه الأسئلة، وهناك بحوث أخرى يفضل فيها إستخدام الأسئلة المغلقة لكى تسهل على الباحثين عملية تحليل البيانات، فهى تمتاز بأنها أقل تكلفة وأقل جهد

بالمقارنة بالأسئلة المفتوحة. وجدير بالذكر أن هذه الاشكال المختلفة من الممكن إستخدامها فى إستمارة واحدة إذا إقتضت ظروف البحث ذلك.

٤- الصياغة المبدئية لأسئلة الإستمارة:

بعد ان يفرغ الباحث من تحديد نوعية المعلومات المطلوبة وشكل الأسئلة التى يمكن أن تتضمن هذه المعلومات، يبدأ فى الصياغة المبدئية لأسئلة الإستمارة، وترتيب هذه الاسئلة وفقاص للأسس التى حددها من قبل. وفى حالة الأسئلة المقفولة يقوم الباحث بتحديد المتغيرات (الإجابات) الممكنة لكل سؤال على حدة.

٥- إعداد الإستمارة فى صورتها المبدئية:

فى هذه المرحلة يقوم الباحث بإعداد الإستمارة فى صورتها المبدئية حيث يقوم بترقيم الأسئلة وترتيبها حسب البنود الاساسية لموضوع البحث، ثم دراسة محتوى كل سؤال وبيان مدى أهميته، ومراجعة الإستمارة من حيث الشكل والمحتوى والإجراءات الفنية فى صياغة الأسئلة، والتأكد من مدى ملائمة صياغة الاسئلة للإسلوب الذى يفهمه المبحوثون.

٦- عرض الإستمارة على المحكمين:

بعد أن يفرغ الباحث من إعداد الإستمارة فى صورتها المبدئية يقوم بعرضها على بعض المحكمين وهم خبراء فى البحث الاجتماعى للحكم على مدى صدق الإستمارة فى قياس الظاهرة أو مشكلة البحث التى صممت من اجلها. وبالطبع سوف يكون لهؤلاء المحكمين بعض الملاحظات على اسئلة الإستمارة ينبغى أن يأخذها الباحث موضع إعتبار ويقوم بتنفيذها ثم إعادة عرض الإستمارة مرة ثانية على نفس المحكمين للتأكد من صلاحيتها.

٧- الإختبار المبدئى للإستمارة:

فى هذه المرحلة يقوم الباحث بإختيار عينة صغيرة من مجتمع البحث (أو عينة البحث الأصلية) ويقوم بتطبيق الإستمارة عليها للتأكد من صياغة الأسئلة ووضوحها وحذف الأسئلة التى تثير إحراج المبحوثين والاسئلة التى يكون الإجابة عليها من كافة أفراد البحث " بنعم " أو " لا " لأنها سوف تكون فى عداد الاشياء المسلم بها بالنسبة لمجتمع البحث على الأقل.

٨- إجراء التعديلات اللازمة على الإستمارة وصياغتها فى شكلها الأخير:

بعد أن ينتهى الباحث من الإختبار المبدئى للإستمارة يقوم بإجراء التعديلات التى يراها ملائمة لطبيعة جمهور البحث وتفيد فى عملية جمع

البيانات اللازمة، وإعداد الإستمارة فى شكلها النهائى.

ويشير الدكتور غريب سيد أحمد إلى مجموعة من الشروط التى يجب توافرها فى بناء الإستمارة وهى[1]:

١- أن تكون الإستمارة قصيرة بقدر الإمكان.

٢- ألا تحتاج أسئلتها لإجابات مطولة.

٣- الصياغة بإسلوب سهل أو ألفاظ معروفة.

٤- ألا تشمل الأسئلة على وقائع شخصية.

٥- تدرج الأسئلة وتسلسلها.

٦- ألا يشتمل السؤال على أكثر من فكرة واحدة محددة.

٧- ألا توحى الاسئلة بإيجابات معينة.

خامساً: ثبات وصدق الإستمارة:

لايختلف ثبات وصدق الإستمارة كثيراً عن باقى أدوات البحث الاجتماعى، وما اشرت سابقاً أن الثبات يعنى ثبات المبحوثين فيما يدلون به من بيانات أو معلومات بعدْ إعادة سؤالهم مرة أخرى بعد فترة قليلة نسبياً مع ثبات المتغيرات والظروف المختلفة المحيطة بالمشكلة موضوع البحث أما صدق الإستمارة فالمقصود به هو كفاءة الإستمارة فى قياس ما صممت لقياسه أكثر من غيرها من أدوات البحث الأخرى، أو بمعنى آخر أن هذه الإستمارة صادقة فى قياس مشكلة البحث. ويتطلب التحقق من صدق الإستمارة توافر معيار خارجى أو مقياس آخر يقيس نفس مشكلة البحث، ثم نقوم بتطبيق المقياسين على مشكلة البحث، وإيجاد معامل الإرتباط (معامل الصدق) بين المقياسيين وجدير بالذكر أن هناك أشكال مختلفة من الصدق، كالصدق الظاهرى، والصدق التنبؤى، والصدق التلازمى، والصدق التجريبى، وصدق المضمون...... إلخ.

سادساً: تقييم الإستمارة:

(أ) مميزات الإستمارة:

لاشك أن الإستمارة تعد من أكثر أدوات البحث إنتشاراً نظراً لما تمتاز به من خصائص أهمها:

---

(١) غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص٣٢٦.

١- تعد الإستمارة أقل أدوات جمع البيانات تكلفة من حيث النفقات والجهد والوقت، فهى لا تحتاج فى جميع بياناتها إلى فريق من الباحثين كالمقابلة أو الملاحظة مثلاً.

٢- يمكن من خلالها الحصول على بيانات أو معلومات متنوعة من قطاع عريض من المجتمع.

٣- سهولة التعامل مع البيانات التي يتم جمعها من خلال الإستمارة كالتفريغ والجدولة والتحليل وإجراء المعالجات الإحصائية المناسبة.

٤- توفر إستمارة الإستبيان (البريدى) الفرصة للمبحوث للإجابة على الأسئلة فى الوقت الذى يتناسب وظروف التفكير بشكل دقيق فى الإجابة قبل تدوينها.

٥- لا يجد الباحث صعوبة فى تطبيق الشروط المنهجية الدقيقة فى عملية إعداد الغستمارة وتطبيقها وتفريغ البيانات وتحليلها بالمقارنة بالأدوات الأخرى.

(ب) عيوب الإستمارة:

على الرغم مما تمتاز به إستمارة البحث من خصائص عديدة إلا إنها أيضاً يكتنفها أوجه قصور أهمها:

١- فى حالة إستمارة الإستبيان (البريدى) إن العائد من هذه الإستمارات يقل فى كثير من الأحيان عن النصف، نظراً لأمتناع نسبة كبيرة من عينى البحث عن الرد، ويمكن التغاضى عن هذه السلبية بمضاعفة عدد إستمارات الإستبيان المرسلة إلى المبحوثين.

٢- قد تتاثر عملية جمع البيانات بإستخدام إستمارة البحث بنوع من التحيز سواء بالنسبة للباحثين أو المبحوثين.

٣- إذا كانت هناك بعض الصعوبات أو الاسئلة الغامضة فى الإستبيان البريدى، فليس هناك من يقوم بشرحها للمبحوث.

٤- يفضل بعض المبحوثين مناقشة أسئلة الإستبيان مع أقاربهم أو أصدقائهم وهذا بالطبع سوف يؤثر على رأى المبحوثين ويجعل إجاباتهم غير معبره عن أنفسهم.

٥- قد تحتاج بعض البحوث الاجتماعية إلى عدد كبير من الأسئلة وهذا يؤدى إلى ملل المبحوثين نظراً لطول وقت المقابلة.

الفصل الحادى عشر

الملاحظة

تمهيد:

١ـ تعريف الملاحظة وأهميتها.

٢ـ مجالات استخدام الملاحظة.

٣ـ أنواع الملاحظة:

أ ـ الملاحظة البسيطة:

ـ الملاحظة بدون مشاركة.

ـ الملاحظة بالمشاركة.

ب ـ الملاحظة المنظمة.

٤ـ الاجراءات المنهجية للملاحظة.

٥ـ ثبات وصدق الملاحظة.

٦ـ تقييم الملاحظة:

أ ـ مزايا الملاحظة.

ب ـ عيوب الملاحظة.

تمهيد:

لاجدال في أن الملاحظة Observation تعد وسيلة هامة من وسائل جمع البيانات في كافة مجالات العلوم المختلفة، فلا يقتصر استخدامها على علم دون الأخر، كما انها قد استخدمت في الماضي كما تستخدم في الحاضر بغض النظر عن تطور الأساليب التكنولوجية التي تعين عليها. فلقد استخدمها الانسان البدائي لنفس الغرض الذي استخدمها فيه الأنسان المتحضر من أجل التعرف على الظواهر الطبيعية والاجتماعية.

ويرجع الفضل الى علماء الأنثربولوجيا في العصر الحديث الى لفت أنظار الباحثين الاجتماعيين الى اهمية الملاحظة كوسيلةأساسية لجمع البيانات، حيث أعتمد الأنثربولوجيون على الملاحظة بالمشاركة في دراسة المجتمعات البدائية. ولقد أكد رواد علماء الاجتماع الأوائل على أهمية الملاحظة في البحث الاجتماعي، فلقد أشار "سان سيمون" S.Simon الى أن البحوث في أي ميدان من ميادين العلم لايمكن أن تتصف بالعلمية الا عندما تخضع للملاحظة الدقيقة. كما أكد "أوجست كونت" Conte على أن هدف علم الاجتماع الأساسي هو فهم المجتمع بكل مظاهرة المختلفة، لكن لايمكن أن يتحقق الفهم الدقيق الا من خلال المنهج العلمي، وتعد الملاحظة من أهم أسس هذا المنهج[1].

وجدير بالذكر أن الملاحظة العلمية وما تتميز به من خصائص تُعد أحد المصادر الأساسية للحصول على المعلومات أو البيانات، ولقد بالغ بعض الباحثين في اعتبارها منهجاً مستقلاً من مناهج البحث العلمي. وتستخدم الملاحظة في جميع مراحل البحث الاجتماعي فهي تفيد في مرحلة البحوث الكشفية لاستكشاف بعض الظواهر الاجتماعية، او الاستبصار بسلوك معين، كما تفيد أيضاً في مرحلة البحوث الوصفية كوصف سلوك الأطفال، او جماعات العمل أو انفعالات جمهور في تجمع معين كجمهور كرة القدم أو الندوات الشعبية مثلاً، ولاجدال في أهمية الملاحظة في البحوث التجريبية التي تعتمد اعتماداً أساسياً على الملاحظة.

وبصفة عامة سوف يدور هذا الفصل حول الملاحظة كأداة أساسية من أدوات البحث الاجتماعي مع التركيز على تعريف الملاحظة، وأهميتها،

---

(١) ليلى داود، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ١٩١.

وطبيعتها، وخصائصها، وأنواعها كالملاحظة البسيطة سواء بدون المشاركة أو بالمشاركة، والملاحظة المنظمة. ثم الاجراءات المنهجية للملاحظة، ومعامل الثبات والصدق، وأخيراً المزايا والعيوب.

١ــ تعريف الملاحظة وأهميتها:

هنالك العديد من التعريفات التى أشار اليها كثير من الباحثين عند تناولهم للملاحظة يمكن عرض بعضها فيما يلى:ــ

١ــ يعرف الدكتور "محمد طلعت عيسى" الملاحظة بأنها "الأداة الأولية لجمع المعلومات وهى النواة التى يمكن أن يعتمد عليها للوصول الى المعرفة العلمية، والملاحظة فى أبسط صورها هى النظر الى الأشياء وادراك الحالة التى هى عليها"[١].

٢ــ يعرف "كارتر جود" Carter V Good الملاحظة بأنها الأداة التى من خلالها نستطيع التحقق من سلوك الأفراد الظاهرى، عندما يعبرون عن أنفسهم فى مختلف مواقف الحياة اليومية[٢].

٣ــ يعرف الدكتور "محمود قاسم" الملاحظة "توجيه الباحث حواسه وعقله الى طائفة خاصة من الظواهر لكى يحاول الوقوف على صفاتها وخواصها سواء كانت هذه الصفات والخواص شديدة الظهور أم خفية يحتاج الوقوف عليها الى بعض الجهد. وحينئذ فليس من الممكن أن نقول بأن الملاحظة عملية حسية بحته تقوم فيها الحواس وحدها بتسجيل الظواهر التى يراد دراستها، ومعرفة القوانين التى تربط بينها، وذلك لأن العقل يقوم هو الأخر بنصيب كبير فى ادراك الصلات الخفيه التى توجد بين الظواهر، وهى الصلات التى تعجز الملاحظة الحسية عند ادراكها"[٣].

---

(١) محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعى: مبادئه ومناهجه، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٩.

(٢) Carter v.Good & Douglas E.Scates, Methods of Research, Newyork, Appleton - Century Crofts, Inc., 1954, p. 647.

(٣) محمود قاسم، المنطق الحديث ومناهج البحث، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٣٣.

٤ــ يعرف الدكتور "عبدالباسط عبدالمعطى" الملاحظة تعريفاً مبسطاً بقوله "الملاحظة عبارة عن معانية مباشرة لأشكال السلوك الذى ندرسه"(١).

٥ــ ويمكننا تعريف الملاحظة بأنها "المشاهدة الحسية والعقلية لوقائع محددة طبيعية أو اجتماعية بهدف الحصول على معلومات تفيد فى أغراض البحث العلمى".

أما فيما يتصل بأهمية الملاحظة، فلا أحد يستطيع أن ينكر دورها فى حياتنا اليومية العادية وفى فهم وادراك البيئة الطبيعية والاجتماعية المحيطة، هذا فضلاً عن استخدامها كوسيلة أساسية لجمع البيانات فى البحوث الطبيعية والاجتماعية. وكثيراً ما كانت الملاحظة الأصل فى الاكتشافات العلمية المبكرة والمعاصرة، فقد اكتشف "جليليو" قانون سقوط الأجسام عند ملاحظته ازدياد سرعة سقوط الجسم كلما أقترب من الأرض، وأكتشف "تورتشيلى" Toricelli نظرياته الخاصة بالضغط الجوى من خلال الملاحظة، وأكتشف "نيوتن" قانون الجاذبية الأرضية من خلال ملاحظته الشهيرة لسقوط "تفاحة" على الأرض ومن ثم فالملاحظات الحسية كانت دائماً ولاتزال نقطة البدء فى كثير من النظريات العلمية.

وتعد الملاحظة خطوة أساسية من خطوات المنهج العلمى وخطوة جوهرية من خطوات المنهج التجريبى الذى تستخدمه كافة العلوم، فمن المعروف أن المنهج التجريبى يبدأ "بالملاحظة"، ثم فرض الفروض، وأخيراً التحقق من صحة هذه الفروض من خلال التجريب ثم استخلاص النتائج والتعميم. وإذا كانت الملاحظة خطوة جوهرية فى العلوم الطبيعية فهى خطوة أساسية أيضاً، فى العلوم الاجتماعية خاصة فى الدراسات التى تستخدم المسح الاجتماعى، ودراسة الحالة، والمنهج التاريخى وغيرها.

ونستطيع أن نستخلص بعض الخصائص العامة للملاحظة من خلال العرض السابق على النحو التالى:ــ

١ــ أن الملاحظة Observation تعد وسيلة أساسية من وسائل جمع البيانات والمعلومات فى البحوث الطبيعية والاجتماعية.

---

(١) عبدالباسط عبدالمعطى، البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٣٢٧.

٢ـ أن الملاحظة ليست قاصرة فقط على المشتغلين بالبحث العلمي، ولكنها تستخدم لدى كل أفراد المجتمع في حياتهم اليومية العامة والخاصة.

٣ـ أن الملاحظة لاتقف فقط عند مجرد المعاينة الحسية المباشرة للأشياء أو الموضوعات أو المواقف المختلفة، بل هى عملية تجمع بين الادراك الحسى من ناحية والادراك العقلي من ناحية أخرى، فنحن لا نلاحظ فقط بحواسنا بل نُعمل العقل أيضاً في عملية الملاحظة من خلال التحليل والتفسير والتصنيف والربط بين الأشياء..ألخ.

٤ـ أن الملاحظة العلمية الدقيقة هى ملاحظة مقصودة ومنظمة ومخططة وليست مجرد ملاحظة عشوائية عرضية، ولكن هذا لايقلل من أهمية الملاحظات العشوائية التى تأتى بمحض الصدفة من اكتشاف حقائق علمية أو اجتماعية لم تكن معلومة من قبل.

٥ـ أن الملاحظة لاتقتصر فقط ـ كما تشير بعض التعريفات ـ على المعاينة المباشرة للأشياء، بمعنى أنها تركز فقط على الوقائع الأتية، ولكنها أيضاً تفيد في ملاحظة الوقائع الماضية بطريقة غير مباشرة ومن خلال ملاحظة بقايا تلك الوقائع وآثارها والوثائق المكتوبة عنها، وهذا النوع من الملاحظ لا يركز على الأحداث التاريخية ذاتها، وأنما يركز على الآثار والوثائق المتبقية عنها. فنحن نستطيع أن نلاحظ جوانب كثيرة من الحضارة الفرعونية من خلال الآثار المتنوعة الدالة عليها.

٦ـ تحتاج الملاحظة العلمية الدقيقة الي باحثين متخصصين ومدربين على موضوعات الملاحظة وعلى استعمال الأدوات الفنية التى تعينهم على دقة الملاحظات التى يقومون بها.

٢ـ مجالات استخدام الملاحظة:

لاشك تتنوع موضوعات ومجالات استخدام الملاحظة العلمية بتنوع مجالات العلوم الطبيعية والاجتماعية. فكل علم من العلوم يهدف من وراء استخدام الملاحظة الي ملاحظة جوانب أو موضوعات محددة تقع فى نطاق تخصصه. ويمكن الاشارة الي المجالات العامة للملاحظة فيما يلى:ـ

* **مجالات البحوث الطبيعية:**

تستخدم الملاحظة العلمية المنتظمة بشكل فعال في كافة البحوث المعملية (التجريبية)، هذا فضلاً عن أستخدامها فى ميادين عديدة من العلوم التجريبية كعلم الفلك، والكيمياء، والفيزياء، والجيولوجيا، وفى مجال البحوث الطبية وغيرها.

* **مجال البحوث الاجتماعية:**

تستخدم الملاحظة في العديد من العلوم الاجتماعية لدراسة موضوعات شتي مثل:ـ

أ ـ التفاعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية:

يستخدم علماء الاجتماع الملاحظة في دراسة التفاعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية سواء داخل الجماعات الصغيرة كالأسرة أو جماعة العمل، أو الجماعات الكبيرة كالمجتمع المحلى. حيث يتم التركيز على دراسة أنماط التفاعل كما يحدث فى المواقف الطبيعية، مثل التفاعل فى الحياة الأسرية، أو فى مواقع العمل المختلفة. ويستخدم علماء الأثنوجرافيا وعلماء الأنثربولوجيا الملاحظة بشكل فعال فى دراسة المجتمعات المحلية.

ب ـ الدراسات السوسيولوجية المقارنة:

تعد الدراسات السوسيولوجية المقارنة من الدراسات الهامة في مجال البحث السوسيولوجى، وفى هذه الدراسات يستهدف الباحث الى بعض التعميمات عن طريق دراسة مؤسسات أومنظمات اجتماعية محددة، فيضع إطار للملاحظة يطبقه فى ملاحظته لعدد من المؤسسات أو التنظيمات. ومن الأمثلة على هذا النوع من الدراسات المقارنة، الدراسات الّتى أجريت على السجون، والمنظمات الصناعية، والتنظيمات البيروقراطية المختلفة[1].

جـ الجماعات غير الرسمية:

يعد مجال الجماعات غير الرسمية من المجالات الهامة التى تستخدم فيها الملاحظة بنجاح، فلقد أستخدمت فى كثير من الدراسات السوسيولوجية لدراسة بناء الجماعات غير الرسمية وقيمها ومعايير سلوكها وثقافتها، فمن خلال الملاحظة بالمشاركة يمكن فهم بناء الجماعة فهماً متعمقاً. ولقد

---

(١) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ص ٤٥٨.

استخدمت الملاحظة فى دراسة جماعات العمل فى المجال الصناعى، ومن اشهر هذه الدراسات، الدراسة التى قام بها "ألتون مايو" Mayo وزملاؤه على مصنع "هاوثورن" Hawthorne Factory والتى توصلوا من خلالها الى وجود بناء غير رسمى داخل جماعات العمل بالمصنع له تاثير ملحوظ على العملية الانتاجية. كما استخدمت الملاحظة أيضاً فى دراسة الجماعات غير الرسمية فى الادارات الحكومية والمستشفيات والسجون..ألخ.

د ـ الدراسات الاستكشافية:

تستخدم الملاحظة بشكل فعال فى المراحل التمهيدية للبحوث الاجتماعية، بهدف استكشاف أو استطلاع بعض جوانب الظاهرة الاجتماعية موضوع الدراسة وزيادة ألفة الباحث بها، وتنمية بعض الفروض المتصلة بهذه الظاهرة والتى سوف تكون موضع دراسة فى مراحل أخرى متقدمة من البحث الاجتماعى كالبحث الوصفى أو التجريبى.

هـ ـ الدراسات السيكولوجية:

يُعد مجال الدراسات السيكولوجية من المجالات الخصبة التي استخدمت فيها الملاحظة، كملاحظة سلوك الأطفال أثناء اللعب، او سلوك جماعات معينة أثناء الأكل أو العمل. كما أستخدمت الملاحظة بنجاح فى بحوث علم النفس التجريبى خاصة فى التجارب التى كانت تجرى على الحيوانات كالكلاب والقطط والفئران لقياس أثر "منبه" ما على "استجابة" تلك الحيوانات وتُعد تجارب "بافلوف" و"كهلر" من أشهر هذه التجارب.

٣ـ أنواع الملاحظة:

هناك تصنيفات عديدة للملاحظة، ولقد اختلفت هذه التصنيفات باختلاف وجهات نظر بعض الباحثين حول طبيعة موقف الملاحظة وطبيعة الموضوعات المراد ملاحظتها، وطبيعة القيود المفروضة على عملية الملاحظة ذاتها من حيث الدقة والاسلوب والأدوات المستخدمة . ومن ثم فهناك أكثر من معيار واحد لتصنيف الملاحظة، وفى ضوء كل معيار تتولد لدينا أنواع وأنماط كثيرة للملاحظة، ولكن هذه الأنواع ليست مستقلة بعضها عن البعض الأخر، بل هى متداخله ومترابطة، ويكاد يكون الاختلاف بين أنواع كثيرة منها فى الشكل أو التسمية فقط دون المحتوى أو الجوهر.

ومن المعايير التى أستند عليها الباحثون فى تصنيفهم للملاحظة معيار القصد المسبق، ومدى تدخل العقل فى عملياتها، ودرجة الضبط فيها، ومدى اندماج الباحث فى موقف الملاحظة، ودرجة شمولية موضوعها، والهدف منها، ودرجة عمق الظاهرة المراد ملاحظتها، ومدى اتصال القائم بالملاحظة بالشئ الملاحظ. وكل معيار من هذه المعايير تتولد عن أشكال مختلفة للملاحظة :ـــ

١ــ معيار القصد المسبق يصنف الملاحظة الى ملاحظة عرضية وأخرى مقصودة.

٢ــ معيار تدخل العقل فى عملياتها يصنفها الى ملاحظة فجة وأخرى علمية.

٣ــ معيار درجة الضبط يصنفها الى ملاحظة بسيطة وأخرى منظمة.

٤ــ معيار مدى إندماج الباحث في موقف الملاحظة يصنفها الى ملاحظة بغير المشاركة وأخرى بالمشاركة.

٥ــ معيار درجة الشمول يصنفها إلى ملاحظة شاملة وأخرى بالعينة.

٦ــ معيار الهدف وطبيعة الدراسة يصنفها الى ملاحظة استطلاعية وملاحظة وصفية وملاحظة تشخيصية أو تجريبية.

٧ــ معيار درجة عمق الظاهرة المراد ملاحظتها يصنفها الى ملاحظة خارجية وأخرى داخلية.

٨ــ معيار اتصال القائم بالملاحظة بموضوع الملاحظة يصنفها الى ملاحظة مباشرة وأخرى غير مباشرة. (العضوية)

وبصفة عامة يمكننا القول أن الملاحظة تنقسم الى نوعين أساسيين:

الأول: الملاحظة العابرة (العضوية):

المقصود بالملاحظة العابرة أو العضوية، هي تلك الملاحظة التلقائية التي يقوم بها الفرد العادى فى حياته اليومية من خلال ادراكة الحسى، دون أن يهدف الى تحقيق غاية علمية معينة، وهى ملاحظة بالضرورة غير مقصودة فالأفراد العاديين كثيراً ما يلاحظون أشياء كثيرة دون التعليق عليها أو تحليل الأسباب والظروف التى ادت اليها.. فالفرد العادى يتوقف فى ملاحظته عند الحدود العملية المتصلة بحياته واهتماماته المباشرة، دون أن يحلل أسبابها وعواملها تحليلاً دقيقاً بعيداً عن المنفعة الشخصية الذاتية، ومن ثم ينتقل من ملاحظه الى أخرى بحسب ما توحى الية بذلك مصلحته الخاصة، وهو بذلك

يفتقر الى المنهج العلمي الذى يربط بين الظواهر الملاحظة ببعضها البعض على أسس موضوعية(١).

ويتضح هذا النوع من الملاحظة بشكل دقيق لدى الشعوب البدائية، حيث اعتمدت عليها لمعرفة الأشياء والبيئة المحيطة، وكونت على أساسها حصيلة معرفتها الحسية. فالرجل البدائى كان يتعرف على الأشياء والبيئة المحيطة من خلال حواسة المتعددة كالبصر والسمع واللمس والشم والتذوق، فكان يلاحظ تعاقب الليل والنهار، ويسمع صوت الرعد، ويلاحظ البراكين والزلازل والأوبئة المنتشرة، ولكنه يقف عند حد تلك الملاحظات الحسية فقط دون السعى نحو معرفة أسبابها وتفسير الارتباط بينها.

الثانى: الملاحظة العلمية: Scientific Observation

الملاحظة العلمية ملاحظة مقصودة وهادفة، وتعد من أهم أدوات البحث فى كافة العلوم. وفى هذا النوع من الملاحظة لايكتفى الباحث بالاعتماد على حواسة فقط فيما يقوم بملاحظته ولكنه يستعين بعقله أيضاً فيما يلاحظة، كما يستعين ببعض الأدوات العلمية ووسائل القياس المختلفة التى تعينه على دقة الملاحظة وكلا فى اخطاء وخداع الحواس. وعلى الرغم من اختلاف الملاحظة العلمية عن الملاحظة العضوية من حيث تميز الأولى بالمنهجية والاعداد المسبق ووضوح الهدف، الا أنه يمكن القول أن الملاحظة العلمية هى امتداد للملاحظة العضوية، ويمكننا تصنيف الملاحظة العلمية إلى: ملاحظة بسيطة وتنقسم الى ملاحظة بدون مشاركة وملاحظة بالمشاركة. وملاحظة منظمة.

١ـ الملاحظة البسيطة: Simple Observation

وهى ملاحظة الظواهر كما تحدث تلقائياً فى ظروفها الطبيعية دون إخضاعها لعمليات الضبط والتقنين، ودون استخدام أدوات دقيقة للقياس، فيما عدا بعض الخرائط والصور والمذكرات.

وتستخدم الملاحظة البسيطة فى كثير من الدراسات السوسيولوجية خاصة الدراسات الاستطلاعية لجمع بيانات أولية عن الظواهر موضوع الدراسة. وتفيد الملاحظة البسيطة فى دراسة الجماعات الصغيرة، ومؤسسات المجتمع المختلفة، وأنماط العلاقات الاجتماعية بين الأفراد فى بيئة معينة

---

(١) ليلى داود، البحث العلمى، مرجع سابق، ص ١٩٢.

وتحت ظروف معينة، كالعلاقات التى تنشأ بين العمال فى أحد المصانع، أو دراسة حياة المهاجرين من الريف الى المدينة. كما تستخدم الملاحظة البسيطة فى مجال الدراسات السيكولوجية خاصة فى ميدان علم نفس النمو أو علم نفس الطفل، وعلم نفس الشواذ. ففى مجال علم نفس النمو ــ على سبيل المثال ــ يقوم الباحث بملاحظة النمو الانفعالى والعاطفى واللغوى والاجتماعى للطفل خلال مراحل عمرية متتابعة، كما يلاحظ العاب الطفل فى فترات متباينة ويقارن بينها ليتعرف على أوجة التغيرات التى تطرأ على هذه الألعاب من تغيرات.

وبصفة عامة، أن الهدف الأساسى من إستعمال الملاحظة البسيطة فى ميادين البحث المختلفة هو جمع المعلومات عن المواقف المختلفة سواء كانت طبيعية أو اجتماعية تمهيداً لدراستها دراسة أكثر عمقاً وضبطاً. ويمكن أن تجرى الملاحظة البسيطة بأسلوبين:ــ

أ ــ الملاحظة بدون المشاركة: **Observation Without Participation**

الملاحظة بغير المشاركة هى "الملاحظة التى لاتتضمن أكثر من النظر أو الاستماع فى موقف اجتماعى معين دون المشاركة الفعلية فيه، ويحاول الملاحظ ــ قدر الأمكان ــ ألا يظهر فى الموقف. وقد يختلط بالجمهور وينصت الى ما يدور بين الأفراد من أحاديث وما ينطبع على وجودهم من انفعالات"[١]. وتستخدم الملاحظة بدون المشاركة فى مواقف معينة لايمكن الحصول على معلومات بخصوصها بإستخدام أدوات أخرى، كالمواقف التى لايرحب أعضاء الجماعة بملاحظتها من قبل الباحث، أو يخشى من تغير سلوك أعضاء الجماعة عند معرفة أن هناك من يلاحظها، ويمكن أن يقوم الباحث بملاحظة تلك المواقف من خلف ستار أو حاجز زجاجى حتى لايثير تحفظ المشاركين فى سلوكهم ويفقدهم طابع التلقائية.

وجدير بالذكر أن هناك مواقف كثيرة لايصلح فيها استخدام هذا النوع من الملاحظة كملاحظة بعض الصور الخاصة من التفاعل بين الزوجين أو بعض مظاهر السلوك المنحرف.

---

(١) ابراهيم أبولغد ولويس كامل مليكة، البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٧٨.

ب ـ الملاحظة بالمشاركة: Participant Observation

استخدمت الملاحظة بالمشاركة بنجاح فى الدراسات الأنثربولوجية، وهذا النوع من الملاحظة يتضمن اشتراك الباحث فى حياة الناس الذين يقوم بملاحظتهم، ومساهمته فعلياً فى مختلف الأنشطة التى يقومون بها فى حياتهم اليومية، وفى فترة محددة وهى فترة الملاحظة.

وقد إنقسم المشتغلون بمناهج البحث حول إفصاح الباحث عن نفسه للمبحوثين، فهناك من يرى أنه ينبغى ألا يفصح الباحث عن نفسه ليظل سلوك الجماعة ـ تلقائياً بعيداً عن التصنع والرياء، وهناك فريق أخر يرى ضرورة أن يفصح الباحث عن شخصيته والهدف من تواجده بين أعضاء الجماعة. وبصفة عامة، قد يكون الرأى الأول محقاً إذا كانت فترة الملاحظة محدودة كالمشاركة فى مظاهرة أو مشاهدة مبارة رياضية أو حدث ما وسوف ينتهى الموقف بإنهاء هذا الحدث كالمشاركة فى اطفاء حريق أو اسعاف مصاب ..ألخ، فمن الأفضل الا يفصح المبحوث عن نفسه لكى يتسم سلوك المشاركين بالتلقائية. أما إذا كان موقف الملاحظة سوف يستغرق فترة طويلة تستوجب إقامة الباحث إقامة كاملة فى مجتمع البحث لملاحظة كافة جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لأفراد المجتمع فمن الأفضل بل من الضرورى أن يعلن الباحث عن شخصيته وسبب تواجده بين أعضاء الجماعة أو المجتمع المحلى، وبمرور الوقت سوف يألفه أفراد المجتمع، ويصبح وجوده بينهم أمراً طبيعياً، ويكون الباحث على هذا النحو غير مخالف لأخلاقيات البحث العلمى.

وتتفاوت درجات المشاركة من مشاركة كاملة ـ كما يفعله الأنثروبولوجيون ـ الى مشاركة جزئية، فقد يندمج "الملاحظ" فى حياة الجماعة التى يلاحظها. بحيث يصبح عضواً من أعضائها يشارك فى جميع أنشطتها، وقد يشارك فى بعض الأنشطة فقط. فعلى سبيل المثال لايمكن للباحث السوسيولوجى أن يصبح مجرماً بهدف دراسته لعصابة من المجرمين، أو يصبح عضواً حقيقياً فى جماعة أو فرقة دينية يقوم بدراستها.

وجدير بالذكر أن هناك قلة من الباحثين الذين ضحوا من أجل البحث العلمى فى مواقف مختلفة ففى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية أجرى بحث على تعاطى المخدرات (الحشيش)، وقام أحد الباحثين بمشاركة المبحوثين فى عملية التعاطى، وكان يصرف له كمية من المخدرات من قبل

السلطات لهذا الغرض. وفي قسم الأنثربولوجيا بجامعة الأسكندرية قام أحد الباحثين بدراسة رائدة عن "التسول"، للحصول على درجة الماجستير واستخدام اسلوب الملاحظة بالمشاركة واندس داخل جماعة المتسولين بمدينة الأسكندرية، واصبح عضواً نشطاً بينهم، ولقد ساعده على ذلك بعض سماته الفيزيقية ليكون "ضرير"، واستطاع أن يرصد ظاهرة التسول رصداً دقيقاً موضحا أنماط التفاعل والعلاقات الاجتماعية والبناء التنظيمي لجماعة المتسولين. واستعان "كوديل" وهو من علماء الأنثربولوجيا باسلوب الملاحظة بالمشاركة في دراستة للعلاقات الانسانية داخل أحدى مستشفيات الأمراض العقلية بالولايات المتحدة الأمريكية حيث قام متخفياً في دور مريض، وعاش مع المرضى والأطباء لمدة شهرين دون علم المرضى والأطباء[1].

وينبغي على القائم بالملاحظة المشاركة أن يبتعد عن التحيز لفئة من الفئات التي يدرسها، فإذا كان المجتمع المحلى موضوع الدراسة مقسم الى طبقات فعلية أن لاينحاز لطبقة معينه، وإذا كان يدرس أحد المصانع مثلاً فعلية أن لاينحاز الى جانب العمال أو إلى جانب الادارة، ولكنة يحاول بقدر المستطاع أن يكون موضوعياً ومتوازناً في سلوكه مع كافة فئات المجتمع موضوع الدراسة. كما ينبغي على الباحث الذى يستخدم الملاحظة بالمشاركة ـ خاصة في البحوث الأنثربولوجية ـ أن يتعلم لغة أفراد مجتمع الدراسة إذا كان يدرس مجتمعاً غير مجتمعه، كالمجتمعات البدائية في أواسط أفريقيا مثلاً. وإذا كان الباحث يدرس مجتمعاً محلياً منعزلاً مثل "الواحات" أو "النوبة" في مصر، أو بعض قرى الجنوب اللبناني علية أن يتعلم لهجة هذه المجتمعات، وأن يحترم العادات والتقاليد السائد احتراماً كاملاً، واللا يخرج عن حدود اللياقة في سلوكة مع أفراد المجتمع، لأن أى خطأ غير مقصود يقع فيه الباحث سوف يفسر تفسيراً سيئاً[2].

وإذا كان "المجتمع المحلى" موضوع الدراسة منقسماً على نفسه أو يتضمن عدة "طوائف"، فينبغي على الباحث الا يظهر بمظهر المتحيز لاحدى الجماعات أو الطوائف، فلابد أن يحرص على أن تكون علاقته جيدة مع جميع فئات المجتمع، وأن يكون موضوعياً في اتصالاته بالأفراد موضوع البحث.

---

(١) عبدالباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٤٢١.

(٢) زيدان عبدالباقي، قواعد البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

وهناك بعض القواعد العامة لإستخدام الملاحظة بالمشاركة يمكن الأشارة اليها على النحو التالى[1]:ـــ

١ـــ التعرف على الخصائص الاجتماعية العامة للجماعة موضوع الملاحظة من واقع البيانات المنشورة المتاحة، سواء كانت تاريخية أو احصائية أو بحوث ميدانية أو غيرها.

٢ـــ التعرف على القادة الرسميين وغير الرسميين، وإذا أراد الباحث أن تكون مشاركته صريحة فعلية الاستعانة بالاخباريين لتقديمه لمجتمع البحث.

٣ـــ شرح ما سوف يقوم به الباحث للأخباريين، وهم بالتالى يقومون بتوصيل ذلك لمجتمع البحث.

٤ـــ مشاركة أعضاء المجتمع إهتماماتهم العامة.

٥ـــ ينبغى على الباحث عدم توجية أسئلة حساسة الى أفراد البحث الا بعد توطيد العلاقة الشخصية معهم.

٦ـــ البعد عن ابداء الرأى فى بعض الموضوعات الحساسة التى قد تثير غضب بعض المبحوثين.

٢ـــ الملاحظة المنظمة: Systematic Observation

الملاحظة المنظمة ـــ ملاحظة تتسم بالدقة والضبط، فهى ملاحظة مُعدة ومخططة بشكل مسبق، وتستخدم وغالباً فى البحوث التشخيصية أو التجريبية أو البحوث التى تختبر فروضاً سببيه. وهذا النوع من الملاحظة غالباً ما يستعين فيه الباحث ببعض الأدوات التى تعينه على دقة الملاحظة وتتابعها، كاستخدام "استمارة الملاحظة" أو ما يعرف "بدليل الملاحظة"، أو استخدامه بعض الآلات كالميكروسكوب أو آلات التصوير وغيرها.

والهدف الأساسي من استخدام الملاحظة المنظمة هو جمع بيانات دقيقة عن الظاهرة موضوع البحث، لاختبار ـــ صحة فرض أو مجموعة فروض معينة. ومن ثم ينبغى على الباحث أن يحدد بدقة الظروف التى تتم فيها الملاحظة من زمان ومكان وموضوع الملاحظة. ولاشك أن دور العقل فى هذا النوع من الملاحظة يكون فعالاً الى جانب الحواس، فى اكتشاف العلاقات التى تربط عناصر الظاهرة بعضها البعض.

---

(١) عبدالباسط عبدالمعطى: البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٣٣٣.

وقد يتم هذا النوع من الملاحظة في المواقف الطبيعيه، وقد يجرى داخل المعامل المجهزة لهذا الغرض. والملاحظة المنظمة تستخدم بفاعلية في البحوث الطبيعية، كما تستخدم بنفس الفاعلية في البحوث الاجتماعية، حيث تستخدم في دراسة عمليات التفاعل الاجتماعي داخل الجماعات الصغيرة، مثل التفاعل في الحياة الأسرية، وفي مواقف العمل المختلفه، هذا فضلاً عن الدراسات العديدة التي يقوم بها علماء الأثنوجرافيا والأنثربولوجيا.

وقد تستخدم الملاحظة المنظمة باسلوب المشاركة أو بدون المشاركة، وأياً كان اسلوب الملاحظة المنظمة، ينبغي على الباحث الاستعانة ببعض الوسائل التي تعينة على دقة الملاحظة، وأهم هذه الوسائل[1]:-

١- المذكرات التفصيلية:

وهي مذكرات يستخدمها الباحث لتدوين موقف الملاحظة وأبعاده المختلفة بدقة، فمن خلال تدوينة لدقائق الموقف الاجتماعي يمكنه فهم وتفسير بعض العلاقات القائمة بين أجزاء هذا الموقف.

٢- الصور الفوتوغرافية:

تفيد عملية التصوير الفوتوغرافي في الوقوف على جوانب الموقف الاجتماعي كما يظهر في صورته الواقعية لا كما يراه الباحث، كما أنها تجنب الملاحظ الخطأ الذي قد ينتج عن ملاحظة جوانب معينة تتماشى مع رغباته وإغفاله جوانب أخرى قد تكون أكثر أهمية. كما تفيد الصور الفوتوغرافية في الكشف عن جوانب التغير التي تحدث في جوانب كثيرة من حياة الأفراد والجماعات على فترات متباعدة.

٣- الخرائط:

تفيد الخرائط توضيح العلاقة بين البيئة الاجتماعية وبين التنظيمات الاجتماعية والقائمة بالمجتمع موضوع البحث، كما تعطى معلومات للباحث تساعده على دقة الملاحظة عند تفسيره لأبعاد الموقف الاجتماعي.

٤- استمارة البحث أو "دليل الملاحظة":

وهي عبارة عن استمارة مدون فيها أبعاد الموقف الاجتماعي الذي يجب على الباحث ملاحظته، فهي تساعد الباحث على تدوين البيانات المتصلة بموضوع الملاحظة دون غيرها.

---

(١) عبدالباسط حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٤٣١.

٥ــ المقاييس السوسيومترية:

تعد المقاييس السوسيومترية المختلفة أحد الأساليب الهامة التى تعين الملاحظ على فهم أبعاد الموقف الاجتماعى الذى يريد ملاحظته، وهذه المقاييس وتفيد بشكل دقيق فى ملاحظته وقياس العلاقات الاجتماعية خاصة بين الجماعات الصغيرة[1].

٤ــ الاجراءات المنهجية للملاحظة:

تتطلب الملاحظة كأداة أساسية من أدوات جمع البيانات فى البحث الاجتماعى توافر مجموعة من الشروط للحصول ملاحظة جيدة توفر بيانات ومعلومات دقيقة عن الموقف موضوع الملاحظة، ومن اهم هذه الشروط:ــ

١ــ يجب أن يقف الباحث (الملاحظ) على كل جوانب وأبعاد الظاهرة موضوع الملاحظة، والعوامل المؤثرة فيها، لأن اغفال بعض العوامل قد يؤثر فى فهم وتفسير الظاهرة بشكل دقيق.

٢ــ ينبغى على الباحث تحديد وحدات ملاحظته، ومعرفة أنسب المواقف التى تظهر فيها هذه الوحدات أكثر من غيرها.

٣ــ يتعين تهيئة كافة الظروف الممكنة لتحقيق الادراك الحسي الدقيق، ومن ثم ينبغى أن يكون "الملاحظ" متمتعاً بحواس سليمة تمكنه من ملاحظة ما يريد ملاحظته بدقة، وأن يكون خالياً من المعوقات الحسية الخلقية كالعمى الكلى أو الجزئى أو عمى الألوان أو أى نوع أخر ضعف البصر او الصم.

٤ــ يجب أن يتحرر الباحث من أي أفكار لدية سابقة عن موضوع الملاحظة حتى لاتؤثر هذه الأفكار فى فهمه وتفسيره لواقع الظاهرة موضوع الملاحظة. ولكن ليس مغنى ذلك أن يكون الباحث مجرد أله تصوير للواقع، فالمقصود أن لاتسيطر علية أفكار معينة مسبقة قد تخالف ما هو موجود فى الواقع[2].

٥ــ ينبغي على الباحث الاستعانة بالأجهزة أو الألات الحديثة التى تمكنه من تحقيق ملاحظة دقيقة، ففى كثير من المواقف أو الموضوعات لايكفى فيها الاعتماد على الحواس المجردة.

---

(١) لمزيد من التفصيل راجع ما كتبناه عن القياس الاجتماعى فى الفصل التاسع.

(٢) محمود قاسم، المنطق الحديث ومناهج البحث، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٥٤.

وبصفة عامة يمكن تحديد الاجراءات المنهجية للملاحظة في الخطوات التالية:ـ

١ـ تحديد مشكلة البحث:

لاشك أن أول خطوة في البحث أياً كان نوعة تتمثل في تحديد المشكلة المراد بحثها تحديداً دقيقاً من حيث الحجم، والابعاد، والأهمية، والأهداف التي يسعى البحث لتحقيقها، وفي ضوء ذلك يستطيع الباحث تحديد طبيعة ملاحظته، وتحديد نوعها وأهدافها، وجوانبها. فمن المعروف أن طبيعة مشكلة البحث هي التي تفرض على الباحث الاجراءات المنهجية التي ينبغي عليه أن يسير وفقاً لها، ومن ثم فتحديد مشكلة البحث سوف يحدد للباحث نوع الملاحظة، فقد تكون ملاحظة منظمة أو بسيطة بالمشاركة أو بدون المشاركة..ألخ.

٢ـ تحديد إطار الملاحظة:

المقصود بإطار الملاحظة هو :ـ

أـ تحديد وحدة الملاحظة سواء كانت (فرد، أو جماعة، أو مجتمع محلي...ألخ)

ب ـ تحديد زمن الملاحظة، فعلي الباحث أن يحدد بدقة مدة الملاحظة، وهذه المدة قد تستغرق دقائق معدودة وقد تستمر لمدة عام كامل كما يحدث في البحوث الأنثربولوجية. أيضاً ينبغي تحديد عدد فترات الملاحظة، هل هي فترة واحدة أو أكثر من فترة، والمدة التي تفصل بين كل فترة وأخرى.

جـ ـ تحديد مكان الملاحظة، سواء كان هذا المكان في سكن الأسرة، أو في مكان العمل، أو في المدرسة، او في المستشفى أو في الشارع أو في السوق..ألخ. وتحديد المكان يعد جزءً أساسياً من عملية الملاحظة، وبالتالي فلكل مكان طبيعته التي تتناسب مع نوع ما من أنواع الملاحظة.

د ـ تحديد الجوانب التي يراد ملاحظتها، وهذا بالطبع سوف يوجه الباحث نحو ملاحظة أشياء بعينها، ويركز ملاحظته بدقة حول الجوانب التي سوف تحقق أهداف البحث، والحصول على البيانات والمعلومات التي يسعى للحصول عليها دون غيرها.

٣ـ اختيار الملاحظين وتدريبهم:

لاجدال في أن "الملاحظ" يلعب دوراً أساسياً في عملية الملاحظة والوصول الى المعلومات الدقيقة والموضوعية عن الظاهرة أو المشكلة موضوع الملاحظة، فالملاحظ يُعد أحد المتغيرات الأساسية في هذه العملية،

وهو المسئول الأول عن نجاح الملاحظة أو فشلها، ومن ثم حظيت مسألة اختيار الملاحظين وتدريبهم بالأهمية من قبل المشتغلين بالبحث الاجتماعى لخطوة ضرورية لتحقيق ملاحظة علمية دقيقة. وهناك بعض الخطوات التى ينبغى أن يسير عليها برنامج تدريب الملاحظين أهمها:ــ

أـ تعريف الملاحظين بالمشكلة موضوع الملاحظة، وأهميتها، والهدف من دراستها، والجوانب التى يتحتم ملاحظتها، والأسئلة التى سوف يوجهها الباحث للمبحوثين، وكيفية التعرف فى المواقف المختلفة التى يحتمل أن تواجه الملاحظ أثناء الملاحظة.

ب ــ تدريب الملاحظين على كيفية تسجيل الملاحظة، بدءاً بتسجيل الأفكار الرئيسية، ثم الأفكار الفرعية، ثم التفاصيل الدقيقة... وهكذا. وبالطبع تختلف عملية التسجيل من ملاحظة الى أخرى ومن موقف الى أخر حسب طبيعة المشكلة المراد ملاحظتها وطبيعة نوعية الملاحظة ذاتها.

جــ ــ ينصح كثير من المشتغلين بمناهج البحث بأن يتلقى الملاحظون تدريباً نظرياً وميدانياً على عملية الملاحظة وتسجيلها قبل قيامهم الفعلى بذلك. وهنا يتم اصطناع موقف مشابه لموقف الملاحظة، وجماعة تشبه الجماعة الفعلية التى سوف يقومون بملاحظتها. ومن الأفضل أن يقوم الملاحظون بالملاحظة فى هذه المواقف المصطبغة دون استخدام جدول دقيق للملاحظة، وهذا يعطى فرصة أكبر للملاحظين للتعرف على جوانب هامة، من الظاهرة موضوع الدراسة لم تكن محددة مسبقاً، ومناقشة هذه الجوانب بعد الملاحظة مع القائم بالتدريب والملاحظين، ثم تحديد الفئات الرئيسية للملاحظة وكيفية تسجيلها[١].

٤ــ تسجيل الملاحظة:

يعد تسجيل الملاحظة من الخطوات الهامة فى عملية الملاحظة، ويختلف المشتغلون بالبحث الاجتماعى حول عملية التسجيل، فهناك من يفضل التسجيل الفورى (الأنى) لتجنب أخطاء التحيز والنسيان، وهناك من يفضل التسجيل عقب إنتهاء الملاحظة لتجنب وخوف المبحوث، وتشككه فى نوايا الملاحظين وغيار التلقائية فى السلوك. وهناك فريق ثالث يرى أن الباحث

---

(١) جمال زكى والسيد يس، أسس البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ص ١٨٧ ــ ١٩٠.

يدون رموز معينة أو أفكار رئيسية أثناء الملاحظة، ثم يقوم بترجمتها إلى ما لاحظة بالتفصيل بعد إنتهاء الملاحظة.

عموماً قد يختلف أسلوب التسجيل من باحث إلى آخر، ومن ظاهرة الى أخرى، إلا أن يتحتم أن يكون هناك أسلوب واحد بين جميع الملاحظين فى تسجيل الملاحظات فى البحث الواحد، بمعنى إذا اشترك أكثر من باحث فى ملاحظة "التفاعل الاجتماعى لجماعة ما" ينبغى أن يتبع كل الباحثين نفس الأسلوب فى تسجيل ملاحظاتهم. كما ينبغى أن يتدرب هؤلاء الباحثون على أسلوب التسجيل قبل قيامهم الفعلى بذلك.

وهناك طريقتان يمكن إستخدامهما لتسجيل الملاحظة[1]:ـــ

أ ـــ التسجيل الزمنى للحوادث: أى ترتيب حوادث الملاحظة حسب زمن وقوعها. ويمكن للباحث إعداد جدول تسجيل فيه زمن الملاحظة، ونوعها، وتفسيرها.

ب ـــ تنظيم المادة الملحوظة فى موضوعات أو فئات معينة: وفى هذا الأسلوب يفضل أن يقوم الباحث بإعداد قائمة بالموضوعات أو الفئات قبل إبتداء الملاحظة لتسهيل عملية التسجيل وفقاً لهذه الفئات أو الموضوعات.

ويفضل أن يجمع الباحث بين الأسلوبين فى عملية التسجيل، وأن يراعى عدم الخلط بين الحوادث الملحوظة وبين التفسيرات الشخصية، والاهتمام بتسجيل جميع التفاصيل، والعناية بتحليل الملاحظات، عقب الانتهاء من الملاحظة مباشرة.

٥ـــ تفريغ الملاحظة:

بعد أن ينتهي الباحث من تسجيل الملاحظة، يقوم بتفريغها وفقاً للفئات أو البنود المتفق عليها من قبل، واعداد جدول لكل فئة من هذه الفئات، ولكى يسهل علية بعد ذلك القيام بعملية التحليل الكمى، والقيام بالمعالجات الاحصائية المختلفة.

٦ـــ تحليل بيانات الملاحظة وتفسيرها: بعد أن ينتهى من تفريغ بيانات الملاحظة وفقا للجداول المعدة لذلك، يقوم بعملية التحليل الكمى والكيفى لهذه البيانات، وتفسيرها فى ضوء طبيعة موقف الملاحظة، ونتائج الملاحظات التى أجريت على مواقف متشابهه.

---

(١) عبدالباسط محمد حسن، اصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق،

٧ـ استخلاص نتائج الملاحظة والتوصيات: وتعد هذه الخطوة من أهم خطوات الملاحظة، حيث يقوم الباحث باستخلاص النتائج التي تؤكد صدق فروض أو عدم صدقها، ثم يطبع الباحث بعض التوصيات الخاصة بطبيعة الظاهرة موضوع الملاحظة، كالتوصيه بإجراء بحوث مستقبلية على جوانب محدده من الظاهرة، او الأخذ فى الاعتبار بعض المشكلات التى لم تكن متوقعة قبل إجراء الملاحظة..وغيرها.

٨ـ كتابة تقرير الملاحظة: وهو الخطوة النهاية فى إجراء الملاحظة، حيث يقوم الباحث بإعداد تقرير عن ما تم القيام بدءاً بتحديد مشكلة البحث وإنتهاء بأهم النتائج والتوصيات، واهم المشكلات التى أعترضت سير الملاحظة، وكيفية التغلب عليها.

خامساً: ثبات وصدق الملاحظة:

لاشك أن عملية ثبات الملاحظة وصدقها فى العلوم الطبيعية يمكن التحقق منها بشكل فعال ودقيق من العلوم الاجتماعية. والمقصود بصدق الملاحظة هو "صدق عملية الملاحظة" ـ أى الأجراءات التى أتخذها الباحث فى تحقيق الملاحظة ـ فى قياس ما يفترض قياسه، فالصدق هنا المقصود به صدق الملاحظة كأداة. ويمكن التحقق من صدق الملاحظة بإسلوبين:

الأول: قيام أكثر من باحص بملاحظة موقف ما، مستخدمين نفس الأسلوب والأدوات فى ملاحظاتهم، وإيجاد المعالجات الاحصائية الملائمة، وحساب دقة الاتفاق بين الملاحظين، ومن ثم يمكننا تحديد معامل صدق المقياس (الملاحظة).

أما الأسلوب الثاني: يتمثل في قيام "الملاحظ" بإعادة ملاحظته لموضوع الملاحظة بنفس الأسلوب الذى أستخدمه فى المرة الأولى، وإيجاد معامل صدق كل ملاحظة على حدة والمقارنة بينهما، وبالتالى كلما تقاربت نتائج المقياس فى المرتين كلما دل على صدق المقياس والعكس صحيح.

وجدير بالذكر أن هناك علاقة وثيقة بين صدق الملاحظة وثباتها، فما يمكن أن يقال عن الصدق يقال عن الثبات. ولكن الدقيق لثبات الملاحظة هو ثبات المعلومات أو البيانات التى نحصل عليها عن طريق الملاحظة لو كررنا نفس موقف الملاحظة مرة أخرى أو عدة مرات، مع مراعاة ثبات العوامل المحيطة ـ بقدر الإمكان ـ فى كل المواقف التى يعاد فيها تكرار الملاحظة إلا

أن تطبيق الأساليب الاحصائية في الحصول على بيانات ثابته من خلال الملاحظة كأداة أساسية فى البحث الاجتماعى لايزال يواجه ببعض العقبات، ومن ينصح بعض المشتغلين بمناهج البحث بضرورة توافر بعض الشروط للحصول على مستوى أفضل من ثبات وصدق الملاحظة، وأهم هذه الشروط[1]:-

١- ضرورة الأخذ فى الاعتبار "الاطار المرجعى" لموقف الملاحظة، وفقاً لنظرية "الجماعة المرجعية"، وهى نظرية رائدة فى العلوم الاجتماعية، بمعنى كنا بصدد ملاحظة سلوك أو أنماط التفاعل لجماعة ما ولتكن "جماعة الأسرة" فى مجتمع معين، فلابد أن ناخذ فى أعتبارنا الاطار المرجعى لهذه الجماعة (الأسرة) وما ينطوى عليه هذا الاطار من قيم وعادات وتقاليد وأعراف وتطلعات، قد يختلف تماماً عما هو موجود فى أسرة أخرى فى مجتمع آخر أو فى المجتمع ذاته.

٢- ضرورة تحديد الوحدات التي يرغب الباحث في ملاحظتها، قبل البدء فى الملاحظة، هل الملاحظة ستتركز حول "فرد" كقائد الجماعة أو شيخ القبيلة مثلاً، أم سوف تتركز حول "جماعة ما" "كجماعة الأسرة" أو "جماعة اللعب" أو "جماعة العمل"، ام سوف تتركز حول "المجتمع المحلى" ككل، والمجتمع المحلى هنا قد يكون "قرية" أو "مدينة" أحد "أحياء المدينة" كذلك ينبغى على الباحث تحديد الوحدة الزمنية والمكانية للملاحظة.

٣- ضرورة الأخذ فى الاعتبار أن هناك فروقا فردية بين الملاحظين قد ترجع إلي عامل الخبرة، والتخصص، هذا فضلاً عن الفروق الفيزيقية الحسية، وهذه الفروق بالطبع قد تنعكس على عملية الملاحظة، ومن ثم ينبغى تدريب الملاحظين تدريباً جيداً على عناصر الملاحظة حتى يمكن تقليل الفروق الفردية فى الملاحظة.

٤- ضرورة تبسيط إجراءات الملاحظة إلي أدنى حد ممكن، وترتيب عناصرها بالشكل الذى يسمح بتسجيلها دون عناء من الملاحظين.

---

(١) زيدان عبدالباقى، قواعد البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص. ٢٠٢.

٥ــ تدريب الملاحظين علي مواقف مشابهه ميدانيا للموقف موضوع الملاحظة، فمن المعروف أنه كلما زادت فترة تدريب الباحثين كلما زاد معامل ثبات وصدق الملاحظة.

سادساً: تقييم الملاحظة:

لاجدال فى أهمية الملاحظة كأداة أساسية من أدوات البحث فى كافة العلوم الطبيعية والاجتماعية، وهى أداة أساسية لا بديل لها فى بعض الدراسات الاجتماعية كدراسة سلوك الأطفال فى اللعب، او دراسة النمو الحركى والفعلى واللغوى..وغيرها. ولكن هذا لايعنى أن الملاحظة كأداة للبحث لاتخلو من العيوب وبصفة عامة يمكن الاشارة إلى اهم مميزات وعيوب الملاحظة على النحو التالى:ـــ

أ ــ مزايا الملاحظة:

للملاحظة عدة مميزات أهمها:

١ــ تتيح الملاحظة للباحث الفرصة لتسجيل السلوك الملاحظ وقت حدوثة مباشرة، وهذا يقلل من احتمالات الخطأ أو التحيز أو النسيان.

٢ــ الملاحظة هي الأداة الوحيدة التي يمكن من خلالها دراسة سلوك أفراد الجماعة بشكل تلقائى دون تحريف.

٣ــ تفيد الملاحظة فى التعرف على بعض جوانب الحياة الاجتماعية بشكل فعال كالعادات الاجتماعية، وأسلوب التفاعل بين أفراد الجماعة، وعمليات التنشئة الاجتماعية للأطفال، والطرق الجماعية فى حل المشكلات، وغيرها من الموضوعات التى يفضل أستخدام الملاحظة فى دراستها دون غيرها من أدوات البحث الاجتماعى.

٤ــ تفيد الملاحظة في الحصول علي معلومات وبيانات حول سلوك من لايستطيعون التعبير قولاً أو كتابة، كالأطفال، أو البكم، أو المصابون بحالات مرضية معينة كالصرع، او المدمنين وغيرهم.

ب ــ عيوب الملاحظة:

١ــ لايمكن استخدام الملاحظة في دراسة أشياء قد حدثت فى الماضى بشكل مباشر، كذلك يصعب من خلالها التنبؤ بما سوف يحدث فى المستقبل من أنماط مختلفة من السلوك، فهى تفيد فقط فى تقرير ما يحدث أثناء فترة الملاحظة.

٢ــ هناك بعض أنماط السلوك الاجتماعي التي يصعب أو يتعذر معها استخدام الملاحظة، كما هو الحال فيما يختص بالسلوك الجنسي داخل نطاق الأسرة، او الخلافات العائلية التي لايفضل أن يطلع عليها أحد. خارج نطاق العائلة[١].

٣ــ قد تتعرض المعلومات التي يحصل عليها الباحث من خلال الملاحظة أخطاء كثيرة بعضها ناتج عن تحيز الباحث أو حالته النفسية والجسدية كتعب الحواس أو قصورة أو خداعها، وبعضها ناتج عن تحيز المبحوثين أنفسهم وتغيير موقفهم لشعورهم أنهم تحت الملاحظة.

٤ــ قد تتعرض البيانات التي يحصل عليها الباحث من خلال استخلاصه لبعض الآلات في الملاحظة إلى اخطاء ناتجه عن عيوب في هذه الآلات ذاتها بسبب أعطال فنية أو التآكل أو الصدأ أو التقادم..ألخ، مما يؤثر على دقة الملاحظة.

٥ــ قد يصعب على الملاحظة الوقوف على جميع الظروف المحيطة بالظاهرة موضوع الملاحظة، نظرا لتعقد الظاهرة الاجتماعية وتشابكها، وتعدد العوامل المؤثرة فيها، ومن ثم قد يغفل الباحث ملاحظة بعض الأشياء الجوهرية، وتستدعي إنتباهه بعض الأشياء الشاذة أو الغريبة.

وعلى الرغم من هذه العيوب إلا انه يمكن القول أن الملاحظة كأداة بحث قد حققت إسهامات فعالة في البحث خاصة في العلوم الطبيعية التي تعتمد على المقاييس الكمية والرياضية في الملاحظة، وإن كانت هذه المقاييس قد حققت نجاحاً في البحث العلمي في كافة العلوم الطبيعية، فهي تستخدم الآن بشكل فعال في كثير من البحوث الاجتماعية.

---

(١) إبراهيم أبولغد، ولويس كامل مليكة، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٨٤.

الفصل الثانى عشر

المقابلة

تمهيد:

١- تعريف المقــــابلة وخصــائصها.

٢- مجالات استخدام المقابلة وأهميتها.

٣- أنـــــــــواع المقــــابلة.

٤- كيفــــــية إجـــــراء المقابلة.

٥- ثبــــــات وصـــــدق المقابلة.

٦ ـ تقييم المقابلة:

(أ) مزايا المقابلة.

(ب) عيوب المقابلة.

تعد المقابلة Interview أهم وسائل البحث الاجتماعى، لأنها تجمع بين مميزات أدوات البحث الأخرى كالملاحظة Observation وإستمارة البحث Questionnair ولقد إستخدام المقابلة كأدة أساسية لجمع البيانات فى كثير من العلوم الاجتماعية وبعض العلوم الطبيعية، وتفيد بشكل مباشر فى المراحل الأولى للبحث فى الكشف عن الأبعاد الهامة للمشكلة، وفى تنمية الفروض، وفى التعرف على بعض القضايا المثيرة للإستبصار. وتعد المقابلة أكثر أدوات البحث الاجتماعى مرونة بحيث تسمح للباحث ملاحظة الموقف الكلى التى تجرى فيه المقابلة، وتوضح ما قد يكون غامضاً من أسئلة المبحوثين.

وتتكون المقابلة من ثلاثة عناصر أساسية، الأول هو القائم بالمقابلة Interviewer، والثانى المبحوث Interviewee والثالث موقف المقابلة، ولاشك أن هناك إرتباط وتداخل بين هذه العناصر على نجو يؤثر بشكل مباشر فى النتائج العامة للمقابلة. ويتوقف نجاح المقابلة إلى حد كبير على مهارة القائم بها، ومدى فهمه لدوافع السلوك، بالإيجاب أو السلب فى هذا الموقف[1]. ويحتاج إجراء المقابلة إلى مهارة خاصة للباحثين، وخبرة وتدريب، يتم إكتسابها عن طريق الممارسة الواقعية فى الميدان والتفاعل مع جمهور المبحوثين.

عموماً، يدور هذا الفصل حول التعريف بالمقابلة وخصائصها، ومجالات إستخدامها، وأهميتها، وأنواعها المختلفة، وكيفية إجرائها، وثبات وصدق المقابلة، وأخيراً مميزتها وعيوبها كأداة أساسية للبحث.

أولاً: تعريف المقابلة وخصائصها:

لاشك أن المقابلة Interview من الأدوات الهامة التى يستخدمها المتخصص فى البحث الاجتماعى، كما يستخدمها الإنسان العادى فى حياته العامة، فكثيراً ما تستخدم المقابلة فى الحصول على معلومات أو إجابات عن أسئلة معينة لدى عامة أفراد المجتمع. إلا أن المقابلة التى تستخدم فى البحث العلمى المتخصص تختلف عن المقابلة التى تتم بين الأفراد العاديين.

وهناك تعريفات عديدة للمقابلة أو " الإستبار " يمكن أن نذكر منها على سبيل المثال:

١- يعُرف " روبرت كاهن " Robert Kahn المقابلة بأنها " الإسلوب المتخصص للإتصال الشخصى والتفاعل اللفظى الذى يجرى لتحقيق غرض خاص، والذى يركز فيه الباحث على بيانات ومعلومات خاصة ويستبعد ماعداها

(١) محمد على محمد، علم الإجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ص ٤٦٣.

من المعلومات والمواد الدخيلة والغريبة وغير الجوهرية فى الموضوع[١].

٢- يعُرف الدكتور نجيب إسكندر المقابلة بأنها " التبادل اللفظى وجها لوجه بين القائم بالمقابلة وبين شخص آخر أو أشخاص آخرين "[٢].

٣- عرض الدكتور جمال ذكى والسيد يس إلى عدة تعريفات للمقابلة لباحثين مختلفين أهمها[٣]:

أ- يعُرف " ما كوبى " و " ماكوبى " E.Maccoby & N.Maccoby، المقابلة بأنها " تفاعل لفظى يتم بين فردين فى موقف مواجهة، يحاول إحداهما إستثارة بعض المعلومات والتعبيرات لدى الأخر، والتى تدور حول خبراته أو أرائه ومعتقداته ".

ب- تعُرف " بولين يونج " P.Young المقابلة بأنها " طريقة منظمة يتمكن الفرد من خلالها سبر غور حياة فرد أخر غير معروف له نسبياً، كما تعتقد أن هذه الوسيلة تعد الوسيلة المثلى للباحث الاجتماعى ".

جـ- يعُرف " إنجلش " و " إنجلش " B.English & C.English المقابلة بأنها " عبارة عن محادثة موجهة يقوم بها فرد مع آخر أو أفراد أخرين، هدفها إستثارة أنواع معينة من المعلومات لإستخدامها فى بحث علمى، أو الإستعانة بها على التوجية والتشخيص والعلاج ".

ء- يرى " بوجاردس " Pogardu " أنه لايمكن فهم المواقف الاجتماعية إلا إذا توصلنا إلى معرفة الإتجاهات والقيم الإنسانية، ولايمكننا التعرف على هذه الإتجاهات والتغير الحادث فيها إلا عن طريق المقابلة الشخصية ".

٤- أكد " جود و هات " Good & Hatt على أن المقابلة " عملية من عمليات التفاعل الاجتماعى الذى يعنى فى جوهره أخذ أو عطاء، غير أنها عمليّة موجهة لتحقيق أغراض معينة "[٤].

والملاحظ أن هذه التعريفات على الرغم من تنوعها إلا أنها تتفق على عدة خصائص للمقابلة أهمها:

(أ) أن المقابلة نوع من التفاعل اللفظى بين فردين أو أكثر.

(ب) أن المقابلة هادفة بمعنى أنها تسعى إلى تحقيق هدف ما من وراء موقف المقابلة.

---

(١) عمر الشيبانى، مناهج البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

(٢) نجيب إسكندر وآخرون، الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعى، مؤسسة المطبوعات الحديثة، القاهرة، ١٩٦١، ص ٣٤٥.

(٣) جمال ذكى والسيد يس، أسس البحث الاجتماعى، مرجع سابق، صص ٣٠٩-٣١٠.

(٤) عبد الباسط عبد المعطى، البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص٣٤٥.

(جـ) أنها محددة بمكان وزمان ومباشرة أى وجها لوجه، إن كان هناك بعض الباحثين الذين يشيرون إلى أنواع أخرى للمقابلة تتم بشكل غير مباشر كالإتصال الهاتفى أو التليفونى.

(ء) أنها عملية أخذ وعطاء بين الباحث والمبحوث وأن نجاحها يتوقف إلى حد كبير على لباقة وخبرة الباحث فى إختياره لأفضل ظروف لأتمام المقابلة.

وبصفة عامة فالمقابلة هي عملية تفاعل لفظي بين باحث ومبحوث (أو مبحوثين) في موقف مواجهة بهدف الحصول على بيانات أو معلومات تساعد الباحث على القيام ببحث علمى أو إستخدامها فى عمليات التوجيه أو التشخيص أو العلاج أو التخطيط..... إلخ.

ثانياً: مجالات إستخدام المقابلة وأهميتها:

لاجدال فى ان المقابلة تعد من الوسائل الهامة فى عمليات جمع البيانات والمعلومات على إختلاف أنواعها والهدف منها. ولقد إحتلت "المقابلة" هذه المكانة - خاصة فى البحث العلمى - نظراً لما تمتاز به من سهولة ومرونة فى موقف المقابلة الذى يتسم بالبعد عن التكلف والقيود والشكليات. وكالما كان موقف المقابلة مرناً كلما شجع المبحوث على التعاون مع الباحث والتعبير عن نفسه أو عن آرائه وإتجاهاته بحرية دون تحيز.

وتكمن أهمية المقابلة أيضاً فى تغلغلها فى كافة جوانب الحياة الاجتماعية، وهذا فضلاً عن إستخدامها لأغراض بحثية متنوعة. ويمكن الإشارة إلى أهم مجالات إستخدام المقابلة على النحو التالى:

١ - مجال الحياة العامة:

كثيراً ما نستخدم المقابلة في مجال حياتنا العامة، فهي تشغل جانباً كبيراً من حياة كل فرد فى المجتمع تقريباً، فالمدرس يقابل تلاميذه في قاعة الدرس، ويقابل أولياء الأمور المدرس لمعرفة المستوى الدراسى لأبنائهم، والمحامي يقابل عملائه ممن لديهم مشاكل قضائية، والطبيب يقابل مرضاه فى عيادته أو فى منازلهم، ومدير العمل يقابل الموظفين والعمال لمعرفة مشاكل العمل، وينطبق ذلك على كل فئات المجتمع كالصحفيين والمهندسين ورجال الشرطة، والنيابة، والدين، والأعمال، والدعاية، والإعلان، وممثلى شركات التامين، ومقدمى البرامج الإذاعية والتلفزيون .... إلخ.

وجدير بالذكر أن لكل فئة من الفئات السابقة أسلوبها الخاص فى المقابلة، وإلمامها بالاسس والمبادئ أو الاساليب التى تساعد على نجاحها، فموقف المقابلة الذى يجمع بين طبيب ومريض أو بين رجل شرطة وأحد المجرمين سوف يختلف عن طبيعة موقف المقابلة بين رجل دين وأحد أتباعه أو مريديه.

٢- مجال البحث العلمي:

تستخدم المقابلة في كثير من مجالات البحث العلمي، كمجال البحوث الاجتماعية، والخدمة الاجتماعية، والتعليم، والإدارة، والطب، وعلم النفس الاجتماعي، والأمن، والقانون، والتجارة، والصناعة...... إلخ. من مجالات البحث العلمي. فتستخدم المقابلة كأداة اساسية في غالبية المسوح الاجتماعية سواء كانت في مجال علم الاجتماع أو الانثر بولوجيا. وتعد المقابلة وسيلة اساية أيضاً في بحوث السكان، ومسوح الرأي العام، والوعي الصحي...إلخ.

٣- مجال التشخيص والعلاج:

تعد المقابلة أحد الوسائل في المجال الطبي، فلا غنى عنها لدي الاطباء في تشخيص المرض وتحديد أساليب العلاج. كما لا غنى عنها لدى الاطباء النفسيين، والعاملين في العيادات النفسية، كذلك تعد وسيلة ضرورية للاخصائيين الإجتماعيين في مقابلة الذين يعانون من مشاكل إجتماعية سواء في مجال المدرسة أو بيئة العمل. فالمقابلة التشخيصية Diagnostic Interview أساس العلاج الناجح في المجال الطبي والتربوي والاجتماعي.

٤- مجال المهارات والقدرات الخاصة:

تستخدم المقابلة كوسيلة أساسية في عمليات الإختيار والإنتقاء للمتقدمين لطلب وظائف معينة، أو المتقدمين لطلب الدراسة في الكليات والمعاهد العسكرية، والمتقدمين لدراسة علوم معينة تتطلب مهارات خاصة ككليات ومعاهد الفنون والعمارة وغيرها.

ثالثاً: أنواع المقابلة:

لاجدال فيما تحتله المقابلة من أهمية خاصة بين أدوات البحث الأخرى، حيث لايقف إستخدامها عند حدود تخصص معين، أو علم من العلوم الاجتماعية، ومن ثم تتنوع المقابلة بتنوع التخصصات المختلفة من ناحية، وتنوع الهدف منها ودرجة التقنين وعدد المتواجدين في موقف المقابلة من ناحية أخرى عموماً يمكن الإشارة إلي أكثر تصنيفات المقابلة شيوعاً كما يلي(*):

(*) راجع على سبيل المثال لا الحصر:

- جمال ذكي والسيد يس، أسس البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص٢١٣.
- مصطفى سويفي، مقدمة لعلم النفس الاجتماعي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ص٣٩٢.
- محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص٤٦٧.
- عبد الباسط حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص٤٥٣.

(أ) تصنيف المقابلة حسب الهدف منها:

١ - المقابلة لجمع البيانات Collect Data.

وهي المقابلة التي يسعى فيها الباحث للحصول على معلومات أو بيانات معينة من عينة البحث، كالمقابلات التى تستخدم فى البحوث المسحية، وبحوث دراسات الحالة وغيرها. ويفيد هذا النوع من المقابلات في وصف وتفسير واقع إجتماعى أو إقتصادى محدد. وغالباً ما يستخدم هذا النوع من المقابلات للحصول على معلومات وبيانات تتصل بآراء الأفراد وإتجاهاتهم نحو موضوعات محددة. ويستخدم هذا النوع من المقابلات فى البحوث الكشفية أو الإستطلاعية بهدف التعرف على الابعاد الاساسية للمشكلة موضوع الدراسة، كما تستخدم أيضا فى عمليات الإختبار المبدئى عند تصميم إستمارة البحث.

٢ - المقابلة التشخيصية: Diagnostic Interview

يشيع إستخدام هذا النوع من المقابلات لدى العاملين بالمهن الطبية والنفسية والاجتماعية (الأخصائى الاجتماعى)، حيث تستخدم المقابلة التشخيصية فى تشخيص حالات العملاء من المرضى وذوى المشكلات الاجتماعية المختلفة، ويسعى القائمون بهذه المقابلات إلى التعرف على أبعاد المرض أو المشكلة الاجتماعية واسبابها المختلفة.

٣- المقابلة العلاجية: Clinical Interview

تأتى المقابلة العلاجية كمرحلة تالية للمقابلة التشخيصية خاصة فى دراسة المشكلات الاجتماعية، وقد تتزامن المقابلة العلاجية مع المقابلة التشخيصية فى موقف مقابلة واحد كما هو الحال فى الموقف الذى يجمع بين الطبيب والريض العضوى. وبصفة عامة أن الهدف الاساسى من المقابلة العلاجية هو رسم خطة لعلاج " العميل" وتخفيض حدة التوتر الذي يشعر به مع الإستفادة من إمكانات البيئة الاجتماعية المحيطة. وعموما هناك تداخل واضح بين الأنواع الثلاثة السابقة من المقابلة، فالمقابلة العلاجية - مثلاً - تعتمد إعتماداً كبيراً على نتيجة المقابلة التشخيصية، والمقابلة التشخيصية بدورها لايمكن أن تكون دقيقة إلا اذا إعتمدت على بيانات ومعلومات يمكن الحصول عليها من خلال النوع الأول من المقابلة.

٤ - المقابلة التوجيهية: Advisedly Interview

وهي المقابلة التى تستخدم فى أغراض التوجية والإرشادوالنصح والإستشاره، سواء كان هذا التوجيه تربوياً أو نفسياً أو صحياً أو إجتماعيا أو إقتصاديا أو دينيا...... إلخ.

٥- المقابلة الإختبارية: **Examining Interview**

يكثر إستخدام هذا النوع من المقابلات فى ميادين عديدة من الحياة الاجتماعية. والهدف الاساسي من هذه المقابلة هو إختبار من تجرى مقابلته أو قياس معارفه أو قدراته أو ميوله وإتجاهاته أو مهاراته أو قوة شخصيته.....إلخ. ويستخدم هذا النوع من المقابلة في إختبارات القبول للكليات والمعاهد الاكاديمية المتخصصة بصفة عامة، والكليات والمعاهد العسكرية، والفنية، والمعمارية، بصفة خاصة. كما تستخدم ايضاً فى إختبار الموظفين المتقدمين لشغل وظائف معينة يتم الإعلان عنها مسبقاً.

(ب) تصنيف المقابلة حسب عدد الأشخاص المشاركين في موقف المقابلة:

١-المقابلة الفردية: **Individual Interview**

لاشك تعد المقابلة الفردية أكثر أنواع المقابلات شيوعاً وإنتشاراً، وهى التي تجرى بين باحث واحد ومبحوث واحد فى موقف مواجهة.

٢- المقابلة الجماعية: **Group Interview**

وهي المقابلة التي تجرى بين أكثر من شخص في موقف واحد، وقد تكون هذه المقابلة بين باحث واحد ومجموعة مبحوثين فى وقت واحد، كالمقابلات التى تجرى بين باحث وجماعة الاسرة، أو جماعة الدرس. وقد تكون المقابلة الجماعية بين مجموعة باحثين ومبحوث واحد، كالمقابلات التى يجريها فريق من الاطباء لتشخيص حالة مرضية معينة، وقد تكون المقابلة الجماعية بين مجموعة من الباحثين من ناحية ومجموعة من المبحوثين من ناحية أخرى فى موقف واحد.

(ج) تصنيف المقابلة حسب طول الإتصال:

هناك مقابلات لا تستغرق من الباحث والمبحوث وقتاً طويلاً وتعرف "بالمقابلة ذات الإتصال القصير" Short- Contact- Interview، وغالباً ما تكون هذه المقابلات محددة الهدف بشكل دقيق كالمقابلات التى يجريها مندوبى التسويق لسلع إستهلاكية معينة ويريد معرفة آراء المستهلكين لهذه السلع، أو المقابلات التى يجريها الباحثون فى مجال الإعلام حول آراء وإتجاهات رجل الشارع حول موضوعات محددة. وفى المقابل وهناك مقابلات ذات إتصال طويل أو ممتد على فترة طويلة من الزمن Prolonged Interview، فقد يستغرق وقت المقابلة بضع ساعات، وقد يتكرر موقف المقابلة أكثر من مرة لإستكمال موضوع المقابلة.

(ء) تصنيف المقابلة حسب المهن والميادين المختلفة:

تصنف المقابلة حسب المهن والميادين التي تستخدم فيها إلى مقابلة طبية، ومقابلة قانونية، ومقابلات الخدمة الاجتماعية، والمقابلة الإكلينيكية، والمقابلات التي تجري مع طالبي التوظيف أو العمل في مهن معينة....

(هـ) تصنيف المقابلة حسب درجة المرونة في موقف المقابلة:

يمكن تصنيف المقابلة حسب درجة مرونتها إلى مقابلة مقننة، ومقابلة غير مقننة، ومقابلة بؤرية، ومقابلة غير موجهه، والمقصود بالتقنين هو مدى حرية الباحث في القاء الاسئلة وصياغتها وترتيبها.

١ - المقابلة المقننة: Standardized Interview.

وفي هذا النوع من المقابلة يقوم الباحث بتحديد أسئلة المقابلة مسبقاً وصياغتها بالأسلوب الذي يتفق مع المستوى الثقافي للمبحوثين وترتيبها بالشكل الذي يخدم اغراض البحث ويقوم الباحث بتوجيه الاسئلة إلى جميع المبحوثين بنفس الأسلوب وبنفس الترتيب. وتدوين الإجابات أيضاً بنفس الاسلوب الذي يجيب فيه المبحوثين على الاسئلة " المفتوحة " كذلك تعيين الإجابات التي يشير إليها فقط المبحوثين بالنسبة للاسئلة " المقفولة". وغالباً ما يتم تدريب الباحثين على هذا النوع من المقابلات ووضع قائمة من التعليمات التي يلتزم بها كل الباحثين في جميع مقابلاتهم. وتفيد عملية التقنين في إمكانية القيام بمقارنات دقيقة للمعلومات التي يدلي بها المبحوثون طالما أن أسلوب القياس واحد، وأن الأفراد يستجيبون لنفس الاسئلة ويخضعون لنفس الظروف بقدر الإمكان أثناء المقابلة.

٢ - المقابلة غير المقننة:

تختلف المقابلة غير المقننة عن المقابلة المقننة في أنها تتسم بقدر كبير من المرونة بالنسبة للباحث أثناء موقف المقابلة، فعلى الرغم من أن الباحث يقوم بإعداد أسئلة كلا النوعين مسبقاً إلا أنه لايسمح له بتعديل أو تبديل الاسئلة في المقابلة المقننة، بينما يسمح له بذلك في المقابلة غير المقننة حيث بإمكان تغيير صيغة الاسئلة، وإضافة أسئلة جديدة، وحذف بعض الاسئلة التي يرى أنها تثير مخاوف أو قلق أو حرج المبحوثين..... إلخ. ولقد إستخدم هذا النوع من المقابلات في البحوث الانثربوبوجية، والسوسيولوجية، خاصة في الدراسات الإستطلاعية، وفي الفحوص الإكلينيكية السيكولوجية، وفي الحصول على بيانات متعمقة عن الإتجاهات والقيم والدوافع الاجتماعية. ويحتاج هذا النوع من المقابلات إلى مهرة عالية من الباحثين المدربين وخبرة في مجال البحث، وعلى الرغم مما تتسم به من حرية وتلقائية في إجراء المقابلة، إلا أنها يعاب عليها صعوبة تحليل نتائج هذه المقابلات بشكل كمي هذا من ناحية، وطول الوقت الذي تستغرقه من ناحية أخرى.

٣- المقابلة البؤرية: Focused Interview

يرى كثير من الباحثين أن الهدف الاساسى من المقابلة البؤرية وهو تركيز الإهتمام على خبره معينة صادفها المبحوث و الآثار المترتبة على هذه الخبرة وتفيد هذه المقابلة فى فى البحوث الإستطلاعية ويقترح " روبرت ميرتون R.Merton " بعض الخطوات التى يمكن أن يسترشد بها الباحث فى إستخدام هذا النوع من المقابلات، وأهم هذه الخطوات(١):

أ- تحديد الاشخاص الذين سسوف تجرى عليهم المقابلة، والذين يشترط ممارستهم لخبرة معينة، تتصل بالمشكلة موضوع البحث.

ب- ضرورة إعداد الباحث " دليلاً للمقابلة " ليكون موجهاً للباحث للموضوعات التى ينبغى مناقشتها أو الإستفسار عنها اثناء موقف المقابلة. ومن الضرورى أن تدور المناقشة حول الموضوعات التى حددها الباحث فى " الدليل ". وجدير بالإشارة إلى أن " دليل المقابلة " ينبغي أن يتسم بالمرونة فيما يتصل باسلوب الاسئلة وترتيبها وطريقة إلقائها على المبحوثين.

جـ- ينبغى على الباحث أن يكون ملماً بموضوع البحث، وأن يقوم بتحليل أبعاد الموضوع تحليلاً مبدئياً بهدف التعرف على عناصره الاساسية.

ء- ضرورة التركيز اثناء المقابلة على الخبرات الذاتية للأفراد الذين تعرضوا للموقف (وضوع المشكلة). وهذا يعنى أن القائم بالمقابلة ينبغى عليه أن يتأكد من أن المبحوثين قد أشتركوا فى موقف معين كرؤية فلم سينمائى، أو سماع برنامج إذاعى معين، أو قراءة كتاب يدور حول موضوع محدد..... إلخ.

٤- المقابلة غير الموجهة: Non-Directive-Interview

يشيع إستخدام هذا النوع من المقابلات في المقابلات العلاجية Clinical Interview، وهذا النوع من المقابلات يختلف عن المقابلات البؤرية، فاذا كان هذا النوع الأخير يركز على خبرة محددة مر بها المبحوث، فالمقابلات غير الموجهة تهتم بكافة الخبرات التى مر بها المبحوث، فهى تدور حول جوانب الشخصية بأكملها لمحاولة الوقوف على المشكلات الخاصة بسوء التوفق أو التكيف الإنفعالي والاجتماعى، وغالباً ما تجمع هذه المقابلات بين أهداف التشخيص والعلاج. ويمتاز هذا النوع من المقابلات بالمرونة التامة التى تسمح للمبحوث التعبير بتلقائية وللباحث فرصة افضل للحصول على معلومات تتعلق بالمبحوث والبيئة الاجتماعية المحيطة به.

---

(١) جمال زكى والسيد يس. أسس البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص٢١٦.

ويقوم الباحث في المقابلات غير الموجهة بتحديد فئات الأسئلة فقط قبل إجراء المقابلة، ويمكن له أثناء المقابلة أن يعدل الاسئلة، ويبدلها، ويغيرها، ويضيف إليها، أو يحذف بعضها حسب ما يتطلبه موقف المقابلة وظروف المبحوثين وأوضاعهم الثقافية والاجتماعية. وعلى الرغم من أن هذا النوع من المقابلات يفيد في إثراء البحث بالمعلومات، إلا أنه يصعب مقارنة المعلومات التى يدلى بها المبحوث مع بعضهما البعض مما يجعل إمكانية الوصول إلى تعميمات أمراً صعباً.

وبصفة عامة، أن التصنيفات السابقة لأنواع المقابلة ليست تصنيفات، مانعة جامعة، ولكن بينها تداخل وتشابك كبير،فعلى سبيل المثال لا يمكن فصل المقابلة التشخيصية عن المقابلة العلاجية أو الإكلينيكية، وتداخل هذين النوعين مع المقابلة غير الموجهة:..... وهكذا.

رابعاً: كيفية إجراء المقابلة.

لاجدال في أن المقابلة كأحد الأدوات الأساسية في البحث العلمي الاجتماعي تحتاج لمجموعة من الإجراءات المنهجية والميدانية لضمان نجاحها وتحقيق الهدف من إستخدامها. ويمكن تحديد هذه المتطلبات المنهجية في مطلبين أساسيين ومرتبطين فيما بينهما، الاول: هو الإعداد للمقابلة، وما تتضمنه عملية الإعداد من نواح مختلفة، والثاني: هو القيام بعملية المقابلة ذاتها أو ما يعرف بإجراء المقابلة Intrviewing.

(أ) الإعداد للمقابلة:

تشمل عملية الإعداد للمقابلة عدة امور أهمها:

١- تحديد موضوع المقابلة والهدف منها:

يعد تحديد موضوع المقابلة والهدف منها أولى خطوات الإعداد للمقابلة، وفي ضوء الموضوع والهدف يستطيع القائم بالمقابلة، تحديد نوعية المقابلة ذاتها التي سوف يستخدمها في البحث، وأيضاً تحديد التقنين والتوجيه.

٢- تحديد المواقف التي سوف تستخدم المقابلة من أجلها:

ولاشك أن هذه المواقف تحدد وفقاً لمشكلة البحث والهدف منه، ونوعه، والفروض التي يسعى الباحث لإختبارها إذا كان البحث من النوع الذى يختبر فروضا[1].

---

(١) عبد الباسط عبد المعطي، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص٣٥٥.

٣- تحديد " عينة البحث ":

وهم الأفراد الذين سوف يجرى معهم الباحث المقابلات، وفى البحوث الاجتماعية لابد أن تخضع عملية إختيار العينة للشروط المنهجية المتعارف عليها في تحديد حجم العينة وأسلوب سحبها، ومدى تمثيلها للمجتمع الاصلى....إلخ. وينبغى أيضاً أن يقوم الباحث بتحديد أفضل الأماكن لأجراء المقابلات وأنسب الأوقات التى تتلائم وظروف المبحوثين.

٤- صياغة أسئلة المقابلة: **Questions Formulation**

تتطلب المقابلة إعداد ما يعرف " بدليل المقابلة "، وهذا الدليل يضم مجموعة من الأسئلة يختلف درجة ترتيبها وتقنينها باختلاف نوع المقابلة. وهناك اسلوبان في صياغة اسئلة المقابلة، الاسلوب الاول هو إستخدام الاسئلة المفتوحة أو الأسئلة المغلقة النهايات، والاسلوب الثانى هو إستخدام الاسئلة المباشرة والأسئلة غير المباشرة.

فالاسئلة المفتوحة Opeen-Ended Questions هى الأسئلة غير محددة النهايات، والتى يترك فيها المبحوث التحدث كيفما يشاء دون تقيد بإجابات معينة، ودور الباحث فى هذا النوع من الاسئلة يقتصر فقط على توجيه المقابلة توجيها عاماً وفقاً لهذه الاسئلة، ويقوم بتسجيل إستجابات المبحوث على هذه الاسئلة ويفيد هذا النوع من الاسئلة في المقابلات الحرة أو غير الموجهة.

أما الاسئلة المغلقة النهايات Closed-Ended Questions والتى يطلب فيها من المبحوث أن تكون إستجاباته ملائمة لتصنيف الموضوع مسبقاً للإستجابات المحتملة. ويفيد هذا النوع من الاسئلة فى البحوث التى تهتم بالتحليل الإحصائى والكمى أساساً وتظهر بوضوح فى المقابلات المقننة[1].وغالباً ما تستخدم الاسئلة المفتوحة فى البحوث الكشفية أو الإستطلاعية.

وينبغى على الباحث أن يراعى بعض الإعتبارات عند صياغته لسئلة المقابلة أهمها " لغة الاسئلة " التى يجب أن تتناسب مع المستوى الثقافى والاجتماعى للمبحوث، هذا فضلاً عن تجنب الاسئلة المركبة أو التى تحمل أكثر من معنى، وتجنب الاسئلة التى تثير إحراج أو حساسية المبحوث، ويجب أيضاً إستبعاد الأسئلة الإيحائية التى توجه المبحوث إلى إجابة يرغب الباحث فيها، هذا فضلا عن تنظيم الاسئلة وتتابعها.

٥- إختيار القائمين بالمقابلة وتدريبهم:

تعتبر هذا الخطوة من أهم خطوات الإعداد للمقابلة، فإجراء المقابلة

---

(١) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى، مرجع سابق، ص٤٦٩.

عمل فني من الدرجة الأولى ونجاحها يتوقف إلى حد كبير على سلوك ومهارة القائم بها وقدرته على التفاعل مع المبحوثين والحصول على المعلومات التي يحتاجها. ومن ثم ينبغي إنتقاء الباحثين الذين سوف يقومون بإجراء المقابلات بدقة في ضوء سماتهم الشخصية وخبراتهم، ومدى إلمامهم بموضوع البحث. هذا فضلاً عن ضرورة إعداد برنامج لتدريبهم على عملية إجراء المقابلة وفقاً لخصائص وطبيعة " عينة البحث " ويؤكد " نادل " Nadel و " كلاكهون " Kluckhohon على ضرورة إخضاع القائمين بالمقابلة للتدريب على موضوعات مثل " البحث الحقلي وإجراءته " وطرق تطبيق المقابلة، والملاحظة من خلال خبرة الآخرين، وأساليب تسجيل المعلومات، ومبادئ العلاقات العامة Public Relations [1].

(ب) إجراء المقابلة Interviewing Technique.

لاشك أن عملية إجراء المقابلة هي عملية مكملة لعملية الإعداد لها، فليس هناك إنفصال بين العمليتين، فعلى سبيل المثال قد يلجأ القائم بالمقابلة بصياغة بعض الأسئلة التي تتطلبها مواقف المقابلة أو تعديل بعضها أو حذف بعضها الأخر أثناء عملية إجراء المقابلة. وبصفة عامة،هناك بعض المتطلبات أو الإعتبارات الهامة التي ينبغي على الباحث مراعتها لنجاح المقابلة أهمها:

١ - بدء المقابلة:

يتوقف جانب كبير من نجاح المقابلة على عملية بدء المقابلة، فينبغي على القائم بالمقابلة أن يبدئها بمقدمة مبسطة حول موضوع المقابلة، وأهميتها، ولماذا أختير هذا المبحوث، هذا فضلاً عن تعريف المبحوث بالقائمين بالبحث سواء كانوا أفراداً أو هيئة علمية أو أكاديمية، والتأكيد له على سرية المعلومات أو البيانات التي سوف يدلي بها، وأن هذه البيانات هي فقط لأغراض البحث العلمي. وتنصح " مارجريت ستاسي " القائم بالمقابلة ان يبدأها بتساؤل أساسي " أتستطيع مساعدتي ؟ "[2].فمثل هذا السؤال سوف يضفي على جو المقابلة نوع من الود بين القائم بالمقابلة والمبحوث.

٢ - تهيئة جو المقابلة:

تؤكد كافة المشتغلين بالبحث الاجتماعي على أهمية تهيئة الجو المناسب للمقابلة، والذي يتمثل في إختيار الزمان والمكان المناسبين للمقابلة، وطالما أن المقابلة هي عملية تفاعل وإتصال أو أخذ وعطاء وإفضاء بمعلومات دقيقة، وطالما أن المبحوث

---

(١) محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي. مرجع سابق، ص٤٧١.

(٢) عبد الباسط عبد المعطي، البحث الاجتماعي، مرجع سابق. ص٣٥٧.

يتأثر في إستجاباته بكافة عناصر موقف المقابلة مثل البعد عن الضوضاء، وعن مضايقات المقطاعات الشخصية والهاتفية، وعن الاماكن الرسمية، وعن الأماكن التي لاتسمح التقاليد بالإجتماع فيها. كما ينبغي على الباحث أن يختار وقت المقابلة بشكل يتناسب وظروف المبحوث بعيداً عن أوقات العمل، والإلتزامات المنزلية، وظروفه الصحية والنفسية، وسنه ونوعه (ذكر أم أنثى)، فهناك بعض المجتمعات التي تفرض قيوداً بالنسبة للوقت أو الاماكن التي تتواجد فيها الإناث خارج المنزل. ومن ثم لا يجوز مقابلة المبحوث أثناء عمله، إلا إذا كانت المقابلة تتعلق بهذا العمل وصاحب العمل أو الهيئة المشرفة عليه تسمح بمثل هذه المقابلات في مكان العمل، كما لا يجوز مقابلة زوجة في حالة غياب زوجها من قبل باحث، إذا كانت تقاليد المجتمع لا تسمح بذلك، وفي هذه الحالة يمكن الإستعانة بباحثه بدلاً من الباحث، كما لا يجوز أن تكون مدة المقابلة طويلة بدرجة لا يتحملها المبحوث نظراً لسوء صحته، أو إضطرابه النفسي، وأو كبر سنه، أو لكثرة مشغولياته، كما لا يجوز تحديد موعد لمقابلة فتاة أو سيدة في وقت أو مكان لا يتفق مع تقاليد المجتمع وقيمه.

ويعد تهيئة الجو النفسي والاجتماعي من العوامل الاساسية لنجاح المقابلة، فالحفاظ على بناء علاقة ودية طيبة بين القائم بالمقابلة والمبحوث، يشجع الاخير على الإستجابة وتدفعه إلى التفكير فيما يقول إلى الإفصاح عما لديه من معلومات حول موضوع المقابلة، وتبعث لديه إحترام الذات والثقة بالنفس والشعور بالطمأنينة وتبعد عنه مشاعر الخوف والخجل والتردد[1]. وينبغي على القائم بالمقابلة أن يظهر للمبحوث المشاعر الطيبة والصداقة المخلصة، والتفهم لمشاكله والإهتمام بها، وأن ينصت ويهتم بكل ما يقوله ويتجاوب معه ويشاركه وجدانياً، وان يكون منتبهاً لكل ما يظهر على المبحوث من تغيرات جسمية وإنفعالية مثل إحمرار الوجه أو تغير نبرة الصوت، أو مظاهر القلق والتصرف نحوها بما يفيد في إستمرارية المقابلة ونجاحها.

كما يجب على القائم بالمقابلة أن يتجنب كل ما يسبب إحراج المبحوث أو يؤدى إلى قلقه وتوتره النفسي، وأن يتجنب مقاطعته أثناء الحديث إلا بالتوجيه الخفيف، وأن يتجنب إتهامه بأنه يخفي حقائق معينة إلا في حالات معينة قد يفيد الإتهام فيها، وأن يتجنب الخصومة مع المبحوث، وأن يتجنب إصدار أحكام أخلاقية على من يقابله وعلى إجاباته، وأن يتجنب التقيد الزائد بالشكليات من حيث الجلوس، وطريقة الحديث.

---

(١) عمر الشيباني. مناهج البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص٣٢٨.

٣- توجيه الاسئلة في المقابلة:

يعد توجيه الاسئلة في المقابلة من العمليات الأساسية التي يتوقف عليها نجاح المقابلة، وهناك بعض الإعتبارات التي ينبغي على القائم بالمقابلة أن يأخذها في إعتباره عند توجيه الأسئلة للمبحوثين أهمها:

أ- ينبغي على الباحث أن لا يبدأ بتوجيه اسئلة منصبة على موضوع المقابلة مباشرة، فقد يثير هذا الموضوع بعض مخاوف وقلق المبحوث.

ب- يفضل التدرج في الأسئلة، بحيث يبدأ القائم بالمقابلة بالاسئلة التي تثير إهتمام المبحوث، ثم الاسئلة المتخصصة ذات الصلة بموضوع البحث، وأخيراً الاسئلة الأكثر تخصصاً.

جـ- ينبغي أن يكون التدرج في الاسئلة متوافقاً مع التدرج الذي ينشأ في العلاقة الودية بين الباحث والمبحوث.

ء- ينبغي على القائم بالمقابلة أن يوجه أسئلة المقابلة برفق متجنباً أسلوب التحقيق.

هـ- يجب أن يمنح القائم بالمقابلة المبحوث الفرصة كاملة في الإجابة بالشكل الذي يرغب فيه، فلا يجب أن ينبهه في أن يزيد من سرعته في الإجابة أو يأني في إجابته.

و- لا ينبغي توجيه أكثر من سؤال في وقت واحد، حتى يستطيع المبحوث أن ينظم أفكاره بالنسبة لكل سؤال.

ز- في حالة المقابلة الغير مقننة ينبغي توجيه الاسئلة بالإسلوب الذي يفهمه المبحوث، أما في حالة المقابلة المقننة ينبغي توجيه الاسئلة بنفس الإسلوب وبنفس الترتيب لجميع المبحوثين.

جـ- يجب أن يظل القائم بالمقابلة ممسكاً بزمام المناقشة بحيث يوجهها إلى الناحية التي تحقق اهداف البحث، دون أن يترك الأمر للمبحوث يوجهه كيفما يشاء[1].

٤- تسجيل المقابلة:

إختلف بعض المشتغلين بالبحث الاجتماعي حول أفضل إسلوب لتسجيل إجابات المبحوثين. فهل يتم التسجيل بشكل فوري ومباشر لكل ما يدلي به المبحوث من معلومات أم إختزال ما يدلي به المبحوث من بيانات في رموز معينة أو جمل قصيرة لحين الإنتهاء من المقابلة؟ أم ترك عملية التسجيل إلى ما بعد الإنتهاء من المقابلة؟.

---

(١) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص٤٦٧.

عموما يؤكد الباحثين علي ضرورة تسجيل بيانات المقابلة بشكل واضح ومباشر في حينها بعد كل سؤال، من الأخذ في الإعتبار الدقة والموضوعية ورفض الإجابات المبهجة أو الناقصة، كى لا يقع الباحث فى خطأ النسيان أو التحيز. بينما يؤكد آخرون على عدم تسجيل بيانات المبحوثين أثناء المقابلة لأن عملية التسجيل من شأنها أن تثير مخاوف المبحوثين وتدفعهم إلى الإفتعال والتكليف، وتمنعهم من الإنطلاق التلقائى فى الإجابة فلا يعبرون تعبيراً صادقاً عن آرائهم، ومن ثم ينبغى فقط تسجيل البيانات الأولية (كالأسم والسن، والحالة الاجتماعية، والتعليمية، والوظيفية، والعنوان.... إلخ) ثم يتم التسجيل بيانات المبحوث بعد إنتهاء المقابلة.

وينصح الدكتور عبد الباسط محمد حسن، بعدم تأجيل تدوين إجابات المبحوثين إلى ما بعد المقابلة، فقد أظهرت البحوث الميدانية المختلفة أن معظم الإعتراضات على تسجيل بيانات المقابلة فى حينها لا أساس لها من الصحة، فالخوف والتكلف وعدم الإنطلاق من قبل المبحوثين، كلها أمور يمكن التغلب عليها فى بداية المقابلة بتهيئة جو المقابلة وخلق الظروف الملائمة لها هذا فضلاً عن أن تسجيل إجابات المبحوثين يشعرهم بجدية الموقف مما يجعلهم يهتمون بالإجابة والتدقيق منها[١]. وهذا الشعور يبعث فى نفس المبحوث الرضى ويدفعه لمزيد من التعاون.

وهناك فريق من الباحثين يفضل إستخدام آلات التسجيل فى تسجيل المقابلة، كما لهذه الطريقة من مميزات تتمثل فى توفير الجهد والوقت والدقة أثناء المقابلة هذا فضلاً عن إمكان الرجوع إليها فى أى وقت، إلا أن هذه الطريقة يؤخذ عليها أنها قد تثير شكوك المبحوث وتخوفه من تسجيل حديثه، كما أن الاستجابات المسجلة آلياً صعبة التفريغ وتستغرق وقتاً طويلا فى هذه العملية. وبصفة عامة، إذا فضل الباحث أجهزة التسجيل الآلية، فعليه ألا يخفي هذه الأجهزة عن المبحوث بحجه عدم إثارة مخاوفه وأن يجعله يتصرف تلقائياً، فإذا قام الباحث بذلك فهو يخالف المسئولية الأخلاقية تجاه مبحوثيه، وقد يؤدى هذا التصرف إلى عواقب وخيمة بالنسبة للبحث إذا عرف المبحوثون ذلك، ومن ثم فلا بد من إخبار المبحوث بتسجيل المقابلة مسبقاً وأخذ موافقته صراحة على ذلك.

---

(١)المرجع السابق، ص٤٧.

٥- إنهاء المقابلة:

يرى كثير من الباحثين أن عملية إنهاء المقابلة أصعب بكثير من البدء فيها، فمن الضروري كما يشير " جود وهات " Good & Hatt إنهاء المقابلة في جو من الود واللباقة من قبل الباحث، نظراً لحاجته إلى العودة مرة أخرى لإستيفاء أو إستيضاح بعض المعلومات من المبحوث ويفضل أن يحول الباحث نهاية المقابلة إلى مناقشة عامة بين صديقين، فقد يساعده ذلك على إنهاء المقابلة بصورة أفضل(١).

خامساً: ثبات وصدق المقابلة:

المقصود بصدق المقابلة، أن هذه الأداة وما تشمل عليه من اسئلة "صادقة " في قياس ما يراد قياسه في الواقع، بمعنى إذا إستعملت مرة ثانية على الأفراد أنفسهم وفي نفس ظروف وشروط المرة الأولى سوف تعطى نفس النتائج السابقة. ومن ثم فالصدق المدقصود هنا هو صدق الأداة " المقابلة" في قياس ما صممت لقياسه.

أما ثبات المقابلة، فالمقصود به ثبات المبحوث فيما يدلى به من معلومات بعد إعادة مقابلته.مرة ثانية بعد فترة محددة. جدير بالذكر أن صدق المقابلة وثباتها يتاثران بعوامل عديدة كوضوع المقابلة، واسلوبها، والظروف التى أجريت فيها. ويستطيع الباحث أن يتاكد من ثبات وصدق المقابلة من خلال عدة إجراءات أهمها:

١- صياغة بعض الأسئلة تعرف باسم " اسئلة المراجعة "، وهى تكرار بعض الاسئلة بصياغة جديدة، والهدف الأساسى من هذه الأسئلة هو إختبار صحة أسئلة أخرى. ويفضل أن لا تأتى هذه الأسئلة متسلسلة مع الأسئلة الأصلية، بل تتوزع داخل اسئلة موضوعات أخرى، ثم يقارن الباحث بين إجابة المبحوث على الأسئلة الاصلية وأسئلة المراجعة للتأكد من صدق المبحوث وثباته فى إجاباته. ومن الأمثلة على " أسئلة المراجعة " المقارن بين ما يصرح به المبحوث من إجمالى دخله الشهرى، ومجموع بنود إنفاق الشهرى.

٢- عقد مقارنة بين إجابات المبحوث اللفظية، وبين الأدلة الموضوعية المتصلة بهذه الإجابات، كالمقارنة بين دخل المبحوث ومستويات إنفاقه، أو ممتلكاته(٢).

٣- عقد مقارنات بين بيانات المقابلة وبيانات أخرى يمكن التنبؤ بوجود إرتباط بينها سواء كانت هذه البيانات نظرية تدعمها نظريات منطقية معينة، أو عملية

---

(١) عبد الباسط عبد المعطي، البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص٣٦٠.

(٢) نجيب إسكندر وأخرون، الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعي، مرجع سابق، ص٣٨٦.

مستقاة من نتائج بحوث ميدانية سابقة.

سادساً: تقييم المقابلة:

لاجدال في أن المقابلة كأداة اساسية من أدوات البحث الاجتماعى تعد من أكثر الوسائل شيوعاً لما تمتاز به من خصائص تفتقدها بعض الوسائل الأخرى، ولكن هذا لايعنى أنها خالية من بعض العيوب، فلكل أداة من أدوات البحث حدودها فى البحث الاجتماعى.. وبصفة عامة يمكن الإشارة إلى أهم مزايا المقابلة وعيوبها على النحو التالى:

أ- مزيا المقابلة:

١- تتميز المقابلة بالمرونة، حيث تتيح للباحث فرصة الاجتماع مع المبحوث. وجهاً لوجه، فيستطيع القائم بالمقابلة أن يشرح له معانى بعض الكلمات أو العبارات(١).

٢- تفيد المقابلة في دراسته المجتمعات المحلية التى تزداد فيها معدلات الأمية، فهى تتلائم مع المجتمعات المحلية خاصة الريفية فى المجتمعات النامية.

٣- تتيح المقابلة للباحث فرصة التعرف على جوانب مختلفة من شخصية وحياة المبحوث، وتعفى القائم بالمقابلة من طرح بعض الاسئلة التى قد تثير حرج أو حساسية المبحوث لأمور يمكن ملاحظتها بسهولة كالحالة السكنية (بناء المسكن، نظافته، أساسية، موقفه، حجمه) أو المستوى المعيشي للمبحوث.

٤- تفيد المقابلة في مناقشة بعض الأمور التي قد تثير إنفعال أو عواطف المبحوث، كالتوافق الزواجى، أو المشاكل الزواجية، ومثل هذه الموضوعات لا يستطيع الباحث بحثها بوسائل أخرى.

٥- يستطيع الباحث القائم بالمقابلة أن يتأكد من صحة البيانات التى يدلي بها المبحوث، خاصة البيانات التى قد يبالغ فيها المبحوث كمستوى الدخل والتعليم ومستوى المعيشة، فيمكن للباحث المقارنة بين ما يدلى به المبحوث من بيانات وبين الواقع الذى يلاحظه.

٦- فى المقابلة يجيب المبحوث عن الأسئلة دون أن يتأثر بغيره من الأفراد كما يحدث عادة فى الإستبيان، كذلك توجه الاسئلة بالترتيب والتسلسل الذى يرغب فيه القائم بالمقابلة ولا يُطلع المبحوث على باقى الاسئلة التى قد تؤثر على إجابته.

٧- يستطيع القاعم بالمقابلة أن يحصل على إجابات عن جميع الأسئلة التى يطرحها على المبحوث، بينما نجد أن نسبة كبيرة من " إستمارات الإستبيان "

---

(١) عبد الباسط حسن، أصول البحث الاجتماعى، مرجع سابق،ص٤٤٩.

لايجيب المبحوثين عليها بسبب عدم وضوحها أو فهمها أو نسيانها.

٨- تمكن المقابلة القائم بها الحصول على بيانات من جميع المبحوثين، فتعطى تمثيلاً أكبر وأدق للمجتمع.

٩- تتيح المقابلة الفرصة للقائم بها مقابلة المبحوث، أكثر من مرة إذا تطلب الامر ذلك لتوضيح بعض البيانات أو إستكملها.

١٠- تفيد المقابلة في الحصول على بيانات حدثت في الماضى، أو التعرف على اشياء يمكن التنبؤ بها في المتسقبل، وهذه الميزة تفتقدها وسائل أخرى.

ب- عيوب المقابلة:

على الرغم من المميزات السابقة، إلا إنها لا تخلو من بعض العيوب أهمها:

١- تتطلب المقابلة الكثير من النفقات والجهد والوقت، فهى تحتاج إلى عدد كبير من القائمين بالمقابلة وتدريبهم على إجرائها، خاصة اذا كانت من المقابلات المسحية التى نفترض فيها أن تغطى عدداً كبيراً من الأفراد. ويحتاج القائمون بالمقابلات إلى نفقات كبيرة للإنتقال، كما تحتاج المقابلة إلى فترة زمنية طويلة للإنتهاء منها.

٢- تعتمد المقابلة إعتماداً كلياً على التقرير اللفظى الذى يدلي به المبحوث، وقد يكون هذا التقرير صادقاً أو غير صادق، وقد يؤخذ على علاته وقد يحاول الباحث التأكد من صدق هذا التقرير ولكن هناك بعض الاسئلة التى يصعب التاكد من صدق الإجابة عليها خاصة إذا كانت هذه الاسئلة من النوع المحرج، أو تتصل بأمور خاصة يحرص المبحوث على عدم معرفة الناس موقفه منها. وتزداد صعوبة المقابلة فى المناطق الريفية التى يتشكك سكانها فى حقيقة القائم بالمقابلة، وتتضح الصعوبة أكثر فى الإجابة على أسئلة الدخل فرتباطها بالضرائب.

٣- أن إحتمالات الصدق والثبات في المقابلة اقل من الأدوات الأخرى خاصة إذا تعدد القائمين بها ولم يتدربوا تدريبا خاصا على المواقف التى سيواجهون بها. كذلك الحال إذا كان دليل المقابلة غير معد إعداداً دقيقاً[1].

٤- قد تقع المقابلة فى خطأ التحيز من قبل القائم بالمقابلة نظراً لموقفه الأيديولوجى أو إنتمائه الطبقى وقيمه وأخلاقياته المهنية[2].

٥- أن تعدد القائمين بالمقابلة يجعلها أكثر عرضه لخطاء التحيز نظراً لتعدد الأدوار الاجتماعية والمستويات الثقافية لهؤلاء الباحثين وقدراتهم الذاتية على فهم

---

(١) جمال ذكي والسيد يس، اسس البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص٢١٢.

(٢) عبد الباسط عبد المعطى، البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص٣٦١.

الواقع والحكم على الاشياء. وتنعكس هذه الفروق بلا شك فى تفسير المظاهر الإنفعالية والتعبيرية والسلوكية التى يبديها المبحوثون اثناء المقابلة مما يؤثر على صحة النتائج والوصول إلى تعميمات دقيقة.

٦- تحتاج المقابلة إلي خبرة، ومهارة، ودقة، وجهد كبير فى تحليل بياناتها، فالمقابلة تتطلب من القائم بها أن يصف ويحلل ويفسر بدقة وقائع سلوك المبحوثين من خلال البيانات التى حصل عليها.

٧- بما أن المقابلة تعتمد علي ذاكرة المبحوث في الإجابة علي الاسئلة التى تتطلب معلومات دقيقة ماضية فمن الممكن أن يقع المبحوث فى خطأ التحيز الناجم عن ضعف الذاكرة.

علي أية حال، أن هذه العيوب لا تقلل كثيراً من مكانة المقابلة وأهميتها بين وسائل جمع البيانات، كما تمتاز به من خصائص لا تتوافر لدى بعض الوسائل الأخرى كالملاحظة أو الإستبيان. ولكن لكي تحقق المقابلة الهدف العلمي الموضوعي لابد من التأكد علي أهمية الإعداد لها إعداداً جيداً، وإنتقاء القائمين عليها وتدريبهم على الإجراءات الميدانية تدريبا كافيا.

فهرس

الفصل الرابع

المنهج التاريخي

الفصل الخامس

المنهج التجريبي

الفصل السادس

المسح الاجتماعي

الفصل السابع
دراسة الحالة

الفصل الثامن
تحليل المضمون

الفصل التاسع
القياس الاجتماعي (السوسيومتري)

الفصل العاشر
استمارة البحث

الفصل الحادي عشر
الملاحظة

الفصل الثاني عشر
المقابلة